مواجهة الغزو الثقافي 4

# التمهيد الثقافي الايطالي للغزو العسكري لليبيا

## 1882 - 1911



اسماعيل مولود القروي

منشورات المجلس القومي للثقافة العربية

# التمهيد الثقافى الايطالى للغزو العسكرى لليبيا

## 1882 ـ 1911

اسماعيل مولود القروي

الطبعة الأولى
1993 م


المجلس القومي للثقافة العربية
4 مكرر شارع فرنسا ـ أكدال
الرباط ـ المملكة المغربية
هاتف: 77052 77059 77065 78631
فاكس: 74139 ـ تلكس: 32656

# تمهيد

# تمهيد

اتصف التاريخ الاستعماري بصفات عديدة من أهمها الامتداد الزمني الطويل والانتشار في المكان. وتاريخه الزمني يطوي خمسة قرون تقريبا وتمتد رقعته الى مختلف بقاع الكرة الارضية، ودون استثناء تقريبا، وقد حمل هذا المسلك الاستعماري الممتد بعيدا عبر الزمان والمكان الكثير من الكوارث الى البشرية كلها، وانتهى بافناء شعوب ومسح حضارات من الوجود واحلال شعوب مكان شعوب اخرى وصرف المسيرة الطبيعية للتطور عن مسارها الطبيعي، وبينما تعد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فترة «تصفية الاستعمار» بمعناه العسكري الاحتلالي فانه قد لبس في ايامنا هذه لبوسا آخر واتخذ مظاهر جديدة هي مظاهر ما نسميه بالاستعمار الحديث، الا ان حقيقة الاستعمار في معناه المجرد لم تتغير صوره وأساليبه، فأهم صوره الحاضرة هي صور «الاستعمار الجديد» وتعد الولايات المتحدة الامريكية في العصر الحاضر ـ الدولة التي تقف على رأس الدول الرأسمالية الاستعمارية، كما ان الاستعمار العسكري الذي انحسر عن مختلف بقاع العالم قد خلف وراءه مجموعة من البؤر، وخاصة في فلسطين، وجنوب افريقيا، تلك البؤر التي اذا اتسمت بصغر المساحة التي تحتلها فانها تتسم أيضا بشراستها وفظاعتها وبالاهداف العنصرية الوحشية التي تسعى الى تحقيقها وهو ما يفرض علينا أن نلقي نظرة على تاريخ الاستعمار من اجل التفهم الاعمق والاشمل لحاضره، وبالتالي التمكن من التصدي له وتحقيق الانتصار عليه.

واذا كان موضوعنا يتناول المسلك الاستعماري لواحدة من الدول الاوربية (ايطاليا) وخلال مرحلة زمنية محددة بين القرنين الماضي والحاضر ويغطي مساحة محددة من الاراضي المستعمرة وهي رقعة بلادنا الليبية فانه من المفيد القاء نظرة على طبيعة المسلك الاستعماري ككل في المرحلة الحديثة من تاريخه والموازنة بينها وبين المراحل السابقة، كل ذلك لادراك الدوافع والمحركات التي كانت توجه السياسة الاستعمارية والتي انتهت ـ في ما انتهت اليه ـ الى كتابة الصفحة قبل الحالية من تاريخنا، تلك الصفحة التي اصطبغت بالدم والعنف وخطت اسطرها كتائب مجاهدينا وهي تتصدى لمختلف انماط الجيوش الاستعمارية الحديثة المدججة بالاسلحة

الفتاكة والمعززة بمختلف ضروب لتسليح الايديولوجي الاستعماري العنصري الذي انتهى بالانتصار ولكن بعد ان الحق بنا الكثير من الويلات ومثل فترة انعطافية هامة في تاريخنا الحديث.

ان تقصي التاريخ الاستعماري (او تاريخ الاستعمار ككل) يفضي بنا الى تقسيم عام ينتظم مراحل ثلاث هي: الاستعمار القديم. الاستعمار الحديث، الاستعمار الجديد. واذا كانت المرحلة التي نحن بصددها تقتصر على المرحلة الحديثة من الاستعمار فان التعرف المتعمق عليها يقتضي اجراء مقارنة سريعة بينها وبين المرحلة القديمة السابقة لاكتشاف السمات المميزة لكل منها.

على ان المرحلة القديمة التي نقصدها هنا، هي ما بدأ بالكشوف الجغرافية أي منذ القرن الخامس عشر وهو ما افتتحته الكشوف الجغرافية والانقلاب التجاري وانتقال المركز الحضاري الذي كان دوما في المشرق الى اوربا التي سوف تتحكم فترة طويلة بعد ذلك بسياسة العالم.

وعلى اية حال فلا تدخل في هذه الدراسة مرحلة الحروب القديمة المتنوعة والطويلة الامد والتي كان من موجاتها الاخيرة هجمة المغول والصليبيين، والتي انتهت بالنسبة للبلاد العربية الى الاختفاء ـ لاول مرة في التاريخ ـ تحت ضربات الغزو التركي ومهما يكن من أمر فان الدولة العربية في المشرق والمغرب كانت قد انتهت الى مجموعة من الايالات التابعة للمركز التركي وكفت عن لعب دورها الفعال المعروف في التاريخ السياسي، بينما كانت تيارات كثيرة تفعل فعلها في كتابة التاريخ الانساني.

وقد ادت الكشوف الجغرافية الى انقلاب هام في التاريخ البشري فهي التي اخرجت أوربا عن حدودها المعروفة لتضرب بعد ذلك في أرجاء العالم وهي التي ضاعفت من حدود التعرف على العالم ووسعت مجالات المعارف الانسانية، اما من ناحية النشاط الاستعماري فقد كانت البرتغال اول الدول التي خرجت الى المسرح العالمي منذ نهاية القرن الخامس عشر واتجهت انظارها الى انتزاع تجارة الشرق الثمينة واستيقظت من جديد الرغبة الصليبية في تطويق البلاد الاسلامية، وأخذت السفن تتجه نحو الهند وتظهر المستعمرات في مختلف الاماكن وخاصة السواحل من أجل حماية طريق الهند والمحافظة عليه ثم اندفعت البرتغال نحو العالم الجديد وأخذت تجارة الرقيق على اثر ذلك صبغة رسمية وحذت اسبانيا حذو البرتغال بعد ذلك وراحت اساطيلها تضرب في المحيطات العالمية ثم امتدت اياديها الى العالم الجديد وزاحمت البرتغال بصفة شبه كلية، ونزلت هولندا الى الساح الاستعماري لتحل ايضا محل البرتغال تسلبها مستعمراتها، ثم بدأت هولندا تنسحب تدريجيا امام القوتين الاستعماريتين الاكبر فيما بعد وهما قوة الاستعمار الفرنسي والاستعمار الانجليزي.

فقد انتهت فرنسا الى توحيد نفسها حول المركز باريس، وقد ساعدتها هذه الوحدة السياسية مضافة الى كبر المساحة من الناحية النسبية والغنى بالموارد الطبيعية الى بناء قوة بحرية كبرى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر بدأت تزاحم بها القوة الهولندية والاسبانية أيضا. وفي اواخر القرن الثامن عشر وصلت السيادة والقوة الفرنسيتان اوجهما وتجسد ذلك في حروب نابليون التي انتهت الى ان خبا الألق الفرنسي تاركا الامجاد لبريطانيا.

فقد افادت انجلترا من عزلتها فسارعت الى تحقيق وحدتها وايجاد المركز الا انها لم تنزل الى ساحة الاستعمار سريعا فقد كانت تحاول دوما تغذية الصراع بين الدول من أجل أن ترثها فيما بعد، وامتدت أيادي الاستعمار البريطاني الى مختلف أنحاء العالم. أما روسيا القيصرية فاتجهت الى الشرق والى الغرب حتى حققت في منتصف القرن التاسع عشر امبراطورية لم يعرف لها التاريخ مثيلا في المساحة.

ومهما يكن من امر فليس موضوعنا هو تلك الفترة الطويلة من التاريخ ولا كيف تم ذلك كله، فكل ما يهمنا هو أنه اتخذ صورا مختلفة انتهت الى نتائج عديدة أهمها خروج أوربا من جزيرتها لتحاصر القوى الحضارية التي كانت تمسك بأعنة الحضارة في الماضي، وأن ذلك لم يحدث الا بعد أن وحدت تلك الدول المستعمرة انفسها وقضت على تمزقها الطائفي وحزازاتها الاقليمية وحروبها الداخلية مما مهد لها إمكانية القوة والسيطرة فالقوة الفاعلة في الخارج كانت وليدة القوة التي تشكلت في الداخل بفضل الوحدة القوية حول المركز الواحد.

يضاف الى هذا ان هذه الكشوف وكثرة الموارد الاقتصادية التي صارت تتدفق الى أوربا عبر البحار وهو ما سرّع من عملية قيام المجتمع البورجوازي الذي سيعجل بقيام الرأسمالية بينما ادى انحسار مصادر التجارة عن الأرض العربية وخضوعها للإرادة السياسية للأتراك الى تجميد العلاقات الاقطاعية فوق هذه الأرض والى دوام هذا الجمود فترة طويلة ستمتد حتى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حيث يتم القفز الى المجتمع الرأسمالي دون المرور تقريبا بمرحلة البورجوازية.

كما ان من مميزات هذه المرحلة الصراعات العنيفة بين مختلف الدول الاوربية والحروب فيما بينها بهدف الحصول على المستعمرات والسمة المميزة لهذه المرحلة هو التناحر الاستعماري الشديد و«السّعار» الاستعماري المعدي الذي كان يدفع بكل دولة ان تحقق اكبر مساحة ممكنة من الاراضي وعدم الاعتراف بأي حق أو حدود اللهم غير حدود الجشع ومصلحة الدول المستعمرة.

وبكلمة واحدة فالمرحلة هذه لم تكن محكومة بأية قوانين او اعراف اذ كان الاحتكام للسيف والبندقية دون غيرها، وهكذا توسعت مساحات المستعمرات الاوربية وصارت اضعاف الدولة الأم. اما بالنسبة للشعوب فقد انعكست هذه المرحلة في عدة نتائج مأساوية هي:

**أولا:**

ازيلت من خارطة العالم شعوب بأكملها وأبيدت حضارات بكاملها وأجليت عن اراضيها قبائل ومستوطنون وحل محلها وافدون غرباء من اراض اخرى وغابت في طيات التاريخ مدنيات زاهرة (كالأنكا والازتيك في امريكا) وبعض حضارات الملايو حتى يصعب في وقتنا هذا استحضارها على الخارطة أو قراءة نصوصها او معرفة ملامحها العامة بسبب ابادة جميع ممثلي هذه الحضارة بفعل الجشع والوحشية الاستعماريين.

**ثانيا:**

ادى احتلال المناطق الواسعة في امريكا وابادة اهلها الاصليين والحاجة الى الايدي العاملة، مضافة الى عجز المستعمرين عن احتلال اعماق القارة الافريقية وبالتالي استعمارها الى التعويض عن ذلك بامتصاص الطاقة البشرية من هذه القارة عن طريق اختطاف سكانها واسترقاقهم وشحنهم عبيدا الى العالم الجديد.

«وتلك كانت بالتالي اسود نقطة وأبشع وصمة في تاريخ الاستعمار العالمي، فقد كان الرقيق اغلى سلعة في التجارة الاستعمارية وتجار آلة المحركانتلية ان لم يكن وقودها الاسود وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها، وكان للبرتغال اولا ثم للانجليز بعدهم الدور الاكبر في هذه التجارة الآثمة، ولو أن الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر، ولهذا فاذا كان الهولنديون يقولون ان امستردام بنيت على «عظام الرنجة» فمن الصحيح كل الصحة ان نقول ان لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الاسود ودمائه، وقد شهد المحيط الاطلسي مثلثا دمويا يدور في عقارب الساعة ـ التجارة المثلثة كما كانت تسمى ـ تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا الى غرب افريقيا حيث تستبدل بها شحنات آدمية ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها في امريكا الشمالية والوسطى والجنوبية، ومنها تعود محملة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ.. الخ.

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من افريقيا، ولكن البعض يضعها حوالي المائة مليون على أساس أن من مات أثناء «الصيد» والرحلة ثلاثة او اربعة أمثال ما وصل بالفعل الى العالم الجديد، وكان هذا الاستعمار او بالاحرى الاستعمار الديموغرافي نزيفا بشريا رهيبا اصاب القارة بفقر الدم والضمور، ولئن صح هذا الرقم ـ الذي لا يمكن الحكم له او عليه هنا ـ فلا شك ان هذه أعظم موجة في حركات السكان في التاريخ البشري جميعا»[1].

**ثالثا:**

انعكست حالة الرخاء الكبيرة بصورة مختلفة على اوربا، فتدفق الثروات عليها بشكل هائل غير متوقع اعطى دفعا كبيرا لوضعها الاقتصادي وانقلب ذلك بصفة ايجابية على دول اوربا بصفة عامة وكان من ذلك حدوث الانقلاب الميكانيكي الذي وجد انعكاسه خاصة في الدولة ذات النظام البورجوازي وقد افضى ذلك الى الثورة الصناعية التي انقلبت فيما بعد وبالا على الدول نفسها مثلما انقلبت وبالا على الدول المستعمرة فقد دفعت الاستعمار دفعا شديدا الى البحث عن موارد اولية وعن اسواق للتصريف كما سنرى.

أما بالنسبة لاسبانيا؛ ـ التي بقيت العلاقات الاقطاعية والروح الكنسية الكليريكية مسيطرة فيها ـ فانها انكفأت على ذاتها وألِفت الثراء الفاحش الذي جاءها من المستعمرات

دون تعب وأصبح السلب والنهب والعيش عن طريق السيف من المزايا التي يتحلى بها الفرسان وكان ذلك واحدا من اسباب الالتفات الى الشاطىء الافريقي حيث بدأت الحروب الصليبية في الشمال الافريقي وامتدت عشرات السنين.

ان هذه المقدمة تبين الملامح العامة التي ستفضي بنا الى دراسة المرحلة الاخيرة من الاستعمار (وهي موضوع حديثنا).

فالاستعمار منذ بداية القرن التاسع عشر وبعد قيام الثورة الصناعية في اوربا والتي كان تدفق الاموال من المستعمرات واحدا من الاسباب الرئيسة في قيامها يتخذ صورة جديدة لم تغير من طبيعته العنصرية العدوانية والقائمة على السلب والنهب، الا أن التغيير يطرأ على الاساليب التي سار عليها في تحقيق اهدافه.

فالثورة الصناعية التي قامت في عدد من الدول الغربية افضت في النهاية الى قيام عصر جديد ترك لمساته على الملامح الحضارية للعالم بأسره.

فقد بدأ هذا العصر باكتشاف الطاقة البخارية وتسخيرها في الميدان الصناعي والمواصلات بشكل خاص، وطبقت استعمالاته خاصة في السفن والقطارات فان ذلك قد ادى الى اختزال المسافات والى السرعة في الاتصال كما ادى تطبيق الآلة في الصناعة (كالصناعات النسيجية مثلا) الى تسارع الانتاج والطلب المضاعف على الاحتياجات، وخاصة المواد الخام مثل القطن والصوف وغيرهما من المواد الاولية، كما أن المصانع اصبحت بحاجة الى مزيد من مواد الطاقة كالفحم والحديد، بينما صارت قطارات وسفن النقل اقدر على نقل الاعداد الاكبر من الجنود والمدافع والمعدات الحربية وحتى حمل الكميات الاكبر من المواد الاولية فكأن هذا الاقتصاد المتسم بالانتاج السريع صار يتطلب مصادر أكبر للمواد الاولية فتضاعف الجشع والتطلع الى المستعمرات الجديدة وانعكس ذلك ويلات اكثر على الشعوب التي كانت لا تزال تعيش مراحل الزراعة البسيطة القائمة على الادوات اليدوية والمعتمدة على طاقة الحيوان فقط.

يضاف الى ذلك ان الصناعة الجديدة تركت اثرها الكبير على حركة الحياة في الدول المستعمِرة ايضا، فشبكة المواصلات زادت من تلاحم الوحدة القديمة بين مختلف انحاء البلاد فازداد تفاعل المناطق والجهات المختلفة فيما بينها بدلا من التمزق الاقطاعي الذي كانت تعرفه مختلف الدول، وقدمت الثورة في عالم الطباعة دورها في هذا المجال، فتطبيق الصناعة في عالم الطباعة ادى الى رخص وسائل التعليم والمعرفة وساعد ذلك على ظهور الصحف والمجلات ومختلف وسائل الاعلام والتربية وهو ما ادى الى تجانس الوعي القومي وظهور ما يسمى «بالرأي العام» وتربية بني البلد الواحد على فلسفات ونظريات موحدة وموجهة كما سنرى بعد قليل.

والذي يهمنا من هذه المقدمة هو الاجابة على السؤال الرئيسي الذي تقوم عليه هذه الدراسة وهي: ـ ما هي الملامح الرئيسة للاستعمار في العصر الحديث وما الطرق التي انتهجها في مسيرته؟.

يمكن الاجابة على هذا السؤال بعبارة دقيقة وهي ان الاستعمار في هذه المرحلة هو «الاستعمار المبرمج» أي الاستعمار القائم على التخطيط الدقيق للاهداف والوسائل وعلى

حسابات الوضع الدولي والتفاعلات السياسية، الاستعمار الذي سخر منجزات الصناعة والفكر والتقنية الحديثة من اجل الوصول الى غاياته.

ان ما يهمنا من هذه المرحلة من مراحل الاستعمار وما يجعلنا نتوقف امامها بشيء من التفصيل، كونها المرحلة التي هجم الاستعمار الغربي فيها على بلادنا وأخضعها لمختلف اشكال القمع والقسر والاستغلال، وقد لعبت ظروف مختلفة في كون المغرب العربي قد سقط قبل المشرق العربي في هذه المرحلة الاستعمارية، لكن الشيء المميز جدا والذي يستوجب التوقف عنده هو أن ارضنا العربية باستثناء اجزاء صغيرة جدا كانت في هذه المرحلة الدقيقة المبرمجة قد خضعت للاستعمار بمختلف اشكاله ومختلف الدول التي مارسته ـ انجلترا، فرنسا، وايطاليا ـ. واذا كانت ارضنا العربية بسبب عراقتها الحضارية ونضالها الدائب المستمر قد استطاعت ان تكون في نهاية المطاف بمنجاة من الاستعمار الاستيطاني الذي بسببه ابيدت أمم لتحل محلها أرتال المستعمرين القادمة من الدول الاوربية ما وراء البحار فقد «توجت» المرحلة الأخيرة من الاستعمار بأبشع صورة من اشكال الاستعمار ليس العسكري فقط بل الاقتصادي والعنصري والاستيطاني... وهو ما لا نزال نعاني منه حتى اليوم.

الماضي هو المنطلق لفهم الحاضر، وان العودة الى قرن واحد من الماضي يوصلنا الى فهم حاضرنا، وتقصي الأسباب التي وصلت بنا الى حاضرنا تساعدنا على الخلاص منه.

وأول الأسئلة التي تفرض نفسها الان هو: لم البرمجة، ولم بدأ الاستعمار يتجه الى اتخاذ مسالك جديدة والى تقديم حسابات عن مسالكه وتصرفاته. ما هي الاسباب التي جعلت المستعمرين يتجهون الى طرق اكثر دقة ومدروسة وعلمية في مسلكه؟.

قبل الاجابة على السؤال تجدر الاشارة الى ان الاستعمار كماهية وطبيعة لم يتبدل حتى عصرنا الحاضر انه مهما اختلفت الاقنعة، هو المسلك الآثم الذي يؤمن عقيدة بأفضلية شعب على شعب، وبحق الاقوى في التهام الاضعف، فما «البرمجة» ووسائل التمهيد الثقافي والفكري ومحاولات التأثير الفكري كشيء سابق للعمل العسكري الا وسائل جديدة استحدثتها وفرضتها الظروف الجديدة التي تكونت. فبين القرن التاسع عشر والقرون التي سبقته نقلة جديدة وكبيرة في الوعي الانساني وفي حركة العلم والفكر البشريين وهي التي فرضت إحداث اساليب لابد منها من اجل نجاح المستعمرين في تحقيق مآربهم.

وهكذا فالحديث عن البرمجة او «التمهيد» للغزو الاستعماري تفترض منا البحث فيها من خلال منظورين. اولها، اسباب التمهيد الاستعماري للغزو، والثاني، مظاهره او طرقه.

### اسباب التمهيد للغزو:

1 ـ من المرجح أن أول اسباب التمهيد الفكري للغزو يتمثل في اقتسام ما يسمى «بتركة الرجل المريض».

فقد اطل العالم في الربع الاخير من القرن التاسع عشر (وهو بشكل خاص موضوع دراستنا) على خارطة جغرافية سياسية للعالم تثير الاهتمام، فبينما كانت الدول الاستعمارية القريبة

قد اكتظت بمنتوجاتها الصناعية الحربية ووصلت مستوى عاليا من التقنية الحربية والعسكرية واستنزفت وتستنزف موارد مستعمراتها الهائلة الأبعاد، أخذت تتطلع بأنظارها الجشعة نحو بلاد المشرق الذي تسيطر عليه الدولة العثمانية التي تجر في واقعها الضعيف المتفكك أمجاد حروبها الماضية وغزواتها العسكرية الكثيرة، فالدولة العثمانية في هذه الفترة كانت في طور سياسي هو الذي يسبق الكارثة، مملكة مترامية الاطراف، يسودها التفكك الاقطاعي وشدة الجفوة بين الشعب والحكام، وكانت الاوضاع الاقتصادية والعسكرية تحتاج الى ثورة علمية تجددية كان يقف في وجهها المترمتون والمستفيدون من التخلف والواقفون كعادتهم في وجه كل جديد.

وقد كان ذلك احد الأسباب التي جعلت البعض يفكر بالانفصال عن الدولة العثمانية وقد كانت تجربة محمد علي باشا في مصر واستقلاله عن الدولة العثمانية واحدة من المظاهر الهامة في تلك الفترة.

فقد بيَّنت التجربة أن جسم الدولة العثمانية قد تعرض للتآكل حقا والمركز الاستانبولي الذي لم يستطع شيئا أمام الغزو الفرنسي الاستعماري هو أيضا عاجز عن رد حركات الانفصال عن المركز كما أن تألب الدول الاستعمارية جميعها ووقوفها في وجه طموحات محمد علي ومحاربتها له وتدمير اسطوله في اليونان ــ كان دليلا على أن هذه الدول لن تقبل بوجود دولة قوية في المشرق وأن لهذه الدول أملا بعيدا واحدا فقط ومشتركا وهو أن تحل محل الدولة العثمانية في البلاد العربية وغيرها. واذا كان هناك ما ساعد على المد في حياة هذه الدولة فهو عدم اتفاق هذه الدول فيما بينها على اقتسام «تركة الرجل المريض» على حد تعبير أحد رجال السياسة الانجليزية.

واستعدادا منها لاقتسام تركة الرجل المريض، وسعيا وراء ايجاد الاسباب (الشرعية) المؤدية الى ذلك وخلق موطىء لاقدامها فوق تراب بلادنا وايجاد الذريعة التي تبرر لهذه الدولة او تلك امام الدول الاخرى دخول الارض العربية صارت كل دولة تحاول أن تؤسس المدارس والجاليات و«المصالح» التي تدعي فيما بعد حمايتها من الدول الاخرى.

وتحت هذه الذريعة أحدثت عشرات المدارس الفرنسية والانجليزية والروسية والالمانية والايطالية في المشرق (سوريا وفلسطين ولبنان) وقد كتبت عشرات الدراسات[2] عن هذه المدارس وعن اهدافها، وخلال هذه الفترة بالذات بدأت تتسرب اول المدارس والصحف الايطالية الى ليبيا.

2 ــ نمو الوعي القومي ورفض الشعوب للاستعمار. فقد اتسمت نهاية القرن الماضي وبداية القرن العشرين بنمو واضح وخاصة في الارض العربية وكانت هذه المرحلة تمثل يقظة هامة في مراحل الوعي العالمي والعربي منه بشكل خاص.

فقد كان رجال التنوير العرب، ووسائل الاعلام والصحف والمجلات العربية تتجه كلها لتهيئة العرب نحو نهضة جديدة، واذا كانت الطرق قد اختلفت نحو بلوغ الغاية فمن الافكار ما نادى بالتآخي العربي التركي والوحدة الاسلامية، ومنها ما اتجه الى الأخوة العربية دون سواها، لكن ليس هذا المهم بل المهم أن تيارا جديدا من الوعي واليقظة قد بدأ يلف الارض العربية

وتجسد في التطلع والطموح نحو عالم جديد افضل يزيد من عمقه واصالته، بطش الفرنسيين في الجزائر والمغرب وقمع الانجليز في مصر.. ويقظة العرب على المطامع الاوربية.

لهذه الاسباب مجتمعة كان اساطين الاستعمار يدركون أن غزوهم للاراضي العربية لن يكون نزهة سهلة مأمونة العواقب. فكان بقيامه بهذا التمهيد، يهدف الى سببين: السبب الأول خلق الفئة التي تساعده على تحقيق مآربه، وقد ورد التأكيد على ذلك صراحة في مقالات احد الكتاب الفرنسيين منذ القرن الماضي، وقد جاء فيها:

«تركيا اليوم اشبه بحقل مغلق حيث تتنافس القوى الاوربية الرئيسة من اجل النفوذ لا على المستوى الاقتصادي والتجاري فقط بل على المستوى السياسي ايضا، لقد ادركت كل من الدول الست الكبرى التي لها مطامع في الشرق الاوسط ومنذ فترة طويلة أن احدى اهم الوسائل لكي تضمن لنفسها (جماعة الموالين) في الشرق تكمن في معرفة هذه الجماعة لغتها وخارج اطار التعاطف السياسي يخلق تفوق لغة ما ميلا طبيعيا للاتجاه نحو الامة التي تشعر بالاشتراك معها في الافكار والاذواق في كل ما تحتاجه من متطلبات الحياة، من هنا كان هدف مؤسسي هذا العدد الكبير من المدارس والمستشفيات تثبيت (الجماعة) التى تحميها القوى الاوربية وتوسيعها[3]».

والسبب الثاني اجتذاب مجموعات السكان العامة واقناعها بـ«الرسالة التحضيرية للاستعمار» فقد بينت الدراسات للمستعمرين أنهم امام شعب يشكو من التخلف في عالم التقنية والصناعة الا أنه، من الناحية الحضارية، شعب عريق بل وشديد العراقة تضرب جذوره الحضارية عميقا في تراب التاريخ وهو لابد له أن يستمد من دينه وعراقته وأصالته ما يلهمه التصدي للاستعمار وأن يستبسل في الدفاع عن ارضه وكيانه، ولهذا كان الاستعمار حريصا على ارتداء القناع (التحضيري) الانساني النبيل.

وهذه الظاهرة تستوقف مؤرخي الاستعمار دائما في المراحل القديمة لم يكن الاستعمار يجد ضرورة لتقديم اية مسوغات، كان كل شيء يتم «ببساطة» ودون تعقيد. يذكر الكاتب الايرلندي الاشهر جوناثان سويفت[4] هذه المرحلة الطويلة الدامية بقوله:

«هي ذي ثلة من القراصنة الذين يحلمون بالحصول على عفو الحكومة ومكافآتها فينطلقون بحثا عن اراض جديدة ويلتقون بالسكان المسالمين الآمنين الذين يكرمون وفادتهم بأحسن صورة، فيطلقون على البلد اسما يروق لهم ويستولون عليها باسم الملك، ويضربون في ارضها لوحة فخارية او حجرا كنصب تذكاري ثم يقتلون بضع عشرات من السكان ويقتادون بعضهم الى السفينة كنموذج بشري ويعودون الى ارض الوطن لينالوا العفو، وهكذا تظهر المستعمرة الجديدة التي تم الحصول عليها «بحق الهي»، وما ان تسنح اول فرصة حتى ترسل السفن الى هناك، فاما ان يجلى السكان الاصليون او يبادوا، وتخضب الارض بدماء

أبنائها وهذه الثلة القذرة من الجزارين... تقيم المستعمرة المستحدثة لاجل نشر المسيحية بين المتوحشين الوثنيين وتعليمهم الحضارة»[5].

وللتدليل على الفرق بين المراحل القديمة من الاستعمار والمرحلة الحديثة نشير الى ما جاء في رسالة نابليون الى أهل مصر خلال الغزو النابليوني سنة 1798 فقد أكد الغازي الفرنسي على انه انما جاء كما قال:

«لاخلص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى، واحترم نبيه والقرآن العظيم، وقولوا أيضا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله، وأن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شيء أحسن فيها من الجواري الحسان والخيل العتاق، والمساكن المفرحة، فان كانت الارض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم. ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم، ولكن بعونه تعالى من الان فصاعدا لا ييأس احد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيديرون الامور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها، والمتجر المتكاثر، وما ازال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك»[6].

ويلفت الانتباه ما ورد في رسالة الجنرال «كانيفا» الى أهالي طرابلس وبرقة يوم 13 اكتوبر 1911.

وعلى الرغم ما في الرسالة من وقاحة فان المستعمر الايطالي ظل متمسكا بقناعه التحضيري فقد ورد في منشوره أنه جاء:

«لا لاخضاع واستعباد سكان طرابلس وبرقة وبلاد الدواخل الاخرى الواقعة الان تحت استعباد الاتراك، وإنما لنعيد اليهم حقوقهم ونقتص من مغتصبيهم ولنجعلهم أحرارا وأسيادا لأنفسهم، ولحمايتهم من المغتصبين انفسهم - أي الاتراك - ومن كل من يريد استعبادهم.

فأنتم يا سكان طرابلس وبرقة وفزان والمناطق التابعة لها سيحكمكم من الآن فصاعدا رؤساء منكم تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة ملك ايطاليا حرسه الله وهم مكلفون بقيادتكم وفقا للعدالة بالمرانة والحسنى.

ان جميع القوانين الدينية والمدنية ستحترم ويحترم الاشخاص والممتلكات والنساء والحقوق والامتيازات المتعلقة بأعمال البر والدين، ان الغاية الوحيدة من عمل الرؤساء (المشائخ) هي خيركم وهناؤكم ويجب أن يكون هذا العمل مستوحى من الشريعة والسنة وسيقضى بينكم وفقا للشريعة بواسطة قضاة متفقهين في الدين ذوي استقامة وسيرة حميدة.

ولن نغض الطرف عمن يظلم من الرؤساء ولا نسمح بانحراف القضاة فالكتاب والشريعة والسنة فقط ستكون لها السيادة.

وهكذا فان كل إمرىء يستطيع اقامة الصلاة في مسجده ومن أجل عظمة الشعب الايطالي ومجد مليكه حفظه الله، وهم الذين وضعوكم يا سكان هذه البلاد تحت رعايتهم وحمايتهم ويودون أن ذكر اسمهم يرهب اعداءكم ويكون محبوبا ومباركا منكم. واذا وجد من لا يقدس الشرائع ولا يحترم الاشخاص، او يمس حرمة النساء او يعتدي على الممتلكات او يثور على ارادة العناية الالهية التي ارسلت ايطاليا الى هذه البلاد، وباسمها استلمت هذه الأوامر ممن كان ولا يزال له الحق في اصدارها والمحافظة عليها فسأقوم بتنفيذها بالقوة الموضوعة تحت تصرفي من أجل انتصار الحق والعدالة.

يا سكان طرابلس وبرقة والمناطق التابعة لها:

اذكروا ان الله قال في كتابه العزيز:

«لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين» واذكروا انه جاء في الكتاب العزيز ايضا:

«وأن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله».

فايطاليا تريد السلام وتريد ان تبقى بلادكم اسلامية تحت حماية ايطاليا ومليكها باركه الله يخفق عليها العلم الابيض والاخضر والاحمر اشارة الايمان والمحبة والأمل»[7].

وبالطبع ما كان للعرب أن ينخدعوا لهذه البيانات والاقنعة التحضيرية، فقد كان ما يشد انظارهم اكثر هو الجيوش الجرارة والاساطيل والمدافع التي زحفت لتفرض هذه «الرسالة التحضيرية» وكانت الجماهير العربية تدرك بحدسها وبتاريخها النضالي أن جيوش نابليون او كليرمون أوكاينغا لا تختلف بشيء عن جيوش هولاكو أو رايموند وأن الحديد لا يفله الا الحديد والقوة لا ترد الا بالقوة، وهو ما تصرفت على ضوئه حتى نالت استقلالها فيما بعد.

والسبب الثالث تهيئة الشعوب المستعمرة للحرب. وقد يبدو هذا العامل بعيدا عن الاقناع لاول وهلة، لكن تحرّي حقائق التاريخ الاستعماري تؤكد لنا وجود هذه الحقيقة، فعلى الرغم مما كانت تجره الحملات الاستعمارية من اموال ومرابح تصب في خزائن الدول المستعمرة الا انه لم يكن من السهل اقناع شعوب هذه البلاد بالانجرار الى المذابح الاستعمارية والقاء أنفسها في نيران الحروب وذلك لسببين:

**الاول:**

ان حملات الاستعمار على بلادنا لم تكن نزهة سهلة، ولم تكن الارض ممهدة مفروشة بالزهور فقد كان الجلادون الاستعماريون يعرفون ان جنودهم سيلاقون الويلات وأن جيوشهم

قد تتعرض للدمار الكامل على ايدي الوطنيين من أهل البلاد، وأن هؤلاء الجنود لابد وأن يكونوا على قناعة حقيقية بالحرب التي يُلقون فيها لكي تكون نتائج الحملات الاستعمارية مضمونة.

**الثاني:**

ان نتائج الحملات الاستعمارية والمذابح التي كانت تنجز على اساس هذه الحملات كانت تقتسم «بطرق غير عادلة» من قبل المستعمرين النتائج الأخيرة كان يتضح أن هناك من يدفع الثمن من دمه، وهناك من يستأثر بالأموال والأراضي، وكان الاختلاف الواقع على ارض الدولة المستعمرة ينتقل بكليته الى المستعمرات، فبينما يدفع الفقراء من الضرائب ومن الدماء ثمن الحرب الاستعمارية كان الاغنياء والنبلاء ورجال المملكة والأشراف يزدادون ثراء، بل وكثيرا ما يزداد ثقل وطأتهم على شعوبهم أيضا بعد كل انتصار.

ولهذا كله كان لابد من «شحن» رؤوس الشعب بمختلف الافكار المجرمة من اجل سوقه الى المذبحة الاستعمارية متحمسا راضيا ومقتنعا.

ولهذا وضعت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن نظريات وأفكار لا نزال نعاني من اثار بعضها حتى الان. فصيغت اسطورة التفوق على الدول الاخرى «فكانت اهداف الشعوب ان ترى دولها متفوقة وقوية ومحترمة لدى الدول الاخرى»[8].

ولكي تبدو الدول قوية وتحصل على المستعمرات ولكي تقبل شعوبها بالتكاليف المادية والبشرية الباهظة للحملات الاستعمارية صيغت نظرية التفوق العرقي وأوجدت نظريات اجرامية اعتمدت في الأفضل على نظرية داروين[9] القائلة بأن قانون الغاب ينادي دوما ببقاء الأصلح لان للأقوى الحق في التهام الضعيف، وقد بدأ تطبيق قانون الغاب هذا على الشعوب واعتمده المستعمرون وقد تعززت هذه النظرية أكثر فيما بعد(*).

---

(*) يشير الدكتور جمال حمدان بكل دقة الى الممارسات الاستعمارية الخبيثة في تحول نظريات التفوق العرقي بعد انحسار الاستعمار وصرفها الى ما يسمى برسالة الرجل الابيض في الوقت الحاضر. ونظرا لما لهذا المقطع من اهمية فقد اوردناه كاملا مع مراجعه نظرا لاهميته وشدة علاقته بموضوعنا، يقول الدكتور حمدان:
(لقد كان الاستعمار في اوج بطشه يبرر نفسه متبجحا بنظريات القهر والتفوق العنصري حتى اذا استشعر نهايته وطاردته عقد الذنب بحث ـ منافقا ـ عن التبرير في نظريات الانسانية والاخوة وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا، فمن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضاري للاجناس او تقسيم جنسي للحضارات، فزعم مرة أن الجنس الاصفر يعيش في الماضي والاسود في الحاضر أما الابيض فيعيش في المستقبل[1]. ومرة اخرى وضع نظرية «الاجناس الاطفال»... واخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية الى تصنيف بيولوجي للاجناس غير السائدة (Herrenovolk) وهم البيض والاجناس الفعلة (Hilfenvolk) وهم الملونون وكلا جعل مراتب ودرجات[2]. واذا كانت عنصرية الاستعمار في عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل، فهي لم تفعل في شيخوختها الا ان تقنعت بنقاب الرياء والزيف دون أن تغير جلدها، فكانت النظريات «الانسانية والابوية (Paternalism) في الاستعمار (كذا) مثل عبء الرجل الابيض ورسالته الحضارية والاب الابيض (White Fahter) او الاخ الأكبر (Elda Brother)... الخ[3]. ولكن هذا جميعا منطق تبرير فج لا يبرر اكثر مما يبرىء، ويظل الاستعمار وصمة في

وبينما كانت المصانع تدور وتتحرك لانتاج مختلف الاسلحة والاساطيل كانت المطابع تدور ايضا لتخرج على الشعب بمختلف الاضاليل الاستعمارية كهذه النظرية الاستعمارية كما ذكرنا وكنظريات اخرى تدغدغ المطامع والنوازع البشرية.

فعلى الرغم من ان اوربا الاستعمارية هي التي احدثت تجارة العبيد وهي التي مارستها في أفجع صورها كما ذكرنا وكانت هي تقوم بعمليات قنص الزنوج وتسفيرهم الى العالم الجديد، وهي التي سنت وقننت (في مؤتمر فينا سنة 1816) تجارة العبيد ومع كل ذلك فقد كان من النظريات التي جاءت بها خلال مرحلة الاستعمار الحديث ـ القضاء على تجارة العبيد واضفاء الصبغة الانسانية الجديدة على الاستعمار.

ومن الوسائل الفكرية التي سخرها الاستعمار لاغراضه وسائل دينية كان يستخدمها لايهام البسطاء بأنه يسعى الى نشر المسيحية بل والقضاء على آكلة لحوم البشر[10] والحق ان الكاثوليكية قد خضعت خضوعا كاملا لاغراءات الاستعمار وسارت بحماس شديد في ركابه وخاصة في ليبيا ـ كما سنرى ـ وألهبت مشاعر المتدينين البسطاء من أبناء الدول الأوربية الإستعمارية والأمثلة على ذلك اكثر من ان تحصى. ولعل الاغنية التي كان يتغنى بها الجنود الايطاليون في حملتهم على ليبيا كانت الدليل الساطع ليس فقط على نوعية التوجه التربوي الذي كان يغرس في قلوب المحاربين الاستعماريين بل وعلى المغالطات الشائنة التي كان يسخرها الاستعمار من اجل التوصل الى الغاية المطلوبة تقول بعض كلمات الاغنية:

«أماه صلي... لا تبكي... بل أضحكي وتأملي... الا تعلمين أن ايطاليا تدعوني... أنا ذاهب الى طرابلس فرحا مسرورا، لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الملعونة، ولأحارب الديانة الاسلامية... سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن ليس للمجد من لم يمت لا يطاليا،... تحمسي ايتها الوالدة وان سألك احد عن عدم حدادك عليّ... فأجيبيه انه مات في سبيل محاربة الاسلام»[11].

وواضح ما في الاغنية من تهييج عاطفي دنيء، كما يظهر ايضا ما تحمله من مغالطات في تصوير الدين الاسلامي للجنود المقاتلين، على ان هذه المغالطات ليست الا جزئية بسيطة من المغالطة الاستعمارية الكبرى التي تقول بأحقية القوي في استعمار الضعيف، بل وفي ابادة الشعوب واحلال شعوب محلها وتاريخ الاستعمار مليء بامثال ذلك.

وننتقل فيما يلي الى الأساليب الاستعمارية الاساسية التي اشتملت في مرحلة التمهيد

---

جبين المستعمر، ويظل في النهاية ظاهرة «عنصرية جنسية بحتة، ويكفي أن يتحدث بعض الكتاب الاوربيين انفسهم عن السجل المأساوي القذر لعملية الاوربة وعن «قصة (الاوربة التعسة)[4].

د. جمال حمدان المرجع السابق ص 151–152

1 - G. MONTANDON. Traite d'Ethnologie - Paris.

2 ـ فايفلد ديبرس ط 1 ص 178.

3 - N. SITHOLE. African Nationalism, Cap Town - 1959 p. 122.

4 - COLA. pp. 47-49.

الاستعماري، او ماهية الوسائل التي اصطنعها الاستعمار في مراحله التمهيدية.
لا شك ان العمليات الاساسية والرئيسية الاولى كانت تدريب الجيوش واعداد التجهيزات وصنع مختلف انواع الاسلحة وتكديس الذخائر ورسم الخرائط الجغرافية ووضع الخطط الاستراتيجية واتخاذ الخطط العسكرية التي تضمن تحقيق الانتصار على أبناء البلاد وتدمير مقاومتهم مهما كان ثمن ذلك من ضحايا، غير اننا نترك البحث في ذلك للعسكريين، فموضوعنا يتناول النواحي التمهيدية الفكرية وتهيئة الجو الملائم لذلك، مع ابراز اهم الخطوات التي مكنت من ذلك ـ ونشير منذ الآن الى اننا سنتناول هذه النقاط عبر خطوطها العريضة وبمقدار ما ترسم الصورة العامة للوضع وذلك لان الموضوع يتناول النشاط التمهيدي للغزو في منطقة محددة وهي الارض الليبية.
ومن هذه الخطوات والمظاهر:

## 1 ـ الكنيسة والمدارس والتبشير:

ربما لا نكون مبالغين اذا قلنا أن تاريخ الاستعمار لم يعرف مؤسسة خدمته وسايرته وسارت في ركابه مثلما فعلت الكنيسة، فالكنيسة التي قادت خلال الحروب الصليبية لواء الغزوات المتكررة ضد بلادنا صارت خلال فترات المد الاستعماري المؤسسة التي تمهد له الطريق وتسعى الى تذليل الصعاب أمامه حتى ان جيمس ويللارد الذي لم يبرأ كتابه من بعض بقايا الاتجاه العنصري المعادي للمسلمين لم يستطع انكار هذه الحقيقة البسيطة عندما قال: لقد «وصل المبشرون قبل الجيش الى كثير من اجزاء افريقيا»[12].
وقد استأثرت هذه القضية باهتمام الباحثين العرب وكانت الدراسة القيمة التي نشرها د. مصطفى خالد ود. عمر فروخ بعنوان «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» واحدة من اهم الدراسات الشاملة التي بينت تنسيق ووحدة العمل بين المؤسستين على مدى عشرات السنين اعتمدا فيها على عشرات المراجع الصادرة باللغات الانجليزية والفرنسية والالمانية، وبعض المراجع العربية.
والكتاب (الذي تعتمد طبعته الخامسة الصادرة منذ عشر سنوات 1973) لم يتعرض من قريب او من بعيد لنشاط التبشير والاستعمار على ارضنا الليبية على الرغم من انه يفرد فصلا خاصا (الحادي عشر) لـ«حقائق عن افريقيا» لكن ذلك لا ينقص من قيمته العلمية الرائدة، (فتجاهل النشاط التبشيري بل والاستعماري فوق الارض الليبية امر شبه مألوف في المصادر العربية) لكن الكتاب استطاع أن يكشف بحق هذا الترابط العضوي الوثيق بين المؤسستين حتى يتساءل اخيرا ايهما سخر الاخر الكنيسة ام الاستعمار؟.. ونحيل من يريد الاطلاع على هذا الموضوع الى الكتاب لقراءته.
فالاستعمار الغربي الذي لا يؤمن بغير القيم المادية الملموسة والذي يحركه المال والحديد (والنفط حاليا) ويسعى الى المواد الاولية كان ابعد عن الروح الدينية والدين بل وكان يتفاخر

بفصل الدولة عن الدين، وبما يسمى بالدولة العلمانية او الروح العلمانية. الا أنه، في سبيل تذليل الطريق امام الاستعمار لم يتورع عن فتح مدارس متخصصة للتبشير وعن تسيير قطعانه في مختلف ارجاء العالم يبشرون الناس بالتعاليم المسيحية ويعلمون ابناء الارض التي نشأ فيها المسيح، تعاليمه وحياته، والمثل التي سار عليها، وقد نهج المبشرون لذلك كل منهج فحاولوا أن ينفروا الناس من دينهم الاسلامي وحاولوا أن يشقوا صفوف المسلمين، وأن ينشروا مختلف الأباطيل حول الدين الاسلامي وحول شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، واستعانوا على تمهيد الطريق الاستعماري بمختلف السبل فسخروا لذلك المدارس التعليمية والجامعات[13]. وسخروا له المستشفيات والطب والصيدلة وقدموا الرشوة المادية للمعوزين فاستغلوا بذلك جهل الناس وآلامهم وفقرهم ابشع استغلال، كما واعتمدوا سياسة زرع الفتن والحزازات بين ابناء الوطن الواحد، وحاولوا تحطيم اللغة العربية ونشر وتكريس العامية ونشر الحروف اللاتينية وسخروا السلك الدبلوماسي لمآربهم وامتيازات الاجانب كل ذلك نحو غاية استعمارية واحدة مدفوعة، وهذا المسلك الشاذ الذي كان يسعى اليه دعاة المسيحية يؤكد انهم لم يكونوا ينطلقون من أهداف دينية سامية بل كانوا يسعون فقط الى تذليل الطريق امام المستعمرين.

وقد بسطت هذه المؤسسات نشاطها على مختلف الاراضي العربية التي كانت في المخطط الاستعماري ضمن البلاد التي ينبسط عليها النفوذ الاستعماري العسكري وليس هناك للتدليل على ذلك من نشاط الكاردينال «شارل ـ مارسيال. المان لافيجري» الذي فصل (جيمس ويللارد) في الحديث عنه في كتابه «الصحراء الكبرى»، واذا تغاضينا عن الهوى الديني المضحك الذي كان يتسم به الكاردينال[14]. لكننا لا نستطيع أن ننسى وسائله المتعددة التي استخدمها، واستغلاله البشع لمجاعة عام 1867 الرهيبة[15] التي اهلكت الناس والحيوان والزرع واشرفت مناطق كاملة على الاقفار فامتدت يد لافيجري ببعض لقيمات الخبز وبالصليب ومهما يكن مستوى الذي حققه لافيجري خلال نشاطاته الطويلة ونشاطات «ابائه البيض» الا أننا لا نستطيع ان نغفل نظريته شبه المتكاملة في غزو الصحراء والوصول حتى اعماقها.

واذا كانت نشاطات المبشرين للتبشير بين المسلمين عقيمة النتائج بصورة شبه مطلقة فانها ـ من دون شك ـ كانت حافلة بالنتائج بالنسبة للمستعمرين، ولكي لا ننساق وراء التفسيرات العاطفية يجب دوما ان نشير الى حقيقتين هامتين:

**الاولى:**

ان الاستعمار كان ابعد ما يكون عن الرغبة في التحول الحقيقي لابناء البلاد من المسلمين او غير المسلمين الى النصرانية، وذلك لان الاستعماري الجشع لم يكن يهتم كثيرا بالجوانب الدينية.

وثانيا لأنه من الأفضل بالنسبة للعنصرية والتعالي الاستعماريين أن يبقى ابناء البلاد على دينهم وعاداتهم وذلك تحقيقا للنظرية الاستعمارية المتعالية التي تتصور ابناء البلاد متخلفين جهلة وهو ما يضمن لهم حظا اوفر من الاحتقار والتعالي، بينما من شأن اعتناق النصرانية، دين المستعمر، ان «يرفع» من مستوى هؤلاء الأهالي الى حد ما ويقربهم من عالم المستعمرين.

**الثانية :**

ان الكنيسة استعارت من الاستعمار قدرته النادرة على التكيف وتغيير الاقنعة والتحول. فبينما تحولت الرسالة الاستعمارية من النظرية العرقية المتعالية، الى ما يسمى بنظرية «رسالة الرجل الابيض» فان الكنيسة ايضا تحولت خلال فترة الانحسار الحالي للاستعمار وخلال انكشاف اقنعته وظهور حقيقته الوحشية الى رسالة انسانية فبدأت تقف ضده وتنوح عليه باللائمة، وهو ما عبر عنه المفكر «البير ميمي» في كتابه (صورة المستعمِر والمستعمَر) حيث قال :

«لقد كانت الكنيسة سخية في مساعدتها للاستعمار، طبعا، مباركة مؤسساته مانحة اياه راحة الضمير، مساهمة في تسويغ الاستعمار حتى في اوساط المستعمرين ولكن هذا التحالف لم يكن بنظرها سوى تحالف طارىء ونفعي، اما اليوم، وقد أصبح الاستعمار واهنا ومربكا، بدأت بالتراجع في كل مكان، ولم تعد تدافع عنه، هذا في حال عدم التعرض له، باختصار نقول انها استخدمته كما استخدمها ولكنها كانت تحافظ دائما على هدفها الخاص»[16].

وحاولت الدول الاستعمارية ان تعتمد اعتمادا كليا على الكنيسة في تمهيدها الاستعماري رغم ان القساوسة والرهبان كانوا يعانون من الاضطهاد والمضايقة في بلدانهم الاوربية ومن هذه الدول كانت ايطاليا ترمي الى بلوغ اغراض سياسية في الشرق فزرعت البلاد بمدارس دينية مع انها كانت قد صادرت اموال الاديرة في ايطاليا نفسها، وكذلك فعلت روسية حتى انها استطاعت هي ايضا أن تنفذ الى الامبراطورية العثمانية المتداعية الاركان على ان اكثر الدول الاوربية نشاطا تبشيريا سياسيا في سوريا ولبنان خاصة كانت فرنسا، فرنسا التي كانت تطرد الرهبان(*) من ارضها ثم تحتضنهم في الخارج ليحققوا لها شهواتها الاستعمارية[17].

والحق أن المراقب لتطور حركة الكنيسة يلاحظ لديها نوعا من التراجع عن ركب الاستعمار في الوقت الحاضر، ويلاحظ ان رحلة البابا الى دول امريكا اللاتينية كانت مشبعة بشعارات العدل والمساواة ومناوأة الظلم، بل والاستعمار، ويذكر التاريخ ان هذه الكنيسة كانت من اشد المتحمسين لغزو هذه البلاد وازالة اهاليها واحلال شعوب مكانها[18].

---

(*) وردت في كتاب التبشير والاستعمار، لوحة معبرة عن نشاط المبشرين المبكر في منطقة هايتي التي ربما توقف فيها البابا في زيارته الاخيرة، وقد اقتطفها المؤلفان من صحيفة الحياة (2494) 23 حزيران 1954 ونوردها فيما يلي كشهادة على «الغيرة» الدينية للمبشرين واتساق رسالتهم ورسالة الغزاة.

«وانشغل ضباطه وخلفاؤه وجنوده، اول الامر باستكشاف جزيرة «هايتي» اسبانيو واحتلالها، وكانت ما تزال في داخلها اراض شاسعة مجهولة فقد تولى هذه المهمة (ديغو فيلا سكيز، وبان فيلود ونار ميز) فأبديا من ضروب الوحشية ما لم يسبق له مثيل متفننين في تعذيب سكان الجزيرة بقطع انامله وفقء عيونهم، وصب الزيت المغلي، والرصاص المذاب في جراحهم أو باحراقهم احياء على مرآى من الاسرى... ليعترفوا بمخابىء الذهب او ليهتدوا الى الدين وقد حاول احد الرهبان اقناع الزعيم «هانيهاي» باعتناق الدين، وكان مربوطا الى المحرقة، فقال له انه اذا تعمد يذهب الى الجنة، فسأله الزعيم الهندي: وهل في الجنة اسبانيون؟ فأجابه الراهب طبعا، ما داموا يعبدون الاله الحق، فما كان من الهندي الا ان قال: اذاً انا لا اريد ان اذهب الى مكان اصادف فيه ابناء هذه الامة المتوحشة» ص 23.

## 2 ـ الاستشراق والمستشرقون:

الاستشراق الذي كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالتبشير لم يكن افرازا للاستعمار المعاصر، بل كان ميلاده مع القرون الوسطى، في تلك المرحلة التي شهدت اتصالا ثقافيا بين اوربا والعالم العربي عندما كان طلاب العلم في اوربا يتوافدون على الجامعات العربية في الاندلس، وفي القرون اللاحقة تغير الموقف تماما بين العرب والغرب، ففقد العرب تدفقهم الحضاري، وانقطع سيل الطلبة الاوربيين على الجامعات العربية فدرس التراث العربي في الغرب ليس طلبا للعلم، وانما لتحريف المقومات الثقافية والحضارية للامة العربية والاسلامية وبدأ المضللون يكتبون عن التاريخ العربي والحضارة العربية صفحات زائفة، وكان واضحا من ذلك ان الغرض هو اسقاط مراحل هامة من تطورنا الثقافي.

ومع القرن الثامن عشر والتاسع عشر تأكدت ملامح الاستشراق الاستعمارية وازداد اهتمام اوربا بالمثقفين الذين كانوا في بداية امرهم من المبشرين والرهبان الذين كان لهم الفضل الكبير في التمهيد للاستعمار[19].

فأنشأت في هذين القرنين كراسي استاذية للغة العربية في كل من اوكسفورد وكامبريدج ولندن وغيرها[20]. ويقصد هنا بالاستشراق ما كتبه الغربيون عن الاسلام وقضاياه، والأمة العربية وظروفها وما يتعلق بها هو حلقة الوصل بين التبشير والاستعمار، ويقول (آرخون):

«ليس الدافع الى الاستشراق علميا بل يعود ذلك الى النزعة العدوانية الحاقدة التي حملت فريقا من الاوربيين على شن الحروب الصليبية، وقد كان لهم وسائل متعددة للتمهيد لما يهدفون اليه»[21].

ولقد كان القطاع الاكبر من طلائع حركة الاستشراق هم طلائع الاستكشاف لحركة الاستعمار الاوربي لبلادنا في العصر الحديث، فالذين درسوا عاداتنا وتقاليدنا ومزاجنا ولغتنا ولهجاتنا، كان الكثيرون منهم يوظفون عملهم وابحاثهم في خدمة المد الاستعماري، بل إن العديد من المستشرقين كانوا يومئذ جنودا عاملين في دوائر المخابرات. ومن هنا كان المغزى الاستعماري لعملية النهب التي حدثت لمخطوطات تراثنا الفكري، فهي السبيل لدراسة عقلية انساننا ونقاط قوتنا، وعناصر ضعفنا، والثغرات التي باستطاعتهم استغلالها كي يقهروننا. كما ان في نهبها الحرمان لنا من ذلك الزاد الفكري الذي يستطيع أن يشحن وجدان امتنا ويزوده بأسلحة تعينها على التحرر وتحطيم القيود[22].

الاستشراق اذن من حيث هو عملية تشويه لواقع الشرق، وتحقير لوجوده من جانب الغرب في سبيل فكرة تفوق الغرب، يشكل ظاهرة قديمة قدم حضارة الغرب وثقافته وفكره[23]. ولا تعدّ ظاهرة الاستشراق وليدة شروط تاريخية معينة أو استجابة لمصالح وحاجات حيوية ناشئة وصاعدة، بل تأخذ شكل الافراز الطبيعي العتيق والمستمر الذي ولده العقل الغربي المتطور بطبيعته كما يبدو على انتاج واعادة انتاج تصورات مشوهة عن واقع الشعوب الاخرى ومحقرة لمجتمعاتها وثقافاتها ولغاتها ودياناتها في سبيل تأكيد ذاته والرفع من شأن تفوقه وقوته وسطوته[24].

فالعقل الغربي كان مفتتنا بمفهوم القدر التاريخي الفريد الذي يراه في نفسه، كما كان مفتتنا بفكرة السيطرة العالمية والتوسع، قام بعملية تَمثل فكري للحضارات الاخرى، ولم يستطع تقبل فكرة اختلاف الاخرين عنه قبولا فعليا يجعله ينظر اليهم ضمن مقولات خاصة بهم، وليس به، فقد ثبّت الغرب خصوصية الحضارات الاخرى وعيَن بُعدها بوسيلة تتناسب مع انتصار اقليميته الثقافية الضيقة[25].

ومن هنا شكل الاستشراق عبر العقل الغربي ظاهرة معقدة وثاقبة كان من اهم نتائجها حركة التوسع الاوربي عبر الشخصيات التي افرزها الاستشراق امثال نابليون بونابرت واللورد كرومر ولورنس العرب، وانريكو انساباتو (التي اشرفت على عمليات غزو الشرق العربي وحكمه ومراقبته ودراسته واستغلاله)[26].

ولم ينته دور المستشرقين بتمهيد الطريق امام الاستعمار المعاصر ليحتل الوطن العربي فقط بل عملوا على تحريف مسيرة التقدم العربي حتى في البلدان الافريقية التي كانت تكتب بالحرف العربي، فعملوا على طمس الكتابة بالعربية حتى يجبروا هذه الدول ان تكتب بالحرف اللاتيني، ليرغموا الذين يريدون ان يقرأوا شيئا عن العرب والمسلمين، أن يقرأوه في كتب المستشرقين التي تحمل تهما مفتراة ومعايب مفتعلة[27].

ويرى البعض أن ظاهرة الاستشراق اتخذت مسلكين مسلك يقدر دور الحضارة العربية والاسلامية ودورها في التقدم والرقي الانساني، وقد ساهم هذا المسلك في إثراء و إغناء هذه الحضارة في الكشف وجمع التراث الخالد للعرب والمسلمين والآخر كان عونا للاستعمار وممهدا له ومشوها لتراثنا وقيمنا وحضارتنا، ويرى «مالك بن نبي» ان كلا النوعين كان شرا على مجتمعنا، لانه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والاطراء التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، واغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا او في صورة التقيد او الاقلال من شأننا بحيث صيرونا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان واجبنا أن نقف منه عن بصيرة، ولكن دون هوادة... ولا نراعي في كل ذلك الا الحقيقة الاسلامية غير المستسلمة لاي ظرف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا، حتى الاصداع بها والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب[28].

## 3 ـ الرحالة والمكتشفون:

تاريخ الرحلات بين العرب وأوربا يمتد الى أزمان بعيدة، ولكن الكشف الجغرافي لأفريقيا الشمالية وأفريقيا الوسطى لم يكن معروفا قبل قرن ونصف من الزمان، وكان الاوربيون يجهلون تماما هذه القارة، وكانت معلوماتهم مستمدة من المصادر العربية القديمة ولعل أول كتاب يتحدث عن أفريقيا الشمالية كان كتاب ليون الافريقي(*) وحتى الرحلات التي تمت في القرن

---

(*) ليون الافريقي، أو قسطنطين الأفريقي، ولد في قرطاجنة ورحل الى خراسان وبغداد والشام ومصر والقيروان والهند، ولما رجع الى تونس وقع اسيرا، ثم اعتنق النصرانية والتحق بمدرسة الطب في ساليونو (1060) وترهب في دير مونتي

الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر كانت معلوماتها مضللة منتزعة من الخيال والشائعات، لخص ـ جوناثان سويفت حالة المعارف الجغرافية في ايامه في مقطع نموذجي صغير من الشعر هذه ترجمته:

وهكذا في خرائط افريقيا
يملأ الجغرافيون الثغرات بصورة وحشية
وفي المواقع غير المأهولة
يضعون الفيلة للافتقار الى المدن

وفي ذلك الوقت وجدت في بريطانيا جماعة صغيرة من الرجال يقودهم السير (جوزيف بانكز Sir Joseph Bankes) رئيس الجمعية الملكية، ترى ان استمرار الجهل بدواخل افريقيا عار في جبين عصرهم لابد من ازالته بالطرق والوسائل الفعالة. كونت هذه الجماعة في 9 يونيو 1788 جمعية اطلقوا عليها اسم «الجمعية الافريقية» وتقول الجماعة (رغبة منا في انقاذ الجيل من تهمة الجهل قام نفر قليل... اشتد اقتناعهم بفائدة وفعالية وتوسيع مدى المعرفة البشرية. بتكوين جمعية لتشجيع اكتشاف دواخل افريقيا)[29] وكان الدافع وراء الجمعيات التي تأسست هو احتلال اراض جديدة، وحازت بريطانيا السبق في هذا المجال وخاصة بعد أن فقدت اراضيها في امريكا في حوادث 1770–1776 التي كانت لها بمثابة الكارثة[30] فكانت تتطلع الى مستعمرات جديدة تحل محل تلك التي فقدتها.

وكان الصراع على اشده بين الدول الاستعمارية التي كانت ترعى الرحالة وخاصة فرنسا وبريطانيا فقد احتدم الصراع بين قنصل فرنسا وبريطانيا في طرابلس حول الوثائق التي اختفت بعد مقتل الماجور لاين(*) في غدامس واتهام حسونة الدغيسي بسرقتها وتسليمها الى القنصل الفرنسي روسو[31].

## الصحافة والنوادي ووسائل الاعلام المختلفة:

وهكذا ونتيجة للاعداد الايديولوجي والنفسي من اجل تقبل الحملات العسكرية بدأت تتكون في البلاد الاستعمارية صحف ونواد تقوم بجمع المعلومات عن الاراضي التي يخطط

---

كاسينو ترجم الكثير من الكتب العربية الى اللاتينية توفي سنة (1087) نجيب العتيقي. المستشرقون جـ1 دار المعارف بمصر ط4 ص 110.

(*) الماجور لاين، كشاف انجليزي من شمال بريطانيا وهو اول الاوربيين الذين وصلوا حتى مدينة تمبكتو، ولد بمدينة ادنبره في 27 ديسمبر 1793، وبعد خدماته في غرب الهند انضم الى الفيلق الملكي الافريقي سنة 1822 وقد ارسل في تلك السنة من طرف الحكيم شارل ماكرتي الى بلاد مندوجو لغرضين اثنين: العمل على ازدهار التجارة، والعمل على منع تجارة الرقيق في تلك المنطقة وهناك عثر الماجور لاين على منبع روكل كما قام بدور نشط في حرب آشنتي 1824–1827 ـ وفي ليلة 26 سبتمبر 1826 عندما كان عائدا من تمبكتو اغتيل. اما وثائقه فلم يعثر عليها مطلقا. نشر بلندن سنة 1826 كتابه:

Travels in the timanne korrnke soolivana cauntris in Western Africa. London 1826.

لاستعمارها مثلما تقوم بتهييج الرأي العام داخل بلادها والتأثير على الحكومة والبرلمان، وتغطي اخبار المعارك التي تجري في المستعمرات وتوجه المبررات في استمرار هذه الحروب، ومن اجل التعرف بصورة دقيقة على المناطق التي يخطط لاحتلالها والعمل على إستمالة بعض اهلها كعملاء.

كما أن هذه النوادي تمارس الدعاية الدائمة لحضارة المستعمر ولطول باعه في الصناعة والفنون وعلو كعبه في مجالات العلم والفكر والفلسفة والادب وهي تقوم بنشر لغة المستعمر وآدابه والتعريف بموسيقاه وفنونه كل ذلك ليس اسهاما في إغناء ثقافة أهل المستعمرات ومحاولة رفعهم عن مستوى الجهل بقدر ما هو اعداد لهم لتقبل الوجه الاستعماري والاعتراف الضمني او الصريح بأنه يحمل الحضارة العالمية التي لابد للمستعمَر من قبولها اذا كان يود دخول الحضارة من بابها العريض.

يضاف الى ذلك ان جرى في بعض الاحيان ايفاد بعض أصحاب الأموال لشراء الاراضي والعقارات والاستقرار في الارض الجديدة كما تم تأسيس المصارف من اجل اعطاء القروض للمحتاجين والضغط عليهم في الظروف المناسبة، وكان من بين هذه الوسائل ايضا ايجاد بعض الصناعات في هذه البلاد والحصول على امتيازات شق الطرق او المناجم، وغير ذلك من الوسائل التي تنتهي الى الجزم بأن هذه الدولة او تلك تحتل وضعا خاصا بالنسبة للدولة المستعمَرة.

والذي تجدر الاشارة اليه في نهاية هذا المدخل هو أن هذه الوسائل لم تكن بمجموعها منفصلة منفردة عن بعضها، بل كانت متكاملة تكاد تمثل جسدا متعاونا لخدمة الوسيلة الاساسية للاستعمار وهي الوسيلة العسكرية التي كانت تمثل بصفة دائمة الأداة الفعالة الحاسمة في تقرير نوعية العلاقة بين المستعمرين والمستعمرات والتي كانت ـ كما هو معروف ـ تنتهي الى الاستعباد المطلق عبر بحار من الدماء والفواجع والدموع..

**هوامش**

1 ـ د. جمال حمدان (استراتيجية الاستعمار والتحرر) كتاب الهلال العدد 205 ابريل 1968 ص 103–104 ـ ويعد كتاب جمال حمدان على صغر حجمه واحدا من المراجع الرائدة في هذا الموضوع.

2 ـ من أهم هذه الدراسات جورج انطونيوس (يقظة العرب) تر. ناصر الدين الاسد / د. احسان عباس. دار العلم للملايين بيروت ط4، 1974.

3 ـ المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر تر.د. طلال عتريس (الفكر العربي) السنة الثالثة العدد 21 ص 385 والترجمة مأخوذة عن:

Revue des Universités du Midi, Tom 3
19ème année 1897 p. 206-240.

4 ـ جوناثان سويفت: شاعر ايرلندي هجّاء ولد في ايرلندا عام 1667، وتوفي 1745.
5 ـ د. عماد حاتم (مدخل الى تاريخ الاداب الاوربية) الدار العربية للكتاب 1979 ص 55.
6 ـ لوتسكي (تاريخ الاقطار العربية الحديث) دار الفارابي بيروت ط7، 1980 ص 46، 47.
7 ـ وقبل هذا المنشور كانت ايطاليا قد وجهت انذارها الى تركيا في 27 سبتمبر 1911 مذكرة الباب العالي ان الظروف التي تعيشها طرابلس وبرقة المتمثلة في حالة الفوضى والاهمال وعدم تمتعها بالتقدم الذي تعيشه بقية اجزاء افريقيا الشمالية. كل ذلك يحتم على ايطاليا أن تحتل طرابلس وبرقة، فجاء في هذا الانذار «لم تكف الحكومة الايطالية ابدا خلال سلسلة طويلة من السنين عن تذكير الباب العالي بالضرورة القصوى لوضع حد لحالة الارتباك والاهمال اللذين تركت فيهما كل من طرابلس وبرقة، وان تتمكن هاتان المنطقتان من التمتع بنفس التقدم الذي تحقق في اجزاء اخرى من افريقيا الشمالية.
ان هذا التغيير الذي تفرضه المقتضيات العامة للمدنية يكون بالنسبة لايطاليا مصلحة حيوية من الدرجة الاولى وذلك لقرب هذه المناطق من الشواطىء الايطالية».
8 ـ عبد الرحمن تشايجي (الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى) تر. د. علي اعزازي، مراجعة محمد الاسطى منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي. سلسلة الدراسات المترجمة ـ 4، 1982 ص 129.
9 ـ داروين: تشارلز روبرت (1809–1882) عالم طبيعة بريطاني يعتبر من ابرز علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر، وأبعدهم اثرا في التفكير العلمي والديني، قام برحلة بحرية (1831–1836) زار خلالها جزر الرأس الاخضر Cape Verde Islands) وجزر ازور (Azores) وسواحل امريكا الجنوبية وجمع معلومات غزيرة عن نباتاتها وحيواناتها وطبيعتها الجيولوجية، فكانت تلك الرحلة منطلقا لدراساته الواسعة التي صاغ نتائجها بعد، في النظرية الداروينية (Darwinism) اشهر آثاره في اصل الانواع (On the Origin of species) (عام 1859) ويقول في اصل الانواع وتطورها بأن الكائنات الحية تنزع الى انتاج مواليد تختلف اختلافا طفيفا عن ابائها، وبأن عملية الاصطفاء الطبيعي (Natural selection) تفضي الى بقاء الأصلح أو الاكثر تكيفا مع البيئة وبأن ذلك كله يؤدي في النهاية الى ظهور انواع جديدة لم تكن معروفة من قبل. «عن منير بعلبكي ـ موسوعة المورد. المجلد الثالث، دار العلم للملايين بيروت، ط 1، 1980 ص 155.
10 ـ عبد الرحمن تشايجي. مرجع سابق ص 129.
11 ـ محمد رجب الزائدي، (الغزو الايطالي لليبيا) دائر الكتاب الليبي ط 1، 1974، ص 29–30.
12 ـ جيمس ويللارد (الصحراء الكبرى). مكتبة الفرجاني طرابلس. ط 1، 1976 ص 417.
13 ـ عندما اضرب الطلاب المسلمون في الجامعة الامريكية ببيروت سنة 1909 احتجاجا على اجبارهم على الدخول الى الكنيسة، اجتمعت عمدة الجامعة وأصدرت منشورا طويلا جاء في مادته الرابعة ما يلي: «ان هذه كلية مسيحية، اسست بأموال شعب مسيحي هم اشتروا الارض وهم اقاموا الابنيه، وهم انشأوا المستشفى وجهزوه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر اذا لم يسندها هؤلاء. وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الانجيل من مواده، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ.. وهكذا نجد انفسنا ملزمين بأن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ وان كل طالب يدخل الى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقا ماذا يطلب منه».
المقطع من كتاب التبشير والاستعمار الانف الذكر (ص 105) ومما لا شك فيه ان الجامعات الاخرى التي انشأها الاستعمار (كاليسوعية وسواها) كانت تتجه هذه الاتجاه مضافا اليه الاهداف التجسسية المعروفة.
14 ـ يذكر ويللارد في حديث «ان مارسيال شرع منذ كان فتى في العاشرة يشرح التعاليم المسيحية ويعمد بالقوة جميع اليهود الصغار الذين هم في مثل سنه بشوارع «بايون» واذا رفضوا امسك بهم وضربهم ثم دفع بهم دفعا الى الساقية أو الى بركة ماء ليرشهم بالماء رشا قويا شاؤوا أم ابوا ثم ليلقي اليهم بعد ذلك ببعض الدريهمات كي يكفوا عن البكاء» ص 405.
15 ـ مجاعة الجزائر التي سميت بعام الشر أو سني الجمر.
16 ـ البير ميمي (صورة المستعمِر والمستعمَر). تر. جيروم شاهين. دار الحقيقة، بيروت، ط 1980، ص 98–99.
17 ـ د. مصطفى خالد، د. عمر فروخ. مرجع سابق ص 170.
18 ـ الشيخ عبد الحميد السائح (الاستشراق) بحث مقدم لمؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للامة العربية ـ تونس من 29 مارس الى 3 ابريل 1982.
19 ـ افاق عربية (الاستشراق وورمانسية الشرق. لابراهيم امين المميز) السنة الخامسة عدد (1) سبتمبر 1979 بغداد.

20 ـ الشيخ عبد الحميد السائح. مرجع سابق. عن دراسات في الثقافة الاسلامية ص 212-215.
21 ـ د. محمد عمارة (التراث في ضوء العقل) دار الوحدة بيروت 1980 ص 21.
22 ـ د. صادق جلال العظم (الاستشراق والاستشراق معكوسا) دار الحداثة بيروت 1981 ص 8.
23 ـ المرجع السابق ـ التفسير لادوارد سعيد. عن كتابه الاستشراق.
24 ـ المستقبل العربي (افصاح الاستشراق. د. عزيز العظمة) عدد 32 بيروت 1981.
25 ـ د. صادق جلال العظم مرجع سابق ص 11.
26 ـ الدوحة (المستشرقون والاسلام. د. عبد الجليل شيتي) عدد 52 ابريل 1980.
27 ـ مالك بن نبي انتاج المستشرقين ص 33 عن بحث الشيخ عبد الحميد السائح مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي تونس 1982.
28 ـ جيمس ويللارد مرجع سابق ص 184.
29 ـ رحلتان عبر ليبيا. مكتبة الفرجاني / طرابلس ط 1، 1974، ص 10.
30 ـ جيمس ويللارد مرجع سابق ص 185.
31 ـ انظر د. عبداله التميمي (بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816-1871) الدار التونسية للنشر. البحث المتعلق بحسونه الدغيسي الطرابلسي وقضية مع الماجور لاين. ص 277 الى 324.

# الباب الأول
# الحياة الثقافية في ليبيا
# قبيل الغزو الايطالي

## الفصل الاول

### ملامح الحياة العامة

**المبحث الاول** : الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية .......
**المبحث الثاني** : الجاليات الاجنبية.........................................
**المبحث الثالث**: اللغة.........................................................

# المبحث الاول:

## الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية

استمر الحكم العثماني في ليبيا ثلثمائة وستين سنة بين 1551، 1911م وقد استطاع ان يحتفظ بها لفترة طويلة من الزمن رغم محاولات الاستعمار الغربي، ومن ناحية اخرى دفع بها بسبب سلبيته وعدم فعاليته الى مزيد من الضعف وعدم القدرة على مواجهة القوى الغربية عندما خارت قوى العثمانيين[1].

وكانت البلاد في تلك الفترة قد عانت من ركود احوال الثقافة فيها طيلة الحكم العثماني منذ القرن السادس عشر، شأن بقية الاجزاء العربية، وجاء التخلف الحضاري الذي وقعت المنطقة العربية تحت وطأته قبل ذلك بثلاثة قرون. وهكذا بدأت الاحوال الثقافية في طرابلس الغرب في الربع الاخير من القرن الماضي مظلمة الى حد كبير، ثم لم تلبث ان ظهرت فيها بوارق أمل بفعل محاولات الاصلاح العثمانية من جهة وبروز تيارات اليقظة من جهة اخرى[2].

وتعتبر الفترة الواقعة بين عام (1882–1911) ـ الفترة موضوع هذه الدراسة ـ فترة حاسمة على مدى تسعة وعشرين عاما شهدت تقلبات سياسية واوضاعا مستجدة في الوطن العربي وبصفة خاصة على ساحة الشمال الافريقي من هذا الوطن فقد وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني سنة 1882م. وتونس تحت الاحتلال الفرنسي 1881م. اما الجزائر فقد سقطت قبل هذا الوقت بنصف قرن، ولم تبق الا ليبيا تحت التبعية العثمانية في الشمال الافريقي.

هذه الفترة، كان فيها «الرجل المريض» وهو الاسم الذي اطلقه احد الساسة الانجليز على الدولة العثمانية في طورها الاخير ـ في النزع الاخير فقد استشرى الضعف في كيان الدولة وبدأت المحاولات لانقاذ ما يمكن انقاذه وهو ما يلاحظ ابان حكم السلطان عبد الحميد الثاني أي العهد الدستوري الذي تلاه وكان واضحا أن نهاية الدولة العثمانية باتت وشيكة.

وبين 1835–1911م. تولى شؤون ليبيا ثلاثة وثلاثون واليا[3]، كانت مدة الوالي في هذه الفترة من القصر بحيث لم يكن في استطاعته أن ينجز عملا جديا خلال ولايته، يضاف الى ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الولاة لم يكونوا أكفاء، ولم تكن لديهم القوة الكافية للقضاء على

ثورات الأهالي الذين الفوا الثورة على السلطان[4] والتي قام بها مجموعة من العناصر القوية في المناطق الساحلية وعدد من زعماء القبائل في المناطق الداخلية خاصة في اقليم طرابلس، ولقد جاءت هذه الانتفاضات كرد فعل ضد بوادر الحكم العثماني المباشر من قبل تلك الفئات وتعبيرا عن استيائها من سياسة النخبة العسكرية الحاكمة في فرض السلطة المركزية عن طريق القوة واستخدام الوسائل القمعية[5] وكان أهم هذه الثورات، ثورة عبد الجليل سيف النصر في فزان وسرت (1831–1842م) وثورة غومة المحمودي (1835–1858)[6] في الجبل الغربي، وآل الأدغم في مصراته وآل المريض في ترهونة.

وتعرضت البلاد ايضا للمجاعات، بسبب قلة الامطار وزادت الحالة سوءاً بانتشار الكوليرا في طرابلس سنة 1850م[7]. وفي الوقت نفسه كانت الوسائل الصحية معدومة في ولاية طرابلس الغرب لعدم وجود المباني والاطباء لعلاج المرضى، باستثناء مستشفى صغير في مدينة طرابلس وآخر في بنغازي لعلاج الجنود والموظفين العثمانيين ومستشفى يضم مائة سرير تابع للجاليات الاجنبية بطرابلس. لهذا كانت الامراض تفتك بالناس فتكا شديدا حيث فتك الطاعون بالاف الضحايا[8].

الى جانب ذلك كانت سلطة الوالي محدودة فقائد الجيش والمحاسب والقاضي خارجون عن سلطته[9].

وهذه الفترة التي نتحدث عنها كانت مرحلة ازدهار تجارة القوافل، وخلالها اقبل الاوربيون على مرحلة جديدة من مراحل التمهيد الاستعماري وهي «اكتشاف» اواسط افريقيا عن طريق تتبع طرق القوافل، وأصبحت طرابلس في نظر الاوربيين على جانب كبير من الاهمية فهي كما قال (كوبر Couper) الذي زار ليبيا سنة 1895–1896.

«واحدة من اقدم البوابات التي تتدفق منها ثروات افريقيا الى حضن اوروبا، وفيها تتمركز خطوط التجارة من بورنو، وبحيرة تشاد، ووادي، وتبيستي، وتمبكتو، ودارفور، اي من جميع البلاد الخصبة في السودان فهي اقرب مخرج على المتوسط لهم».

وبدأ بعض الاوربيين يضعون تقديرات للتجارة ويفسرون نموها، بأنه جاء نتيجة لوقوع حروب استعمارية بين الافارقة والاوربيين عند كثير من المخارج التجارية الاخرى لمناطق افريقيا السوداء، وتفيدنا الوثائق الدبلوماسية، مع وجود التمثيل القنصلي، في انها قد سجلت لنا شيئا عن هذا النشاط التجاري ولقد ذكر «ليميه» (M. Lemey) قنصل فرنسا في طرابلس سنة 1838.

«انه كان يرى في كل عام من ست الى ثماني قوافل كبيرة يتراوح عدد الجمال فيها ما بين الألف وثلاثة آلاف»[10].

وسرعان ما اضمحلت هذه التجارة في طرابلس في اواخر القرن التاسع عشر، فقد تحولت من طرابلس الى مخارج اخرى، كما يقول كوبر: لاسباب مختلفة ومنها المشاريع الفرنسية في

تونس وقد اصبحت صادرات تونس اربعة اضعاف تجارة طرابلس وثانيها اغلاق بورنو بسبب وجود الرياح[11]. وقد هبطت ارقام التجارة في هذا العقد من القرن الماضي من 40 الف جنيه تركي الى ما يقرب من 24 الفا[12].

ولا شك أن هذا التدهور سببه احتلال معظم سواحل افريقية من الدول الاوربية، وقضاؤها على المقاومة الوطنية فيها، وعملها على تحطيم الاسس التي يستند اليها الاقتصاد الافريقي في ذلك الوقت، ونلاحظ أن احتلال الفرنسيين لتمبكتو ـ عاصمة السودان الغربي ـ قد ادى الى قطع وصول تجارة هذه الاقاليم الى بلاد المغرب، بل حولها صوب غرب افريقية.

وكذلك ادى دخول الفرنسيين الى النيجر، وتحويل تجارة هذا الاقليم، ووقوع الشيء نفسه بالنسبة لتجارة المناطق التي خضعت للنفوذ البريطاني مع نيجيريا، والتي عمدت بريطانيا بدورها الى جذبها خارج القارة الافريقية من موانىء تقع على المحيط الاطلسي، وجاء توغل الدول الاوربية في غرب القارة الافريقية ممهدا لفتح طرق تجارية جديدة والابتعاد بتجارة هذه الاقاليم عن بلاد المغرب البيضاء وافريقيا البيضاء[13].

وبينما كانت الدول الاوربية تضع مخططات التوسع الاستعماري وتعمل بمختلف الوسائل لتحقيقها كانت الدولة العثمانية تتجه الى تثبيت أقدامها وهيمنتها بالوسائل القمعية وفرض مختلف الضرائب[14] على الاهالي وجمع التبرعات، فمرة لسكة الحجاز وأخرى لانعاش الاسطول العثماني الذي اصابه الوهن، ولقد نظر معظم المؤرخين الى الحكم العثماني في كل مكان على انه كان حكما ضعيفا وقاسيا ونسبوا ضعفه الى عدم تمكنه من حسن السير بادارة البلاد ونسبوا قسوته الى ان الادارة العثمانية كانت تحاول جمع اكثر ما يمكنها جمعه من الضرائب، والى التشديد في طلب جمعها وفي وقت قلت الاموال في ايدي دافعيها انفسهم[15].

«واستمر الترك في هذا النمط من الحكم: فوضى في الحكم، وسلب في الاموال بالضرائب الفادحة، والغصب، وعدم الاهتمام بالاصلاح، فتفشى في الشعب الجهل لانعدام المدارس، وتمكن فيه الفقر لقلة التجارة والزراعة، وانعدمت الصناعة وكثرت فيه الأمراض لقلة الأطباء، وأصبح الناس في حالة دونها كل ما يتصوره الانسان من حالات البؤس[16].

وهذه الاوضاع المتردية، كانت سببا في استمرار تدخل الدول الاجنبية في شؤون الولاية والذي بدأ في العهد القره مانلي وازداد قوة، وقد برزت في البلاد خلال هذه الفترة بعض الانجازات من ثمار حركة الاصلاح والتجديد، وأولت الدولة العثمانية اقليم برقة اهتماما خاصا عند قيام الحركة السنوسية فيه فربطته باستانبول تمشيا مع سياسة المركزية وذلك عام 1863[17](*).

وبحكم موقع طرابلس وبرقة على طريق الحج الموصلة بين بلاد المغرب وبين مصر، واحتكاك هاتين المنطقتين بمختلف الافكار والاتجاهات الدينية التي كان يعيشها العالم الاسلامي ظهر عدد من الطرق الصوفية فيها، وانتشر في كل مكان. وقد ذكر منها الحشائشي في رحلته الى

(*) أصبحت بنغازي تابعة لاستانبول مباشرة في سنة 1843، وليس كما ذكر أحمد صدقي الدجاني.

ليبيا الى جانب السنوسية السلامية والعروسية والمدنية والزروقية والتيجانية والرحمانية والقادرية والشاذلية والعيساوية والطيبية، ونافست الطريقة التيجانية الطريقة السنوسية في الانتشار خصوصا في واداي[18].

ومن اهم الملامح التي اتسمت بها الحياة الثقافية العربية في تلك الفترة ظهور اليقظة العربية الحديثة واشتداد النضال الفكري[19] من خلالها، فقد شهدت منطقة الوطن العربي وهي تموج بتيارات اليقظة العربية، التي بدت ملامحها قبل قرن والتي عملت على اخراج الامة العربية من ظلمات انحطاط دام عدة قرون[20].

وهي الفترة التي بدأت فيها ايطاليا تمهد لاحتلالها لليبيا عبر اجهزتها الثقافية والاقتصادية في محاولة احتوائها وضمها الى احلامها التوسعية في منطقة البحر المتوسط وافريقيا، واعادة ما اسمته بامجاد روما العظيمة على ضفاف الشمال الافريقي.

هذه الاوضاع جميعها، والمتناقضة الى حد بعيد، انعكست انعكاسا سلبيا على مظاهر الحياة العامة التي اتسمت بالركود والجمود والانحطاط وخاصة منها الحياة الثقافية التي كانت في تركيا وولاياتها في منتهى الضعف، وكان الجهل منتشرا بين كل المسلمين[21] لاسيما ليبيا التي غابت عنها حضارة هذه الفترة التي انتعشت وازدادت ازدهارا، والتي وصفها الحشائشي بقوله:

«أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم ولا يشمون لها رائحة، كما لا توجد عندهم علماء اعلام من فقهاء الاسلام على ان هاته المدينة اشتهرت باكابر من علماء المحمدية كالفقيه ابي علي الحسن بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي[22].

ويصف بنغازي بقوله «ليست لهم الا صناعة الفلاحة، وأهل هاته المدينة لهم همم عالية، وسيرة مرضية مولعون بحب الاطلاع على احوال غيرهم من امم المشرق والمغرب، فرأيت لهم عزما عظيما وتولعا بحب قراءة الصحف[23].

وكان المستوى الثقافي محدودا ـ يقول الاستاذ علي مصطفى المصراتي ـ والادب له مناخه التقليدي، والدراسات ذات مناهج تستمد حيويتها من كتب الشروح والحواشي والمنقولات، ولولا الاشعاعات التي كان يرسلها الازهر في مصر والزيتونة في تونس، وجامعة القرويين في فاس، ولولا التعليم الديني في الزوايا والمعاهد مثل الزروق، والاسمر، ومعهد احمد باشا ومدرسة عثمان باشا والجغبوب وغيرها في انحاء الوطن، لولا هذه الاشعاعات لقضي على الفكر ودراسات العربية وآدابها[24].

جردت ليبيا في هذه الفترة من كل الوسائل التي يمكن ان تدفع بعجلة التقدم، ومواكبة حركة العصر فالاهمال والفوضى في كل مكان وفي كل مرفق، ويتحدث الاستاذ الطاهر الزاوي عن هذا التأخر في طرابلس فيقول: «لا يوجد فيها من انواع المواصلات الا طرق القوافل التي آلفها الناس منذ مئات السنين ولا يوجد فيها من وسائل النقل الا الجمال، ولا يوجد فيها شيء من انواع التعليم، والى سنة 1945 لم تنجب طرابلس محاميا حقوقيا ولا قاضيا قانونيا ولا طبيبا جامعيا، ولا مهندسا معماريا[25].

«وجاءت سياسة الاتحاديين بعد اعلان الدستور في 24 يوليو 1908 ـ فيما يخص ليبيا ـ تكريسا لهذا الضعف فجردوها مما بقي فيها من جند وسلاح، وكانت وزارات الحكومة العثمانية المختلفة لا تدخر وسعا في تحسين حالات الولايات العثمانية التركية وتحصينها، الا طرابلس فقد اهملوها في كل شيء من المعارف والمواصلات، والزراعة، ووسائل الدفاع، وكل مرافق الحياة الهامة»[26].

والى جانب اهتمامها بالولايات العثمانية التركية، اولت اهتماما كبيرا للولايات العثمانية في اوربا حتى تظهر للدول الاوربية الاخرى التي بدأت تطمع في اقتسام تركة الدولة العثمانية مدى حرصها في تطوير هذه الولايات والرفع من مستواها حضاريا، فانتشر فيها التعليم العصري حتى الجامعات، وطرق المواصلات الحديثة مع وسائلها الراقية الى غير ذلك.

ولم تكن السلطة العثمانية ترغب في اصلاح الاحوال في ليبيا التي فسدت وترهلت كثيرا، بل تعمدت ان تستمر فيها هذه الحالة السيئة التي تفتقر الى مسببات الحياة واستمرارها، حتى تكون معتقلا كبيرا لتعذيب وايواء المنفيين والمطرودين الذين شقوا عصا الطاعة وتمردوا على السلطان من مختلف الولايات العثمانية في اوربا والشام وتركيا[27].

★ ★ ★

واذا كان هذا وصفا مجملا للحياة في طرابلس الغرب حسبما انتهت اليه ابان العهد العثماني الثاني، فأننا سنتناول فيما يلي وبشيء من التفصيل بعض الجوانب الاخرى ذات العلاقة بالوضع الثقافي للبلاد ونقصد بذلك موضوعين «الجاليات الاجنبية في البلاد واللغة» وذلك لننتقل بعد ذلك الى دراسة الموضوعات الثلاثة التي تمثل وجه الحياة الثقافية في البلاد وهي ـ الصحافة، الادب، والتعليم محاولين ان نتوقف أمام كل منها بقدر اكبر من التفصيل.

**هوامش**

1 ـ محمد انيس الدولة العثمانية والمشرق العربي 1504–1914 مكتبة الانجلو المصرية ص 4.

2 ـ احمد صدقي الدجاني. ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي ط 1 / 1971، ص 30–31.

3 ـ خلال الفترة من 1882 حتى 1911م تولى شؤون ولاية طرابلس تسعة ولاة ويمكن تقسيم هذه الفترة الى فترتين، الاولى ومدتها 14 سنة تولاها (أحمد راسم) من سنة (1882–1896م، 1299–1314هـ) والثانية ومدتها 15 سنة (وتعاقب عليها ثمانية ولاة على النحو التالي:

1 ـ سليمان نامق باشا (1896–1898، 1312–1314 مالية. سنتان.
2 ـ هاشم باشا (1315–1317هـ، 1314–1315 مالية، (1898 مالية) سنة واحدة وشهران.
3 ـ حافظ باشا (1318–1320هـ، 1315–1318 مالية، 1900–1902) سنتان.
4 ـ حسن حسني (1320–1318هـ، 1318–1320 مالية، 1902–1904) أقل من سنتين.
5 ـ رجب باشا (1322–1326هـ، 1904–1908) اربع سنوات.
6 ـ احمد فوزي (19 كانون الثاني 1325–18 ايلول 1325) تسعة شهور.
7 ـ حسن حسني (1325–1326 مالية، 1909–1910) أقل من سنة.
8 ـ ابراهيم ادهم (1326–1327 مالية ـ 1910–1911م) أقل من سنة.

= الا أنه من الملاحظ ان قصر مدة الوالي في الحكم لم تكن دائما من الاسباب التي دفعت بالولاة الى اهمال شؤون الولاية والاهتمام بمصالحهم الخاصة، ففي عهد الوالي نامق باشا الذي حكم الولاية أقل من سنتين،

شهدت البلاد ازدهارا في الحياة الصحافية والثقافية، اذ صدرت في مدينة طرابلس جريدة الترقي لصاحبها الشيخ محمود البوصيري، ومجلة الفنون لصاحبها داود افندي. وقد حملت هذه الصحف ـ كما سنعرف بعد قليل ـ لمحات من الروح الثقافية التي كانت سائدة لدى المثقفين في ذلك الوقت وعبرت الى حد ما عن المشاكل والقضايا التي كانت تشغلهم، واسهمت بشكل واضح في تطوير الحركة الثقافية والفكرية في البلاد.

= يتضح من خلال استعراضنا لسنوات حكم الولاية في طرابلس ان الحكومة العثمانية كانت تستخدم تأريخا ثالثا بالسنة المالية وكان شائعا في الاوراق الرسمية كما سنجد في تاريخنا بعض الوثائق في هذه الدراسة وهذا التاريخ يعتمد السنة الشمسية وشهوره هي: مارث ـ نيسان ـ مايس ـ حزيران ـ تموز ـ اغستوس ـ ايلول ـ تشرين أول ـ تشرين ثاني ـ كانون أول ـ كانون ثاني ـ شباط ـ، وتبدأ السنة المالية بشهر مارث وكانت الدولة تعمم جدولا يطابق بين السنوات المالية والسنوات الهجرية، لتسهيل الامر على ماموري الضرائب، وغيرهم من الموظفين المطالبين باستخدام تاريخين) عن احمد صدقي الدجاني. مرجع سابق ص 10.

4 ـ شوقي الجمل (تاريخ كشف افريقيا) مكتبة الانجلو المصرية 1971 ص 371.

5 ـ عبدالله علي ابراهيم (اثر النظم السياسية والادارية في العلاقات الليبية العثمانية في القرن التاسع عشر) بحث مقدم الى مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية) مركز دراسات جهاد الليبيين، ديسمبر 1982.

6 ـ انظر ملف ثورة الجبل وملف غومة المحمودي أرشيف المحفوظات التاريخية طرابلس وعن ثورة غومة المحمودي انظر، محمد أحمد الطوير (ثورة غومة المحمودي) رسالة ماجيستير غير منشورة، جامعة الفاتح، كلية التربية، علي مصطفى المصراتي غومة فارس الصحراء، مكتبة الفكر طرابلس، 1960.

7 ـ شوقي الجمل. مرجع سابق ص 371.

8 ـ محمد احمد الطوير (الحركات الاستقلالية في الوطن العربي ضد الحكم العثماني واسبابه) من ابحاث مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية، مركز دراسات جهاد الليبيين بطرابلس ديسمبر 1982.

9 ـ انظر محيي الدين صبحي (ملامح الشخصية العربية) الدار العربية للكتاب ط 1 مالطا 1981 ص 125.

10 ـ جلال يحيى (المغرب الكبير) جـ3 الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1966 ص 696–697 عن:
PINON. Romes (L'Empire de la Méditerranée) Paris 1912 - p. 312.

11 ـ احمد صدقي الدجاني. مرجع سابق ص، 252–253.

12 ـ جلال يحيى ـ مرجع سابق، ص 697 GAGHIA AJ (LIBYA UNDER THE).

13 ـ المرجع السابق نفس الصفحة.

14 ـ تتعدد الضرائب في العهد العثماني حتى تزيد عن ستة عشر نوعا، منها ضريبة الجمارك، والمتاجرة، والمقاهي والعقارات، وختم المعادن الثمينة وضريبة المكوس عن الاسواق، وضريبة الاعفاء من الخدمة العسكرية، وضريبة الراس، وضريبة راس الحيوان، وضريبة الاشجار، وضريبة الابار، وضريبة تسجيل البيع، وضريبة الدخل والارث، وضريبة اللزمة، وضريبة العشر، وهذه الاخيرة من اهم الضرائب المنتظمة (وهي دفع عشر المنتوج) وتجبى عادة عينية من نوع المنتوج وفي بعض الاحيان نقدا (وتسمى في هذه الحالة بدل عشور او عشور السكاك).
وكان الهدف من الضرائب الى جانب جمع الاموال لصالح الادارة العثمانية السيطرة وتأديب مناطق الدواخل والساحل التي تندلع فيها الثورات وتعتبر السلطة العثمانية القدرة على جباية الضرائب الاختبار الاول للسيطرة السياسية والاهم من ذلك فقد استخدمت الضرائب خلال الاربع السنوات الاولى من اندلاع الثورات في منطقة طرابلس كسلاح رئيسي لاخضاع القبائل التي كانت تقاوم الحكم العثماني ـ لمزيد من التفاصيل ـ انظر (د. ريتشارد نبيل ـ الضرائب في ليبيا ـ بحث التي في مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية التركية.

15 ـ جلال يحيى ـ مرجع سابق ص 797.

16 ـ الطاهر الزاوي ـ جهاد الابطال في طرابلس ط 2 بيروت 1970. ص 19، 20.

17 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 30.

18 ـ رحلة الحشائشي الى ليبيا، تح (علي مصطفى المصراتي) دار لبنان للطباعة بيروت ط 1 1965 ص 163.

19 ـ بدأت اليقظة العربية في بلاد الشام في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر عندما تمكن محمد علي من ضم بلاد الشام الى مصر في دولة واحدة (1831–1840) ولكن التنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا جعله يحلم بعودة بلاد

الشام الى السيادة العثمانية مرة اخرى في عام 1840م وفي عهد حكومة محمد علي شهدت بلاد الشام تغييرات كثيرة في مختلف مجالات الحكم والادارة وكان لسياسة التسامح التي سار عليها ولده ابراهيم باشا في بلاد الشام اثر كبير في النهضة الثقافية التي ستزدهر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث ادى التسامح الى فتح الباب واسعا امام البعثات الاجنبية.

وفي عام 1834 قام ابراهيم باشا بتطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي للذكور في بلاد الشام على نمط النظام الذي اقره ابوه في مصر. وعلى الرغم من قصر الفترة التي طبق فيها هذا النظام فقدكان تجربة ضرورية للغة العربية مرة أخرى لمكانتها اللائقة بها. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهدت بلاد الشام حركة تعليمية نشيطة خلال الفترة السابقة تمثلت في نهضة اللغة العربية وآدابها. ومن اهم مميزات هذه النهضة انشاء المدارس على النمط الاوربي وانتشار الطباعة والصحافة والجمعيات الادبية والعلمية. ففي عام 1878 كان في بلاد الشام عدد من المدارس الرسمية والخاصة وجامعتان وعدد من المعاهد العالية، وعشرات المطابع الرسمية والخاصة، وعدد قليل من الصحف والمجلات.

20 ــ انظر يقظة العرب «جورج انطونيوس» مرجع سابق، تر. د. ناصر الدين الاسد د. احسان عباس دار العلم للملايين بيروت ط 4–1974 ص 67 وما بعدها.

21 ــ منصور عمر الشتيوي، الغزو الايطالي لليبيا، مكتبة الفرجاني ــ طرابلس 1970 ط 1 ص 41.

22 ــ رحلة الحشائشي مرجع سابق ص 67.

23 ــ المرجع السابق ص 89.

24 ــ تقديم علي المصراتي لديوان مصطفى بن زكري مكتبة الفكر طرابلس ط 1 بيروت 77 ص 8.

25 ــ الطاهر الزاوي مرجع سابق ص 30.

26 ــ المرجع السابق نفس الصفحة.

27 ــ انظر ملف المنفيين، ارشيف المحفوظات التاريخية، طرابلس.

## المبحث الثاني:

# الجاليات الاجنبية

### 1 ـ الجاليات الأوربية:

لم تعرف ليبيا احصاء شاملا للسكان الا في الآونة الاخيرة، في الوقت الذي اجريت فيه عدة احصاءات للسكان في مدينة طرابلس وحدها دون سواها وأول تعداد سكاني جرى في هذه المدينة كان في سنة 1899م. وذلك بقصد معرفة العدد الحقيقي للسكان من جهة، ومن جهة اخرى لوضع نظام ضربي الا ان الاحصاء الفعلي والدقيق تم في سنة 1909–1911 اي قبل الاحتلال الايطالي مباشرة، وكان يشمل السكان والمنازل والفنادق وغيرها من المرافق الحكومية وشبه الحكومية، وكانت نتائج الاحصاء كالاتي[1]:

30,000 نسمة عدد سكان مدينة طرابلس (المدينة القديمة والمنشية) منهم 19,500 مسلم، 6,500 يهودي و4000 اوربي، وكان يوجد داخل مدينة طرابلس الادارية 29 مسجدا و5 كنائس و7 معابد يهودية، ومدرسة يهودية ومدرسة اعدادية و19 مدرسة ابتدائية و20 مخبزا و22 طاحونة و1019 متجرا و22 مقهى و14 فندقا و2453 منزلا و7 قنصليات اجنبية[2].

### 2 ـ الجالية اليهودية:

من خلال الاحصائيات يتبين أن الجالية اليهودية كانت واحدة من اكبر الجاليات في طرابلس، اذ بلغ عدد افرادها حسب احصائية (فرانشيسكو كوليتي C. FRANCISCO) سنة 1911، 8609 يهودي، وجاء في تقرير الايطالي (اردونيو جوفانانجلي Arduino GIOVANGELI) الذي يعمل في بلدية طرابلس في العهد الايطالي ـ عن السكان في ليبيا حول اصل الجالية اليهودية ـ «ينحدر بعض يهود طرابلس من اولئك الذين استوطنوا بافريقيا منذ عهد الامبراطور الروماني قسياسيانوس، وبعضهم من اللاجئين الذين نزحوا عن اسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر هربا من الوحشية والاضطهاد الديني الذي تعرضوا له مع المسلمين بعد سقوط غرناطة في ايدي النصارى في سنة 1492م[3].

ويؤكد هذا الرأي (هنريكو دي اوغسطيني) اذ يقول: «في العهود الاولى للفتح العربي

(القرن السابع الميلادي)، كان العنصر اليهودي منتشرا في كافة ارجاء افريقية الشمالية، وينقسم الى اصلين متميزين: يهود ساميون وهم يهود وافدون على البلاد اما من برقة التي استقروا بها منذ العهد الروماني أو من اسبانيا، او وفدوا عليها من فلسطين مباشرة[4](*).

وتمتاز هذه الطائفة بكل خصائص ومميزات الجنس اليهودي من نشاط ولاسيما في تجارتي الجملة والقطاعي على السواء والتجول (الطوافة ويتعاطون مختلف الصنائع) وكما يقول (اردونيو)، هناك فارق بين هؤلاء ويهود ايطاليا ففي طرابلس عدد كبير من اليهود يتعاطون احقر انواع الحرف الشيء الذي لا يوجد بين يهود ايطاليا[5].

ومعظم اليهود يتجمعون في الحارتين الكبيرة والصغيرة حيث يعيشون في ظروف وأحوال سيئة جدا. وفي فوضى لا يكاد يتصورها العقل.

هذا وكان هناك ميل واضح بين الاسر اليهودية في الابتعاد عن الحارة والانتقال الى احياء مسيحية، الأمر الذي كان يلاحظ على الاسر عندما تحقق مبلغا من المال والثراء، كما كان الميل ظاهرا لتحسين احوالهم المعيشية، كلما وجدوا الى ذلك سبيلا[6].

وكان لهذه الجالية مدارس ومكتبات[7] خاصة بها، وكان لها معابد، وكانت تمارس حياتها وفق تقاليدها الموروثة، ورغم ان معظم افراد الجالية رعايا للدولة العثمانية الا ان ايطاليا نجحت في استقطابهم اثناء تمهيدها لغزو البلاد.

## (*) القول اوغلية:

اذا استثنينا الاتراك الذين كانوا يشكلون جالية كبيرة نسبيا في بادىء الامر والتي تتمثل في رجال السلطة وكبار الموظفين والجند، باعتبارهم من غير العناصر الوطنية فقد ادخل هؤلاء الاتراك فئة اخرى يمكن ان تشكل جالية لها نمط خاص في حياتها، وتتكون هذه الجالية من ابناء الجند أو ابناء العبيد الذين عرفوا (بالقول اوغلي) أو جند الانكشارية، وقد كانت لهم مكانة مرموقة تأتي في المرتبة الثانية بعد العنصر التركي، وقد استخدموا في قمع الانتفاضات ضد السلطة العثمانية، واستغلوا هذه المهمة القمعية اثناء جباية الضرائب في الاستحواذ على الاراضي التي تتميز بالخصوبة والغنى. فكان وجودهم ملموسا في المناطق الزراعية مثل تاجوراء والنواحي الاربع وزليطن ومصراته والخمس والزاوية.

بالاضافة الى ذلك كانت توجد مجموعة كبيرة من الجاليات الاجنبية التي تزاول التجارة والحرف اليدوية والتعليم والتبشير مثل الجالية الايطالية والفرنسية والانجليزية والنمساوية والاسبانية والالمانية واليونانية والمالطية.

---

(*) اليهود الذين وفدوا من اسبانيا. هم (السفاراديم) وهو لقب مشتق من كلمة اسفاراد في العبرية وتعني اسبانيا، وتطلق كلمة السفاراديم على اليهود الشرقيين عامة. أما اليهود الذين هاجروا من وسط اوربا وخاصة من المانيا يطلق عليهم (الاشكناز) انظر، عبد الوهاب وهب الله (الاستيطان اليهودي في الأدب الصهيوني) دار الكلمة للنشر، بيروت 1982 ص 11 وما بعدها.

وتمتعت هذه الجاليات بامتيازات هامة بسبب تمتعها دون غيرها من السكان الوطنيين بالحماية الايطالية والانجليزية والفرنسية[8] وغيرها.

## (*) الجالية الايطالية:

في سنة 1900 كان عدد الايطاليين المقيمين في ليبيا 1100 شخص منهم 930 في طرابلس و120 في بنغازي وعشرون في كل من الخمس ودرنة وعشرة في مصراته[9].

وفي سنة 1911 كان عددهم في طرابلس 818 وبنغازي ودرنة 112، والجالية في بنغازي او طرابلس تمارس مهنا وحرفا متنوعة، وقد كانت الجالية الايطالية اكثر الجاليات في المنطقة اهمية سواء من الناحية الثقافية او الاقتصادية فقد كانت الوحيدة التي لها عدد وافر من المدارس والمعاهد الخيرية[10] كما سنرى فيما بعد.

ويشير (ميدانا MEDANA) القنصل الايطالي في تقرير له قبل بضع سنوات من الاحتلال الى ان اوضاع الجالية ظلت منذ أكثر من عشرين سنة ثابتة، وكذلك الوضع بالنسبة للجالية في بنغازي، وأسباب هذا الجمود في رأي هذا الدبلوماسي:

* انعدام الاشغال العامة.
* ضعف المبادرات الخاصة لضعف مردود الاستثمار في الصناعة والتعمير.

وتنتسب الجالية الايطالية في طرابلس الى اصول بعيدة ترقى تاريخيا الى القرون الوسطى الى عهد التجارة الكبرى مع اسبانيا[11].

## (*) الجالية البريطانية:

كان معظم افرادها من المالطيين، وكان بعضهم من اهل جبل طارق، ويهود مراكش، وكانت هذه الجالية تسيطر على الصناعة والتجارة بواسطة شركاتها ومؤسساتها. وفي سنة 1911 رحل بعض المالطيين الى تونس بعد أن اخذت حركة التجارة تنشط فيها فأصبح عدد افرادها في طرابلس نتيجة لذلك 265 شخصا[12].

## (*) الجالية الفرنسية:

كان عدد افراد الجالية الفرنسية 700 شخص وتشتغل هذه بكافة انواع التجارة، ولهذه الجالية مدارس وكنائس ونواد.

وتأتي بعد ذلك الجاليات الاخرى وهي محدودة العدد وكانت على النحو التالي:

* الجالية الاسبانية: عدد افرادها سبعون شخصا في كامل ليبيا.
* الجالية اليونانية: يتجاوز عدد افرادها المائة بقليل ويشتغلون بصيد الاسماك والاسفنج، ولهم ايضا كنيسة خاصة بهم.
* الجالية الالمانية والنمساوية: كل افراد هذه الجالية من اليهود وعددهم 80 شخصا رحل الكثير منهم فيما بعد الى بلادهم[13].

وباستثناء الجالية اليهودية التي تعتنق الديانة اليهودية والقول اوغلية الذين يدينون بالاسلام، فجميع الجاليات تعتنق المسيحية فكان من بين افرادها الكاثوليك والاغريق الارثوذكس والبروتستانت، وتدار شؤون الكاثوليك ـ وهم الاكثرية ـ بواسطة الارساليات التي جاءت الى طرابلس منذ سنة 1640م. ورئيس هذه الارساليات قسيس بدرجة مندوب رسولي، اما الاغريق الارثوذكس فأغلبهم من رعايا الدولة العثمانية وكانوا يتبعون روحيا بطريرك الاستانة الذي يوفد (اشمندرينا) لتمثيله والقيام في الوقت نفسه بالشؤون الروحية للجالية، وكان البروتستانت قلة وليست لهم كنيسة خاصة.

**هوامش**

1 ـ بلدية طرابلس في مائة عام. مجلد صدر عن البلدية سنة 1970م، ص 50.

2 ـ من خلال تتبعنا للاحصاءات التي نشرت في بعض الكتب الايطالية التي اهتمت بدراسة هذه الفترة نجد اختلافا بسيطا عن هذه الاحصائية في عدد السكان والمرافق الاخرى فقد ورد في كتاب فرانشيسكو كورو (ليبيا اثناء العهد العثماني الثاني) أن عدد السكان في طرابلس في سنة 1911 بلغ 29869 نسمة منهم 19409 مسلمون و6460 يهود و4000 اوربيون، وكان في طرابلس 2750 منزلا و3309 دكاكين و35 فندقا، 72 مقهى و95 حانة و3 هوتيلات و5 لوكاندات و2 سينما، ومسرح واحد وطاحون بخاري، و45 طاحونا تدار بالجمال و43 فرنا و4 مصانع للصابون، 3 مدابغ، 33 مسجدا، 22 كنيسة يهودية (هذا العدد مبالغ فيه ولعله يقصد جميع الكنائس اليهودية الموجودة في انحاء ليبيا) كنيسة كاثوليكية كنيسة ارثوذكسية، 21 ضريحا لولي، 5 زوايا، 5 مدارس ايطالية، مدرستان فرنسيتان، 3 معاهد اسلامية، كلية عسكرية تركية، مدرستان يهوديتان، 21 مدرسة قرآنية، مدرستان قرآنيتان للبنات، معهد عال لتعليم العلوم الدينية، 6 مدارس ابتدائية ومتوسطة تركية نظامية، مستشفى مسيحي، مستوصف ايطالي، 5 صيدليات، 3 حمامات تركية، مستشفى للبلدية وآخر عسكري.

ونشر (فرانشيسكو كوليتي FRANCESCO COLETTI) في كتابه (La Tripoli settentrionale e causa sociale) pp. 225-254 الاحصائية التالية:

| الجنس | مسلمون | يونان ارثوذكس | ارمن | يهود | كاثوليك | لاتين | كلدان | المجموع |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ذكور | 10362 | 121 | 63 | 4292 | 4 | 4 | 3 | 14849 |
| اناث | 10442 | 115 | 30 | 4317 | 3 | 4 | 3 | 14912 |
| المجموع | 20802 | 236 | 93 | 8609 | 7 | 8 | 6 | |
| المجموع الكلي | | | | | | | | 29761 |

3 ـ بلدية طرابلس في مائة عام، عن تقرير (اردونيو) بلدية طرابلس من 1912–1925، ص 50–51.

4 ـ هنريكو دي اوغسطيني ـ سكان ليبيا ـ تر. خليفة التليسي دار الثقافة بيروت 1975 ص 64.

5 ـ بلدية طرابلس في مائة عام ص 220.

6 ـ المرجع السابق ص 220.

7 ـ كان لليهود مدرستان أهمها المدرسة التي انشئت في العام 1898 والتي تخبرنا عنها الوثيقة رقم 393 في ارشيف المحفوظات التاريخية وموضوعها اليهود في طرابلس ـ جاء فيها: ورقة التحقيقات الاساسية الخاصة بالمدارس التي سترتبط برخصة رسمية، وليس من اليسير ملاحظة التوجيه اليهودي المتميز في المناهج التعليمية لهذه المدرسة.

مكان المدرسة: في منزل قرجي الكائن بزقاق كلهان المحامي بطرابلس رقم المدرسة 52.

اسم المدرسة: الإليانس ايزرائليات للبنات (الاتحاد الاسرائيلي).

نوعها: نهاري أي خارجي.

درجتها: ابتدائية شرط تأسيسها لتدريس الاطفال من كل الملل.

تاريخ انشائها 1898.

مدة الدراسة: خمس سنوات.

مؤسسها: جمعية الاتحاد الاسرائيلي.

| اسماء المعلمين | تابعيتهم | مكان وتاريخ الشهادة التي حصلوا عليها |
|---|---|---|
| المديرة/كلير ليوي تدرس الفرنسية | فرنسية | من دار المعلمين في الاليانس ايزرائيليات / باريس 1890 |
| معلمة الخياطة مدام صراف | ايطالية | |
| مدرس العبرية. نسيم مازوز | عثماني | من رئاسة حاخامية طرابلس |

| الكتب التي تدرس | اللغة المكتوبة بها | الكتب التي تدرس | اللغة المكتوبة بها |
|---|---|---|---|
| القراءة | فرنسية | القراءة | ايطالية |
| قواعد اللغة الفرنسية | فرنسية | اصول التحدث | فرنسية |
| تاريخ بني اسرائيل | فرنسية | الف باء | فرنسية |
| القراءة | ايطالية | التراث | عبرانية |

الهيئة التدريسية والمؤلفون كلهم يهود والكتب مطبوعة في استانبول وباريس وميلانو. تر. عبد السلام أدهم.
وبالنسبة لمكتبات اليهود: انظر الفصل الرابع ـ المبحث الثالث ـ من هذا الباب.

8 ـ محمد احمد الطوير ـ الحركات الاستقلالية في الوطن العربي ضد الحكم العثماني واسبابها ـ مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية ديسمبر 1981.

9 ـ محمود حسن سلمان ـ ليبيا بين الماضي والحاضر ـ، مؤسسة سجل العرب القاهرة 1962 ص 211.

10 ـ فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 24-25.

11 ـ فرانشيسكو كورو (ليبيا في العهد العثماني الثاني) ترجمة خليفة التليسي. مكتبة الفكر. طرابلس ط 1 ص 25.

12 ـ د. محمود حسن سلمان مرجع سابق ص 211.

13 ـ د. محمود حسن سلمان المرجع السابق ص 212.

## المبحث الثالث:

### اللغة

امتد نفوذ اللغة التركية في أرجاء الوطن العربي فزاحمت العربية حتى تراجعت هذه وتدنى مستواها وأسلوبها أمام المد العثماني... وازداد الامر سوءاً عندما اخذت الحكومة العثمانية في اواخر عهدها تجبر العرب على تعلم اللغة التركية لتغدو لغة المدارس والدواوين، وبالتالي لغة الشعوب المنضوبة تحت سيطرتها[1].

فالوالي احمد راسم الذي تولى ولاية طرابلس في الفترة من 1882 حتى 1896م قام بتريك السجلات المالية في الاقضية وكانت المعاملات التحريرية تجري منذ القديم فيها (بمعرفة مديري المال على اللسان العربي) فلم يكن يحصل الانتظام في المخابرات الرسمية، كما يقول: (أحمد النائب)، ولذا فقد عين احمد راسم كتبة تحريرات جددا للقضاءات من خريجي المكاتب الرشدية «لتجري الامور باللسان التركي»[2].

وكانت اللغة الرسمية في الولاية والمتصرفيات اللغة التركية التي لا يتحدث بها الا الموظفون المدنيون والعسكريون والجنود الوافدون من آسيا الصغرى كما يستعملها بعض الموظفين المحليين في مخاطبتهم للسلطة[3].

ويصف الطاهر الزاوي هذا الاجراء «بأنه نوع من الاستعمار في اللغة عن طريق اندماج المحكوم في قومية الحاكم، وقد كان لهذا الاجراء وغيره رد فعل سيء بين الاهالي من ناحية التمسك باللغة والحفاظ عليها[4]. فقد رفع مبعوثو طرابلس الى مجلس المبعوثان تقريرا مطولا عن الحالة السيئة في ليبيا والتي عمت جميع المرافق دون استثناء وخاصة الجهاز الاداري الذي فرضت فيه اللغة التركية وتم تتريك جميع الموظفين فيه، جاء فيه: «ان الحال تقتضي بأن يكون الموظفون في طرابلس عارفين لغة البلاد وتقاليدها وأحوالها»[5]. وشعر بعض الموظفين الكبار بصعوبة هذه الاجراءات في تنفيذ الاوامر التي ترد الى النواحي باللغة التركية، ففي رسالة واردة من مدير ناحية تاجوراء الى الوالي مفادها «ان بعض الامور التي ترد على العاجز بالقلم التركي وليس يصير فهمها تفصيلا، نرجو من عالي مقامكم ان وافق الرأي الصايب، الامر بكتابة ما ذكر بالقلم العربي سواء كانت من المكتوبجية، أو من قلم المحاسبة، لكي يتضح ما يصير لنا به التعريف ولاجل رجاء ما ذكر صار التجاسر بتقديم هذه العريضة وباقي الامر لحضرة من له الامر... افندم»[6].

وفي هذه الخصوص رفع الشيخ احمد قراطم عضو المجلس العمومي الى رئيس المجلس وهو والي الولاية تقريرا مطولا ذكر فيه مساوىء تتريك الجهاز الاداري وجعل التركية اللغة الرسمية في الولاية، جاء في هذا التقرير المؤرخ في 25 نيسان سنة 1325 مالية: «من المعلوم أن ولايتنا

ولاية طرابلس غرب ولاية عرب، وتارة يصير توظيف من لا يعرف اللسان العربي والقلم ايضا مستنطقا او قاضيا أو مدعي عموم أو معاون مدعي عموم وغير خاف أن من لا يعرف اللسان والقلم العربي لا يؤدي حق وظيفته ونصير الاهالي معذورة، تطلب عدم توظيف من لا يعرف اللسان العربي والقلم العربي علاوة على التركية لعجزه عن الايفاء بحق وظيفته ودفع المعذورية».

وجاء في الفقرة الخامسة من التقرير «من المعلوم أيضا أن قضاءات ولايتنا الخارجية عن الولاية لا معرفة لهم باللسان التركي والقلم التركي الا النادر، ولا يخفى أن الحكومة محتاجة الى توظيف أعضاء ادارة بها وفي السابق المعلمة الجارية بها قرارات ومضابط بالقلم العربي واللسان العربي والآن صارت بالقلم التركي واللسان التركي. وغير خاف أن من لا يعرف اللسان التركي والقلم التركي عليه حجة نسترحم طريقة جامعة القرار يكون بالقلم العربي والمضبطة المأخوذة منه بالقلم التركي واللسان أيضا بحيث تكون حجة على الجميع ورفع معذورية الدولة وأهاليها»[7].

والى جانب اللغة الرسمية ـ اللغة التركية ـ كانت اللغة الايطالية واسعة الانتشار بحكم الاثر الذي خلفته المدارس الحكومية، ومدارس الارساليات لدى الاهالي، وقد كان العنصر اليهودي كله تقريبا يتحدث الايطالية أو يفهمها على الاقل، أما اللغة الفرنسية فكانت معروفة لدى الطبقة الراقية من افراد الجاليات الا انها لم تكن تستعمل في الاغراض اليومية[8].

وتأتي اللغة الايطالية من حيث الانتشار في بنغازي بعد اللغة العربية مباشرة[9]. وقد لاحظ الحشائشي في مدة اقامته في ليبيا:

«أن اوباش البلد هم مخالطة مع الجنس الطلياني، وغالبهم يتكلمون معه باللغة الطليانية، وأكثر الاوربيين بها طليان»[10].

إن محاولات السلطات العثمانية في اجهاض اللغة العربية وطمس ثقافتها والقضاء عليها وتنفيذهم لسياسة التتريك، والعمل على انتشار اللغات الاجنبية بتشجيعها وفتح مدارسها، من العوامل التي ساعدت على افراغ ليبيا من محتواها الثقافي، لتكون مسرحا لكل ثقافة غازية كان في مقدمتها الثقافة التركية، ومن بعدها الثقافة الايطالية.

وقد استطاعت اللغة العربية في ليبيا ان تقاوم سياسة التتريك وأن تخرج منتصرة عليها لسببين: أولها طبيعة اللغة نفسها وأصالتها وعمق جذورها في الروح الوطنية وبين ابناء الشعب، والثاني هو غيرة القائمين عليها وحرصهم على تثبيت اللغة العربية، وكان هذا يتخذ جوانب عملية، منها لفت انظار المسؤولين الى غرابة اللغة التركية وعدم فهمها من قبل أبناء البلاد، ومنها زيادة تعليم اللغة العربية ونشرها خاصة من خلال المدارس الدينية والكتاتيب.

الا أن سياسة الضغط على اللغة العربية ومحاولات تقليصها لم تكن دون نتائج سلبية ايضا، فقد كان ذلك واحدا من الاسباب الرئيسة في تدعيم اواصر اللغة الايطالية في البلاد وفي انتشارها بين ابناء الجاليات الاجنبية بل وحتى بين أبناء البلاد وهذا ما يجد انعكاسه الخطير ليس فقط في حقول التعليم بل وفي حقل الصحافة ايضا، اذ نجد أن عددا من كبريات الصحف كان يكتب باللغة الايطالية وقد كانت هذه واحدة من اهم نتائج الضغط على العربية ومحاربتها.

1 ـ محمد التونجي ـ فكرة الوطنية والقومية عند العرب والمسيحيين، من أبحاث مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية ـ مركز الجهاد ـ.
2 ـ احمد النائب ـ المنهل العذب، منشورات دار الفرجاني جـ2، ص 28، ط 1، 1961.
3 ـ فرانشيسكو كورو. مرجع سابق ص 34.
4 ـ احمد صدقي الدجاني، مرجع سابق ص 21.
5 ـ أرشيف المحفوظات التاريخية، ملف مجلس المبعوثان.
6 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية وثائق غير مصنفة، وثيقة رقم (110) 11 شوال 1317 31 كانون الثاني 1315 مالية.
7 ـ انظر، وثائق تاريخ ليبيا الحديث ـ الوثائق العثمانية 1881–1911 ترتيب ومراجعة وتقديم د. احمد صدقي الدجاني جمع وترجمة عبد السلام ادهم منشورات جامعة بنغازي 1974م، ص 228، 229.
انظر كذلك القرار رقم 70 ص 229 من هذا الكتاب والذي جاء فيه «تلي التقرير المقدم في 25 نيسان سنة 1325 من العضو والشيخ السيد احمد قراطم الى مقام الرئاسة وتتضمن خلاصته ما ادرج فيه مطالبته واقتراحه بأن يعرف الموظفون اللغة العربية، وأن توحد المكاييل والموازين وتسعيرة النقود في الاسواق التجارية واحداث مخفر في عين كعام من زليطن للمحافظة على الامن واصلاح طريقة مدفوعات ومقبوضات الاعشار بالنظر الى جهل أعضاء مجالس ادارة الاقضية للغة التركية، يطالب تحريرها باللغة العربية وترجمتها فيما بعد الى اللغة التركية.
ولدى مذاكرة ما يوجبه الامر تقرر: ان لغة الدولة الرسمية هي العثمانية وأن استعمال لغة اخرى في المخابرات والمعاملات الرسمية يتنافى مع القانون الاساسي الذي اقسمنا على مراعاته، وبما ان تأسيس دوائر للترجمة يستوجب الكثير من المصاريف واضاعة الوقت بسبب الترجمة فقد رفضت الفقرات الاولى والخامسة اللتين في مسألة اللغة».
8 ـ فرانشيسكو كورو، مرجع سابق ص 34.
9 ـ المرجع المسابق ص 135.
10 ـ رحلة الحشائشي الى ليبيا، مرجع سابق ص 68.



# الفصل الثاني
# الصّحَافَة



# مدخل:

مهما اختلف المؤرخون وتضاربت اراؤهم في تقويم الاحداث السياسية التي عاشتها المنطقة العربية في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين فاننا نجدهم يتفقون ـ وخاصة فيما يخص الشمال الافريقي ـ على ان ابرز سمات هذه الاحداث هو ضعف الدولة العثمانية التي كانت تبسط نفوذها على معظم الاراضي العربية التي لم يفتك بها الغزو الاستعماري واستعداد الدول الاستعمارية الغربية للانقضاض على «تركة الرجل المريض» الذي كانت الدول الكبرى تسعى آنذاك لتشييعه الى مثواه الاخير، واقتسام ممتلكاته المتمثلة خاصة في الاراضي العربية الشاسعة المساحات والمليئة بمختلف الثروات.

وقد كان الشعور العام بضعف الدولة المركزية في استامبول، وبخطر الغزو الاستعماري الغربي والايمان بأن المقاطعات العربية ستترك دون شك لمصيرها دون نصير او مساعد، واحداً من الدوافع الاساسية لنهضة فكرية كبرى ظهرت اثارها في مؤلفات كبار المفكرين العرب في نهاية القرن الماضي وفي مطلع القرن العشرين. واهم ما يمكن ملاحظته بالنسبة لهذه النهضة الفكرية هو ظهور «الصحافة» كمنبر ثقافي رائد وبروزها الى الصف الاول بين جميع وسائل التثقيف والاعلان والتقرير آنذاك واذا كان للصحافة دورها الريادي في جميع المراحل التاريخية فانها كانت ذات اهمية مضاعفة بالنسبة لمطلع هذا القرن. اذ بينما كانت تنعدم وسائل الاعلام المعروفة في عصرنا الحاضر (كالاذاعتين المسموعة والمرئية)، وبينما كانت حركة طباعة الكتب التعليمية او التنويرية ضعيفة جدا او شبه معدومة، او كانت تخطو خطواتها الاولى فقد كانت الصحافة تأخذ على عاتقها مهام مختلفة متنوعة منها التثقيفية والتربوية والتوجيهية بل والترفيهية ايضا. يساعدها على ذلك سهولة اقتناء الصحف (بينما يصعب الحصول على الكتب والمطبوعات الاخرى لندرتها او ارتفاع اثمانها)، وسهولة انتشار الصحف وحركتها، كما يساعدها ايضا كونها منابر يمكن أن يكتب فيها ممثلو الاتجاهات المختلفة للمعرفة، فكنا نجد على صفحاتها آراء الناقد والمربي والسياسي ورجل الدين والطبيب والزراعي والاديب وسواهم. وقد كان هذا ما دفع رجال التنوير العرب الى انشاء اعداد من هذه الصحف وهو ما جعل حركة الادب والشعر والتوجيه السياسي والفكري وتعبئة الجماهير وصياغة الرأي العام وتنبيهه الى ما يجب عمله أو الاحتراز منه ترتبط مباشرة بالحركة الصحفية. وهذا ما يدفعنا الى القول بأن حركة الوعي الوطني ترتبط ارتباطا عضويا بالحركة الصحفية فهي تدفع الصحافة نحو الامام في طريق التطور مثلما تتطور ايضا من خلالها فتصبح العلاقة بينهما متفاعلة متبادلة مشتركة.

ومثلما ادركت العناصر الوطنية قيمة هذا المنبر الاعلامي فقد ادركت قيمته ايضا السلطات

الايطالية التي كانت تتهيأ للانقضاض على بلادنا.

وهكذا انشىء عدد من الصحف الموجهة داخل ايطاليا بل وفوق الاراضي الليبية ايضا، حيث اقيمت بعض الابواق التي كانت تدعو ـ بصراحة ـ للاستعمار وللسيادة الايطالية في الشمال الافريقي، وهو ما حول الارض الليبية الى ميدان لمعركة ثقافية سياسية سافرة سنتلمس ملامحها في الصفحات القادمة.

ومن خلال هذه المعركة نلاحظ أن البلاد كانت تتأرجح «بين سلطتين ثقافيتين»، السلطة الوطنية المعتمدة على الحق الفطري الطبيعي لكل امة في الحياة وممارسة وجودها والدفاع عن كيانها الطبيعي، هذه السلطة التي لا تنسى وجود بعض الخطوط التي تربطها بالدولة العثمانية كالعاطفة الدينية والتاريخ المشترك الطويل، وسلطة القوى الاستعمارية الجديدة التي تتحفز للانقضاض من فوق الساحل الايطالي، وقد غذتها الروح العسكرية العنصرية المتطرفة بالتوسع وأثارت حميتها مصانع الآلية العسكرية وقوة الجيوش والاساطيل.

وسنحاول في الصفحات القادمة دراسة الصحافة الوطنية من خلال:

1 ـ نشأة الصحافة.

2 ـ فن الطباعة.

3 ـ الموضوعات الرئيسة التي تناولتها الصحافة.

# المبحث الاول:

## نمو الصحافة الوطنية
## 1 ـ نشأة الصحافة
## 2 ـ فن الطباعة
## 3 ـ الموضوعات الرئيسة التي تناولتها الصحافة

### 1 ـ نشأة الصحافة الوطنية:

ينسب (جوزيبي اسبيدرو ارنيودو GIUSEPPE I. ARNEUDO) ـ وهو متخصص في تاريخ المخطوطات ـ انتشار الصحافة في افريقيا والشرق الى عام 1493 بالنسبة لتركيا، وعام 1798 بالنسبة لمصر وافريقيا عموما، ويحدد تاريخ دخول الصحافة الى الجزائر عام 1830. في الوقت الذي تفتقر دراسته الى اية اشارة من هذا النوع لطرابلس الغرب، ولا في اعمال دارسين آخرين في مجال تاريخ فن الصحافة[1].

وتجمع معظم الدراسات على ان اول صحيفة صدرت في طرابلس الغرب كانت الجريدة الرسمية التي صدرت عام 1281هـ (1866) وحملت اسم المدينة والولاية، الا ان هناك بعض الدراسات تشير الى جريدة قد سبقت هذا التاريخ في صدورها، وقد قال عنها الاستاذ علي مصطفى المصراتي:

«انها سبقت في ظهورها جريدة طرابلس الغرب، واسمها جريدة «المنقب» وقد ذكر انها مخطوطة ويتداولها القناصل الاجانب»[2].

ويؤكد هذا القول الباحث الايطالي (ماريو سكابارو MARIO SCAPARRO) في بحثه حول (الصحافة في طرابلس التركية La Stampa di Tripoli Turca (1866—1911) تحت موضوع (مسألة الباحث الافريقي La questione dell'«Investigateur Africain» (1827) بقوله:

«هناك خبر ينسب تاريخ دخول الصحافة الى الولايات البربرية الى سنة 1827 في طرابلس، وهذا الخبر تم درسه بتعمق اليوم من قبل بعض المسؤولين المشهورين» ويذكر المصادر التي اكدت على ظهور هذه الجريدة وهي:

* جريدة بليفير (PLAYFAIR 1889) اعطت الدلالات التالية حول صحيفة قد تكون ظهرت في طرابلس الغرب عام 1827.

«الباحث الافريقي Investigateur) جريدة صدرت خلال فترة قصيرة سنة

1827، وكان من المساهمين فيها قنصل فرنسا (روسو ROUSSEAU) حسب اقواله ويشرف على تحريرها (جرايبرج دي هيمسو G. HEMSO)».

* أشار (مينوتيللي MINUTTILI 1903) في (ببيلوغرافية ليبيا Bibliografia della Libia) الى الباحث الافريقي بأنها صدرت في طرابلس من قبل (جرايبرج دي هيمسو) هذا بالنسبة للمصادر القديمة، أما حديثا فأكد على صدورها كل من:

= (فوماغالي FUMAGALLI) موضوع المستعمرات الايطالية (La Mostra delle Colonie Italiane) في (أكاديميات ومكتبات ايطاليا Accademie Biblioteche d'Italia) يونيو 1931 ص 485–501.

= «موضوع دراسة مخطوطة افريقية مكتوبة في طرابلس منذ قرن مضى» في «الشرق الجديد Oriente Moderno» 5 مايو 1933 ص 256–260.

هذه المراجع جميعها أجرت مناقشات حول وجود هذه الدورية.

وقد عبر (اتيليو موري Attilio MORI) عن شكه في أن تكون الجريدة قد صدرت بالفعل، أما (جوزيبي فوماغالي G. FUMAGALLI) فرغم اخفاقه في الحصول على نسخة من هذه المطبوعة فانه مقتنع تماما بأنها صدرت فعلا، ويؤكد على ذلك في سيرة حياة (جرايبرج دي هيمسو) في كتاب «ملاحظات السيرة الذاتية للكونت جرايبرج دي هيمسو Notice Bibliografia sur le compte Graberg DE HEMSO فلورنسا مطبعة لويس بلزاتي 1834 (ص 19–30) مستعينا ببعض الفقرات من كتاب (جرايبرج «شكوك ومزاعم حول تمبكتو Divagazioni e Congietture intorno Tombecto) في مجلة (Antologia) فلورنسا يناير 1829 ص 127–137 يقول ان هذا الموضوع ـ الثقافة الشعبية ـ قد تم بالفرنسية في العدد الثاني من (الباحث الافريقي Investigateur African).

وقد حمل (اتيوري روسي E. ROSSI) عنصرين هامين حول هذا الموضوع يؤكدان صدور هذه الجريدة.

## العنصر الأول:

بعض الملاحظات التي أخذها روسي من أرشيف القنصلية الفرنسية ومن مراسلات القنصل (ROUSSEAU) خلال الفترة الواقعة بين 1825–1831 في بعض الرسائل المؤرخة في 8 اغسطس 1827 عن (الباحث الافريقي Inves African) بأنها «مجلة شهرية سياسية أدبية يصدرها مجموعة القناصل الزملاء صدر أول عدد منها في 31 يوليو من السنة نفسها».

## العنصر الثاني :

رسالة اخرى عثر عليها روسي مؤرخة في 2 اغسطس 1827 موجهة من (روسو ROUSSEAU) الى (باربي دو بوكاج Barbie Du BOCAGE) نشرت في مطبوعة «الجمعية الجغرافية في باريس» 1828 ص 174–178 جاء فيها :

«منذ وقت مضى قمت والعديد من زملائي بالتخطيط لمشروع تأسيس صحيفة شهرية للسياسة والادب، هذا المشروع دخل الان حيز التنفيذ وصدر العدد الاول منها بتاريخ 31 من الشهر الماضي ـ انظر تاريخ الرسالة ـ تحت اسم «الباحث الافريقي» واني لشديد الاسف لعدم تمكني من تزويدكم بنسخة منها، وحتى الان يستحيل علينا اصدار هذه الجريدة مطبوعة، وسأقتصر بتزويدكم بالمواضيع الرئيسة التي قمت بتحريرها في الجريدة، آملا تزويدكم بنسخ من الكراسة المتضمنة لمقتطفات من مواضيعي في مناسبة مقبلة»[3].

ونظرا للانتشار المحدود لهذه المطبوعة، واقتصارها على القناصل الاجانب في اعتقادنا أنه لا يمكن اعتبارها ـ سواء أكانت قد صدرت بالفعل أو لم تصدر ـ صحيفة يؤرخ بصدورها لنشأة الصحافة الوطنية... ويمكن أن نعتبر سنة 1866 المولد الحقيقي للصحافة الليبية، وفي هذه السنة كان صدور اول جريدة في ليبيا اثناء الحكم العثماني الثاني، وحتى سنة 1908، وكان التطور الصحفي بطيئا، فلم تصدر في هذه الفترة الا بعض النشرات الصحفية التي تشرف عليها حكومة الولاية وهي :

### 1 ـ طرابلس الغرب :

أول صحيفة بالولاية، صدرت عام 1281هـ (1866) بمدينة طرابلس الغرب. وحملت اسم الولاية والمدينة فكان اسمها (طرابلس غرب) وذلك في عهد الوالي محمود نديم باشا[4] وتحمل هذا الاسم على الوجهين العربي والتركي، كما أن بعض اعدادها تحمل هذا الاسم بحروف لاتينية، وتطبع باللغتين العربية والتركية وقد طبعت اعدادها الاولى طباعة حجرية وبعد ذلك في المطبعة الحديثة وتوقفت عن الصدور في 22 سبتمبر 1911 أي قبل اسبوع واحد من اعلان ايطاليا الحرب ضد تركيا[5] وكانت تطبع في «مطبعة الولاية» وتظهر في اربع صفحات، وتقسم الى جزئين احدهما يحرر باللغة التركية والآخر بالعربية، ولم يكن للصحيفة مدير مسؤول لانها ناطقة باسم الولاية، وتحمل فوق العنوان الجملة التالية (الجريدة الرسمية للحكومة) وتتبع مباشرة ديوان الولاية حيث مقر تحريرها وادارتها.

الى جانب البلاغات الرسمية ذات الصبغة الادارية التي تنشرها الجريدة، نجد فيها بعض الاخبار والمعلومات والكتابات المتنوعة، وفي عهودها الاولى كان لها زاويتان، احداهما للاحداث المحلية والاخرى للاخبار ذات الطابع العام، ويتصدر الجانب العلوي في الصفحة الاولى اعلان المواضيع والمقالات والاخبار والكتابة عموما ذات المنفعة العامة يتم قبولها وطبعها بالمجان[6].

ويصفها (فيليب دي طرازي) بأنها «ركيكة العبارة سقيمة الحروف، تطبع في مطبعة الولاية، وتقتصر على نشر الاوامر والوقائع والاعلانات والتوجيهات كسائر الصحف الرسمية في السلطنة العثمانية، وكان القائمون بانشاء فصولها بعض مأموري الحكومة المحلية الذين لم يتيسر لنا الوقوف على اسمائهم»[7].

ويبدو أن توزيعها كان محدودا للغاية في فترة النشاط الصحفي الامر الذي جعل الوالي يصدر منشورا وزع على القضاءات للاشتراك الاجباري في الجريدة[8].

## 2 ـ السالنامة:

(الحولية) صدر العدد الاول في (9 محرم 1286) 1869 وتأسست برغبة من حكومة ولاية طرابلس الغرب[9] وهي تقويم سنوي يضم مجموعة أنباء رسمية ونبذ علمية وتاريخية واحصاءات تشترك في ترتيبها واعدادها مختلف دوائر حكومة الولاية، وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية[10]، وفي العدد الاخير (1894–1895) عدلت عنوانها بحيث اصبح (سالنامة ولاية طرابلس الغرب) وكما يبدو من عنوانها كانت تصدر سنويا وصدر منها (12 عددا) وطبعت الاعداد الاحد عشر بالمطبعة الحجرية ثم توقفت عن الصدور سبع سنوات، ثم صدر العدد الاخير، الثاني عشر، وكان يحمل المعلومات التالية التي توضح اسباب احتجابها «ان سالنامة ولايتنا التي تطبع بالطباعة الحجرية كانت طبعت آخر مرة في سنة 1305 هـ ثم اوقفت الطباعة من جراء صعوبات، وبفضل الاهتمام الكبير الذي ابداه السلطان ووالي الولاية بتركيب المعدات والآلات المطبعية الجديدة وتجهيزها، تمكنا من انجاز طباعة الحولية الثانية عشرة لعام 1312 هـ آلياً».

لم يكن للحولية مدير، ولا مكتب خاص للادارة، او هيئة تحرير، لكونها تعد بالكامل من قبل حكومة الولاية، ومثل جميع النشرات السنوية فانها كانت تتضمن الاخبار ذات الطابع العام والخاص حول الولاية، وتحتوي على بعض المعلومات العلمية والتاريخية والجغرافية مع نشر أوامر وتعليمات الولاية، وقائمة المكاتب وجميع الموظفين و إحصائيات حول السكان، الى جانب الاخبار ذات الطابع التجاري والصناعي والزراعي الى غير ذلك.

ويحتوي العدد الاول منها على خارطة للولاية مع التقسيمات الادارية الى (خمسة سناجق). مقاطعات: طرابلس، الخمس، الجبل، فزان، بنغازي العدد الاخير يحتوي على جميع الاعمال المنجزة من قبل الولاة من عام 1835 بداية الحكم العثماني الثاني حتى الى 1894.

تمكن (ماريو سكابارو MARIO SCAPARRO) من رصد ثمانية اعداد قدمها في (الجدول التالي):

| العدد | السنة الهجرية | التاريخ الميلادي | عدد الصفحات |
|---|---|---|---|
| 1 | 1286 | 13 ابريل 1869 ـ 2 ابريل 1970 | 97 |
| ؟ | 1289 | 1 مارس 1872 ـ 29 فبراير 1872 | 95 |
| ؟ | 1290 | 1 مارس 1873 ـ 17 فبراير 1874 | 113 |
| 8 | 1294 | 16 يناير 1877 ـ 8 يناير 1878 | 103 |
| 9 | 1295 | 9 يناير 1878 ـ 26 ديسمبر 1879 | 96 |
| 10 | 1302 | 21 اكتوبر 1884 ـ 6 سبتمبر 1885 | 188 |
| 11 | 1305 | 19 سبتمبر 1886 ـ 6 سبتمبر 1889 | ؟ |
| 02 | 1312 | 5 يوليو 1894 ـ 23 يونيو 1895 | 216 |

وقد شرع في طباعة العدد الثالث عشر للسالنامة ولكن لم تكتمل طباعتها[11].

ولم تصدر حكومة الولاية غير هاتين المطبوعتين. أما اول جريدة اهلية صدرت في الولاية فهي ـ جريدة الترقي ـ التي كانت الجريدة الوحيدة الصادرة قبل اعادة الدستور.

## 3 ـ الترقي :

تنقسم حياة هذه الجريدة الى فترتين، اذ توقفت بعد العام الأول لصدورها (1897) ثم استأنفت الصدور بعد احدى عشرة سنة من هذا التاريخ وذلك بعد صدور الدستور العثماني[12]. صدر العدد الاول من الترقي في 26 محرم 1315هـ 26 يوليو 1897م، في عهد الوالي نامق باشا، وكانت اول صحيفة شعبية تصدر في الولاية، وكان مديرها المسؤول محمد البوصيري ووصفها بأنها جريدة سياسية علمية اسبوعية، وجعل ثمن النسخة عشرين بارة، وساهم في تحريرها مجموعة من الشباب المثقف من بينهم علي عياد ومحمد ناجي وعثمان القيزاني وخالد القرقني، وعبد الرحمن البوصيري، ونشر الشاعران مصطفى بن زكري وابراهيم باكير بعض انتاجهما فيها، وكانت المباحث الادبية من اركانها الثابتة.

خلال فترة صدورها الثانية، استمر المؤسس محمد البوصيري صاحب الامتياز فيها، بينما تولى علي عياد الادارة واستمرت في صدورها اسبوعية كل يوم سبت وكانت تطبع في مطبعة الولاية بمدرسة الفنون والصنائع، ولكن بآلات من املاك الصحيفة ثم طبعت بعد ذلك بالمطبعة الخاصة بها «مطبعة الترقي بسوق الترك» وكانت ادارة الصحيفة في مكان المطبعة نفسها. وفي هذه المرحلة اصبحت ناطقة باسم (الاتحاد والترقي) وكانت ادارتها اشبه ما تكون بالمنتدى الادبي والسياسي، وقد تصدت للوالي احمد فوزي، وركزت مقالاتها على الاصلاح وكانت توزع حوالي ألف نسخة[13]، وهو رقم يعد كبيرا بالنسبة لعدد السكان وعدد المتعلمين بينهم آنذاك، وهو دليل على «شعبية هذه الصحيفة وكثرة الاقبال عليها».

وتحدث عن هذه الصحيفة العديد من الكتاب الاجانب وخاصة (جيوسبي بيازا Giuseppe PIAZZA) و(بوفا BOUVAT) وقد كتب هذا الاخير عنها في مجلة العالم الاسلامي

في عدد مارس سنة 1909، المجلد السابع ص 361 بعد اطلاعه على نسخة منها كما اعتمد في ما كتبه على الاخبار التي وردته من طرابلس فقال: «الترقي: لها سنتان من العمر محررة عربية بالكامل تظهر كل يوم السبت في طرابلس تحت ادارة محمد البوصيري سياسية علمية تهتم بمصالح البلاد وبكل نشاط آخر، وتعتمد على مراسلين من مختلف المناطق بطرابلس الغرب، يوافونها ببعض الأخبار ذات الأهمية في قالب صغير، تصدر الترقي في أربع صفحات عنوانها مدرسة الفنون والصنائع ـ طرابلس».

## 4 ـ مجلة الفنون:

أول مجلة تصدر في ولاية طرابلس في أول رمضان 1316هـ (يناير 1899) وكان صدورها كما جاء في المقدمة في الصفحة الرابعة من العدد الأول انها تأسست برغبة من الوالي نامق باشا، وهذا ما تشير اليه صفحة الافتتاح الأولى التي كانت بمثابة بيان عام بأهداف المجلة وغاياتها واشارة الى مؤسسها. فقد جاء في هذه الصفحة تحت عنوان: «مقدمة وشكران» ما يلي:

«لا ريب أن أحلى وما يتحلى به لسان كل انسان هو شكره لمولاه على ما أولاه من نعمة واحسان، وكما يجب على المرء ثناء الحق عز وجل على آلائه، كذلك عليه أن يعترف بجميل من كان واسطة للخير وسببا لاجرائه، فبعد شكر المولى سبحانه وتعالى على ما منحنا من النعم، ورفع أكف الضراعة اليه ببقاء سيدنا ومولانا الخليفة الأكرم لا يسعنا الا اسداء خالص الامتنان، من صميم الجنان لجناب والي ولايتنا العالي، ذي المكارم والمعالي حضرة صاحب الدولة والاجلال، نامق باشا وفقه الله في جميع الأحوال، فتجاسر لتقديم هذه المجلة بأيدي التعظيم والتجلة الى سمو أعتاب جنابه وعلو مقامه وفسيح رحابه، اذ هو مؤسسها ومهيىء أسباب انتشارها وحاميها وهي من جملة آثاره الجليلة ومكارمه الجميلة التي توفق لاجرائها طبق آمال حضرة ولي النعم. ظل الله الأعظم، وابقاء لبعض الواجب علينا تلقاء هذا الصنيع، قد زينا صحيفتنا[14] برسم دولته البديع تخليدا لذكره العاطرة، وتأييدا لمجده الفاخر، وسنزينها انشاء الله بأشهر أعماله الخيرية، وأحسن مؤسساته الاعمارية وفي الختام نرجو الله تعالى أن يديم لنا وجوده، ويوفقه الى ما يحبه ويرضاه»[15].

وكانت المجلة تصدر نصف شهرية، وبانتظام وتطبع في مطبعة الولاية[16]، ومثلت المجلة قفزة نوعية في مادتها حيث ظهرت كمجلة للمثقفين، واهتمت بالعلوم وكان من أركانها الحديث عن آخر المخترعات والحيوانات المصورة والفلك وعلم البيئة وارتبطت بادارة الفنون والصنائع ولكنها احتجبت عن الظهور في عامها الثاني.

وقد تأثرت صحافة طرابلس فيما بعد بجو الاستبداد الحميدي، فاضمحلت ولم يتح للترقي او الفنون الاستمرار فترة طويلة الى ان انتهى حكم عبد الحميد فانتعشت الصحافة من

جديد[17]. وأصبح... محمد داود افندي(*).. مديرا لـ.. «مجلة الفنون» وكان يحررها كاملة باللغة العربية، وتشير صفحة غلافها الى أنها «صحيفة علمية صناعية زراعية، توضيحية، مصورة» وفي الصفحة الخامسة من العدد الاول وتحت عنوان «اهداف المجلة»، كتب مدير التحرير يقول: «أهم مواضيعنا الزراعة الجديدة، والهيئة والجغرافيا، وعلم النبات والحيوانات، والمعادن، وسنشرحها بأحسن التصاوير المتعلقة بما ذكر تسهيلا لزيادة الفهم، ولئلا تكون مختصة بطبقة دون أخرى من القراء، قد رأينا ان نضمنها دروسا متتابعة في كل فن فينتفع بها المبتدىء، ويتفكه بها المنتهي واتماما للفائدة سنخصص لها فصولا كافية للمخترعات والمكتشفات الجديدة، والحرف والصنائع المفيدة التي لها علاقة بالفنون، وكل ما ذكرنا مقتبس ومعرب من اشهر الكتب الموجودة والرسائل والمجلات وليس لنا فيه ادنى فضل سوى الجمع والتلفيق والانتقاء والتعريف، واتباعا للقاعدة المرعية في التحرير سننشر في جانب كل بحث اسماء الكتب والجرائد التي نقتبس منها مواضيعها، وذلك في نهاية كل مجلد وفقا للتكرار»[18].

وبذلك التزمت المجلة بالصدق والامانة العلميين اللذين كثيرا ما تفتقر اليهما المجلات «العلمية» المعاصرة.

وحافظت المجلة على البرنامج المحدد لها ولم تهتم بمسائل مختلفة الا فيما يتعلق ويخص الوالي نامق باشا[19]، وخلفه (هاشم باشا) بعد انتقال الاول الى بغداد.

وكانت المجلة تحتوي في العادة على صور قد تصل في بعض الاحيان الى سبع في كل عدد وتحمل في معظم الحالات توقيع (A. MINIOT) والاشارة الى الزنكغراف (الحفر على الزنك) لـ(E. DUCRETET) في باريس وتحمل صورة الوالي نامق باشا توقيعا باحرف لاتينية (H. THIRIAT).

وفي السنة الاولى صدر منها أربعة وعشرون عددا، وثلاثة اعداد في السنة الثانية، وتوقفت المجلة بانتقال داود افندي الى القسطنطينية[20].

## 5 ـ الكشاف:

صدر العدد الاول منها في 7 من ذي الحجة 1326هـ 17 كانون أول 1324 مالية، 4 كانون أول ديسمبر 1908م. وكان صاحب امتيازها ومديرها المسؤول محمد بك النائب الانصاري(**) كتب العنوان بأحرف من الخط الكوفي، وبالاحرف اللاتينية، وكان الهدف من وجودها حسبما اعلنت الصحيفة الدفاع عن وحدة اراضي الامبراطورية العثمانية والدستور الذي كان قائما آنذاك، مع برنامج في أن تصبح مع مرور الوقت صحيفة علمية يومية مصورة

---

(*) داوود افندي. ولد بطرابلس حوالي 1283هـ تلقى علومه الاولى فيها، وقد شغف بدراسة اللغات الشرقية والغربية «واتقن منها الفارسية والتركية والايطالية والانجليزية»، فضلا عن لغته العربية، وبعد ان توقفت مجلة الفنون سافر الى الاستانة وعين فيها في وظيفة (باشكاتب) في دائرة تدقيق المؤلفات التابعة لنظارة المعارف بالاستانة، ثم عين في ولاية أزمير مديرا للمعارف، وافاه اجله سنة 1917 في طرابلس.

(**) محمد بك النائب الانصاري، ابن احمد النائب صاحب «المنهل العذب».

مكتوبة باللغة العربية والتركية والفرنسية، وكان مديرها يطمح لاخراجها بالصور، الا أن هذا البرنامج لم يتحقق... والاعداد التي عثرنا عليها صادرة باللغتين العربية والتركية فقط وفي اربع صفحات وقد حدد خطها في العدد الأول «انها جريدة حرة سياسية علمية يومية مصورة تدافع عن حقوق الوطن طبقا للمبادىء الدستورية تصدر يوم الاربعاء مؤقتا من كل اسبوع» تطبع الجريدة في مطبعة الولاية وادارتها في شارع البلدية رقم 78 وقد توقفت سريعا عن الصدور في عام 1909[21].

## 6 ـ تعميم حريت:

أي «الحرية للجميع» صدرت في عام الدستور 1908 باللغة التركية. في ايام الاربعاء من كل اسبوع، واستمرت في الصدور حتى الغزو الايطالي، وقد شغلتها المواضيع التي شغلت الصحافة عموما، واهتمت بقضية الحرية، وكان شعارها دوام المشروطية[22]، صاحبها المحامي محمد قدري(*).

يقول (ماريو سكابارو MARIO SCAPARRO) عن تعميم حريت:

«العنصر التركي المسيطر على المنطقة والذي لا تتوفر لديه مطبوعة اخرى باستثناء الجريدة الرسمية (طرابلس الغرب) لا يمكنه ان يحس بالضرر الذي يلحق بمعنوياته وهيبته وأن يبقى غريبا عن صحافة الولاية، وهكذا شاهد عام 1909 ولادة صحيفة جديدة في طرابلس محررة بالتركية، ومعنونة (تعميم حريت) أي الحرية للجميع، هكذا ترجمت الى الايطالية (LIBERTÀ PER TUTTI) والصحيفة رغم انها لا يمكن ان يكون لها تأثير على البلد، وان توزيعها محدود بين الموظفين والعناصر الطرابلسية الملمة باللغة التركية، رغم ذلك كان لها هدف او غرض معنوي كما سبق ذكره وآخر سياسي مراعاة لممثليات القوى الاجنبية بطرابلس وبوجه عام حماية المصالح العثمانية»[23].

اما ما كتبه (بوفا BOUVAT) عن هذه الصحيفة في مجلة «العالم الاسلامي Revue Du Monde Musulman» 109 مجلد 8 ص 287 عام 1909م. فشهادة على أن «تعميم حريت» كانت تمثل واحدا من المنابر الهامة ذات الشأن والتي كانت تمثل خطرا على مواقف الاجانب وعلى تصرفاتهم المستهترة في البلاد آنذاك. يقول المؤلف:

«منذ البداية كانت هاجمت الاجانب، وتشكو من عدم وحدة العمل للصحافة التركية الناطقة باسم الجمعيات او الشخصيات المختلفة الغارقة في الركض وراء مصالحها الخاصة، فلا احد يحمل مهمة الدفاع عن المصالح الهامة، وكل مطبوعة تعبر عن اراء مختلفة وتقترح الجريدة أن تكون صحيفة غير منحازة

---

(*) محمد قدري من الشباب المثقف ولد في طرابلس، ودرس فيها ثم التحق بمدارس استانبول، وحصل على شهادة الحقوق وعاد ليعمل بالمحاماة.

للاتراك الذين رمت بهم صدف الحياة على الشاطىء الافريقي، وقبل ان تتحدث عن نزاهة القناصل العامين آنذاك لبريطانيا وفرنسا وايطاليا، لاحظت أن معظم القناصل الاجانب وعلى الاخص قناصل ايطاليا قد ظهروا على حقيقتهم وانكشف اسلوبهم غير اللائق، او النهج السيء الذي يسلكونه في الدفاع عن مواطنيهم ويرمون من وراء ذلك الى أهداف سرية يصعب تحديدها، ونجحوا في زرع بذور الشك بين الأهالي والأجانب، وكذلك هاجمت القضاة الانجليز في المحكمة المختلطة للتجارة، والذين غادروا الجلسة عندما تعارضت آراء القضاة الاخرين مع آرائهم، ملحقين الضرر بالقضية موضوع البحث، وطالبت الجريدة بالغاء المحكمة التجارية وتحويل اختصاصاتها الى المحكمة المدنية»[24].

كما افاض «بيازا PIAZZA» في الكتابة عنها في كتابه «أرضنا الموعودة La nostra terra promessa» وقد توقف خاصة عند الحرب الكلامية التي حدثت مع مدير تحرير تلك الصحيفة[25].

ونظرا للغة التركية التي كانت تصدر بها الجريدة وقلة الملمين بها كان توزيعها محدودا لا يتجاوز المائتين وخمسين نسخة[26].

## 7 ـ ابوقشة:

وهي تسمية لقناع اقليمي في تونس(*) علي غرار (بوسعدية) في طرابلس، اختار لها هذا الاسم مؤسسها ومديرها التونسي الاصل الشيخ محمد الهاشمي(* *)، والجريدة اسبوعية هزلية تطبع في بادىء الامر لدى المطبعة الشرقية، ثم بأحرف وخطوط من ملك الصحيفة نفسها وفي المطبعة نفسها، وتصدر في اربع صفحات، وتكتب باللهجة العامة في طرابلس وفي بعض الاحيان باللهجة التونسية[27].

ونشر (الغريفني GRIFFINI) في «كتابه العربية الدارجة في ليبيا L'Arabo parlato della Libia» حوارا لاذعا باللهجة العامية في طرابلس كان قد نشر في جريدة ابي قشة (السنة الثانية عدد 19/10 صفر 1328، 2 مارس 1910) وكتب عن الجريدة يقول:

«الصحيفة كانت تحرر بالعربية الفصحى، ولكنها تنشر ايضا لغرض سياسي تركيبات او مواضيع انشائية باللهجة العامية ذات معنيين، واذا أمكن العثور على اعداد كبيرة من الجريدة وجمعها وتوضيبها، يمكن ان تزودنا بمادة واسعة قد تفيد في الدراسة، مثلما تزودنا الأغاني الشعبية الجميلة للبدو، والتي تحفظ منذ أزمنتهم البعيدة وبصفة خاصة اندماجهم في الحياة مع الطبيعة، واحساسهم الشعري البدائي»[28].

---

(*) يقصد المؤلف القناع الذي يتخذ على الوجه لغرض اضحاك الناس، وابو قشة لعبة يمارسها الاطفال في تونس.

(* *) محمد الهاشمي: جاء الى طرابلس من تونس بعد ان اضطهدته السلطات الفرنسية، وأغلقت جريدته التي كانت تسمى (ابو قشة) ايضا والتي صدر العدد الاول منها في تونس 1908 وكان قد درس العلم في الزيتونة ومال الى الكتابة الساخرة.

تأسست الصحيفة في اوائل عام 1909، وكانت تصدر اسبوعية ولمدة ثلاث سنوات، وهي على نسق الجرائد الفكاهية التي صدرت في مصر مثل «المطرقة» و«الكشكول» و«البعكوكة»، وكانت تحمل في كل عدد من اعدادها هذا الاعلان الساخر:

«جريدة (ابوقشة) طرابلس غرب الاشتراك (50 قرشا) اذا قبضناهم تحل باب العرش، والا عشرة فرنكات انحاس تنجي الانفاس وتحلي الاضراس، جريدة كشكولية هزلية حساسة الشعور تجسم اللب في قالب القشور، المكاتبات ابو قشة بطرابلس الغرب، صاحب الجريدة الهاشمي التونسي، الادارة في كل حارة، لا ضامن ولا وكيل ولا قال ولا قيل ـ ومن لم يقبل النصيحة التي لا تكلفه شيئا الا (20 بارة) ثمن ابوقشة يشتري الخيبة في المستقبل بالثمن الغالي».

اهتمت الجريدة بالسياسة الداخلية والخارجية، وحملت على النشاط الاقتصادي الاستعماري، ونادت بالاصلاح وانتقدت فساد رجال الادارة والعادات السيئة وعنيت بالتعليم والوعظ، وبدايات النشاط المسرحي، وبالأدب الشعبي وكان اسلوبها سهلا ساخرا، وقد شارك في تحريرها عدد من الكتاب منهم، محمد نديم بن موسى، احمد الفساطوي، قاسم شقرون، احمد صديق المصري، الذي كان مقيما في طرابلس[29].

كانت اوسع الجرائد انتشارا وتوزيعا في الاوساط الشعبية وقد بلغ توزيعها الفا ومائتي نسخة[30].

ومما يذكر أن الهاشمي قد اضطر الى بيع منزله ليضمن مواصلة صدور جريدته عندما اخذت تعاني من الضائقات المالية[31] غير ان هذا الناقد الجريء لم يثبت على مبدأ فقد تراجع فيما بعد وتعامل مع اليهود في طرابلس وتولى ادارة صحيفتهم «الدردنيل»[32].

## 8 ـ العصر الجديد:

صدر العدد الاول من جريدة العصر الجديد سنة 1910 وقد وصفت نفسها بأنها جريدة من الشعب والى الشعب، وكان مديرها وصاحب امتيازها محمد علي البارودي، والجريدة اسبوعية وباللغة العربية، وذات طابع ادبي وتجاري. كانت تصدر في اربع صفحات توقفت عن الصدور عام 1911[33].

شقت الجريدة طريقها واقبل عليها الشباب، واسهم في النشر على صفحاتها عدد من ناظمي الشعر، وكان من ضمن اسرة تحريرها، عبد الرحمن الزقلعي، وأحمد عويدان، وقاسم شقرون، وكانت الجريدة متعاطفة مع «اللواء المصري»، ومعارضة «للمؤيد»، وقد تنوعت مقالاتها فكان فيها الهجوم على العادات السيئة، وتنشر فيها البحوث عن الشورى والديمقراطية، ومقالات اصلاحية عن التعليم والصناعة[34].

## 9 ـ المرصاد:

جريدة اسبوعية سياسية أدبية فكاهية تأسست في نوفمبر 1910م. وكان صاحب امتيازها

ورئيس تحريرها (احمد الفساطوي)(*) الذي مارس الكتابة الصحفية في الترقي والعصر الجديد.

وكانت تطبع بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع، وتوقفت عن الصدور سنة 1911، وكانت آخر صحف هذه الفترة صدورا، فقد حققت تقدما ملموسا في اسلوب الكتابة والاخراج الصحفي، واهتمت بالقضايا السياسية وهاجمت الاستعمار وفضحت أساليبه.

## 10 ـ الرقيب:

اسبوعية سياسية ادبية صدر العدد الاول منها في 1 مارس 1911 (1320هـ) كان مديرها والمحرر المسؤول فيها محمود نديم بن موسى وتقع في اربع صفحات: اثنتين بالعربية واثنتين بالتركية وتطبع لدى مطبعة الترقي. توقفت عن الصدور عند الاحتلال الايطالي.

★ ★ ★

وفي هذه الفترة شهدت البلاد نشاطا صحفيا أجنبيا ملحوظا، اذ تمكنت ايطاليا من تأسيس عدة صحف ايطالية في البلاد للدفاع عن مصالحها، ومحاولة التأثير على الرأي العام وخاصة الذين تمكنت من استقطابهم وتعليمهم اللغة الايطالية لقبول فكرة الغزو..

وقد افردنا لهذا الموضوع، موضوع الصحافة الايطالية في ليبيا مبحثا في الباب الثالث من هذه الدراسة.

(*) احمد الفساطوي: رحل الى الازهر سنة 1319هـ وقيد اسمه في سجل رواق المغاربة في رمضان من تلك السنة، وكان له فيه نشاط علمي وفيه تخرج ورجع الى وطنه في شعبان 1327هـ، وكان معدودا من الوطنيين اصحاب المواقف الثابتة ضد السياسة الايطالية.

هوامش

1 ـ MARIO SCAPARRO (La Stampa di Tripoli Turca). p. 11.

2 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 278، انظر كذلك علي مصطفى المصراتي (صحافة ليبيا في نصف قرن) دار الكشاف، بيروت 1960.

3 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 11.

4 ـ احمد صدقي الدجاني ـ مرجع سابق ص 278.

5 ـ فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 154.

6 ـ (MARIO SCAPARRO). op. cit. p. 15.

7 ـ فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) جـ2 ص 206.

8 ـ لما كانت الجريدة تمثل «الصوت الرسمي» للدولة في ذلك الحين، كان مما يهم الحكام ان يشترك فيها اكبر عدد من المواطنين، ولعل هذا ما يفسر هذا الامر الطريف الذي تتضمنه الوثيقة رقم 987 في ارشيف المحفوظات التاريخية طرابلس ونصها «من الوالي الى قائمقام غريان: في خصوص الاشتراك في جريدة طرابلس الغرب الاجباري كل قبيلة تتركب نفسها من الرجال المكلفين بقدر مائة وخمسين رجلاً جريدة واحدة، والتي تقدر نفوسها اكثر من ذلك تشترك في جريدتين، وكذلك جميع الموظفين بلا استثناء، والقبيلة من مائة وخمسين الى مائتين وخمسين (جريدتان) والقبائل التي عددها الى ستمائة ثلاث جرائد وكل موظف راتبة ثلاثمائة قرش يكلف بالاشتراك الاجباري.
23 مايو 1910–10 مارس 1326 مالية 14 جماد الاول 1328هـ.

9 ـ فرانشيسكو مرجع سابق ص 154.

10 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 16.

11 ـ MARIO SCAPARRO, op. cit. p. 8.

12 ـ فرانشيسكو كورو ـ مرجع سابق ص 153.

13 ـ علي مصطفى المصراتي، (صحافة ليبيا) مرجع سابق ص 46–47.

14 ـ تتصدر الصفحة الرابعة من المجلة صورة الوالي نامق باشا.

15 ـ مجلة الفنون، العدد الأول، الصفحة الرابعة، يناير 1899.

16 ـ MARIO SCAPARRO op. cit. p. 11.

17 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 280.

18 ـ علي مصطفى المصراتي مرجع سابق ص 40 ـ كذلك انظر العدد الاول ـ والعدد الخامس مجلة ـ الفنون ـ.

19 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 280.

20 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. pp. 17-18.

21، 22 ـ انظر: MARIO SCAPARRO op. cit. p. 18.

فرانشيسكو كورو مرجع سابق.

احمد صدقي الدجاني مرجع سابق.

علي مصطفى المصراتي مرجع سابق.

23 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 19.

24 ـ Revue du Monde Musulman. (109 VIII p. 287) 1909.

25 ـ G. PIAZZA (La nostra terra promessa) Roma 1911.

26 ـ انظر، ارشيف المحفوظات التاريخية ملف الصحافة وثيقة بدون رقم بتاريخ 15 ابريل 1910.

27 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 20.

28 ـ GRIFFINI. D.E. (L'Arabo parlato della Libia) Milano 1913 - p. 374.

29 ـ علي مصطفى المصراتي (كفاح صحفي) ط 1 بيروت 1961 ص 17.

30 ـ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة بدون رقم بتاريخ 15 ابريل 1910.

31 ـ PIAZZA op. cit. p. 10.

32 ـ انظر الباب الثالث، الفصل الثاني.

33 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 19.

34 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 281.

## 2 ـ فن الطباعة:

ترتبط الصحافة ارتباطا عضويا بالطباعة، فالصحافة ليست نشاطا فكريا فحسب بل هي محكومة بوسائل نقل ذلك النشاط الى القراء وبسرعة ودقة اخراجه. ولهذا نلاحظ أن ازدهار كل منهما مرتبط بازدهار الآخر. والمتتبع لحركة الطباعة في ليبيا في مطلع القرن العشرين يلاحظ ان خطها البياني كان يسير في صعود مضطرد يتسق وحركة الصحافة التي عاشت ايضا ذلك التطور حتى بداية الغزو الايطالي.

ومن دراستنا للمطبوعات الصادرة في طرابلس في هذه الفترة تبين ان الطباعة الحجرية سبقت الطباعة الآلية على الأقل لعدة سنوات، ونجد مثلا (السلنامة) التقويم السنوي للولاية التي تناسبها الى حد بعيد الطباعة الآلية تطبع حجريا حتى عندما تأكد لدينا وجود الطباعة الآلية، وتفضيل الطباعة الحجرية على الآلية، لا يجعلنا ننكر ان دخول الطباعة الآلية بصفة فعلية حصل بعد اربع او خمس سنوات من الطباعة الحجرية[1].

«وسالنامة طرابلس في أول عدد لها صادر بالطباعة الآلية (عدد 12 لسنة 1312هـ 5 يوليو 1894–23 يونيو 1895 ص 201) تناولت التحسين الذي ادخل على الطباعة الآلية للولاية، وأشارت الى:

«ان هذا التحسين كان من ثمار اهتمام الحكومة وكذلك المداخيل المتحصلة من العوائد العادية للأعمال المطبعية، وتم منذ اربع سنوات (1890–1891) جلب اربعة أنواع من الحروف مع مواد قطع غيار بثمن 1200 قرش تم جلبها من القسطنطينية».

وتبين ان الحروف المطبعية لم يتم تغييرها منذ عشرين سنة اي من سنة 1870 ـ خمس سنوات من بعد طباعة المطبوعة الاولى طرابلس غرب بالطباعة الحجرية»[2].

وقد وصف احمد النائب فن الطباعة في هذه الفترة:

«ولا اقول أن المطابع من التحسين بل هي في درجة الحاجة الى التطوير، ولا يخفى انها من فوائد العمران»[3].

ولم تعرف البلاد الحروف اللاتينية الا بعد سنة 1908م. حتى أن التوجيهات والارشادات والقوانين الاساسية واللوائح والتنظيمات التي كانت قد ظهرت في الولاية قبل ذلك العام كانت تطبع في اوربا[4]. بما في ذلك المطبوعة الاسبوعية التي تتناول بصفة خاصة الحياة الطرابلسية (ليكو دي زيرتو (l'Eco del Deserto) «1893» والتي كانت العنوان الثاني لصحيفة طرابلس غرب، ورغم انها كانت تحرر وتوجه لهذا البلد فانها كانت تطبع في (سيراكوزا SERACUSA)[*].

---

(*) لم تذكر المصادر العربية اسم هذه المطبوعة وكذلك معظم المصادر.

ومن عام 1866 حتى عام 1908 لم تكن في طرابلس الا مطبعة واحدة وبقي مقرها في السراي الحمراء لمدة عشر سنوات كاملة، وكانت مجهزة تجهيزا سيئا للغاية فكانت المطبوعات الصحفية تنجز يدويا وكان العمال المهرة المتخصصون جميعهم من تونس، وتزودنا (السلنامة) بقائمة تحمل اسماء العاملين والمدراء والمحررين... الخ في المطبعة، ونجد في عدد 8 ص 52 من السلنامة لسنة 1294 هـ أن عدد الموظفين التابعين للمطبعة كان محدودا جدا حتى بعد تطوير فن الطباعة، وكان على هذا النحو[5]:

| التصنيف | ثلاثة عمال |
|---|---|
| الطبع الحجري | عامل واحد |
| الطبع الآلي | عاملان |
| التحرير | عامل واحد |

واذا اخذنا بما نشره احد الدارسين وهو (سلوش N. SLOCH) في مجلة العالم الاسلامي سنة 1908، وكان موجودا في طرابلس، نجد أن عدد المطابع آنذاك لم يكن يتجاوز المطبعة الواحدة، فهو يقول:

«مطبعة واحدة فقط تعمل لكل طرابلس الغرب ومنذ عامين قام ايطالي باصدار دليل لطرابلس الذي اعلن عن طبعته الثانية، والدليل يتناول ـ التاريخ ـ الفن ـ الصناعة ـ التجارة ـ ادارة ميناء طرابلس ـ والمناطق المحيطة بها. ووضع هذا الدليل تحت تصرف المسافرين والتجار، وكانت طبعته الاولى سنة 1906–1907 ويقع في 108 صفحات مع خريطة للولاية. وطبع مرة أخرى سنة 1907–1908 في 164 صفحة، ونظرا لعدم وجود المطابع في طرابلس فقد طبع في طبعتيه الاولى والثانية في (ليفورنو LIVORNO) لدى (اتحاد ليفورنو للطباعة l'Unione Tipografica livornese) الا انه مع قدوم سنة 1899 بدأ الاهتمام بفنون الطباعة يتزايد وبمبادرة من الوالي نامق باشا اسست مدرسة الفنون والصنائع التي كان بها ـ كما يبدو من الوثائق المحفوظة في المدرسة نفسها ـ قسم لتعليم فن الطباعة، وكل القرائن تبعث على الاعتقاد بأنه لم تكن للمدرسة مطبعة خاصة، وأن الطلبة يرسلون الى المطبعة الحكومية لتعلم هذه المهنة»[6].

وفي عهد هذا الوالي وكما يقول (كوبر COUPER):

«شهدت البلاد ازدهارا في الحياة الصحفية والثقافية، اذ صدرت في مدينة طرابلس جريدة الترقي لصاحبها الشيخ محمد البوصيري، ومجلة الفنون لصاحبها داوود افندي، وقد حملت هذه الصحف من الروح الثقافية التي كانت سائدة لدى المثقفين في ذلك الوقت، وعبرت الى حد ما عن المشاكل والقضايا التي كانت تشغلهم، وأسهمت بشكل واضح في تطور الحركة الثقافية والفكرية في البلاد»[7].

ولكن التطور الحقيقي في فن الطباعة قد حدث بعد صدور الدستور العثماني عام 1908، واستمر هذا التطور بلا انقطاع حتى الاحتلال الايطالي، وقفز عدد المطابع في أقل من ثلاثة اعوام من مطبعة واحدة الى خمس مطابع[8].

والمطابع هي:

* ـ **مطبعة الولاية:**

اسست سنة 1870، ونقلت في سنة 1903 من القلعة، حيث كان مقرها الى مدرسة الفنون والصنائع، بشارع الحميدية ـ الفاتح من سبتمبر حاليا ـ وعرفت باسم هذه المدرسة.

* ـ **مطبعة الترقي:**

كان مقرها لفترة قصيرة، بمقر مطبعة الولاية، شارع الحميدية، ثم انتقلت الى مقر البلدية القديم بسوق الترك.

* ـ **مطبعة جوستاف اربيب:**

تأسست سنة 1908م.، وكان مقرها بشارع جامع محمود بالمدينة القديمة وفي السنة التالية (1909) ادخلت الحروف اللاتينية الى طرابلس الغرب، وبكمية كافية لطباعة دورية يومية واحدة فقط في الحجم الصغير، وبادخالها للحروف اللاتينية تبدل اسمها الى المطبعة الدولية، وفي هذه السنة طبعت اول صحيفة باللغة الايطالية وصدر العدد الاول منها في 8 يناير 1908 وكانت الصحيفة تحمل اسم الولاية (جورنالي دي تريبولي Giornale di Tripoli).

* ـ **مطبعة الفنون الخطية:** TIPOGRAFIA ARTI GRAFICHE

تأسست سنة 1909 وكان مقرها قرب ميدان بنك روما، الميدان الواقع قرب مدرسة عثمان باشا بباب البحر.

* ـ **المطبعة الشرقية:** TIPOGRAFIA ORIENTALE

وتعرف ايضا باسم صاحبها تشوبة (مطبعة تشوبة) تأسست سنة 1910[9].

---

**هوامش**

1 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 12.
2 ـ IBID.
3 ـ احمد النائب: مرجع سابق جـ2، ص 277.
4 ـ فرانشيسكو كورو، مرجع سابق ص 152.
5 ـ Revue du Monde Musulman.
6 ـ Revue du Monde Musulman (1908 V6 p. 272).
7 ـ خليفة التليسي (حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والاجانب) الدار العربية للكتاب ط 1 ص 195.
8 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 13.
9 ـ انظر فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 153.
احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 278.
MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 19.

## 3 ـ الموضوعات الرئيسة التي تناولتها الصحافة:

سلفت الاشارة الى ان هذه الفترة التي نتناولها بالدراسة قد اتسمت ـ على الصعيد العالمي ـ بالصراع الاستعماري ضد الدولة العثمانية ومحاولة الاستئثار بممتلكاتها. اما على الصعيد الداخلي فقد كانت الاحوال العامة في المناطق العثمانية متردية الى حد بعيد، فطريقة الحكم العثماني الذي كان قائما على الاستبداد المطلق، ونظرة الدولة الى كل منطقة على انها مجرد مصدر مالي من مصادر الخزينة وطرق تعيين الحكام والصلاحيات المطلقة التي كانت تمنح لهم واطلاق ايديهم في كافة شؤون المنطقة شريطة أن يعود ذلك بأكبر كمية من الاموال الى العاصمة المركزية. كل ذلك ادى بمجموعه الى ذلك التخلف الذي لابد وأن يؤدي الى الاستعباد والاهمال، مثلما ادى في الوقت نفسه الى بذر افكار الثورة والتحرر في جميع مناطق الامبراطورية وخاصة منها المناطق العربية التي بدأت تعيش في تلك المرحلة نهضة فكرية تحررية ثقافية، يمكن اعتبارها بدايات النهضة بمفهومها الحديث. ومما زاد في تعميق هذه الثورة وتوسيع اطارها والجنوح بها الى الصورة العربية المستقلة تماما ـ تطرف رجال الاتحاد والترقي والحاحهم على التتريك وعلى فرض اللغة التركية على جميع مناطق الامبراطورية العثمانية(*).

ومع تزايد حدة الاستبداد تفاقمت الاحداث بشكل اكثر خطورة ووصلت الى الحد الذي زاد من نشاط الحركة الثورية في كل انحاء الدولة العثمانية، وشهدت السنوات الواقعة بين عامي 1905–1908 احداثا خطيرة تمخضت عنها ثورة 1908 التي اطاحت بالسلطان عبد الحميد، وأصدرت قرارا باعادة الدستور الصادر سنة 1876(**).

كان هاجس الصحافة الوطنية الاول، مشكلة التخلف التي يعاني المجتمع من ترسباتها، ولم تقصر التخلف على ناحية من نواحيه بل تناولته انسجاما مع النظرة الحضارية الجديدة، محاولة ازالة ركود العقل لدى الجماهير، الذي تعاونت عوامل تسلط وقهر الاستبداد لاضعاف طموحه، فنادت باصلاح حال التعليم الذي لم يمسه التطور اقتناعا منها بأنه المرفق الوحيد الذي يفتح طاقات جديدة للأمل والرقي والتقدم، والاكثار من فتح المدارس لما لها من اثر كبير في تكوين المواطن الصالح ونقل التراث الثقافي للأمة من جيل الى جيل، ولايجاد الوحدة الفكرية بين ابناء المجتمع، وتناولت اللغة العربية التي اصبحت ضحية هجمات اللغات الاجنبية، فتوقفت عند لغة التخاطب التي خرقتها الكثير من العبارات والاصلاحات المخالفة لاصول العربية والمستمدة من اللغات الاخرى لاسيما التركية والايطالية.

---

(*) لمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع انظر:
جورج انطونيوس (يقظة العرب) مرجع سابق.
يحيى جلال (المغرب الكبير) مرجع سابق.
محمد عزة دروزة (نشأة الحركة العربية الحديثة) بيروت 1971.

(**) لم يكن دستور سنة 1908 سوى المشروع الذي قدمه مدحت باشا سنة 1876 الذي كان رئيسا لوزراء عبد الحميد (صدرا اعظم) وكان صدور الدستور في 23 ديسمبر من السنة نفسها وكان في اصله من وضع مدحت باشا، لذلك كان يحمل طابع افكاره الحرة، وفي افتتاح البرلمان الجديد في اوائل شهر مارس اصدر عبد الحميد قانونا بتعطيل الدستور، وبقي معطلا احدى وثلاثين سنة.

والمشكلة الاخرى البالغة الخطورة التي واجهت الصحف الوطنية مشكلة التسلل الثقافي الايطالي الذي بدأ ينخر في جدار ثقافة المجتمع عبر اجهزته الاكثر تطورا وتقدما وتقنية، محاولا التسرب الى حياة المواطن حتى يتقبل فكرة الاحتلال، وكذلك الامتيازات الاجنبية التي ضربت حصارا اقتصاديا في كل الميادين. وكانت ايطاليا وراء هذه الامتيازات، وبمباركة من الدولة العثمانية تحاول ان تتغلغل سلميا وفق برنامج عملي مدروس.

وفي هذا الخضم الزاخر من المتناقضات تبقى مهمة الصحافة الوطنية، شاقة وعسيرة وخاصة انها تصدر لمجتمع تنتشر فيه الامية بشكل شبه مطلق، ولعل العامل الوحيد الذي ساعد الصحافة على ان تشق طريقها وبخطوات واسعة ذلك الاقبال العظيم على الصحف من قبل الجماهير القادرة على القراءة، وقد كانت هذه العلاقة بين القراء والصحيفة مصدر اعجاب وانبهار بالنسبة للصحفي الايطالي (جوسبي بيازا GIUSEPPE PIAZZA) الذي وصف هذه العلاقة بقوله:

«مما يدل على قدرة الشعب على تشبثه بالمدنية الحديثة تلك العلاقة المتينة بينه وبين الصحافة التي تصدر ببلاده، فمنذ اكثر من ثلاث سنوات مضت قبل صدور الدستور، كان التحدث عن الصحافة في طرابلس قد يكون اللعنة نفسها، فالورقة المطبوعة حتى لو تفيد لمكتب متواضع او للف الجبن، تتم مصادرتها بقسوة من يد المواطن (ابن البلد) وأن اية ورقة، وأي كتاب يتحدث عن الاتراك او طرابلس او عن السياسة في ظل حكمهم يمزق. واليوم فيما لا يزيد عن ثلاثة اعوام توجد بطرابلس وبصفة ثابتة ثماني صحف اثنتان تركيتان «تعميم حريت» اي تأكيد الحرية وهي صحيفة شبه رسمية، وطرابلس غرب، صحيفة رسمية، وثلاث صحف عربية (الترقي، المرصاد، ابوقشة) وصحيفة اسرائيلية، واثنتان ايطاليتان (صدى طرابلس l'Eco di Tripoli) و(اقتصادي طرابلس Economista di Tripoli) وجميعها تصدر اسبوعيا، واذا نظرنا لقلة عدد السكان وخاصة المثقفين منهم في طرابلس فان عدد هذه الجرائد، امر غير عادي، ان الهيكل الفني لتلك الصحف ليس متقدما بالتأكيد باستثناء (الترقي) الاكثر جدية بين الصحف العربية، ولها مطبعتها الخاصة، والسحب الاجمالي لا يصل الالف العاشرة(*) ولكن الحماس لها شديد»[1].

ويلاحظ (الكونت سكانيو بيكيل سفورزا ASCANIO SFORZA) السياسي الايطالي المعروف الذي ربطته فيما بعد صلات ودية مع بعض الشخصيات الوطنية، والذي حل بمدينة طرابلس في 23 فبراير 1911م.

«انه كانت تصدر في ذلك الوقت ثماني صحف، ويتحدث عن الترقّي التي

(*) الرقم الصحيح ـ 1000 ـ نسخة انظر الوثيقة المؤرخة في 5 ابريل 1910 ملف الصحافة ارشيف المحفوظات التاريخية طرابلس.

كان يصدرها محمد البوصيري وهي جريدة سياسية تهتم بالمصالح الوطنية، ولها مراسلون في مختلف انحاء البلاد، وتخرج يوم السبت، وقد منعت السلطات الفرنسية دخولها الى تونس نتيجة مواقفها المعادية للاستعمار الفرنسي، ويذكر «المرصاد» و«العصر الجديد» و«الكشاف» والرقيب» و«ابوقشة»، ثم «طرابلس الغرب» وهي الجريدة الرسمية، ثم «تعميم حريت» التي كانت تصدر باللغة التركية ويسجل من مواقفها هجومها الدائم على قناصل ايطاليا وانجلترا وفرنسا، وجميع الاجانب ودعوتها الى اجلائهم كما كانت تنادي بالغاء المحاكم القنصلية»[2].

وتعتبر هذه الصحف من المؤسسات الثقافية التي جسدت من خلال موادها مطلب الحرية، ذلك الحق المكتسب الذي كان الشعب يطمح الى تحقيقه منذ عشرات السنين، وتحاول ان تنفض وبقوة غبار المعاناة والقهر والجهل والتخلف عن كاهله حتى يتخلص من بقايا عصر الاستبداد الذي جعله يفتقر الى ادنى مستويات حضارة ذلك العصر. ونجحت الى حد بعيد في خلق مناخ ثقافي فتح ابوابا وآفاقا واسعة ساعدت على انتشار المدنية والرقي بين الاوساط الشعبية فأكدت رأي «جورجي زيدان» احد رواد الصحافة العربية، عندما وصف ذلك النشاط بقوله:

«الصحافة عنوان الحضارة ودليل المدنية فاذا رسخت قدم جماعة في المدنية كثرت جرائدهم وتعددت مواضيعها»[3].

التزمت الصحافة الوطنية بتطوير المجتمع منطلقة من اهدافها في معالجة مشاكله ومعاناته التي ورثها عن عهود الظلام التي صاحبت الحكم العثماني، وحاولت ان تخلق رأيا عاما مستنيرا يشارك في صنع التقدم والرقي وقهر التخلف وتمكنت بالفعل من ذلك بسبب انتشارها وذيوعها في المنازل والمقاهي والمكاتب والدكاكين، والذي يجعل من هذه الصحف عنصرا هاما لا يمكن اغفاله او التقليل من تأثيره كوسيلة للاعلام والتحضر كما يقول (جوسبي بيازا G. PIAZZA).

«اما مشكلة الامية، التي تحول دون الاتصال المباشر بالصحف فقد تغلب عليها ابناء البلاد بطريقتهم الخاصة. كانت الحاجة الى المعرفة والاطلاع والمشاركة في الحياة السياسية والثقافية والتفاعل معها اقوى من كل شيء، وهكذا فقد كنت تجد من يعرف القراءة محاطا بمجاميع متعددة من الاصدقاء والمستمعين، ويقرأ لهم بصوت عال، وبمجرد صدور الصحيفة تشاهد في كل مكان وفي جميع نقاط المدينة وحول موائد المقاهي التركية، وفوق الحصر العربية بالطرق، وفي المتاجر الكبيرة، والدكاكين جماعات من الناس تنصت للقراءة وتعلق عليها، وخلال ساعات قليلة يصبح محتوى الصحيفة معلوما لدى كافة السكان، ليس في طرابلس فقط ولكن حتى في المراكز البعيدة في الولاية»[4].

ولعل من ابرز ملامح الحياة الصحفية في ولاية طرابلس خلال فترتها الوجيزة انها كانت

مرآة لحياة الشعب وفي خدمته وتهدف الى شيء واحد فقط هو تكوين العقل الجديد لهذا المجتمع، وقد نجحت في هذه الغاية نجاحا لا نظير له.

وحددت جريدة (الترقي) هذا الهدف من خلال مهنة الصحافة:

«الصحافة صنعة شرعية بحسب اصول الوضع، ومهنة سامية من حيث اساس القصد، احدثها الغربيون ليجمعوا بها كلمة الشعب ويوقظوهم من الغفلة، وينبهوهم لواجباتهم ويبشروهم بمسراتهم وينقذوهم من المخاطر»[5].

ولم يقتصر اهتمام الصحافة الوطنية على بناء المواطن داخليا، وغرس حب الوطن في نفوس الجماهير فقط بل الى جانب اهتماماتها الوطنية في معالجة القضايا الملحة، اخذت بعدا قوميا تمثل في الدور الكبير الذي لعبته في ايقاظ الشعور القومي، وتوصلت الى تحقيق هذا الهدف في ربطها بين تقوية العناصر القومية بالمخاطر التي تهدد الاقطار العربية، ومحاربة الاستعمار الاوربي الذي يستهدف القضاء على التراث الحضاري والثقافي للأمة العربية والاسلامية.

هوامش

1 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 13.

2 ـ خليفة التليسي (حكاية مدينة) مرجع سابق ص 223.

3 ـ فيليب دي طرازي (تاريخ الصحافة العربية) ج1 ص 14.

4 ـ MARIO SCAPARRO. op. cit. p. 8.

5 ـ الترقي عدد 204، 14 رمضان 1329 هـ، 25 اغسطس 1327 مالية.

## المبحث الثاني :

# الصحافة الوطنية وقضيتا التعليم واللغة العربية

### أولاً: الصحافة الوطنية وقضية التعليم :

ناقشت الصحف سياسة التعليم التي انتهجتها ادارة المعارف بولاية طرابلس، والتي لم تتمش مع اسس التطور الذي لامسته الولايات الاخرى في الوطن العربي، بالنقد البناء وابداء الرأي الناجح للخروج من لانماط التقليدية العقيمة التي لم تأت بنتائج ايجابية، وحاولت ان تبعث همم المسؤولين في النهوض بهذا المرفق الذي سيساهم في بناء المجتمع عن طريق انشاء المدارس الحديثة، وتطوير المناهج وفق الاسس التربوية لتمهيد الطريق امام احياء الثقافة العربية لتعود مرة اخرى فتصبح قادرة على ان تتصدى للثقافات الغازية[1].

وتتفقد جريدة (العصر الجديد) سير التعليم في الولاية الذي يقتصر على مبنى لإدارة المعارف يحتوي على موظفين تقاعسوا عن اداء واجبهم التعليمي وأوصدوا الابواب امام طلاب العلم، فتقول :

«نصيبنا من التعليم ادارة للمعارف ببلادنا، اسما بلا جسم: بل موظفين تتقاضى المعاش والقاب لها عظام، وديوان مفتوح وكراسي مملوءة بأجساد طوال عراض ولا نتيجة لنا من ذلك... وظيفة المعارف تأسيس المدارس وفتح ابوابها لكل طارق، والقاء الدروس عليهم في العلوم التي تراها مناسبة لائقة، أما نحن فمعارفنا لم تكن لها سوى مدرستين واحدة عسكرية وأخرى ملكية. اما الاولى لأناس مخصوصين ممن ارادوا الانخراط في سلك الجندية وهم قليلون(*)، والثانية ملكية وما عساها أن تأوي من ابناء ولاية بها من النفوس ما يناهز المليون ونصف، ولئن قالت ان ساحتها عظيمة فهي لا تقل عن متسع بهو بيت من البيوت المعدة لاستقبال الامراء فانا والحق يقال لا نجد ردا على هذا الجواب المسكت».

---

(*) أنشأت الحكومة العثمانية المدارس العسكرية في مختلف الولايات في الوطن العربي، وتهدف من ذلك أن تكون المدارس العسكرية وسيلة تخدم اهدافها السياسية ومطالبها العسكرية، وكان الاقبال عليها من جانب الوطنيين في مختلف الولايات قليلا، وفي الوقت نفسه كان التزاحم على المدارس المدنية حتى تتاح لهم فرصة الانفلات من الانخراط في الجندية.

و (العصر الجديد) تقرر أن المدرسة المدنية التي انشأتها ادارة المعارف لم تف بالغرض، ولم تستوعب الاعداد الهائلة من التلاميذ بالمقارنة مع عدد السكان وتوضح في المقال نفسه ان الاهمال لم يقتصر على عدم انشاء المدارس بل شمل حتى البرنامج الدراسي في المدرسة المدنية الوحيدة وذلك بالغاء بعض المواد الدراسية فلنتوقف قليلا امام هذا النقد اللاذع والتحليل المنطقي وتفنيد جميع ادعاءات القائمين على التعليم، ونتلمس هذه اللهجة المشبعة بالسخرية في الظاهر وبالمرارة والالم في الباطن. تقول الصحيفة:

«تلقن هذه المدرسة مبادىء من العلوم كادت لا تذكر، ومع هذا فهي لا زالت تختزلها واحدة تلو الاخرى، فلقد اختزلت أولا درس تجويد آيات الله، قلنا لعل لها العذر حيث لم تجد اساتذة لذلك حال كون البلد اكثر من ثلثيهم يحسنون التجويد، اختزلت بعده درس اللسان التركي الذي هو اللسان الرسمي وكأنما بالسبب الداعي لذلك علمها بأن الوظائف حتى البوليس لا تعطى الا لمن يحسن اللسان التركي، فوقفت سدا منيعا حائلا بينها وبين الاهالي حتى يتم حرمانهم، والحال أن معاشها من جيوبهم اختزلت درس الجغرافية وكأني بها تركتها من برنامجها بالمرة ولا نجد اليوم درسا مرتبطا به اذ يتوقف استاذه على معرفة التلاميذ مواقع البلدان وتقسيم الممالك ونسبة الشعوب وكأني بها لم تجد من يدرسها ايضا، ولئن اتاها استاذ لا يحسن اللغة التركية أطردته ولا شك ولا عيب فيه الا كون لسانه عربي فصيح»[2].

وأفردت الجريدة مثالا لسياسة التعليم الفاشلة، ومناهجها المبتسرة التي فرضتها ادارة المعارف في الولاية، والتي تهدف الى عدم تمكين الاهالي من الحصول على الوظائف الادارية حتى البسيطة فيها بسبب اشتراطها لاتقان اللغة التركية، وكذلك إستبعادها للعناصر الوطنية المؤهلة للتدريس والتي لا تحسن التركية من الانخراط في سلك التعليم.

وفي العدد نفسه تتوقف الصحيفة امام منهج التعليم نفسه فتكشف نوعية المواد التي تعطى للتلاميذ وبأنها تلمح بذلك الى البعد الهائل بين ما يلقن لهم وما يحتاج الانسان لمعرفته عندما يستعد للاخذ بمقومات الحياة العصرية في مقال: (ماذا يقرأ اليوم بالمدرسة) تقول:

«ان العدد من التلاميذ الذين هناك وهم لا يتجاوزون حد الاعداد المركبة عندما يذهبون هناك تلقى عليهم بعض الاقاصيص كعنترة، ورأس الغول حتى يفنى الزمن وتمر الساعات، ويرجعون لمنازلهم حاملين من العلم خرافاته، ومن التربية والتهذيب ما يفسد اخلاقهم ومن المنشطات ما يفشل عزائمهم»[3].

وترسل جريدة (الترقي) خطابا مفتوحا عبر صفحاتها الى مدير المعارف بالولاية تأسف فيه لصرف وقتها الثمين في مناقشته، وتأسف ايضا أن تخسر جزءاً من صفحات الجريدة في نشر اعماله التي لم تعد خافية على احد خصوصا تقاعسه في افتتاح المكتب الاعدادي وعدم قبول الطلبة، وتختتم المقال مخاطبة المدير بقولها[4]:

«اننا نسمع كل يوم ما تنفطر له النفوس من الاعمال التي اتخذتموها لحرمان اهالي البلاد من تعليم ابنائها»[5].

وتدلي «ابوقشة» بدلوها في هذا الحوار الدائر حول قضايا التعليم، فتتناول الموضوع بأسلوبها الهزلي المعهود وذلك على هيئة حوار هزلي بين وطني وآخر «صاحب وجدان» عن حال المعارف والطلبة وكيفية القاء الدروس وعن التفتيش (التوجيه التربوي).

**صاحب وجدان:**

كيف حال المعارف؟ وهل صار التشبث لتأمينها وتمكينها وتحكيمها حسب المطلوب؟

**الوطني:**

نعم يوجد بمركز الولاية وملحقاتها مكاتب ابتدائية.

**صاحب وجدان:**

هذا ما يسرنا، ولكن كيف حال الطلبة بهذه المكاتب؟

**الوطني:**

ومن أي جهة تسأل؟

**صاحب وجدان:**

نسأل من جهة الدروس بأي درجة وبأي حركة؟

**الوطني:**

هذا لا نعلموه(*) حتى الان.

**صاحب وجدان:**

عجيب فاذا كانت المكاتب موجودة وصار لها الوقوف التام بالتوسلات اللازمة في امر تنويرها بنور الاطلاع والمعرفة كيف لا تعلموه(**)؟

**الوطني:**

نعلم بالمكاتب موجودة والطلبة مجتهدة.

**صاحب وجدان:**

من أين لك علم أن الطلبة مجتهدة؟

**الوطني:**

بوجود المكاتب.

**صاحب وجدان:**

وهذه المكاتب كم لها من سنوات؟

**الوطني:**

لها ما يتجاوز الثمانين سنة.

---

(*) صوابها لا نعلمه.

(**) صوابها تعلمونه.

**صاحب وجدان:**

وهل صار التفتيش لهذه المكاتب بالملحقات؟

**الوطني:**

كيف هو التفتيش؟

**صاحب وجدان:**

بارسال مفتش مخصوص كل سنة لاجل رؤية حركة المكاتب والدروس الموجودة واصلاح النواقص وبيان مطالعته عند اتمام التفتيش كل سنة.

**الوطني:**

لا سمعنا بذلك اصلا.

**صاحب وجدان:**

وأين الجرائد الوطنية حتى تعلم بذلك؟

**الوطني:**

صرخت الجرائد حتى كلت، والنافع الله[6].

وحتى مدرسة الفنون والصنائع التي تأسست سنة 1896 في عهد نامق باشا لم تؤد دورها كما ينبغي في النهوض بالصناعة الوطنية، نظرا لعدم اهتمام ادارة المعارف باحوالها، وكذلك اهمال الجهات المسؤولة الاخرى بعدم توفير مواطن شغل لخريجي هذه المدرسة، فكانت النتيجة كما صورتها جريدة «ابوقشة» في هذا المقال:

«يزيدك وجهه حسنا اذا ما زدته نظرا ولكن يسؤوك حالها ويحزنك مآلها، لما استولى عليها من الرجوع القهقرى، والتأخر الى الوراء، اسس هذا المكتب منذ سنين طوال فحسبنا له حساب وظننا انه سيكون الواسطة لنمو المصنوعات الاهلية، ويفيد طائفة من شبان البلاد لما يغرس في افئدتهم من حب العمل وترك الكسل وباعثا قويا على اثارة العزائم لتأسيس المشاريع الناقصة كي ينتشلوا الجهل من ابنائهم ممن لا يمكن للمدرسة قبولهم.

فماذا انتجت المدرسة الى حد اليوم؟، وماذا استفادت منها البلاد؟ وبأي عائدة عادت(*) على الاهالي؟

اما النتيجة فمحدودة بالمرة، ولا ينازعها احد في ذلك لاننا ما رأينا صانعا اهليا متخرجا من هذه المدرسة يشتغل على الاسلوب العلمي بل ولا غيره حتى ان بعض المتخرجين منها دخلوا سلك الجندية بعدما جابوا الطرقات اياما عديدة لقلة ذات اليد وعدم مساعدة مدير المدرسة لهم على اعطائهم المخصصات التي خولها لهم قانون المدرسة بعد احرازهم على الشهادة لتكون رأس مال التلميذ يباشر بها

(*) في الاصل عادة.

الاشتغال خارج المدرسة، فلمن يشتكي التلميذ النابغ اذا حرم من هذا الحق الثانوي»[7].

هذا اذاً نتاج المدرسة السلبي وانعكاسه على التلاميذ، اما المردود الاكثر سلبية فقد عاد على الاهالي فتقول الجريدة:

«أما العائدة التي عادت على الاهالي من المدرسة فتثبط عزائمهم وفهمهم أن لا قيمة ولا نتيجة من درس الصنائع او بالاحرى تبادر أن هاته الولاية لا يمكن تعليم المصنوعات بها على الاسلوب الذي يكفل باتيان وضع وصنع ما يمكن به الصنع في مملكة او ولاية ثانية، لان القوم لا يزالون في غفلة، بل لا يزال الكثير منهم يجزم بأن ما تأتينا به الممالك الاجنبية من المخترعات غير مصنوعة بيد بشر مثلنا، ولهم المعذرة في ذلك حيث لم يجدوا من يوصلهم الى الدرجة التي يدركون بها ما ادرك غيرهم فتقاعست هممهم، ربما كانت تتحرك لمد يد من المساعدة لتأسيس ما يرقي البلاد من الوجهة الصناعية التي هي احدى اركان الحياة البشرية»[8].

وتختم (ابوقشة) مقالها مبينة أن سبب التأخر الذي تعيشه المدرسة والاحباط في نفسية التلميذ والمواطن، انما يقع بالدرجة الاولى على مدير المدرسة الذي لم يكن متخصصا في العلوم الصناعية، ولم يمارس العمل الاداري الذي يؤهله لادارة المدرسة على الوجه الاكمل وهي تشن عليه هجوما عنيفا ربما كان فيه الكثير من الظلم اذ اننا لا نشك في وطنية ذلك المدير واخلاصه لعمله غير أن الامكانات على ما يبدو لم تكن متوفرة لديه. بيد أن الجريدة تجد سببا آخر لفشل المدرسة وهو عدم تخصص المدير في الامور الصناعية فتقول:

«لئن كان مديرها الحالي أديبا يقول الشعر، وله ثروة واسعة ومثقف ووجيه، وابن بيت[9]. الا أن هذه الاوصاف لا تخول صاحبها أن يكون مدير مدرسة صناعية، لانه لا يعلم الصناعة، ولم يدرسها ولم يعرف شؤون الادارة ولم يمارسها، فكأنني لم اقل شططا اذا قلت حقا، تأمل منه منفعة للوطن فعلى الولاية اذاً ان تهتم باحوال هذه المدرسة، وتنقذها من شفا الخراب»[10].

ولم يكن اهمال التعليم محصورا في المدارس المدنية ومدرسة الفنون والصنائع، بل شمل حتى التعليم الديني في الزوايا والجوامع. وتقترح جريدة «ابوقشة» رأيا للنهوض بالتعليم الديني وذلك:

«بأن يوجد محل للتدريس بجامع واحد تلقى فيه الاساتذة دروسهم ويحدد لكل استاذ معلوم الدروس التي يلقيها، وان زاد فمن عنده، وأن يقام عليهم ناظر عفيف يراقب احوالهم في المواظبة والتخلف، والامتثال للنظام في القاء دروسهم، وهذا الناظر ينهي امرهم الى لجنة عليا»[11].

لم يكن اهتمام الصحافة منصبا على تبيان نواحي التقصير في مرفق التعليم، والمعطيات السلبية الناتجة عن اهمال ادارة المعارف لهذا المرفق فحسب بل حاولت أيضا ان تحفز المواطن

على الاقبال على التعليم وأن تضغط على حكومة الولاية من اجل الاكثار من فتح المدارس وتجهيزها تجهيزا عصريا موضحة فوائد التعليم والتربية في ترقية الشعوب والرفع من مستواها الحضاري والثقافي في مختلف اوجه الحياة.

ونلاحظ هذا الاتجاه في جريدة الترقي[12] في فترة صدورها الاولى ابان العهد الحميدي، الذي ضيق حريات الصحافة فيما بعد، فلم تكن قادرة في هذه الفترة على اظهار عيوب حكومة الولاية تجاه التعليم.

ويبدو أن الحملة الصحفية المكثفة التي شنتها الجرائد ضد ادارة التعليم لم تجد ردود الفعل المطلوبة لدى ادارة المعارف بالولاية، كما يتضح من المقالات التي كانت تنشر، فتعترف (ابوقشة) «بأن الجرائد صرخت حتى كلت والنافع الله» و(العصر الجديد) لا تجد ردا شافيا على تساؤلاتها اما (الترقي) فهي تأسف على اهدار الوقت الثمين في مخاطبة مدير التعليم.

**هوامش**

1 ـ العصر الجديد (عدد 50) 20 ربيع الاول 1327هـ 29 مارس 1325 مالية.
2 ـ العصر الجديد ـ العدد 50) مرجع سابق.
3 ـ المراجع السابق.
4 ـ نشرت الترقي في (عدد 173) ذي المحرم 1329هـ 13 كانون ثاني 1329 مالية خبرا مفاده انه لم يتم تسجيل الا 25 طالبا بالمكتب الاعدادي وفي نفس العدد تنشر خبرا حول عزل مدرس الجغرافية بالمكتب.
5 ـ الترقي (عدد 175) 10 صفر 1329هـ. 27 كانون ثاني 1329 مالية.
6 ـ أبوقشة (العدد 52) السنة الثالثة 24 محرم 1329 انظر كذلك علي المصراتي. كفاح صحفي، ص 128 الى 131.
7 ـ ابوقشة (عدد 19) السنة الثالثة.
8 ـ ابوقشة المرجع السابق.
9 ـ المدير المقصود هو الاديب مصطفى بن زكري ولد في طرابلس سنة 1853 وتوفي سنة 1918، وفي عهد رجب باشا عين رئيسا لمكتب الفنون والصنائع، وكان يجمع الى ذلك وظيفة مستشار الولاية.
10 ـ ابوقشة المرجع السابق.
11 ـ ابوقشة المرجع السابق.
12 ـ انظر الاعداد 38/37/33/29/23 من جريدة الترقي لسنة 1315هـ 1314 مالية بمكتبة الاوقاف، وارشيف دار المحفوظات التاريخية، طرابلس.

## ثانيا: الصحافة الوطنية وقضية اللغة العربية:

يقول جبران خليل جبران «انما اللغة مظهر من مظاهر الابتكار في مجموع الامة او ذاتها العامة، فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسارها، وفي الوقوف التقهقر، وفي التقهقر الموت والاندثار».

«اذاً فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن ـ أو غير الكائن ـ في مجموع الامم التي تتكلم العربية، فاذا كان الفكر موجودا كان مستقبل اللغة عظيما كماضيها، وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتها السريانية والعبرانية»[1].

لكن قوة الابتكار توقفت في ولاية طرابلس في هذه الفترة، فأدى هذا التوقف الى اضعاف اللغة العربية وافتقارها الى مقوماتها وكيانها، فانسحب ذلك على مستقبلها ومرجع ذلك الى:

1 ـ الانحطاط والفساد الذي شمل مرفق التعليم ففقدت اللغة سندا يدفع بها الى التطور.

2 ـ تشجيع الاتراك للغتهم وجعلها اللغة الرسمية في الولاية حتى زاحمت اللغة العربية فأدى ذلك الى جمودها وانحسار الكثير من الفاظها عن ميدان الاستعمال.

3 ـ السماح بفتح المدارس الاجنبية، اثر تأثيرا خطيرا في اضمحلال اللغة العربية باستقطابها للكثير من التلاميذ.

4 ـ افتقار الولاية للمطابع الحديثة التي تطبع بالحرف العربي، وندرة الكتب قلل من انتشار الفصحى بين الاوساط الشعبية فاقتصرت على التخاطب بالعامية التي افسدها لحن اللغات الاخرى ـ التركية والايطالية ـ وربما الفرنسية ـ عن طريق تسلل مفرداتها وعباراتها الى اللسان العربي.

هذه العوامل جميعها ساهمت في قتل الفكر المبدع، وفي خنق قوة الابتكار فتوقفت اللغة عن مسارها، وكان مستقبلها مظلما الى حد بعيد وساهمت ايضا في محاولة افراغ الشخصية الوطنية من مضمونها الاجتماعي والقومي وصهرها في الشخصية العثمانية بالقضاء على لغتها.

اذا كانت هذه العوامل التي ذكرناها، ادت الى هذه النتائج فقد كان من مهام الصحافة ـ الوسيلة الثقافية الوحيدة التي تتمتع بالاستقلالية ـ أن تنير الطريق وتبدد ظلام مستقبل اللغة العربية لتبعث فيها الحياة من جديد حتى تتبوأ مكانتها الماضية، وتعيد لها خصوصياتها القومية والثقافية وأن تفضح الممارسات الخاطئة لاجهاض اللغة العربية من قبل السلطات العثمانية وحقيقة أن صحافتنا الوطنية بامكانياتها المتواضعة، تتيقظ دائما الى تلك المحاولات اليائسة، وتدعو الجماهير الى مفهوم جديد لمعنى الوطنية يقوم على اساس اشاعة الوعي بينهم بحقائق الاوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، وتنبه الرأي العام الى طبيعة هذا الحصار المفروض على اللغة والذي يهدف من ورائه الى الغاء كل نداء للعقل والفكر يمكن أن تعبر عنه هذه اللغة بعد قتلها.

وتؤكد جريدة (الترقي)[2] هذا الرأي معتبرة أن «فاقد اللغة فاقد للحياة» وتحت هذا العنوان تنشر مقالا لاحد الشباب الغيورين موقعا بالاحرف الاولى من اسمه جاء فيه:

«لو لم يقيض الله للغة العربية الجامع الازهر، والجامع الاعظم وكلية جبل لبنان لبقيت حبرا على ورق (ولا اخفى(*) عليها الذي أخفى على بعد) وبعد أن اعلنت الدولة العلية الدستور، ودعت الناس للاجتماع، وكنا ننتظر بفارغ الصبر أول مسألة مهمة يبحث فيها المجلس، وهي مسألة اللغة الدينية، وأن يخصص لها مقدارا وافرا من الدراهم لاجل الاعتناء بها ودرسها وتعميمها في كل الولاية، وجعل تعليمها جبريا في كل محل لانها لغة الدين فما مضت نصف سنة او اكثر الا وقام بعض الكتاب الطائشين... بدار السعادة... وطلب تصفية اللغة وصار يكتب مقالات ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله التفرقة والشتات، ولم يعلم هذا الطائش انه لولا اللغة العربية لما امكنه ان يفهم شيئا من العلوم المتداولة على حقيقتها، وأخاله معذورا لانه يجهلها ويجهل مراميها ومن المسلم به أنه من جهل شيئا عاداه وكأنه لم يدر أيضا أن السبب القاضي لسنن الدنيا عموما، وعلى لساننا الديني خصوصا هي تلك المعاهدة النابليونية التي اضمحلت موادها كلها الان ولم يبق منها الا المقصود بالذات، وهو جعل لسانه رسميا بين جميع الدول ولعمري الحق ان هذا الاقتراح لهو حرب سياسية نتيجتها محو لساننا الديني من كرة الارض، وأظن هذا هو السبب الوحيد لجعل لغته رسمية لان في جعلها رسمية ضعفنا في لغة ديننا، واذا ضعفت لغة ديننا ضعف ديننا وانحلت عرى جامعتنا وحصل الشقاق والنفاق بيننا، واذا انحلت عرى جامعتنا صرنا مذبذبين بين ذلك وذاك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء أو محينا بالمرة والعياذ بالله.

هذا وقد سلقته بالسنة حداد (...) واسمعوه ما يكره، على كل حال ما على مثيله يعد الخطأ... ولنضرب صفحا الان، ونرجع الى المقصود بالذات وهي طلبي وطلب جميع من نطق بالضاد من مجلس المبعوثان والاعيان وجميع المجالس العمومية في البلاد العثمانية. هو جعل تعليم لغة الدين جبريا ونشرها وتعميمها في جميع البلاد العثمانية، واخص من بينها بلادنا التي هي احط بلاد عثمانية في جميع الترقيات المادية والادبية، وأرجو من مجلسنا العمومي أن يعير نظره الى هذا الاساس الذي ذكرته، وأن لا تكون مقرراته كمقررات السنة الماضية التي بقيت حبرا على ورق بأن تكون مقرونة بالعمل، هذا ما امكنني استحضاره الان، ان

---

(*) صوابها ولأخفى.

اريد الا نشر اللغة العربية ما استطعت ما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب».

وتختم الترقي هذا المقال بهذا الشكر:

«نشكر بكل لسان هذا الشاب الغيور على انتصاره للغته وسعيه في احيائها ورد روائها وحسن بهائها وحبذا لو يقتدي به غيره من سائر الشبان».

ومن الامور التي وقفت حائلا امام تطور اللغة العربية، وتقدمها تتريك الادارة في ولاية طرابلس، وتسليم مقاليد المناصب الادارية الى أيدي الاتراك الذين لا يحسنون العربية، وخصوصا في المرافق الاكثر تعاملا مع الجماهير، مما يستوجب تقديم المطالب باللغة التركية وكان ذلك واحدا من المجالات التي خاضت فيها الصحف وناقشتها ووجدت الصحافة في هذا الميدان منطلقا آخر للتشديد على اهمية اللغة العربية وأهمية معرفتها حتى من قبل الحكام انفسهم وكان في ذلك رد واضح على العاملين في سياسة التتريك، وقد كتبت «الترقي»[3] مقالا بعنوان «لغة الميلاد باأهل العباد» جاء فيه:

«لا نريد أن نعيد ذكرى اللغة العربية، وهضم حقوق ابناء البلاد كلما جاءنا مأمور لا يعرف من اللغة العربية حرفا، ولا يفهم من ابناء الوطن ولا هم يفهمون منه، ونتباعد عن هذه الامور مخافة أن يقال مسألة العناصر وتهييج الخواطر، ولكن الكيل طفح والخطب تفاقم، وأصبحت مناصب الحكومة في طرابلس بأجمعها مشغولة بأناس قد ضرب الحجر اللغوي فيما بينهم وبين الاهلين، فلا فهم ولا مساس وقد زاد في الطنبور نفخة جديدة تعيين مستنطق لدائرة العدلية لا يعلم من العربية سوى انها غير تركية».

وقبل نشر هذا المقال بأكثر من سنتين كانت جريدة (الكشاف)[4] قد نشرت الخبر التالي:

«ان المجلس العمومي اجتمع يوم السبت 5 مارث 1325 مالية بحضور الوالي وبعض القناصل، وقدم المجلس مذكرة في لزوم ترجمة جملة القوانين باللسان العربي، وعدم استخدام المأمورين الذين لا يعرفون اللسان العربي، وفتح المدارس الابتدائية وتعميمها بالقضاءات والنواحي، وتأسيس مدرسة زراعية».

ولسنا في حاجة الى ايجاد التبريرات لعدم تنفيذ مقررات المجلس العمومي اذا عرفنا أن اهم الاعضاء المجتمعين كان الوالي وهو تركي وعدد من القناصل الذي لا نستطيع أن نفترض فيهم حسن النية نحو اللغة العربية، وتستوقفنا هنا حقيقة حضور القناصل الاجانب مثل هذا الاجتماع، فهل كان لهم من النفوذ ما صار يخولهم حضور الاجتماعات التي تناقش فيها قضايا البلاد الداخلية وتقرير ترجمة القوانين الى اللغة الوطنية. يضاف الى ذلك اننا اذا أخذنا حضورهم كحقيقة مسلمة فليس لدينا ما يدحض كون القنصل الايطالي على رأسهم جميعا، ذلك القنصل الذي كان يمثل السياسة الايطالية والثقافة الايطالية ايضا، وكان يرى، حسبما

بينت الاحداث في ذلك الوقت وبعده، أن محاربة اللغة العربية ووأدها يمثل ركنا اساسيا في السياسة الايطالية نحو بلادنا.

أما نوعيات الحكام وغيرتهم على مصلحة البلاد فقد بينها هذا الخبر «الطريف» ونتركه دون تعليق حبسما فعلت الجريدة في حينها فقد كتبت «الترقي».

«بلغنا أن قائمقام قضاء مصراته بينما كان في جمع من الاعيان يتباحثون في تشكيل شركة اقترح عليهم أن يفوضوا اليه انتخاب مدير لها من الخارج فأبوا ذلك فلم يكن من جنابه الا ان احتد ومزق الشرائط المحررة وقال: ان العرب ليسوا ملة بل علة فنحن ننشر هذا الخبر باحتياط ونرجو أن يكون غير صحيح»[5].

**هوامش**

1 ـ د. وداد القاضي. مختارات من النثر العربي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 81) ص 435 ـ من المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران (دار صادر بيروت 1959) ص 544-552.

2 ـ الترقي (عدد 139) 2 جمادي الاولى 1328هـ 1 مارس 1326 مالية.

3 ـ الترقي (عدد 198) 1 شعبان 1329 14 تموز 1327.

4 ـ الكشاف 2 ربيع الاول 1327هـ 11 مارث 1325 مالية.

5 ـ الترقي العدد (171) 12 المحرم 1329 30 كانون اول 1326 ونشرت الترقي تكذيبا ورد من مصراته في عددها (175).

## المبحث الثالث:

# الصحافة الوطنية وفضح سياسة الامتيازات الاجنبية وبنك روما

### * ـ الامتيازات الاجنبية وبنك روما

قبل الغزو العسكري بسنوات عديدة، كانت الحكومة الايطالية تسعى الى خلق سلسلة من المبادرات في طرابلس وبرقة تحت مبدأ (التغلغل السلمي) حتى يتسنى احتواء الولاية تدريجيا وبصمت ودون اهدار رصاصة واحدة[1]. وكان لابد لتحقيق هذا المبدأ من الضغط على الحكومة العثمانية للحصول على امتيازات في طرابلس وبرقة، خاصة أن ايطاليا لم تحصل على سند رسمي يوقف محاربة ولاية طرابلس لنشاطاتها الاقتصادية والتجارية في ليبيا، رغم الحملة المكثفة التي شنتها الصحافة الايطالية، واحتجاج وزارة الخارجية من خلال مذكراتها المرسلة الى الدولة العثمانية، وحاولت ايضا عن طريق القائم بالاعمال الايطالي في استانبول، أن تمتلك سندا قانونيا يمنع مواجهة حكومة الولاية للنشاط الايطالي هذه الضغوطات قد حققت بعض النتائج الايجابية.

في شهر مارس 1910م، ارسل الصدر الاعظم (رئيس الوزراء) منشورا عمم على جميع الولايات يحرض فيها المأمورين على السير بموجب المعاهدات المعقودة مع الاجانب وقد نشرته جريدة (دار الخلافة)(*) معربا وهذا نصه:

«شكت الوكالات الاجنبية أن المأمورين العثمانيين لا يراعون احكام الامتيازات في علاقاتهم مع الاجانب، فالحكومة العثمانية وان كانت تتحين الفرص المناسبة لتتفق مع الدول على الغاء بنود المعاهدة السابقة المعاكسة للحق العمومي الاوربي، والمجحفة بحق السيادة العثمانية فهي مع ذلك ترى وجوب احترام تلك المعاهدات التي ترغب أن تعطي دليلا عن حسن قيامها بمواعيدها في الحاضر كما في الماضي على أمل أن الدولة الصديقة تقدر لها محافظتها على

(*) (دار الخلافة) جريدة اسبوعية تصدر في استانبول صاحب امتيازها عبد الوهاب عبد المقصود ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول محمود بك تركي وسرعان ما توقفت وصدر بدلا منها (الفردوس). جاء في عدد (15) من دار الخلافة بتاريخ 11 ربيع الاخر 1329 28 مارث 1926 مالية «بما أن جريدتنا دار الخلافة كان صدر الامر لمنعها فاستبدلناها بالفردوس، وقد رفع العارض الان والحمد لله عن دار الخلافة، ومنعت الفردوس في مصر وتونس، وعليه فقد عدنا لاصدار دار الخلافة فنقدمها لقراء الفردوس الكرام..

المعاهدات حق التقدير، فلا تحول دون تحقيق الرغائب الوطنية. وأن من الامتيازات الاجنبية ما سطر وصرح به في المعاهدات ومنها ما لم يذكر في معاهدات خصوصية، غير أن العادة الطويلة جعلت في حكم الاول فهذه كلها ينبغي على المأمورين مراعاتها الى حين صدور أمر آخر ونحثهم على أن يطبقوا اجراءاتهم على هذه التعليمات، ويتحاشوا احداث المشاكل بهذا الخصوص، واذا اتفق أن ارتابوا في حادث ما عليهم أن يراجعوا المحل الايجابي، ويسلكوا بمقتضى الجواب الذي يرد عليهم منه، دون أن يتركوا سبيلا للاهالي للمداخلة في المسائل الدولية لان ذلك مما يجعل الحكومة في موقف حرج يعرقل مساعيها»[2].

ويبدو أن هذا المنشور الذي يمنع الاهالي بصفة خاصة من التدخل في عرقلة الامتيازات الاجنبية، وينبه المأمورين الى مراعاة احكام الامتيازات في علاقاتهم مع الاجانب، لم يرض حكومة ايطاليا التي ترغب أن تستأثر بمفردها بحق الامتيازات، رغم أن هناك اشارة غير صريحة في المنشور تعتبر ايطاليا الدولة الصديقة التي تقدر لها تركيا محافظتها على المعاهدات حق تقدير[3]، وقد لاحظ (دي مارتينو Giacomo DI MARTINO)[4] القائم بالاعمال الايطالي في استانبول:

= «أن ايطاليا لا تملك أية طريقة تمنع رعايا الدولة الاجنبية الاخرى في طرابلس من عقد اتفاقيات مماثلة.

= واننا لا نملك أية وسيلة قانونية نستطيع أن نمنع بها الاتراك من تقديم المساعدات لاية مبادرة اجنبية قد تضر بنشاطنا في طرابلس.

= مساعدة السلطات المحلية في طرابلس للأنشطة الصناعية والأنشطة الاخرى المماثلة، بدون شك سيكون لها تأثير على وضعنا السياسي والاقتصادي ومع مرور الزمن قد تكون أوضاعنا معاكسة لمطامحنا في المستقبل»[5].

«وازاء هذا فان طموحات ايطاليا المستقبلية يجب ان تعطيها في الوقت الحاضر الافضلية في الميدان الاقتصادي والثقافي، وفي ادارة رؤوس اموالها في طرابلس وبرقة، وفي زيادة المعاملات التجارية والمشروعات الزراعية والصناعية وايطاليا تعتمد في ذلك على موافقة الباب العالي الذي يجب عليه اظهار رغبته في تسهيل اعمال ايطاليا السلمية والعمرانية، واذا كان السلطان قد عبر دائما عن صداقته لايطاليا فمن الضروري أن يشارك الموظفون العثمانيون في طرابلس في مثل هذا الشعور»[6]. وبالفعل لم تكن تركيا قد قامت بأي عمل جدي لوقف التوغل الاقتصادي الايطالي في طرابلس وبرقة. بل كان المسؤولون الاتراك يسعون الى كسب ود ايطاليا ونيل رضاها والتقرب الى ساستها، ففي تصريح لحقي بك سفير الدولة العثمانية في ايطاليا نشرته جريدة «الترقي»[7] نقلا عن الصحف الايطالية يقول فيه:

«ان الحكومة العثمانية لا تعارض مطلقا في استملاك الايطاليين وانتشارهم بولاية طرابلس».

وتعلق الجريدة على هذا التصريح بقولها:

«لو علم حقي بك بحال الايطاليين الذين انتشروا بتونس وكيف كانوا يعاملون الاهالي، لما أقدم على التصريح بذلك.. أما نحن فاننا لا نوافقه على رأيه وليس في ولايتنا من يرضى بانتشار الايطاليين بيننا أكثر من سائر الاجانب، وبذلك صرنا نأمل من حضرات النواب في ولايتنا سؤال نظارة الخارجية عن هذه المسألة..».

كان العمل الصحفي هو النشاط الوحيد المكرس لمقاومة التغلغل السلمي في محاولة الحد من التوسع الاقتصادي الايطالي عبر قنواته المتعددة الاساليب وكان هذا العمل مكثفا بشكل ايجابي، ووصفه فرانشيسكو ماالجيري (Francisco MALGERI) «بأنه كان عنيفا ضد ايطاليا قادته الصحف الطرابلسية جميعها وعلى رأسها صحيفة المرصاد[8].

واتحدت الصحف الوطنية في مواجهة هذا التغلغل السلمي، وتناولته بالتحليل والتبسيط مبينة نواياه الاستعمارية في احكام قبضة ايطاليا في السيطرة على البلاد نهائيا، والرد على الحملة الدعائية التي تقوم بها الصحافة الايطالية لصالح التمهيد للغزو، وقد حققت الصحافة الوطنية نجاحا في غاية الاهمية في تعبئة الرأي العام وتحريضه ضد ايطاليا ومطامعها في احتلال ليبيا، وقد استطاعت بفضل جديتها ورصانتها ووطنيتها الصادقة أن تخلق اتجاها عاما اكثر تماثلا في اتخاذ المواقف الموحدة تجاه سياسة ايطاليا الاستعمارية.

في معرض تصديها للامتيازات الاجنبية، وبيان ما سيترتب عليها من نتائج سلبية تضر بمصلحة الوطن كتبت جريدة (ابوقشة)[9] مقالا مطولا حول شركة الفوسفات جاء فيه:[10]

«(منجم الفوسطاط) (كذا) اعطاؤه الاجنبي منه بقاء الحالة الراهنة ان لم يضر بها. ويجلب الويلات الاتية واليكم البيان:

استخراج هذا الكنز يستدعي جلب «الاف من العملة من البلاد الايطالية مع كثير من المهندسين، ولا شك أن العملة خدموا الجند وقادرين على حمل السلاح، فأقل عمل تقوم به ايطاليا شحن البواخر النقالة بالسلاح وجلبها وتوزيعها على ذلك الجند المهيأ وما يقع اذ ذاك سيسطره تاريخ المستقبل.

ثانيا ــ ان ابواب احتكار الجزء الموعود به الاهالي موكولة ومودعة مفاتيحها بيد الايطالي، ومن يفكر في السكك الحديدية التي ستمد لنقل الفسفات انها لا تكون الا بأيديهم من المهندسين الى الحمال، ثم اذا وجد بعض الشغالين الاهليين، فانها تصنع لهم مطاعم لبيع الرغيف والدهن والنبيذ وبواسطة الفتيات الحسان يستجلب اولئك المغفلون ما يقبضونه من عرق جبينهم يصرف عندهن».

والقارىء يذهل لهذا التحليل الدقيق لطبيعة «الاستعمار السلمي» ومسلكه في امتصاص خيرات البلاد. لكأن الكاتب كان يرى الى ما سيقوم به الاستعمار بعد سنوات قليلة في بلادنا او ما فعله هؤلاء (العملة) القادرون على حمل السلاح في فلسطين قبيل نكبة 1948م.

والى جانب المآسي السياسية والاقتصادية التي ستترتب عن استغلال منجم الفوسفات، تقدم الجريدة استنتاجات اخرى اكثر خطورة تستهدف استلاب فكر المواطن عن طريق انشاء المؤسسات الثقافية التي ستقوم الى جانب استنزاف أموال الجماهير المترددة على هذه المؤسسات بغزو العقل من خلال ما تقدمه من برامج معروضة ومواد ثقافية استعمارية ترمي الى تطبيع المواطن بالثقافة الايطالية فتتابع الجريدة قولها:

«هذا اذا كانت الاشغال خارج المدينة، وأما اذا كانت داخلها، فانهم باشروا في بناء مرسح (تياترو) وعما قريب يتم تعميره، ولهم فيه فوائد اخرى غير سلب الدرهم من جيب الاهلي، وهو تمثيل الاخلاق الايطالية بين طبقات الاهالي، وبيان ما لايطاليا من الرقي في عالم الحضارة يجلب الصور المتحركة التي تمثل اسطولها وعساكرها ونظامها وتقدم بلادها ومعاملها ومدارسها ومرافقها، واذا شئت شفقتها وحنانها على البشرية، ولو لم تكن في المرسح من الفوائد غير بث هذه المكائد لكفاها ربحا وذخراً»[11].

ان هذا الوعي لماهية الاستعمار الاستيطاني منه والثقافي، دليل على ما توصل اليه المفكرون في مطلع هذا القرن. وبرأينا أن هذا التحليل الدقيق لم يفقد اهمية حتى بالنسبة لأيامنا الحاضرة. الا نرى في كلماته المتعلقة بالدعاية الايطالية وتصوير عالمها على انه الامثل صورة مما يقوم به الاستعمار الامريكي في ايامنا الحاضرة والذي لا تزال آلية دعايته الجبارة تصور لنا تلك البلاد على انها الفردوس الارضي.

والى جانب مجهود ايطاليا في الحصول على موافقة الدولة العثمانية ومسؤوليها، ومن خلال ما نشر في الصحف الوطنية تبين أنها حققت نجاحا في استمالة بعض المسؤولين لصالحها وخاصة منهم بعض مندوبي مجلس المبعوثان (النواب)، للحصول على المزيد من التأييد والموافقة، وتقديم التسهيلات اللازمة لمشاريعها في ولاية طرابلس، بعد أن تمكنت من اغرائهم بالمال وتفضح جريدة (ابوقشة)[12] هذا الاسلوب على لسان رئيس تحريرها محمد الهاشمي:

«ضمني مجلس به احد كبار موظفي (بنك روما) وكان الحديث دائر(*) على ذكر خمود مسألة الفسفاط وعرقلة اعمالها، وما اتت به نشريات الجرائد عن التأثير على الحكومة والاهالي بالبراهين المثبتة على مضار مغبتها فقال هذا الموظف: (اننا واثقون بالعهود والمواثيق التي اخذناها عن بعض المبعوثين حينما تذاكرنا معهم في مساعدتنا واتمام مشروعنا كما أن لنا رجالا وجهناهم للاستانة درعناهم بالمال لا يقفلون من هناك الا بحمل اوراق التصديق على شركة الفسفاط، ولنا اذن صماء على طنين الصحف اذا كان في يدنا بعض المبعوثين».

ويعلق على هذا الحديث، على مدى استغرابه واندهاشه لاعتقاده في نزاهة مبعوثي الولاية

(*) الصواب ـ دائرا.

على الانخداع، ويتأسف على سخافة هذا الموظف الغارق في اوهامه وأحلامه التي تدعمها صحافته في روما بنشرها للاسماء التي تتعامل معها حتى اصبحت معروفة لدى الجميع :

«لعلمنا أن القول اذا لم يؤثر اليوم يؤثر غدا سيما على بعض اعيان وأشراف الولاية الذين اصبحت اسماؤهم معروفة عند كل الناس، وحذرناهم في انفسهم وحذرنا منهم باقي الاهالي وظننا انهم رجعوا عن سوء فعلهم وأقلعوا، فما راعنا الا وقد حيا مواتهم وسرت بينهم كهربائية الاصفر والابيض، وأبلاهم الله وحبب اليهم أن تذكر أسماؤهم على صفحات صحف ايطاليا مقرونة بمعاضدتهم لها، ويقرأها المسلمون في انحاء المعمورة مقرونة بالخيانة وبيع ذمتهم وبلادهم[13].

وتؤكد (المرصاد)[14] على ما جاء في جريدة (ابوقشة) بانتقادها اللاذع للموقف السلبي او المؤيد لمبعوثي الولاية ازاء الامتيازات الاجنبية، وخاصة البحث عن معدن الفوسفات، وعدم الاعتناء بأحوال الولاية، وتقاعسهم في اتخاذ اجراء يحسم هذا التسيب والفوضى، ومن جديد تتوالى امام عيني القارىء اسطر الاسلوب الساخر، الضاحك والمليء بالمرارة في الوقت نفسه :

«نقدم وافر الشكر وعاطر الثناء على لسان الاهالي لمبعوثي ولايتنا على عدم اعتنائهم بولايتنا، والتكلم في مصالحها التي من اعظمها معدن الفوسفاد، الذي سعى ويسعى ليلا ونهارا (بنك دي روما) وغيره من الاجانب في أخذ امتياز الفوسفاد وعن قريب يصدق، وحضرات وكلاء امتنا نائمون، وعن بلادهم متغافلون، فاذا كان ما بلغنا صحيحا فضياع الاهالي وخراب طرابلس، لان الاجانب الذين اخذوا امتياز الفوسفاد لهم اغراض في هذه الولاية معلومة عند الكبير والصغير».

وفي الوقت الذي امتد فيه نشاط بنك روما في كل انحاء ليبيا، وبدا بسلسلة الكشف والتنقيب عن الموارد التي يمكن أن تخدم مصلحة ايطاليا اقتصاديا وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بالاشراف على الشركة الايطالية الاستعمارية التي كانت تعمل في الاستيراد والتصدير لم يكن لهذا البنك اي مردود اقتصادي ذا بال نتيجة للاوضاع الاقتصادية السيئة التي كانت تعاني منها ليبيا. ولكن رغبة ايطاليا الشديدة في امتلاك طرابلس وبرقة زرعت هذه المؤسسة التي يديرها خبراء الاستعمار لتمهد لها طريق الاحتواء والضم.

فمقاومة نشاط البنك كان من جملة القضايا التي اولتها الصحف الليبية اهتماما بالغا في محاولة نزع القناع الذي تتستر به، مبينة لقرائها الاساليب الاستعمارية الخادعة التي كان ينتهجها.

في مقال طويل عنوانه «الاتجار وسيلة الاستعمار» كتبت «المرصاد»[15] تقول :

«حقيقة أن اوربا قد تفتنت في اختلاق وسائل الاستعمار ولها بارعة زائدة في ذلك فاقت بها من تقدمها، اذ تمهد هذا وعلمنا هذه الحقائق وطالعنا التاريخ ورأينا ما حل بغيرنا نقول ما بال رجال (بنك دي رومة) الذي هو وسيلة الاستعمار ومديرها الممثل لسياسته الذي انتخبوه لتنفيذ مقاصدهم بعد أن خدم سياستهم

في جهات (مصوع) وغيرها، لما رأونا منتبهين لمجريات الاحوال وواقفين بالمرصاد لكل ما يحدث من الدسائس خدمة لوطننا المقدس ودولتنا، لا زالوا يحملون علينا حملات متوالية بما يكتبون ضدنا ويملاؤن به اعمدة جرائدهم ما استنزف دماء المحابر واستهلك ملايين من الورق خدمة لما زال في مخيلاتهم من اطماعهم واضغاث احلامهم وازداد حنقهم علينا حين رأونا لا تؤثر علينا جميع حيلهم وتدجيلهم وتهديداتهم واننا وطنيون صادقون ثابتون على مبادئنا، وهو تحذير ابناء وطننا وتنبيه حكومتنا لكل دسائسهم اتعاظا بغيرنا وعملا بقول الفيلسوف الشهير (ارسطو) العاقل من اتعظ بغيره لا من اتعظ به غيره».

والحق أن «المرصاد» كانت تخوض معركة حقيقية مع الاستعمار وأعوانه وكانت الجريدة تعي جيدا أبعاد هذه المعركة الوطنية الحامية. ومن خلال هذا المنظور فقط يمكن ان نفسر لماذا قامت الصحيفة بنشر الخطاب الذي كان (انريكو بريشاني) مدير بنك روما (في العدد 24 من ايكودي تريبولي) الايطالية وهدد فيه الصحيفة بمقاضاتها اذا ما واصلت حملاتها عليه. كتبت (المرصاد)[16].

«ولما عيل صبرهم كتب الينا مدير البنك خطابا مفتوحا درجه في عدد (24) من وريقة (ايكودي تريبولي) أو (ايكودي ايطاليا) وهذا تعريبه ملخصا: (من مدة قديمة نرى احدى الجرائد المحلية تراقب وتحقر اشغال بنك دي روما الذي هو تحت ادارتي، وأنا المقيم بأشغاله بطرابلس الغرب وتتهمه بأنه سياسي واستعماري، وحيث لا أصل لذلك حسب البروغرام(*)، فأنا مستعد لمقاضاتها قانونا حيث كتابتها موجبة لتأخير اشغال البنك وأنا مجبور للدفاع عنه، أما تعرف هذه الجريدة انها تتكلم في دائرة محترمة ايطالية وأنها بمعاملتها هذه لا تجلب الا احداث المشاكل بين الدولتين اللتين ترغبان ازدياد الارتباط والاتفاق.

الامضاء: انريكو بريشاني».

وفي معرض ردها على هذا الخطاب المفتوح، الذي ينكر فيه انريكو بريشاني الحقائق الثابتة، وهو ادرى الناس بمآربه، وخاصة ان غرض المصرف ليس اقتصاديا كما يزعم، ولوكان كذلك لأغلقت ابوابه من اول سنة بسبب الخسائر التي مني بها ولكن بما انه ليس مصرفا تجاريا فان «المرصاد» تتصدى لفضح مآربه الحقيقية وتبين ايضا اهداف المساهمين فيه، وكما تبين اشتراك الفاتيكان (البابوية) بكل فاعلية في الاعداد للغزو الاستعماري على البلاد تقول الصحيفة[17]:

«فلا يهم رجاله الا الوصول لاحلامهم ولو خسروا رأس مال البنك وأضعافه، وان كانت الامة الايطالية ليست بذات ثروة واسعة تتحمل هذا العبء الثقيل لكن (حزب الاستعمار) وصندوق (البابوية) بروما غنيان،

---

(*) يقصد البرنامج.

ويستطيعان الصرف على تلك الخيالات، وان كانت النتيجة صفرا، ولكن هي الاماني والاحلام الكاذبة تغري المتهوسين وتدعوهم للتعلق بالخيال».

ولا تأبه الجريدة لتهديد مدير المصرف باقامة الدعوى عليها بل تتلقى ذلك برحابة صدر واطمئنان وجدان فتقول[18]:

«لاننا قدمنا لانفسنا وكل شيء في سبيل الدفاع عن الوطن، ورد المفتريات، وتشهير اعمال الطامعين، واننا لا يثنينا عن هذا الواجب المقدس وعيد، ولا طمع، ولا تهديد، ونحن مقتفون اثر اعمالكم ونبينها للعموم اظهارا للحق، ومحافظة على الوطن المقدس».

اما جريدة (الترقي)[19] التي التزمت السكوت في بادىء الامر تجاه الامتيازات الاجنبية وخاصة مصرف روما، ظنا منها ان عمل المصرف تجاري ويقتصر على المعاملات المصرفية، حتى وقعت في خلاف مع الجرائد الوطنية الاخرى والتي اتهمتها بالتواطؤ مع الاجانب، فعندما تبين لها نوايا المصرف وخططه الاستعمارية وجدت في المقالات الصحفية التي تنشرها الصحف الايطالية المعارضة لاحتلال ليبيا ابلغ برهان في فضح سلوك هذا المصرف فتقول:

«قد التزمنا السكوت كثيرا في هذا الصدد بل قد كنا على خلاف مع رصائفنا في اكبار مضار معاملات هذا المصرف الذي قضى اصل نظامه ان يكون عملا تجاريا قاصرا على المعاملات الصرافية، وصرحنا باعتقادنا هذا، وكنا نترقب من ادارته أن تعلن براءتها من خدمة غير ذلك، وتبرهن على صدق القول بالعمل.

لكن ظواهر الاحوال قد ابدت للرأي العام خروج هذا المصرف عن خطته، ولما كان الايطاليون انفسهم اعرف بدواخلهم فالاحتجاج بما تكتبه صحفهم ابلغ في البرهان عليهم لذلك رأينا أن نلخص عن جريدة (لاجورنالي ديللا فورا) مقالة نشرتها أخيرا تحت عنوان (بنك روما في طرابلس الغرب) وجاء في مقالة الجريدة الايطالية:

اننا نريد أن نسأل بنك روما: بصفته مصرفا ايطاليا لأي حكمة اتبع تلك المساعي العارية من الاحتياط التي اوجبت اولا، هياج الافكار ضد الايطاليين، وأخيرا ادت الى انقطاع العلائق بين والى طرابلس وبين قنصلنا.

ان هذا البنك اعطى لنفسه صفة واسم المحتل بتلك الشعبة التي فتحها في طرابلس، وقد اوجب حيرة وتحرز الباب العالي وبهذه المناسبة لم تزل الجرائد التركية والعربية تنشر المقالات لتحقيرنا».

وفي خبر منشور في احدى الجرائد الايطالية مفاده «تألفت شركة ايطالية استأجرت ارضا متسعة لقلع الاحجار في جهة قرقارش وما علمت الحكومة المحلية بذلك حتى عاكستنا ورفضت البلدية تصديق الايجار، وقد تدارك الامر رئيس البلدية (حسونة باشا) ولكن وساطته لم تقبل فصدق السند بختمه الخصوصي وترك الامر وحله النهائي للاستانة»[20].

ونظرا لاهمية هذه المنطقة من الناحية الثقافية لاحتوائها على مقابر وآثار قديمة تسعى ايطاليا لنهبها حتى تفصل المجتمع حضاريا عن تراثه القديم وارتباطه به، فتفند (المرصاد)[21] هذا الخبر مدافعة عن حق الوطن التاريخي في الاحتفاظ بتراثه طبقا للقوانين قائلة:

«هذا كذب، وحقيقة المسألة، أن هذه الارض قد اجرها من يدعي انه يملك قسما صغيرا منها وأن النقط التي بها الاحجار هي ملك الحكومة، وبها مقابر وأثار قديمة (انتيكه) وهي المقصودة من الايجار لا الحجر، فتداركت الحكومة الامر طبقا للقانون والعدالة، ومحافظة على اثار الوطن من ان تغتصبها يد الاجنبي، وهذا عمل كل الحكومات وأقربها شاهد امبراطور المانيا لما اراد أن يكشف على أثار (كورفو) من بلاد اليونان فطلب من الحكومة الاذن بذلك فأجابته بشرط ان يكون ما يستخرج لليونان ويبقى في بلادهم ولكن هؤلاء المراسلين الزعانف ليس لهم غرض الا الكذب والافتراء حتى لا ينقطع عنهم المبلغ المخصص لهم من حزب الاستعمار».

وتناولت الجريدة ايضا في مقال طويل تحت عنوان «خلط الجرائد الايطالية في السياسة وتهجمها على طرابلس.. فمتى تفيق يا ترى؟» تناولت مشروع تسوية الطريق بين طرابلس وجنزور ومنها الى الحدود التونسية، والضجة التي اثارتها جرائد ايطاليا.

ان المتفحص للنشاط الصحفي في تلك الفترة ونوعية «المساجلات» التي كانت تجرى بين الصحف يندهش لحجم «الحقوق» التي كانت الصحف الايطالية ـ في بلادنا ـ تمنحها لنفسها ومدى تدخلها في الشؤون الداخلية لبلادنا والمعركة التي دارت حول امتياز كانت احدى الشركات الوطنية تريد الحصول عليه مما عرضها لهجوم الصحف الايطالية وخاصة (التريبونا، وكوريري دي سيشيليا).

فعندما تأسست شركة وطنية برأسمال وطني، لأخذ امتياز مشروع طريق جنزور اتهمت الصحف هذه الشركة بأنها لا تملك حتى حق دفع الضمان، وتفتقر الى العناصر المؤهلة لاتمام المشروع، مما دفع الشركات الايطالية أن تعين مهندسا ليسير اعمال الشركة المحلية، وغرض الجرائد أن تبين ان الامتيازات الايطالية تحارب في طرابلس، وأن هذه الشركة وجدت لتحد من نشاط ايطاليا الاقتصادي في طرابلس[22].

شنت الصحف الايطالية حملة اعلامية حول امتياز معدن الكبريت، ووصفتها الترقي: بأنها غارة على حكومتنا وجرائدنا الوطنية، وأن من يطالع صحف الحملة يعتقد انها تدافع عن حق مشروع، أو يعتقد أن الكبريت المحترق في جوف براكين ايطاليا خلق احساسا لدى مؤسسة كريسبي وحزب الاستعمار أن لهم علاقة خصوصية مع الكبريت اينما كان، حتى انهم لا يستطيعون السكوت عن تشغيل عامل في معدن كبريت طرابلس، ويدعون ان ذلك ضربة قاضية على عملة (صقلية) فتقول (الترقي)[23].

«ولكن نسأل هاته الصحف بأي لسان تتكلم في شؤون لا علاقة لها بها،

وهل يجوز أن يبقى عملتنا في فاقة لاجل أن يدوم لعملتهم رزقهم، وهل من الحقوق الدولية أن يموت شعب بمراعاة غيره، ولماذا لا نعارض نحن... في استخراج معادن (صقلية)؟».

أما مقاومة ذلك الغزو الاقتصادي، الممهد للغزو العسكري فرأت صحيفة (الترقي)[24] انها يمكن أن تتم بطريقة واحدة فقط هي الاعتماد على النفس والاكتفاء بالمصادر الوطنية المحلية، في مقال تحت عنوان (خطر الاستيلاء الاقتصادي وكيف نتقيه) تقترح:

«أن نسعى في تأسيس مصرف وطني يكون مستعدا لاقراض الاهالي ما يحتاجونه من الاموال في مقابلة رهن العقارات وهذا من أهم الوسائل التي يمكن أن تكون سدا منيعا دون دوام استيلاء الاقتصاد الاجنبي».

هوامش

1 – Giuseppe BEVIONE (Come siamo andati a Tripoli) Torino 1912 - p. 122.

2، 3 – دار الخلافة، غير معروف التاريخ والعدد، انظر العدد الذي قبل تاريخ 24 مارث 1910 بمكتبة الاوقاف – طرابلس.

4 – Francesco MALGERI (La guerra Libica 1911-1912) Roma 1970 - p. 23.

5 – الوثيقة نشرت في كتاب (Renato MORI) (التغلغل السلمي الايطالي في ليبيا من عام 1907 الى عام 1911 وبنك روما ونشرت في مجلة Rassegna di Politica Internazionale الدراسات السياسية الدولية 1957 ص 116.

6 – د. يحيى جلال مرجع سابق ص 719. انظر كذلك Tomasso TITTONI (Italy's foreign and colonial policy) LONDON, pp. 21-22.

7 – الترقي عدد (94) 15 المحرم 1327 24 كانون الثاني 1324.

8 – Francesco MALGERI, op. cit. p. 20.

9 – ابوقشة (العدد 59) السنة الثالثة.

10 – اعيد نشر المقال تحت عنوان (حديث معاد) في جريدة المرصاد العدد 28 السنة الاولى 30 ربيع الثاني 14/1329 نيسان 1327 مالية.

11 – ابوقشة المصدر السابق.

12 – المرجع السابق.

13 – ابوقشة (العدد 59) السنة الثالثة.

14 – المرصاد (عدد 16) السنة الاولى 26 محرم 10/1328 كانون الثاني 1326.

15 – المرصاد (العدد 30) السنة الاولى 12 جمادي الاولى 27/1329 نيسان 1327.

16 – المرجع السابق.

17 – المرصاد (العدد 30) المرجع السابق.

18 – المرجع السابق.

19 – الترقي العدد (178) 1 ربيع الأول 1329، 17 شباط 1326 مالية.

20 – الخبر منشور في المرصاد (العدد 31) بتاريخ 19 جماد الاولى 1329هـ 4 مايس 1327 مالية. تحت عنوان (خلط الجرائد الايطالية في السياسة، وتهجمها على طرابلس، فمتى تفيق يا ترى؟).

21 – المرجع السابق.

22 – انظر المرصاد مرجع سابق.

23 – الترقي (العدد 177)، 24 صفر 1329، 10 شباط 1326 مالية.

24 – الترقي (العدد 196)، 17 رجب 1329، 30 يونيو 1327 مالية.

## المبحث الرابع:

# الصحافة الوطنية في مواجهة الحملة الاعلامية الايطالية

اتسمت الفترة السابقة للغزو بنشاط خاص في اجهزة الصحافة والاعلام الايطالية، وكان ابرز مميزات ذلك النشاط الحملات الدعائية التحريضية التي كانت الصحافة تهدف من خلالها الى تهييج الرأي العام الايطالي وتعبئة الشعب من اجل القبول بالغزو العسكري لليبيا. وقد سلكت الصحافة مسالك متعددة في سبيل الوصول الى ذلك، وكان من بين ما قامت به اشعال روح الكراهية والحقد في نفوس الايطاليين من خلال مقالات الطعن والحقد والتحقير واتهام الشعب الليبي بالتعصب ضد ما هو انساني وحضاري في الوقت الذي حاولت فيه تزيين روح الحقد والكراهية بالمثل والاخلاق السامية والرسالة الحضارية التي تنتظر شعب روما في ارساء دعائم الحضارة والانسانية من جديد والتي كانت سائدة في الازمان البعيدة على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط حيث كان اجدادهم الرومان.

ومع تزايد نشاط هذه الحملة، تتصاعد المواجهة في ليبيا في مقاومتها من قبل الصحف الوطنية، والتي نجحت من قبل في تربية المواطن ثقافيا واجتماعيا فهي تتحمل الآن مسؤولية تعبئته ضد سياسة ايطاليا التوسعية والارتقاء به الى مستوى الانسان المفكر الواعي بما حوله، ومدته بقدر كاف من المعلومات الصحيحة وبلغة سهلة يفهمها ويستسيغها،

سلكت الصحافة الوطنية في مواجهتها للصحف الايطالية اتجاهين، أولها: ترجمة ما ينشر من مقالات في الصحف الايطالية الموجهة لخدمة مصالحها وسياستها نحو ليبيا، بقصد التأثير على الرأي العام الايطالي، واعادة نشرها حتى يقف المواطن على نوايا ايطاليا.

ثانيهما: الرد على تلك المقالات في شكل يغرس حماس التصدي والمقاومة في نفوس الجماهير، واتخاذ موقف مضاد اكثر تضامنا وتماثلا.

وقد صورت جريدة (الترقي)[1] الاثر الذي يتركه نشر مقالات صحف ايطاليا على الرأي العام في ليبيا في قولها:

«لو تتبعنا ما نشرته جرائد اوربا من مقالات الطعن والاحتقار لاوجب ذلك هياج الرأي العام عندنا بما لا طاقة للحكومة أن تقاومه».

تناولت الصحف في بادىء الامر، وباستغراب تحول ايطاليا المفاجىء من دولة كانت تعاني من سيطرة نابليون وظلم واستبداد النمسا، والتي كانت تعاني من التمزق والانفصال في ممالك متعددة حتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر، تتناسى هذه الجراح والتي لم تندمل بعد وتتحول الى دولة استعمارية تستبد وتستعبد فتقول جريدة (الفردوس)[2]:

«من كان يظن أن حكومة ايطاليا التي ذاقت من الظلم أصعبه. ومن الاستعباد اطوله ومن جور المستعمرين اشده تنسى اعمال النمسا في بطائحها، وسيطرة نابليون في ربوعها، ويدفعها الجشع الى السعي في التحكم في رقاب غيرها ومن كان يعتقد ذلك من حكومة روما التي لم تنقذها من نير النمسا الا سيوف الالمان ومهارة مونكلي».

وتزعم هذا التيار القوميون المتطرفون في ايطاليا[3]، وكانوا يأملون في اشعال حرب، أي حرب مهما كان ثمنها، وفي الوقت نفسه ينظرون الى الاحزاب التي تعارض احتلال ليبيا على انها تسمم الحياة وتزرع الخوف والحذر في النفوس وخاصة منها تلك الصحف التي تتعاطف مع سياسة الحكومة التي صار المتطرفون ينظرون اليها على انها حكومة ضعيفة عاجزة كما كانوا يرون الاّ، مخرج للبلاد الا بالاعداد الكامل من اجل غزو ليبيا، ذلك العجز الذي يمكن أن يخرج ايطاليا حتى من مآزقها الاقتصادية.

وقد نجحوا في توجيه صحافتهم نحو هذا الهدف، واستمالوا الصحف الاخرى حتى التي كانت الى وقت قريب، تنظر الى هذا الموقف نظرة محايدة.

لم يكن موقف الحكومة من احتلال ليبيا سلبيا، كما اعتقد القوميون المتطرفون بل كان مفتعلا لظروف سياسية، ومدفوعا لاثارة الرأي العام في ايطاليا حتى يتعاطف مع المؤيدين للاحتلال وأيضا لابعاد اهتمام حكومة طرابلس الغرب والباب العالي عما ينشر في صحف ايطاليا، والابقاء ولو مؤقتا على ود ايطاليا وصداقتها نحو تركيا.

وتنبهت (الترقي)[4] لكلا الموقفين، موقف الحكومة الذي يتسم بالتأني والتريث، وموقف حزب القوميين أو حزب الاستعمار ـ كما تسميه الصحف الوطنية ـ الذي يرغب في اتخاذ الخطوات السريعة والفورية، وفي ردها على مقال (طرابلس وايطاليا) الذي نشرته جريدة (لافريك فرانسيز) يلمس القارىء ذلك الوعي الدقيق والمتعمق لحقيقة السياسة الاستعمارية. فمن خلال التحليل الصحيح للاحداث واستقراء الحركة السياسية العالمية وتقصي ما يكتب «بين الاسطر» في الصحف تمكنت (الترقي) من استجلاء خطوط السياسة الايطالية نحو بلادنا بكل وضوح، ونجد في مقالها التحليلي التالي خطوط السياسة التي ستطبق بكل دقة بعد حين. تقول الصحيفة:

«يتضح للقراء جليا أن ايطاليا بكل جهدها لاحتلال هذه الولاية، وكل حركة تصدر منها هنا انما يقصد منها الوصول الى هذه الغاية، ولا فرق في هذا بين الحكومة والامة، غاية الامر أن رجال الحكومة والسواد الاعظم من الامة يرون

لزوم التأني وانتهاز الفرصة، وحزب الاستعمار وجرائده يعتقدون ان الوقت قد حان، وأن لا مجال للصبر ولا بد من التسريع ولو أدى ذلك لسوق قوة عتيدة، وهذا هو عين ما يراه القارىء في جرائد ايطاليا على اختلاف مشاربها فلم يبق ريب بعد في أن الحالة تستدعي انتباها شديدا منا، ويجب على كل فرد منا أن يكون يقظا حذرا والا ساءت العاقبة وحل بنا ما حل بغيرنا، وفي حوادث المغرب الاقصى اكبر عبرة لمن اراد أن يعتبر بالمشاهدة والنظر».

وفي عدد آخر من (الترقي)[5] وبعد اطلاعها على عدد من الجرائد الايطالية كتبت عدة مقالات تحت عنون (ايطاليا في طرابلس الغرب) توضح ـ الترقي ـ لقرائها انه لا يوجد في ايطاليا أو خارجها من الايطاليين الا وله مطامع ومطامح في ولاية طرابلس، وأن الصحف وبايعاز من العناصر الايطالية الموجودة في طرابلس تدفع بالحكومة والشعب الايطالي الى احتلالها في اسرع وقت ممكن بل أصبح الاحتلال ضرورة لازمة لا تقبل التأجيل فتقول:

«وافتنا في هذا الاسبوع عدة جرائد ايطالية وقد نشرت كل منها مقالتها الافتتاحية تحت هذا العنوان ـ ايطاليا في طرابلس الغرب ـ وكلها تحث الحكومة والشعب الايطالي بصراحة وبلا حياء على احتلال طرابلس وبنغازي واجلاء الحكومة العثمانية من هاتين المملكتين قبل أن تتقوى، ومما يزيد تأسفنا أن نرى من خلال هذه الكتابة عدة ملاحظات صادرة من ابنائهم الذين الآن بيننا ومتنعمين بخيرات ولايتنا، وكلهم يظهرون المودة وأن ليس لهم قصد في هذه الولاية سوى التجارة وتزييد ثروتهم مثل السنيور بالداري صاحب معمل الزيت وسان فيلبو وسفورجا (سفورزا) على المعادن مما صيرنا نعتقد تمام الاعتقاد بأنه لا يوجد أحد في ايطاليا الا وله مقصد في هذه الولاية».

لم تقتصر الحملة الاعلامية على اعداد الرأي العام الايطالي حتى يكون مهيئا للغزو، بل اتسع نطاقها فشمل الليبيين في محاولتها للتأثير عليهم سلبيا حتى يشعروا بالاحباط وانعدام الثقة في نفوسهم، فشرعت الصحف تقلل من شأنهم رامية اياهم بالتعصب وعدم التسامح، وكراهية الآخرين الذين يخالفونهم في المعتقد وخاصة الايطاليين الذين يعيشون بينهم، أما اخلاقهم فيتغلب عليها طابع الوحشية والهمجية التي اكسبتها البداوة بكل ما فيها من صلف وتعنت وجهالة وانغلاق فكري لكل ما يخالف نظرتهم السطحية والضيقة للامور والعداء للحضارة والمدنية والتقدم ـ تقول (المرصاد)[6]:

«تنطق جرائد الطليان وحزب الاستعمار الجاهلين بأحوال الطرابلسيين انهم متعصبون على غيرهم من بني الانسان ما داموا غير مسلمين، وأن هذا الظن الفاسد مردود عليهم فان الطرابلسيين هم غير متعصبين على غيرهم ما لم يتداخلوا في وطنهم وامورهم.

الامة الطرابلسية أمة حية، وأن الذي ينسبون اليها التوحش والهمجية مخطئون وفي

جانبها خاطئون خصوصا يعزون اليها ما هم متصفون به، وهي براء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب».

وتندهش (المرصاد)[7] لهذه الاساءة التي لا يساندها عقل ولا دليل وخاصة انها تصدر أيضا عن صحف ايطالية تطبع في طرابلس فكتبت تحت عنوان (جرائد الطليان والامة الطرابلسية):

«عجيب من اعداء الوطن انهم يسيئون الينا ويشهرون سمعتنا وينسبون القبيح الى عقائدنا، ومما هو جدير بالدهشة ما تكتبه الجرائد الطليانية، وخصوصا جريدة (ايكودي تريبولي) التي تطبع في عاصمتنا الاسلامية، ويا ليتهم يستندون في شططهم على دليل يبرر حملتهم المشؤومة وارجافهم المريب وتهورهم المعيب بل هي تخبط خبط عشواء لا تخجل من التطرف، وما تأتيه غلطا ولو أن محرريها الجهلاء فقهوا ماذا يكتبون، ولم يحملهم جهلهم على نسبة التوحش والهمجية الى الامة الطرابلسية عنتا، ذكرت تلك الجرائد الساقطة اشياء لا وجود لها في ولايتنا المحروسة الا في مخيلتهم، فالامة الطرابلسية واقفة لكم بالمرصاد يا أعداء الوطن والانسانية ومنتبهة لمقاصدكم السيئة، فإذا لاحظنا الحقيقة واردنا بيان أحوال الامة الطرابلسية واخلاقها واحترامها للاجانب ما لم يتداخلوا فيما لا يعنيهم لاحتاج الى مجلدات ضخمة لكن اعداء الوطن يعلمون الحقيقة ولا يعترفون بها».

وتتساءل ـ (المرصاد)[8] ماذا يريد أعداء الوطن من الصحف الوطنية غير المجاهرة علنا في المنتديات والتجمعات وفي كل مكان والتصريح بأن الايطاليين ألد الاعداء لليبيين والوطن وتخاطبهم ـ منذرة اياهم:

«يا أعداء الوطن ويل لكم اذا ظللتم في تماديكم مع الامة الطرابلسية والدولة العلية تتهمونهم بأفظع التهم، وتقذفونهم بأبشع الآثام الاجتماعية وكأنكم لا تعلمون أن الصحافة الصادقة واقلام محرريها من ورائكم تفضح مخازيكم وتوضح مراميكم وتشرح عيوبكم وتعلن عدوانكم وتنادي في كل ملأ بما تستحقونه بسبب إعتداءاتكم علينا وتهجمكم على دولتنا بلا سبب سوى محاولتكم أن تخذلونا وتوقعوا بوطننا».

عندما طفح الكيل بجرائد ايطاليا، وامتد صلفها وغرورها الى حد الطعن والتحقير بالاسلام والمسلمين، التزمت جريدة (الترقي)[9] اسلوبا اكثر منهجية وواقعية من اسلوب المرصاد الاكثر حدة وتطرفا، فدعمت مواجهتها بالادلة والبراهين التي تدحض افتراء صحف ايطاليا ضد الاسلام، وتفند اراءها الهدامة مبينة تسامح المسلمين والاسلام بالاستناد الى الحقائق التي نص عليها المنهج الاسلامي والتي تدعو المسلمين الى الاخاء والمودة بين ابناء البشر جميعا على مدى اختلاف مذاهبهم وأديانهم، في مقال طويل حول (اوربا والاسلام، من هو المتعصب؟) أكدت فيه على بعض المواقف التي تثبت مدى تسامح الاسلام مع الاوربيين

وتعصب المسيحيين تجاه المسلمين وفي ختام المقال جابهت جريدة (ايكودي تريبولي) التي تتهم المسلمين بالتعصب قائلة:

«هل يمكن لزميلتنا (ايكودي تريبولي) أن تتكرم علينا بما يقابل ذلك من اعمال المسلمين ضد غيرهم حتى نصدقها في الحكم علينا بالتعصب... لو كان جناب محررها يسكن احدى مدائن روسيا هل كان في وسعه أن يصدر جريدته بها ويكتب جزءاً من الف مما يكتبه عنا... اننا نظن أن جنابه ولد هنا وكبر هنا، فهل يسمح لنا بذكر حادثة وقعت له بسائقة التعصب وهل سمع ان احدا من السائحين حصل له أذى من احد المسلمين، وهم كل يوم يردون الولاية ويتجولون في جميع جهاتها، ان اكثر النزلاء بل والقناصل يخرجون بدون قواس مع عائلاتهم ويتجولون في الساحل وجنزور وغيرهما فمتى ضربوا لكونهم كفارا، وهذا جناب قنصل امريكا ذهب مرارا الى جامع تاجوراء وصوره فهل منعه أحد من ذلك، إن كثيراً من المصورين يصورون ارباب الزوايا يوم المولد المعدود من الاعياد الدينية فأي مرة اهينوا لكونهم كفارا، فان لم يصدق جنابه ذلك فليسأل عن (صالبو) و(فاريو) و(فونسوايس) وغيرهم من المصورين.

ترسل حكومة فرنسا رجال الدين، وبلاد الشرق مفتوحة لمدارسهم ويتردد المسلمون عليها... ابى روزفلت أن يقابل البابا عندما شرط عليه عدم التعرض للاديان، لكن المسلمين دعوا ذلك الرئيس الى الخطبة في جامعتهم وسمعوا بآذانهم فظاعته فمن هم المتعصبون؟».

ويبدو أن المعركة لا تزال قائمة حتى الوقت الحاضر ويبدو ان حجج الترقي وبراهينها لا تزال حية الى ايامنا هذه حيث لا نزال نرمي من بعض الدوائر الاستعمارية الجديدة بالتعصب وضيق الافق كلما وقفنا لنطالب بحقوقنا او ندافع عنها.

ان مواجهة الصحف الوطنية لجرائد ايطاليا، كانت عنيفة ومؤلمة جدا وسببت ازعاجا للاحزاب الايطالية المؤيدة للغزو، وللحكومة ايضا، وبصورة خاصة للاتجاه القومي الاستعماري بعد أن تمكنت من احراز النصر في كسب تأييد الرأي العام في ليبيا لاتجاهات الصحف المحلية واحباط المخططات الايطالية الرامية الى احتلال طرابلس وبنغازي من خلال ما يسمى بسياسة التوغل السلمي، هذا النصر دفع بحزب الاستعمار الى أن يهدد علنا الصحف الوطنية وعلى الاخص (الترقي والمرصاد) اللتين اعلنتا التحدي الصارخ لكل تهديد، نشرت (المرصاد)[10] مقالا عن (حزب الاستعمار الطلياني، والمرصاد والترقي) جاء فيه:

«مهما قال حزب الاستعمار، وصاح بأعلى صوته في طرابلس أو في ايطاليا منذرا (المرصاد والترقي) بالويل والثبور فلا غرو أننا قد اطلعنا على دسائسه وحيله وأثبتناها للرأي العام بالدليل والبرهان الساطع حتى انكشف امره وافتضح سره.
ان حزب الاستعمار الطلياني وأذنابه الذين يغمضون جفونهم حتى لا يروا شمس

الحقيقة ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار، لو نظروا قليلا ولو من طرف خفي
الى اعمال الصحافة الطرابلسية بدون أن يضعوا على عيونهم النظارات الملوثة
(بالمكارونة) والفيران لاقروا لها بالفضل».

من النجاحات التي حققتها الصحف الوطنية، ذلك الالتفاف حول الهدف الواحد الذي كان يهم الوطن والمواطن فقد تناست الصحف الصراعات الجانبية بينها التي كانت تخوضها بسبب او بدونه وأدت احيانا الى الوصول الى المحاكم للفصل في هذا الصراع، ونبذت الشقاق واجتمعت على امر واحد هو مقاومة التمهيد الايطالي للاحتلال عبر قنواته المتعددة واهمها الوسائل الثقافية التي تتركز في الصحافة، هذا الموقف المنسجم مع اهداف الجماهير في التخلص من الوقوع تحت سيطرة ايطاليا، شكل اتجاها واحدا في الرأي والفكر عبرت عنه الصحافة في اتحاد كلمتها وقد هللت جريدة (المرصاد)[11] بهذا الاتحاد على قتال اعداء الوطن فكتبت:

«من كان يظن أن صحافتنا الطرابلسية المتفرقة التي لم تنشأ احداها الا للايقاع بالاخرى تتحد هذا الاتحاد على قتال اعداء الوطن [.....] الا أننا نرجو من رصفائنا الافاضل أن يستمروا على هذا الاتحاد المحمود، فانه لا يصح أن يتفرقوا امام عدو متلون يتحين الفرص للقضاء علينا اقتصاديا وسياسيا، فيجب على رصفائنا أن يثابروا على هذه الخطة المحمودة حتى يطلع الرأي العام الاوربي على نوايا حزب الاستعمار ودولته في طرابلس فنعلمه اننا نكره من يتدخل في ولايتنا كرها شديدا وخصوصا «ايطاليا» ولا نريد أن يعطفوا على بلادنا فيصلحوها (كما قالت التريبونا) و(حزب الاستعمار الطلياني) حبا في الطرابلسيين وهم يضطهدون اقرب الناس اليهم كما وقع في ايطاليا اذا رأوا في ذلك مصلحة لهم».

وتستمر (المرصاد)[12] في تحديها لايطاليا معلنة أن ليس لها ادنى حق في ليبيا، وانها ستتهيأ للدفاع عن وطنها وشرفها مهما كلفت من تضحيات جسيمة، ولا تأبه لتحذير اعوان ايطاليا الذين زرعتهم في طرابلس، او العناصر الوطنية الذين تمكنت من شراء ضمائرهم أو من رجال الحكومة الموالين لايطاليا فتقول:

«اذا كان انصار الطليان يحذروننا من الخوض في هذا الموضوع، ويمنعوننا من الدفاع عن الوطن، ويحاولون الايقاع بنا ويذمون كل عمل من شأنه وصولنا للضرب على ايدي من يريد ابتلاعنا والقضاء علينا القضاء المبرم فليفعلوا ما شاءوا ويهددوا ويقيدوا بالسلاسل والاغلال، ويزجونا في اعماق السجون، فالله ينتقم من كل ظالم خئون ويجزي من يخدم الوطن بصدق واخلاص بما يستحقه ما علينا اذا لم تفهم البقر».

أما (الترقي)[13] فتنبه حزب الاستعمار بأن احتلال ليبيا ضرب من المحال، ولا يتم الا على قوافل من الشهداء حتى لو تخلت تركيا عن واجب الدفاع عن ولايتها:

«أما من جهة احتلال هذه الولاية فاننا ما زلنا نؤكد لحزب الاستعمار أنه ضرب

من المحال لأن لو فرضنا أن دولتنا لا تستطيع أن تحافظنا كما يتوهمون، فاننا قادرون على الدفاع عن انفسنا ولا قبل لصبيان صقلية على تحمل هجير سواحلنا والصبر على قلة الماء اياما، اما نحن فلا ثروة تشغلنا ولا رقة تصدنا عن تحمل مزاحم الحرب ومشاق القتال، ويمكن لكل رجل منا أن ينام على الارض وتحت السماء السنين بدل الشهور، وقد علم الناس أجمعين أن ليس منا من يشق عليه أن يقتحم الموت ويجود بنفسه في سبيل الذود عن وطنه.
اما ما يراه الايطاليون أن يدسوه بيننا من الشقاق واظهار أن لهم هنا اعوانا يعتمدون عليهم فانا نبشرهم بأن تلك حيلة لا تنطلي على صبياننا، ولا نظن أن حمالا منا يرضى أن يصير ملكا تحت حماية ايطاليا».

وهكذا نرى أن المعركة قد اشتبكت على صفحات الصحف قبل أن تشتبك فوق الارض الليبية كما أن أعين الوطنيين من ابناء البلاد قد رأت الى ما ستصير عليه المعركة بعد ربع قرن. لقد بين هؤلاء صعوبة احتلال هذه الارض، وبينوا مدى البطولات التي سيبديها ابناء الارض ومدى التضحيات التي سيقدمونها، ولم يخطئوا في فراستهم.

وقد تضايقت حكومة ايطاليا كثيرا من النتائج الايجابية التي حققتها الصحف الوطنية في فضحها لسياستها التوسعية التي كانت تغلفها بغلاف انساني وحضاري لتخفي وجهها القبيح بادعائها محاولة انقاذ ليبيا وشعبها من السيطرة العثمانية التي دفعت بها الى التخلف والجهل والفقر، وأبعدتها عن حضارة القرن العشرين بما فيها من تقدم ورقي، في الوقت الذي عجزت فيه عن اصلاح حال المجتمع الايطالي الذي يعاني أيضا الفقر والجهل بالمقارنة الى الشعوب الاوربية الاخرى.

وقد أبدت هذه الصحف انفعالا مضاعفا عندما بدأت «المرصاد» تنشر سلسلة من المقالات نقلا عن جرائد ايطالية تصور حالة الفوضى والاهمال التي تعيشها ايطاليا في كل المرافق وخاصة الجيش الذي نشرت عنه عدة مقالات في اعدادها من 34 حتى 38 فذكرت في العدد 34[14]:

«أن محاورة وقعت في برلمان ايطاليا بتاريخ 22 مايو 1911 نشرتها بعض الجرائد الايطالية ـ ننشرها ليطلع عليها القراء ـ حول فقرتين تناقش فيهما مفاد الاولى أن احد الاشتراكيين اعترض على مصاريف العسكر وصار يستهزىء ببعض الضباط لحادثة جرت مخلة بناموس العسكرية ومحطة بشرفها وسيأتي تعريبها حرفيا ليطلع قراء المرصاد الاغر على آداب ضباط الطليان هنا والفرق بين ضباطنا البواسل وبينهم وأن ما يرمون به جندنا هم متصفون به ونحن منه ابرياء».

ثم نشرت ترجمة المحاورة حرفية وهذا نصها:

«افتتح هذه المناقشة النائب الاشتراكي (ماريكوني) صاحب جريدة الحمار التصويرية وهي من الد اعداء البابا والاكليروس ودائما تصورهم بأشنع الصور

وأقبحها، فلقد صعد هذا النائب المنبر واعترف بأنه ضد الجندية وأن بغضه انما لمصاريفها الباهظة ولا يعد بغضا للوطن لان الجيش هو عبارة عن هيكل موجود بلا عمل او فائدة وقد اتضح لدينا امر الذين عاشوا وتربوا بواسطة الجندية، كالثوار والضباط الذين يستنزفون ما بأيدي عشيقاتهم المومسات من الدراهم والمصوغات وتراهم في مدينة (فيرانسية) هجموا على مدير جريدة (توسة) كالوحوش المفترسة، وذلك بسبب كتابته للحقائق ونصحهم بالاقلاع عن رذائلهم العديدة، وبما ذكر اتضح لدينا انهم ليسوا من ذوي المروة والانسانية وفي 31 الماضي أولمت وليمة في بعض نزل رومة للضباط الاجانب الذين حضروا لسباق الخيل العمومي فرفعوا على عواتقهم بعض الضباط الاجانب الجنرالية كأنهم حمير وقد كتبت هذه الحادثة جريدة (التريبونا) وعدتها من آداب الضيافة والتمدن الايطالي (ضوضاء في البرلمان) ـ النائب: عيطوا ما استطعتم فاني لا أسكت حتى اصل للنهاية ولنعد الى ما كنت بصدده وهو أن الضباط رفعوا على اكتافهم العريضة الجنرال (بوليو) و(بيرنا) وامرأتين حتى اضحكوا عليهم العالم اجمع، ثم خرجوا مرتدين البسة العامة الى الشوارع بصورة جلبت الهزء والسخرية عليهم وضحك الشعب المجتمع فصار التصفيق من حزبه فاحكم ايها القارىء بين ضباطنا وضباطهم».

لقد ثارت ثائرة الحكومة الايطالية وقنصلها في طرابلس لترجمة هذه المحاورة ونشرها.

فكيف تتجرأ صحيفة وطنية أن تنقل عن صحيفة ايطالية وتنشر عن ضباط الجيش الايطالي الذي يعتبر أعز ما تعتز به ايطاليا ـ على حد تعبير القنصل الايطالي ـ (ولعله كان ضابطا) قد اتصلت الحكومة الايطالية بقنصلها وأمرته بالتدخل فورا لايقاف هذه الجريدة، رغم أن قانون المطبوعات الايطالي والذي يسمح بحرية الصحافة وعدم التدخل في شؤونها وما تنشره من مواد لم يستطع أن يمنع الجريدة الايطالية وجريدة التريبونا من نشر هذا الموضوع، وبتاريخ 23 يوليو 1911 رفع القنصل الايطالي التقرير التالي[15] الى الوالي تحت رقم 47/914: ـ.

«حضرة الباشا الوالي:

ان جريدة المرصاد احدى الجرائد المحلية قد نشرت في عددها الصادر بتاريخ 23 يوليو عدد 38 مقالا هاجمت فيه ضباط الجيش الايطالي، انه بوصفكم رجل عسكري تقدرون مدى تأثير القدح والذم في حق رجال الجيش الذي يعتبر أعز ما تعتز به الامة، فانه كما عرضته على معاليكم شفويا فاني حسب التعليمات التي تلقيتها، فباسم حكومتي ارجو أن تتفضلوا باصدار اوامركم حالا للجهات المختصة بمنع هذه الجريدة عن الصدور، وآمل أن تتفضلوا بمعاقبة جريدة المرصاد بما يليق بها من عقاب رادع، وبهذه المناسبة ارجو قبول فائق احتراماتي المخلصة».

لم يكن هذا التقرير بداية تدخل قنصل ايطاليا في قمع الصحافة، الصحافة الوطنية، واخراس الافواه التي تفضح سياسة حكومته بل سبقت ذلك حوادث كثيرة ولعل اهمها طرد الصحفي الاجنبي (جوزمان)(*) الذي كان يشهر بمحاولات ايطاليا في تمهيدها لغزو ليبيا.

ونتيجة لضغوط القنصل الايطالي اصدر الوالي حسني باشا أمرا بابعاده من طرابلس في شهر سبتمبر 1910[16]، بعد أن القى القبض عليه وسجنه دون محاكمة أو استجواب، وقد صعقت الصحف المحلية لهذا الخبر وشنت هجوما عنيفا على الوالي، وكتبت (ابوقشة)[17] مقالا شديد اللهجة طالبت فيه الوالي حسني بأن يعتزل الحكم، وقد جاء في المقال:

«خبر دك المعالم، وصدع الجبال، خبر فتت الاكباد وأوقر الاذان، خبر ابكانا وسامنا ذلا وهوانا، خبر كوقع القروح وكلمنا عدة جروح، فما الخبر يا قوم؟
اصدر حسني باشا أمرا بسجن احد الصحافيين، ونفيه بدون حكم ولا سماع جواب، فما هذا البلاء الذي اصاب كبد الصحافة فأدماها وما راعى احساسها وعلى القلب كواها؟ فهل اعلنت عندنا ادارة عرفية يا قوم؟ أو هل اصبحنا من الارتجاعيين؟، يشتاق القارىء لمعرفة الاسباب فنقول ان صاحب الجريدة حكى حكاية له على حاكيها دليل وبرهان واستلفت نظر الحكومة لتأديب الحاكي وان كان كذبا، وتأديب المحكى عنه ان كان فاعلا وكان الاخير من رعايا الطليان فذهب قنصل ايطاليا بنفسه للوالي شاكيا الصحافي، قائلا ان الافكار متهيجة ضد الصحافي ويريدون قتله، فان كان القنصل وكيلا للدعاوى فليعلن لنا ذلك ننشره ونستجلب له الخصوم أو مجرد غرض ضد الصحافي دعاه حتى صار يتهدد ويخطر رسميا بالتهييج ضد الصحافي وقتله، ألم يكن مسؤولا عن رعايا دولته اذا فعلوا شيئا نعم لا يكون مسؤولا لانه وجد مسرحا خاليا يلعب عليه كيف شاء وشاء له الهوى، فأصدر والينا هذا الامر الغريب، وأصدر قنصل ايطاليا امرا للصحفي باتباع قانون المطبوعات الايطالي فنهنىء انفسنا بالملعبة الجديدة حيث اصبحنا ولاية عثمانية تديرها قنصلات ايطاليا وأصبحت حتى السجون عليها مراقبة من قنصل ايطاليا...

كان يجب عليك يا حسني باشا اعطاء الامر للقنصل بالقاء المسؤولية على عاتقه اذا حدث ما يجبر الراحة كما فعل رجب باشا عدة مرات مع هذا القنصل نفسه يجب عليك ان تبحث في القضية. وما كان من حقك أن تفعل شيئا خلاف القانون الاساس وأنت والي المشروطية(**).

(*) جوزمان، صحفي برازيلي صاحب جريدة التقدم المدافعة عن مصالح الجالية اليونانية، طرد من البلاد بسبب تهجمه على سياسة ايطاليا داخل البلاد الليبية بعد تدخل القنصل الايطالي، وتم ابعاده في سبتمبر 1911.

(**) المشروطية: يقصد بها الدستور العثماني الذي صدر عام 1918.

اني اخجل ووجهي يتصبب عرقا عندما يسألونني عن مشروطيتنا ووالي المشرط، فهل يا حسني باشا تسجن ايطاليا صحافيا لو تطلبها حتى صدارتنا؟
آلاجل الصلاة على الاموات كما يقولون؟ «اضحك وابكي في آن واحد» تنبه يا حسني باشا فقد كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص «كثر شاكوك وقل حامدوك فاما عدلت واما عزلت».
أترى انني افضل الموت على البقاء تحت رعاية قنصل ايطاليا الذي اصبح هو الحاكم صاحب النفوذ أما تعلم أن قنصل ايطاليا، اصبح يعطي الاوامر لاصحاب المطابع والصحف بألا يخالفوا قانون المطبوعات الطلياني، فهل نحن يا حضرة الوالي عثمانيين ام طليانيين ان تساهلك مع القناصل اوجب اندهاش عموم الاهالي».

وترى (الفردوس)[18] أنه ليس من العدل ولا من الصداقة التي تدعيها ايطاليا نحو تركيا أن تفرض رأيا على والي طرابلس، وتجبره على اتخاذ قرار بطرد صحافي اجنبي عن طرابلس بسبب موقفه من سياسة ايطاليا في طرابلس فتقول:

«ماذا تريد ايطاليا من اعمالها بطرابلس؟ هل من الصداقة التي تدعيها، وهل من العدل طلبها نفي صحافي برازيلي لانه يفضح دسائسها وبين للناس مطامعها بالحق والبرهان فكيف جوزت نفسها باكراه الوالي الهمام على تبعيد ذلك الصحافي».

وللحادثتين مدلولات عميقة متعددة أهمها اشتداد النفوذ الايطالي في البلاد ومدى قوة القنصل الايطالي وقدرته على التلاعب بشؤون البلاد بالاضافة الى كراهية ايطاليا أن تتعرض لأي نقد.

لقد فقدت اتزانها بسبب الهجمة التي شنتها الصحافة الوطنية والاجنبية ردا على صحافتها في محاولة الحد من مخططات (كريسبي) ومشروعات (جيوليتي) وخاصة أن الصحافة الوطنية، استطاعت أن تكسب تأييدا اعلاميا وتعاطفا اجنبيا، ضد سياسة القوميين الذين يؤمنون بأن سفك الدماء يجعل الامة قوية نشيطة ويوحدها ويعمق وطنية اهلها وشعارهم يقول «اذا شعرت بالانحطاط فاخرج واقتل شخصا»[19] وضد اعلام ايطاليا المضلل: ومع نضالها الاعلامي من اجل المواجهة والتصدي، وحققت نجاحا باهرا الى ابعد حد في هذه الحرب الاعلامية، برزت نتائجه الايجابية من خلال مقاومة الشعب الليبي للغزاة.

الا أن الصحافة الوطنية ـ على الرغم من صدقها وحماسها وقوة حججها ـ عجزت عن التأثير على حكومة الوالي وبالتالي التأثير على سياسة الدولة المركزية في الاستانة والسبب في ذلك أن الامور كانت ابعد وأوسع من دائرة الصحافة الوطنية وأن سياسة البلاد كانت تحاك في اوساط بعيدة عن ارضها وضمن اعتبارات لم تكن توضع في دائرتها مصلحة البلاد الحقيقية ولا مطامح شعبها ولذلك نرى جريدة الترقي[20] تقول بكثير من المرارة:

«لا نطالب بحقوق شعب لئلا نقذف بالتشويش ضد مصلحة الحكومة ولا

نصرخ ولا نبكي ولا نندب من تيار ايطاليا الاستعماري كيلا نتهم بتعكير ماء السياسة بين الدولتين ولا نعترض على مأمور اساء في وظيفته كيلا نهدد بالمداخلة في شؤون الحكومة، ولا أن نتظلم لوطني حتى لا نرمى بتفريق العناصر الى غير ذلك».

فقد اختلطت الامور وانقلبت المفاهيم الى درجة أن الدفاع عن حقوق الوطن صار يفسر بأنه تدخل في شؤون الدولة وتعكير للسياسة بين الدولة العثمانية وايطاليا. وهذا يؤكد بمجموعه على أن واحدا من الأسباب الرئيسة التي اطمعت ايطاليا بغزو ليبيا كان تقاعس الدولة العثمانية عن اداء واجباتها بسبب ضعفها الداخلي الذي اوصلها في كثير من الاحيان الى مهادنة اعدائها والى التغاضي عن مسلكهم وهو ما برهنت عليه احداث التاريخ فيما بعد ومعاهدة أوشي التي بموجبها تركت الاراضي الليبية وحيدة تقرر مصيرها لوحدها بعد أن اوصلها الحكم العثماني الى آخر درجات الضعف نتيجة حكم دام ما يقارب الاربعة قرون.

* * *

من خلال استقراء الملامح العامة للنشاط الثقافي الذي نهضت به الصحافة خلال تلك الفترة العصيبة من تاريخ البلاد، يمكننا أن نصل الى النتائج التالية:

1 ـ تعدد المنابر الصحفية التي اخذت على عاتقها مهمة التصدي للغزو الفكري الممهد للاستعمار والكثرة العددية للصحف، ومما يشار اليه أن هذه الصحف كانت تتعرض في مناسبات كثيرة للقمع والاضطهاد وتضطر للاحتجاب في بعض الاحيان وهو ما يسجل بكل فخر لاولئك المثقفين الوطنيين الذين احسوا بجسامة المهمة وضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقهم.

2 ـ على الرغم من تعدد «الابواب» الصحفية التي كانت تصدر آنذاك وتلون الموضوعات بين ادبية وفكرية وتوجيهية وسياسية وسوى ذلك فان الصحافة في عمومها كانت جادة الى ابعد الحدود متعمقة في الجوانب الوطنية ولم تكن تتجه الى تسلية القارىء أو اشغاله عن قضايا وطنه الاساسية. والطريف أن الموضوعات التي كانت تتجه من الناحية الظاهرية الى تسلية القارىء «او الهائه» كالنصوص الاعرابية أو النوادر وغيرها كانت في جملتها موضوعات جادة تتجه الى هدف اسمى هو ايقاظ المجتمع، والخروج به من سباته والنهوض به ودفعه في مسار التقدم. فالصحافة كانت صحافة «ملتزمة» بالمفهوم الحديث، وبعيدة كل البعد عن الاتجاه التغييبي التضييعي الذي انزلقت اليه الكثير من الصحف والمجلات العربية في عصرنا الحاضر.

3 ـ كان الشعور بالخطر القادم من الغرب يمثل الشعور الطاغي لدى عامة الناس وخاصتهم، فقد اعتبر الناس بتجربة الجزائر وتونس وتعمق لديهم الاحساس بأن المعركة المصيرية قادمة بلا ريب، وهذا ما وجه الصحافة الوطنية في خطها العريض في اتجاه التنبيه الى الخطر الاعظم القادم من الاستعمار الغربي. وشغلها نهائيا عن اية امور اخرى وخاصة

مهاجمة مثالب الحكم العثماني أو الولاة العثمانيين أو ممارسات السلطة التركية التي لم تكن في ليبيا «أو في أي منطقة اخرى بما في ذلك تركيا» بعيدة عن الشبهات.
وهكذا لم نجد في الصحافة الليبية مثيلات: «صدى الشرق» أو «لسان العرب» أو «المشير» أو «مرآة الاحوال»(*) وغير ذلك من الصحف التي اقتصرت اهدافها على فضح مثالب السلطة الحاكمة والتشهير بالحكام وعرض نقائصهم وأعمالهم المستهجنة، وقد انتشرت امثال هذه الصحف في الشام ثم في مصر والمهجر الامريكي وكان ميدان الصراع على صفحاتها يدور بين مواطني الدولة العثمانية ومسؤولي الحكم فيها. وقد خلت الصحافة الليبية من مثل هذا الاتجاه، وكان نقدها للسلطات العثمانية يدور في اطار ضيق جدا، ومحتمل ولم يتخذ أي شكل من الاشكال المتطرفة التي لحظناها في الصحف الانفة الذكر.

4 ـ يلاحظ في الصحافة بصورة عامة الوعي العميق المدروس المدقق لكل ما كان يخطط له الاستعمار فنشاط الجاليات الايطالية واليهودية والاجنبية ونشاط المدارس، والهيئات التبشيرية، ونشاط جماعة الفاتيكان وبانكو دي روما، ورجال الدبلوماسية، ومسلك القناصل والتجار والعاملين في مختلف الاوساط... ذلك النشاط الذي كان ينصب في نهاية المطاف في التيار الاستعماري العام ـ كل ذلك ـ لم يكن بعيدا عن انظار الصحافة وتقييمها ونقدها أيضا.
وهذا ما يجب تسجيله والانتباه اليه، بل ولابد من تنبيه الباحثين الى ضرورة دراسته بشكل تفصيلي ومتعمق ومن خلال مختلف الجوانب.

5 ـ وعلى اساس ذلك الوعي العميق بالمخططات الاستعمارية، خاضت الصحافة حربا فكرية حقيقية على جبهتين: الجبهة الداخلية، وذلك باتجاهها الى المواطنين ومحاولة توعيتهم وايقاظهم. وجبهة التصدي للفكر الاستعماري الذي كان يتسلل الى الوعي الاجتماعي ومن خلال مختلف المسارب.
أما الميادين التي تجسد فيها النشاط الصحفي فكانت مختلفة وأهمها:

أ ـ التنبيه الى الخطر الاجنبي الداهم والتوكيد على انه قادم دون ريب، فالمؤشرات والدلائل تنتهي الى خط واحد وهو أن البلاد مقدمة على معركة المصير مع الغازي الاجنبي ولابد من الاستعداد لذلك بكل الوسائل.

(*) انظر فيليب طرازي، مرجع سابق.

ب ـ حض المسؤولين على الارتفاع بمستوى الشعب من كافة الجوانب، الثقافي العسكري، التعبوي، الصناعي، الاقتصادي... وغير ذلك. فقد ادرك المثقفون منذ تلك الفترة المبكرة قيمة الوعي الانساني في مواجهة الاعداء وأنه سلاح لا يقل عن السلاح الناري... وأدركوا ايضا أن الشعب الجاهل لا يمكن ان يتصدى للعدو ويحقق عليه الانتصار وهذا ما كان يدفع بالصحافة الى التهليل واعلان الفرح والغبطة بكل مناسبة وطنية كانت تفتح فيها مدرسة أو ثكنة أو يجري فيها تدريب العساكر او تقام مناسبة تثقيفية ما. يضاف الى هذا الشعور بقيمة العلم واشعار القراء بذلك.

ونلاحظ في الصحافة مقالات عديدة تظهر فيها مذمة الجهل والتحذير منه والحض على الاخذ بأسباب العلم والانتهال من مختلف منابع المعرفة.
لقد كانت الصحافة تحاول تفتيح انظار الناس على ماهية التخلف وعلى مظاهره وأسبابه وتلك المقارنات التي تجري مع مظاهر الحياة الغربية والعودة في كثير من المقالات الى حض الدين على العلم والتعليم، لم تكن تتجه الا الى هدف واحد هو «تحبيب» العلم والدفع اليه بمختلف الوسائل ولفت الانظار الى الهوة الواسعة التي تفصلنا عن المجتمعات المتقدمة التي لابد لنا وأن نخوض معها معركة المصير.

جـ ـ الحض على الوحدة الوطنية وعلى التكاتف والتضامن والوقوف صفا واحدا في وجه الاعداء، وتكتسب هذه الحقيقة اهمية مضاعفة بالنسبة لتلك الفترة التي ساد فيها الانتماء القبلي والاسري ثم ظهرت «الطرقية» فأضافت مسربا جديدا للتفتت والشتات.
وهكذا فقد كان حض الصحافة على الوحدة الوطنية آنذاك من الامور الهامة التي تستحق التسجيل مثلما تستحق الاكبار والتقدير.

6 ـ الرد على النشاط الصحفي الايطالي والأجنبي بصفة عامة، ومقارعته الحجة بالحجة ومنازلته في مختلف ميادين الفكر والدعاية، واظهار الحق العربي أمامه وكشف مآربه وطموحاته ودسائسه في البلاد، والاعلان له بأن اعماله ليست خافية على ابناء البلاد.

وأخيرا فان الصحف الوطنية قد لمست ـ في المحصلة النهائية ـ أنها أعجز من أن تؤثر التأثير المطلوب على السياسة العليا للدولة والتي لم تكن ترسم انطلاقا من مصلحة الامة بقدر ما كان يمليها ضعف الدولة العثمانية ومهادنتها الدائمة للدول الكبرى (وكانت ايطاليا احدى تلك الدول في ذلك الحين). وهو ما يفسر رنة الاسى واليأس التي كانت تلمس في الصحافة الوطنية، الا أن ما يدهشنا مع كل ذلك هو دقة تحليل الموقف العالمي والادراك الصحيح لطبيعة الاستعمار والقدرة على استشراف المستقبل ورؤية المعركة التي لابد أن يخوضها الوطنيون دفاعا عن بلادهم وبعد أن تركوا لمصيرهم، وهو ما بينته الاحداث بعد فترة ليست بالطويلة.

1 ـ الترقي العدد (175) 10 صفر 1329هـ/27 كانون الثاني 1326 مالية.
2 ـ الفردوس العدد (10) 12 ربيع الاول 1329هـ/18 شباط 1326 مالية.
3 ـ انظر الباب الثاني الفصل الاول الصحافة القومية.
4 ـ الترقي العدد (192) 18 جمادي الاولى 1329هـ/2 حزيران 1326 مالية.
5 ـ الترقي العدد (203) 7 رمضان 1329هـ/18 اغسطس 1327 مالية.
6 ـ المرصاد العدد (42) 15 شعبان 1329 هـ/28 تموز 1327 مالية.
7 ـ المرجع السابق.
8 ـ المرجع السابق.
9 ـ الترقي العدد (139) 5 جمادي الاولى 1328هـ/1 مارس 1326 مالية.
10 ـ المرصاد العدد (42) 15 شعبان 1329هـ/ 28 تموز 1327 مالية.
11 ـ المرجع السابق.
12 ـ المرجع السابق.
13 ـ الترقي العدد (203) مرجع سابق.
14 ـ المرصاد العدد (34) السنة الاولى 11 جمادي الثانية 1329هـ/25 مارس 1327 مالية.
15 ـ وثائق غير مصنفة ارشيف دار المحفوظات التاريخية، طرابلس تر. محمد الاسطى: بتاريخ 23 يوليو 1911.
16 ـ وثيقة رقم 1107 ارشيف دار المحفوظات التاريخية. بتاريخ سبتمبر 1910.
17 ـ (ابو قشة) 11 شعبان 1328هـ/اغسطس 1910م عن كفاح صحفي، علي مصطفى المصراتي ص 54/58 ط 1 بيروت 1961 مطبعة الغندور.
18 ـ الفردوس العدد (10) 12 ربيع الاول 1326هـ/28 شباط 1326مالية.
19 ـ فرنسيس ماكولا، الغزاة، تر. عبد الحميد شقلوف. الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان 1979 ط 1 ص 30.
20 ـ الترقي العدد (197) 24 رجب 1329 هـ/7 تموز 1327 مالية.

# الفصل الثالث

## التعليم

# المبحث الاول :

## التعليم العصري :

«ترجع بداية التعليم العصري في ليبيا الى سنة 1858م. عندما تأسست المدارس الرشدية وهي المدارس الاعدادية والتي كانت تدرس فيها اللغات الاجنبية مع اللغة التركية[1].

وتوجد بدار المحفوظات التاريخية بطرابلس وثيقة عن برنامج المدارس الرشدية لسنة (1868–1869) تبين احتواءه على مختلف المواد العلمية من رياضيات، وعلوم، ومواد اجتماعية، وكذلك على اللغة الفرنسية، اضافة الى اللغتين التركية والعربية وتثبت الوثيقة نفسها انشاء مدارس رشدية للبنات وافتتاح مدرسة ليسيه (ثانوية) ومدرسة لتخريج المعلمين[2].

وفي سنة 1874 افتتحت مدرسة (اصلاح خانة) وهي مدسة اصلاحية لتعليم الفقراء من الاطفال وتأهيلهم تأهيلا حرفيا عصريا»[3].

واهتم احمد راسم بالشؤون الزراعية والاقتصادية والمالية والادارية والتعليم الذي شهد في عصره قفزة حسنة ونشاطا ملحوظا خاصة في مواجهة التسلل الثقافي الاجنبي، الذي ازدادت قوته في هذه الفترة تمهيدا ومساندة للاحتلال الاجنبي. وقد حاول احمد راسم بكل ما توفر له من امكانيات محدودة تطوير مرفق التعليم والوقوف في وجه المدارس الاجنبية من ايطالية وفرنسية والارساليات التي كانت تسعى الى اجتذاب العناصر المحلية[4].

الا أن هذه المحاولات لم تأت بنتائج ايجابية في مجال التعليم بسبب الاهمال والفوضى في ادارة الولاية، وكذلك بسبب عدم الاهتمام الفعلي بأمور التعليم، بل ان الاعلان عن فتح المدارس، واعداد الخطط لانشائها كان يرمي بالدرجة الاولى الى التأثير على الرأي العام، وامتصاص النقمة العامة تجاه الولاة، ومحاولة الايحاء بأن الولاية مهتمة بمرفق التعليم، ويؤكد على هذا الرأي (فرانشيسكو كورو) اذ يقول :

«ظلت ليبيا خالية من المدارس العامة أو التعليم النظامي حتى سنة 1895، ولم تكن ثمة مدارس او معاهد نظامية أو اهلية وقد كان النوع الوحيد من التعليم الذي يقدم الى الأطفال هو القراءة والكتابة وفقا للطريقة التقليدية العتيقة ويقوم التعليم كله حول القرآن»[5].

ومع سنة 1898 بدأ التعليم يشهد بعض التطور الطفيف من خلال المحاولات الاصلاحية التي تمت في عهد نامق باشا والتي حققت نجاحا ملحوظا في النهوض بالحياة الثقافية العامة اذ، انشأ العديد من الصحف الوطنية، وقام ببناء أول مدرسة عصرية، هي الفنون والصنائع التي اسهم المواطنون بتبرعاتهم واعاناتهم في اقامتها، كما خصصت ادارة الولاية بعض الضرائب لهذه المدرسة فقررت أن يؤخذ عشرة في المائة من واردات البلدية في الملحقات، و30 قرشا عن كل نخلة تقطع (لاقبي)(*)، وعشرين بارة عن كل شبكة حلفاء، و10 بارات عن كل شاة تذبح[6].

وأسست هذه المدرسة اساسا لتؤوي عددا من الايتام، وتشرف على تربيتهم وتعلمهم حرفة وصناعة، وهو مشروع شعبي جمعت له التبرعات بمال الشعب في طرابلس وللمدرسة عمارات وبناءات، وتم بناء المدرسة سنة 1899م. ووضع لها قانون ومجلس ادارة، وكانت لها مطبعة ومجلة علمية راقية «مجلة الفنون».

ومن المواد التي تدرس في برامجها الصناعية، النجارة، الحدادة، طرازة الجلود، والحياكة، والطباعة، والتجليد، والرسم والنقش، والزليز، والفخار، والالمنيوم.. الخ[7].

وتتحدث (الترقي)[8] عن هذه المدرسة قبل افتتاحها موضحة اهميتها فتقول:

«غاية المنافع في مكتب الصنائع ـ من جملة المكارم السنية السلطانية التي لا تحصى، ومآثره الحسنة التي عمت الادنى والاقصى، وما تفضل به على ولاية طرابلس الغرب، حيث لاح في خاطره الشريف الملهم من التوفيقات الصمدانية تنظيم مكتب للخياطة والنجارة والحدادة، وغيرها بموجب التعليمات المخصوصة واصدار ارادته السنية في ذلك، وعليه سينشأ في مركز ولاية طرابلس غرب مكتب صنائع حسب الارادة السنية وقد وقع ذلك موقع الاجراء».

وفي محاولة للنهوض بالتعليم وتطويره أنشأ الوالي نامق باشا مجلسا للمعارف برئاسته ومفتي الولاية كامل افندي كرئيس ثان وعضوية، الشيخ بشير أفندي، وأحمد عبد السلام، ومحمد السماتي، وأحمد الويفاتي، وأحمد بن محمود، وعمر المسلاتي، وهم من اعيان البلد وعلمائها، ومن مهام هذا المجلس جمع الاعانات، وحثهم على التبرع، وكذلك اعداد الخطط للنهوض بالتعليم ومراقبة المدارس، وانشاء العديد منها[9].

وبلغ من اهتمام هذا الوالي بالتعليم وتشجيعه له، أن كان يراقب سير الامتحانات، ويشرف عليها بنفسه، وفي نهاية كل امتحان يقيم الاحتفالات الرسمية ويوزع فيها الشهادات والجوائز على الناجحين، وتصف جريدة (الترقي)[10] هذه الاحتفالات قائلة:

«في الاسبوع الماضي جرى امتحان تلامذة المكتب الرشدي الملكي بطرابلس الغرب بحضور جناب والي ولايتنا العالي، وحضرة ذي الدولة المشير بك وسائر

(*) لاقبي: يقطع سعف النخيل وهو ما يسمى بالحجامة ويتخذ منها مشروب حلو المذاق ويخمر في بعض الاحيان ويتخذ مشروبا مسكرا.

اركان الولاية والأمراء العسكرية والاعيان والمعتبرين فيما كانت مفرزة من العساكر السلطانية مصطفة للسلام. والموسيقى العسكرية تصدح بشجي الانغام، وبعد انتهاء الامتحان وزعت اوراق الشهادة والجوائز للتلامذة الذين ابرزوا مهارة تستحق الثناء لهم».

وفي سنة 1909 تم انشاء ادارة المعارف(*)، تتولى ادارة شؤون التعليم ووضع المناهج، والصرف على المدارس وتوفير المدرسين والكتب، الا أن هذه الادارة اخفقت في القيام بمهامها، بل استنزفت الاموال المخصصة لها والتي كان يجب أن تنفق على التعليم، وكانت هذه الاموال تحصل عليها من الشعب.

وقد بلغت درجة الوعي بالمواطنين في مختلف المناطق ورغبتهم في تعليم اولادهم، وتعلقهم بالتعليم، أن قاموا ببناء كثير من المدارس الابتدائية والرشدية بالجهود الذاتية. وألحوا في طلبهم على ادارة الولاية لتستكمل النواقص التي تتمثل في عدم وجود الكتاب والمدرس. وهذا يدل على مدى تشبث الاهالي بأسباب الرقي والتقدم ومحاولة قهر التخلف والجهل الذي عشعش قرونا طويلة في البلاد. ويضم ملف المعارف بأرشيف المحفوظات التاريخية العديد من الوثائق التي تتعلق بالمدارس التي قام ببنائها المواطنون. وقد جاء في تقرير عن التعليم في الجبل الغربي أنه تم انشاء مدرسة رشدية وأخرى ابتدائية في يفرن عام 1316 مالية ومدرسة ابتدائية في كل من جادو وغدامس وككلة[11].

ومن ضمن هذه الوثائق رسالة بعث بها سكان غدامس الى الوالي نعرضها على سبيل المثال وقد جاء فيها:

«انه بتاريخ 24 حزيران سنة 1307، نومرو 166 تشرفنا بورود امركم السامي الصادر عن طريق اللواء مآله العالي في حق تأسيس بناية مكتب رشدية في نفس غدامس جوابا على موجب الاشعار السابق، ومضبطة الكشف المحلية، ومن مآله العالي أن انشاء هذا المكتب وعلى اللزوم واجاب الموفقية أحسن وأنسب.. الخ. وما حصل به الفضل والاحسان فحين وصول الامر المشار اليه في الحال صار حضور الوجوه والمعتبرين وتفهيمهم منافع هذه التأسيسات الخيرية حصلت الموفقية بالاهتمام في بنائه واتمامه وفق المراد والصرفيات عليه من ارباب الحمية بمعرفة القومسيون المشكل في هذا الخصوص وفي وقتها عرضت

(*) (تشكلت ادارة المعارف على النحو التالي.
1 ـ الوالي رئيسا. 2 ـ مدير المعارف وكيلا. 3 ـ اربعة من اعضاء مجلس الادارة (أعضاء). 4 ـ مدير التعليم (عضوا). 5 ـ معلمان من المدارس الرشدية (أعضاء). 6 ـ معلمان من المدارس الابتدائية (أعضاء). 7 ـ اثنان من المفتشين يختارهم مدير المعارف (أعضاء).
وتعتبر عضوية هذا المجلس فخرية وبدون أي مقابل فيما عدا الأعضاء الذين يحضرون عن الأقاليم لحضور الاجتماعات فتدفع لهم مكافأة مبيت، ويجتمع هذا المجلس مرتين في السنة، وتستمر الجلسة الواحدة لمدة شهر، ويجتمع بناء على دعوة من الوالي الذي يحق له أن يضم من يراه من المختصين لحضور الجلسات). أنظر احمد محمد القماطي (تطور الادارة التعليمية في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية) الدار العربية للكتاب ط 1، 1978 ص 98–99.

الكيفية على طريق اللواء بمضبطة مؤرخة 2 ايلول سنة 1307 مالية نومرو (49) مبينة لذلك ولفها دفتر بيان الصرفيات عينا والتمسنا ارسال المعلم والى الان منتظرين قدومه، الا انه نلتمس حصول الفضل بتعيين المعلم من أهل العلم والحلم ويكون له معرفة باللسان العربي اذ لا يخفي سعادتكم وحشية اهل قضاء غدامس، واكثر ما يأتوا اليها من الاطراف الخارجة من جنس التوارق وغيرهم، وفي معرض ذلك والاسترحام تجاسر العبد بتقديم هذه العريضة الى تراب اقدامكم وباقي الامر والعرفان لحضرة من له الامر.

28 جمادي الاولى سنة 1309هـ، 28 كانون الثاني 1307 مالية»[12].

ومع تصاعد المجابهة للمخططات الاستعمارية الايطالية بالسعي الى كسب ود الاهالي، وقطع الطريق على التدخل الايطالي والعمل على التنظيم الاداري وتطوير التعليم، الذي شهد في عهد الوالي حافظ باشا دفعة الى الامام، اذ اسس دارا للمعلمين ومدرستين كبيرتين وكبر مدرسة البنات وأسس مدارس ابتدائية أخرى في الدواخل وأكمل بناء مدرسة الفنون والصنائع، والحق بها مدرسة اخرى للبنات وجلب لهن الخبيرات ليعلمنهن صناعة السجاد[13].

وفي هذه الفترة أخذت المدارس الاجنبية تتزايد في الانتشار والتي كانت تؤسسها الحكومات والبعثات الاجنبية، ولم تقتصر هذه المدارس وخاصة الايطالية والفرنسية على مدينة طرابلس فقط بل انتشرت في المدن الرئيسية(*).

وكان الهدف من انشاء المدارس في عهد هذا الوالي يستهدف فيما يستهدف مجابهة النشاط التبشيري الاستعماري الذي تتزعمه ايطاليا عن طريق مدارسها التي بدأت تستقطب رجال الحكومة الذين يفضلون ارسال أبنائهم الى هذه المدارس وخاصة منهم الضباط الاتراك، فقد أصدر هذا الوالي امراً الى الضباط يعلمهم فيه أن السلطان اصدر أمرا بعدم ارسال اولادهم الى مدارس الاجانب ويقول:

«وقد علمت أن الضباط الاتراك يرسلون بناتهم الى المدارس الفرنسية وحيث أن الحكومة افتتحت مدرسة للبنات تسير على منهج سليم، لذلك لم يبق عذر ولا مبرر لارسال بنات الضباط الى المدارس الاجنبية ويمنع هذا رسمياً»[14].

ويمكن اجمال المدارس العثمانية التي أنشأتها الحكومة العثمانية بطرابلس وبنغازي بعد سنة 1895 على النحو التالي:

(*) انظر الباب الثالث. الفصل الثاني.

**طرابلس:**

= مدرسة ابتدائية للذكور مدتها ثلاث سنوات، يقوم منهجها على تدريس اللغة العربية والتركية والقرآن الكريم والتجويد والفقه والتاريخ العثماني والحساب والجغرافية.

= مدرسة رشدية للذكور. ومدتها أربع سنوات ويقوم منهجها على تدريس اللغة العربية والتركية والفارسية والحساب والهندسة والجغرافية والتاريخ العثماني والتاريخ العام والصحة والخط والرسم واللغة الفرنسية.

= مدرسة ابتدائية رشدية للبنات. ومدتها ست سنوات، ثلاث سنوات للابتدائي وثلاث سنوات للثانوي ومنهجها مماثل لمنهج الذكور مع زيادة في الاهتمام بالاعمال النسائية وشؤون التدبير المنزلي.

وجاء في وثيقة تاريخية عن منهج هذه المدرسة:

كان يدرس فيها عدا المواد الأساسية، الرسم والنقش والتطريز والخياطة والعزف على البيانو، وكانت مؤلفة من ثلاثة فصول، وكانت لجنة الامتحانات فيها تضم مفتي الولاية ومفتي الجيش ورئيس المحكمة الشرعية ومدير المدرسة الاعدادية وثلاث معلمات[15].
وتأسست هذه المدرسة في يوليو 1898م[16].

= دار المعلمين. وهي معهد خاص لاعداد المعلمين للتدريس بالدواخل ومدة الدراسة بها سنتان ومنهجها مماثل لمنهج المدرسة الرشدية مع شيء من التركيز[17]. فكانت تدرس فيها التركية والعربية والفارسية والفرنسية والجغرافية والتاريخ والرسم ودروس الاشياء، وافتتحت هذه الدار في 14 كانون الثاني 1317 مالية 1319هـ واستقبلت في السنة الأولى عشرة طلاب، وتقرر أن يقبل عشرة آخرين في السنة نفسها وأعلنت (الترقي)[18] في احدى السنوات عن موعد بدء الدراسة في دار المعلمين وشروط القبول، والعدد المطلوب، وجاء في الاعلان:

> «تعلن ادارة المعارف البهية أنه سيكون افتتاح دار المعلمين في اول تشرين 1325، وسيقبل بها هذه السنة (50) طالبا، ويشترط أن يكون الراغب من سن 15 الى 35 وأن يكون سالما».
> «ولم يكن من بين شروط القبول بدار المعلمين شرط الحصول على شهادات معينة سوى حفظ القرآن الكريم والقدرة على الكتابة والقراءة، والالمام بالمسائل اللغوية والدينية. وتخرجت اول دفعة من دار المعلمين بطرابلس عام (1903) وعددها سبعة طلاب. وتوقفت الدراسة بهذا المعهد عام (1910)، وبعد فترة قصيرة من انشائه، افتتح بدلا منه معهد عصري لاعداد المعلمين ومدرسة فنية مختلطة لتعليم الوطنيين من الجنسين، وكان التعليم فيهما باللغة التركية»[19].

= مكتب اعدادي ليلي ـ قسم داخلي ـ اعلنت (الترقي)[20] عن افتتاحه بتاريخ غرة شعبان 1328هـ 24 تموز 1326 مالية. وحثت الاهالي على ارسال اولادهم الذين نالو الشهادة الابتدائية وقد جاء في الاعلان:

«تقرر أن يفتتح المكتب الاعدادي الليلي اعتبارا من أول السنة المالية الاتية، وحيث أن المكتب لا يتسع لذلك فقد استأجرت ادارة المعارف محلا كافيا الى أن يتم استلام المستشفى البلدي الذي تقرر اتخاذه مكتبا وأننا نأمل من اهالي ملحقات الولاية أن يبادروا بارسال أولادهم الذين نالوا الشهادة الابتدائية، ولا يتأخروا عن المبادرة حتى لا يلحقهم فيما بعد الندم».

وكان الغرض من انشاء هذا المكتب إيواء التلاميذ من المناطق الداخلية الذين يرغبون في مواصلة تعليمهم بعد المرحلة الابتدائية، الا أن الاقبال على هذا المكتب كان قليلا جدا، ولم يسجل في سنة الافتتاح الا (25) طالبا فقط[21].

ويتردد على جميع هذه المدارس سنة 1911 ما يقارب من (800) تلميذ خارجي، و(150) تلميذا داخليا ويتألف سلك التعليم من (41) شخصا[22].

اضافة الى المدارس الحكومية المتقدم ذكرها، تم انشاء مجموعة من المدارس العصرية الخاصة من قبل مواطنين محليين وآخرين غرباء، كمكتب عرفان ومكتب محمود شوكت، ومكتب الاتحاد والترقي، ومثل هذه المدارس كانت تعتمد في موازنتها المالية على دعم الحكومة وعلى الرسوم التي كان يدفعها الطلاب الذين كانوا يلتحقون بها، وكانت مدرسة عرفان قد أنشأت بالخصوص لتنافس المدارس الاجنبية التي اخذت في الانتشار والتي كانت تؤسسها الحكومات والبعثات الاجنبية، وكانت هذه المكاتب تنشر اعلانات متوالية في الصحف ـ وسيلة الاعلان الوحيدة في ذلك الوقت ـ للاعلان عن موعد بدء الدراسة ومناهجها العصرية المتقدمة وأساليبها الحديثة في التدريس.

وكان في نية ادارة الولاية افتتاح مدرسة للمحاسبين في سنة 1911[23] ومدرسة للزراعة في سيدي المصري ومن المحتمل انه شرع في افتتاح هذه المدرسة في سنة 1910 كما تشير بعض الوثائق[24].

الا انه ورد في تقرير ادارة التخطيط والمتابعة بوزارة التعليم والتربية في ليبيا حول تطور التعليم في ليبيا جاء فيه:

«إن المدرسة تأسست في سنة 1909 وكان منهجها يشتمل على المواد الزراعية بالاضافة الى الجوانب التطبيقية مثل صناعة الجبن واستخراج الزيوت، وتعين نظارة المعارف العمومية في استانبول معلمي هذه المدرسة».

## بنغازي:

انفصلت بنغازي عن ولاية طرابلس في سنة 1943 وأصبحت تابعة مباشرة للآستانة، وكونت ادارة مستقلة خاصة بها، ولا يحتفظ ارشيف المحفوظات التاريخية الا بالنزر اليسير من الوثائق التي تتعلق بالتعليم في بنغازي واجمالا كان في بنغازي 12 مدرسة حكومية، واحدة للمعلمين وثلاث للبنات ومدرسة ثانوية خاصة بأبناء الموظفين والعسكريين، ومدرستان تركيتان ابتدائيتان والباقي مدارس اجنبية[25].

★ ★ ★

ومما تقدم يتضح أن هذه المدارس أنشأها بعض الولاة المصلحين عندما شعروا بالخطر الاجنبي يهدد كيان امبراطوريتهم، وبدأت مكانتهم تهتز في ولاية طرابلس، بسبب التدفق التعليمي الاجنبي الذي بدأ يغزو البلاد ويستقطب العديد من ابناء الاتراك وأبناء الجاليات الاخرى، الذين فضلوا هذا التعليم بأسلوبه العصري وامكانياته المتوفرة، وخوفا على ابناء الاتراك من التعليم الاجنبي، أنشاوا هذه المدارس كما هو الحال في مدرسة البنات، وحتى المدارس الاخرى كانت في صميمها تركية المناهج وخاصة في المراحل المتأخرة من العهد العثماني ولم تكن موجهة لابناء الليبيين الا لقصد تريكهم، فكان التركيز على التاريخ العثماني، ولم تكن للغة العربية مكانة في مناهج التعليم بل كانت مادة اضافية شأنها شأن اللغة الفارسية والفرنسية.

**هوامش**

1 ـ د. صلاح حسن السوري (تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس 1835–1911) بحث التي في مؤتمر تصفية الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية. مركز الجهاد.

2 ـ لم تفتح مدرسة البنات ودار المعلمين رسميا الا سنة 1898 بالنسبة للبنات 1319 مالية للمعلمين انظر ملف المعارف ارشيف المحفوظات التاريخية.

3 ـ صلاح حسن السوري، مرجع سابق
Ettore ROSSI (Storia di Tripoli e della Tripolitania) Roma 1968.

4 ـ خليفة التليسي (حكاية مدينة) مرجع سابق ص 179–180.

5 ـ فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 117.

6 ـ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية، ملف المعارف، كذلك انظر الترقي العدد 117، 12 محرم 1329هـ، 3 كانون الاول 1327 مالية.

7 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 122 عن علي مصطفى المصراتي. من تاريخ التعليم في ليبيا.

8 ـ الترقي عدد (46) 28 المحرم الحرام 1316هـ / 7 حزيران 1314 مالية.

9 ـ انظر، الترقي (عدد 4) 17 يوليو 1897.

10 ـ الترقي (عدد 3) يوليو 1897.

11 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية ملف المعارف. من ضمن هذه المدارس التي أنشأها الاهالي. = مدرسة ابتدائية في مركز الشاطىء. وثيقة رقم 235 بتاريخ 1898 = مدرسة ابتدائية في سرت سنة 1325 مالية ومدرسة اخرى بتبرعات الاهالي سنة 1910 = مدرسة رشدية في فزان وثيقة رقم 715 / 8 محرم 1313هـ = مدرسة في ورفلة وثيقة رقم 1604 بتاريخ 1326هـ = رسالة من مدير سبها بتعهد الاهالي ببناء المدارس وثيقة رقم 207.

12 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية ملف المعارف وثيقة رقم (875).

13 ـ خليفة التليسي (حكاية مدينة) مرجع سابق ص 195–196.

14 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية ملف المعارف

15 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية ملف المعارف

فرانشيسكو كورو مرجع سابق.

احمد صدقي الدجاني مرجع سابق.

16 ـ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 2422، 7 يونيو 1897.

17 ـ فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 119.

احمد صدقي الدجاني، مرجع سابق.

18 ـ الترقي (العدد 113) 22 شوال 1327هـ/24 تشرين أول 1325مالية.

19 ـ احمد محمد القماطي مرجع سابق ص 97- 98 عن وزارة التعليم والتربية ادارة التخطيط والمتابعة (دراسة تاريخية عن تطور التعليم في ليبيا) طرابلس، 1974 ص 9.

20 ـ الترقي، (العدد 150) غرة شعبان 1328. 24 تموز 1326 مالية.

21 ـ انظر الترقي عدد 164، 27 من ذي القعدة 1328هـ/16 تشرين ثاني 1326 مالية.

22 ـ فرانشيسكو كورو مرجع سابق ص 120.

23 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 2124.

24 ـ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 1326.

25 ـ انظر فرنشيسكو كورو مرجع سابق، ص 118، 119، 120.

احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 213.

عزيز سامح (الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية) تر. عبد السلام ادهم دار لبنان للطباعة والنشر ط 1 1969 ص 276.

## المبحث الثاني :

### التعلم الديني :

قامت في ليبيا وعلى ايدي المصلحين في عهود مختلفة معاهد علمية شتى كانت تسمى (بالمدارس داخل مدينة طرابلس)، كمدرسة «عثمان باشا»، ومدرسة «احمد باشا القره مانلي» ومدرسة «الكاتب»، كما تسمى المعاهد التي تقوم في ضواحي المدينة وخارجها «بالزوايا» كزاوية «ميزران» وغيرها حيث كانت جهتها تعبر عن الضواحي، وكزاوية «القائد» و«عمورة» في جنزور وزاوية «البشتي» في الزاوية الغربية، وزاوية «النعاس» في تاجوراء، وزاوية «سيدي عبد السلام الاسمر» في زليطن، وزاوية «الزروق» في مصراته[1].

وكانت الدراسة في هذه الزوايا حرة طليقة قد لا تخضع لسن معين، ووقت معين، وهذا لون من الدراسة عرفته مدارس المشرق والمغرب العربي[2]. واستطاعت هذه الدراسة العلمية التقليدية أن تؤدي واجبا من ناحية تقوية العاطفة الدينية والمحافظة على اللغة العربية[3]. وكانت تؤدي رسالتها في صور تختلف باختلاف الظروف والاحوال وقد انجبت الكثير من العلماء والفقهاء الذين لا تزال اثارهم باقية حتى اليوم[4].

وهم بوجه عام يمثلون الغالبية العظمى من النخبة المثقفة في البلاد والتي من بينها الصحفيون والادباء والشعراء، وما أسماء «سليمان الباروني»، و«محمود بن موسى»، و«ابراهيم باكير»، و«مصطفى بن زكري»، و«محمود وعبد الرحمن البوصيري»، و«احمد الشارف»[5] الا شواهد قليلة على هذه المجموعة من خريجي المدارس الدينية التي استطاعت أن تبدع في العديد من المجالات[5].

وكانت هذه المعاهد عامرة بالعلماء والطلاب، وكانت تدرس فيها الكتب المطولة من العلوم العقلية والنقلية كالفقه والاصول والحديث والتفسير واللغة والادب وبعض العلوم الرياضية الاخرى، أما نظام التدريس فيها فلا يختلف عن نظام القسم العام بالجامع الازهر وجامع الزيتونة[6]. وقد تركت الزوايا الدينية أثرا ملموسا فانتشرت الدراسة في المعاهد العلمية، وغير ذلك من معاهد ومدارس كانت ملحقة بالمساجد فيها ظلال من العلم وأنماط من الادب، وبها مكتبات لا تخلو من كتب قيمة.

أما طريقة التدريس في هذه المعاهد والزوايا فيصفها الحشائشي في رحلته الى طرابلس فيقول :

«وخلف جامع السوق داخل البلد، وهو جامع بهيج عليه رونق فوجدت كثيرا من اعيان الترك من ضباط وغيرهم كل منهم جالس على ركبتيه في خشوع وتؤدة، ووقار يسمعون في كلام رب العالمين من مجود عالم بالتلاوة مصري له صوت حسن كأنه مزامير آل داود، وفي احد اركان المسجد من الجهة القبلية،

وجدت العالم الفاضل النحرير المنعم الشيخ محمد بن مصطفى مفتي السادة الحنفية، ويقرىء الحديث الشريف متن الشفاء للقاضي عياض وعليه حلقة عظيمة من اعيان البلاد. وغيرهم، وهو على اسطبل من اللوح عال عن الارض بمقدار يسير تراه اعلى من جميع من دار به من السامعين، وهاته عادة جلوس المدرس عندهم الا أن الكراسة لا تنقطع من يده وهو أول مشهور بالعلم هناك الى أن تم درسه قبيل المغرب بساعة»[7].

وقد ذكر الحشائشي الى جانب هذه الزوايا عشر طرق صوفية مختلفة كانت منتشرة في بلادنا[8].

الا أن هذه الطرق الصوفية لم تؤد دورا تعليميا بسبب ما علق بها من بدع وخزعبلات[9] وتعصب وشوائب تراكمت على الاسلام على مر العصور بصورة حجبت حقيقته وطمست جوهره فكان بذلك جهل المسلمين وتخلفهم وهزيمتهم، في هذا الاتجاه ظهرت دعوات الاصلاح في انحاء العالم الاسلامي، وتغيرت اساليب الطرق الصوفية وخرجت الى حيز الوجود الفكرة الاسلامية. ولم تكن طرابلس الغرب بطبيعة الحال بمعزل عن هذه التطورات فبدأت النظرة الى بعض المؤسسات الدينية التي اتخذت طابع القداسة كالطرق الصوفية ومكانة الاشراف والمرابطين تتغير، كما تغيرت بالتدريج النظرة الى الدين والى وظيفته الاجتماعية والسياسية، فالطرق الصوفية كالقادرية والعيساوية والعروسية.. الخ. واصلت نشاطها في هذه الفترة الا ان تأثيرها في اغلب الاحوال كان مقتصرا على الاغلبية غير المتنورة التي كانت تجد متعة في مدائحها واذكارها ودفوفها وطبولها[10] وفي ما عدا ذلك لم تكن لها اية نشاطات سياسية أو ثقافية، باستثناء الطريقة السنوسية التي كانت نتاج التغيرات الجديدة وتعبيراً صادقاً عنها[11].

ويقول ايفان بريتشارد: (EVANS PRITCHARD)

«بدأت الدعوة السنوسية في الانتشار منذ تأسيس الزاوية البيضاء سنة 1843 حيث انتشرت في كل مكان في برقة، وانتشرت زواياها بشكل سريع في كل انحاء الصحراء تقريبا وقامت هذه الزوايا بعدة ادوار اهمها نشر التعليم الديني بين بدو الصحراء وقد تمكنت هذه الدعوة من تأسيس 45 زاوية»[12].

ورغم دخول التعليم العصري الى البلاد، وانتشار المدارس الابتدائية في اماكن كثيرة، الا ان التعليم الديني لم يفقد قيمته ومكانته، واستمرت المدارس والمعاهد والزوايا الدينية في اداء رسالتها على احسن وجه، ويرجع ذلك الى اهتمام الاهالي بهذا النوع من التعليم. الذي يجد في نفوسهم قبولا وارتياحا وخاصة أن كثيرا من الذين تلقوا تعليما دينيا عاليا تقلدوا مناصب في غاية الاهمية في الدوائر الحكومية والمؤسسات العامة والخاصة والقضاء والافتاء، رغم ان ادارة الولاية قد اهملت طلاب هذا العلم وقطعت عنهم المساعدات والاعانات، وتشير بعض الوثائق الى ان جماعة من الفقهاء وطلاب العلم من الاساتذة ضاقت بهم سبل العيش في الولاية

فاضطروا الى تلقي الصدقات، وطلبوا من الاهالي ثمن تذاكر السفر حتى يتمكنوا من السفر الى الاستانة[13].

واجمالا يحدثنا الدكتور رأفت غنيمي الشيخ عن هذه المدارس الدينية وعن عددها فيقول:

«فقد كان عددها بمدية بنغازي سنة 1284هـ (1844) في الفترة الاخيرة من الحكم العثماني ثمانية كتاتيب، وعدد تلاميذها غير مستقر. وهذا يؤكد أن هذه الكتاتيب كانت بخدمتها التعليمية تعتمد على جهود فردية أهلية. كما كان عدد الكتاتيب ايضا بمدينة طرابلس سنة 1292هـ 1891 خمسة عشر كتابا لم تكن كلها صالحة لعملية التعليم، وتركت الكتاتيب المنتشرة في كلا الاقليمين برقة وطرابلس تقوم وحدها بدورها التقليدي.

ولم تكن عملية التعليم في الكتاتيب تقوم على اساس علمي أو تربوي، ذلك أن الفقيه كان يقوم بتعليم الصبية كيفية النطق بالآيات ثم يكلفهم بحفظ بعض الآيات ليقوم كل منهم بتسميع القرآن الذي حفظه امام الفقيه في اليوم التالي دون اهمية لفهم المعنى، أي كان الحفظ يتم آليا»[14].

هوامش

1 ــ مجلة القلم الجديد (الدراسات الاسلامية في ليبيا) محمد الماعزي يوليو 1953.
2 ــ علي مصطفى المصراتي (ديوان احمد الشارف) مكتبة الفكر، طرابلس ط 1، 1972، ص 15.
3 ــ المرجع السابق، نفس الصحفة.
4 ــ مجلة القلم الجديد مرجع سابق.
5 ــ د. صلاح حسن السوري مرجع سابق.
6 ــ مجلة القلم الجديد مرجع سابق.
7 ــ رحلة الحشائشي مرجع سابق ص 68.
8 ــ انظر المرجع السابق ص 143.
9 ــ من خزعبلات بعض الطرق الصوفية، يقوم الشيخ بالسير فوق اجسام اتباعه المنبطحين أرضا، وفي «الذكر» يجرح اتباع الطريقة انفسهم ويغمدون القضبان والسكاكين الحادة في اجسادهم ويبتلعون الافاعي ــ انظر دي لاسي اوليري (الفكر العربي ومركز في التاريخ) تر. اسماعيل البيطار دار الكتاب اللبناني. بيروت ط 1، 1972 ص 168-169.
10 ــ د. صلاح حسن السوري مرجع سابق.
11 ــ المرجع السابق.
12 ــ Evans - PRITCHARD (The Sanusi of Cyrenica) Oxford 1973 p. 70.
13 ــ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 1197 بتاريخ 30 كانون اول 1312.
14 ــ د. رأفت غنيمي الشيخ (تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة) دار التنمية للنشر والتوزيع، ط 1، 1972 ص 110.

## المبحث الثالث:

# البعثات التعليمية:

كان بعض الطلبة المتفوقين في المعاهد والمدارس الدينية يرسلون الى الجامع الازهر او الزيتونة لاتمام تعليمهم الديني العالي، أو الى استانبول اذا كانوا من خريجي المدرسة الرشدية وذلك ليتلقوا تعلما عصريا في المدارسة العسكرية او المدنية من مختلف التخصصات.

أما اقدم وثيقة عثرنا عليها حول البعثات التعليمية فانها تعود بتاريخها الى سنة 1284هـ 1868م. حيث تم ايفاد خمسة طلاب من خريجي المدرسة الرشدية بطرابلس الى استانبول لاتمام تحصيلهم العلمي في المدارس العليا وذلك بناء على رغبتهم، وألحقوا بالمكتب الاعدادي العسكري[1].

وربما تكون هناك بعثات سابقة لهذه البعثة، قد ضاعت وثائقها مع آلاف الوثائق التي اتلفت في البحر اثناء القصف الايطالي لليبيا أو قامت ايطاليا باعدامها.

وأكبر قافلة طلابية سافرت الى استانبول كانت تضم خمسة واربعين تلميذا وزعت على تخصصات مختلفة وأجرى لها احتفال رسمي لاستقبال الموفدين وقيدهم في مدارس استانبول، وتاريخ هذه البعثة يعود الى سنة 1304هـ 1302 مالية وجاء في الوثيقة التي تتعلق بهذه البعثة:

«ان الخمسة والاربعين تلميذا كانوا ارسلوا اولا بقافلة من اهالي ولاية طرابلس الغرب الشاهانية بقصد قيدهم وقبولهم للمكاتب العالية التي في مقر السلطة السنية حسب ساعته حضرت الخلافة العظمى المتصفة بالمرحمة قد وصلوا سالمين الى دار السعادة فتضيفوا ووضعوا في الدائرة المخصصة المهيئة في قشلة الخدمة الخاصة الشاهانية، وذلك من جملة المراحم والعطف السلطاني التي لحضرة مولانا السلطان الاعظم الشاملة كافة تبعتها وعبيدها، وألبس كلا منهم «بكاطين»(*) البسة مكملة من جيب السلطانية السنية بكل ما يلزم الى حد فانيلات وشخاشير وكنادر، وكذلك احسن لكل منهم بكسوة اخرى من البسة المكتب، وصار قيدهم وقبول كل منهم بحسب طلبه ورغبته. واحد في المكتب الملكية وثمانية وثلاثون في مكتب الحربية، وستة في مكتب الطبية الشاهانية، وقد حضر التلاميذ المومى اليهم في رسم السلام العالي الواقع بأشرف يوم الجمعة الماضي في جامع الحميدية... الخ»[2].

وتفيد الوثيقة أن قبول التلاميذ في هذه المكاتب كان بالمجان.

وأنشأ السلطان عبد الحميد مدرسة في استانبول يوفد اليها سنويا نخبة مختارة من ابناء الاعيان وزعماء القبائل في مختلف الولايات العثمانية سماها (مدرسة العشيرة) وافتتحت هذه

(*) الكاط، يطلق على الزي الليبي الكامل اسم كاط الملف وهو الزي المطرز.

المدرسة في (باكشيكاناش) احدى ضواحي استانبول في يوليه 1892 لتلقى تدريبا مدنيا أو عسكريا من اجل تأهيلهم قياديا، وتم ايفاد العديد من ابناء زعماء القبائل والاعيان في ولاية طرابلس الغرب الى هذه المدرسة، وفي احدى الرسائل الواردة من نظارة الداخلية الى الولاية بتاريخ 1 تموز 1308 مالية تحت رقم (109) بخصوص هذه المدرسة هذا نصها:

«لما كانت من جملة رغبات الحضرة السلطانية وآماله الخيرية احداث مدارس تكون اساسا لتعليم وتربية ابناء العربان الضاربين في كافة انحاء البلدان المحروسة الملكية فان التشريفاتي الثاني الفريق «نوري باشا اعظم» نظم وحضر برنامجا للتعليم في مدرسة تنشأ بدار السعادة تدعى (مكتب العشيرة) وبناء على اللائحة المحالة للباب العالي بشأن تأسيس المدرسة المذكورة وتحضير ميزانيتها، أي مخصصاتها، بحث مجلس الوزراء في هذه المسألة وقرر أن برنامج الدروس التي ستلقى على هؤلاء الطلبة تتناسب مع مستواهم التعليمي، ويجب تحضير الدروس التي ستعلم لها في السنة الاولى وتحدد مدة الدراسة بخمسة اعوام، وأن يسجل خمسون طالبا في كل عام على ان يسجل ويجلب لها في هذه السنة الاولى خمسون طالبا، أما فيما يتعلق بالتموين والادارة فتجري على الاسس المتبعة في مدرسة (دار الشفقة) بهذا الشأن على ان يخصص مبدئيا مبلغ ثلاثون قرشا في الشهر كراتب للطالب على ان تزداد بتقدم وصعود الطالب في الصفوف، ومن اجل اسكانهم يجب افراغ عدد من المباني الملكية الكائنة في بشيكطاش لتكون مدارس للاطفال القادمين، على ان يجلب في هذه السنة خمسون طفلا ممن لم يسبق له أن درس يجب ابتداء تعليمه من الالفباء وأن يكون برنامج الدروس مقتصرا، ولما كانت الغاية هي تعليمهم الدروس التي تخدم لتقوية وتزييد ميلهم وتعلقهم بالخلافة الاسلامية وحبهم للسلطة العثمانية فقد صدر الامر لوزارة المعارف بتعيين مدير للمدرسة المذكورة.. الخ. ان هذا امر جرى ابلاغه لكافة الولايات ويجب البدء في تنفيذ ما جاء به وارسال اربعة تلاميذ حصة ولايتكم الجليلة على ان يصلوا في الوقت المحدد»[3].

وفي 28 حزيران 1309 اصدرت ادارة الولاية تعليماتها في شأن من يختارون للدراسة في مكتب العشائر عممت على مختلف القضاءات والنواحي[4].

ويعلق الاستاذ عبد السلام ادهم مترجم الوثيقة على انشاء هذه المدرسة فيقول:

«ان الاطفال الواجب ارسالهم الى هذه المدرسة يجب أن يكونوا من ابناء زعماء القبائل والاعيان واعمارهم تتراوح بين الثمانية والاثنتي عشرة سنة، وعلى مرور السنين اي كلما زادت الصفوف في المدرسة زادت حصة الولاية من عدد المطلوبين، كما ان المدرسة فيما بعد اصبح يديرها ضباط من الجيش، ويتخرج منها بدرجة ملازم اول، ويوزباشي، وفي الحقيقة كان الداهية عبد الحميد موفقا في

هذه الفكرة الى اقصى حد اذ أن كثيرا من زعماء ومشائخ القبائل اصبحوا يبعثون أبناءهم لهذه المدرسة التي اغرتهم بالرتبة التي يتخرجون بها والراتب الذي كانوا يتقاضونه»[5].

وترى (الترقي)[6] عكس ذلك اذ تنظر الى هذه المدرسة على انها ستحقق درجات الرقي والمدنية فقد كتبت تقول:

«ليس بخاف ان مكتب العشائر دار السعادة العلية هو من اثر جلالة سلطاننا الاعظم، ومن مقترحاته البديعة التي لا تخطر على قريحة احد غير جلالته، وذلك من شدة اعتنائه على رعاياه وكثرة سهره وقمة استنباطه فيما يعود على جميع ممالكه بالراحة والرفاهية برفعهم الى درجات الترقي والمدنية».

ومن ضمن البعثات التي سيرت الى استانبول بعثة تضم خمسة طلبة من المتفوقين في مدرسة الفنون والصنائع اوفدوا الى المدارس المدنية لاستكمال تعليمهم المتخصص في مهن مختلفة، وقد سافرت هذه البعثة الى استانبول في 10 مايس 1325 مالية[7].

ويتضح من البعثات الرسمية أن اكثر هذه البعثات كانت موجهة الى استانبول، ولا نعثر الا على وثيقة واحدة بخصوص ارسال ثلاثة طلاب الى تونس للدراسة في جامع الزيتونة، وربما تكون اول بعثة رسمية في مجال التعليم الديني وقد سافر هؤلاء الطلبة في 25 تموز 1327 مالية[8].

والملاحظ على البعثات التي يغلب عليها الطابع الرسمي انها كانت ترمي الى استقطاب اعيان الولاية ليكونوا في صف الدولة العثمانية وخاصة في الفترة التي بدأت تتوالى فيها الانتفاضات الثورية في مختلف المناطق، وذلك في محاولة استمالة هؤلاء الاعيان وتهيئتهم للخضوع للخلافة العثمانية، وخاصة بعد رجوع ابنائهم وقد تشبعوا بحب الولاء للسلطة العثمانية وأصبحوا مؤهلين للقيام بدور فعال لنيل عطف وتأييد الشعب للسلطة، الا أن هذه البعثات لم تحقق الآمال المنوطة بها بسبب طابعها السياسي.

ونعتقد أن من الغايات التي كان يرى اليها السلطان بانشاء «مكتب العشائر» ضمان حصوله على رهائن من أبناء الزعماء والأعيان، مما يقيد حرية هؤلاء في الثورة على الدولة.

والبعثات التي ادت دورها على اكمل وجه كانت البعثات الخاصة التي كانت تشد الرحال الى الجامع الازهر وجامع الزيتونة لطلب العلم دون سواه، وعلى نفقة اصحابها، فهي البعثات التي اثمرت وأعطت النتائج الايجابية، وقدمت الى الوطن افكارا وعقولا ساهمت الى حد بعيد في انعاش الحياة الثقافية والعلمية، وكان بين افرادها من اشتغل بالصحافة والقضاء والافتاء، وتولى مناصب ادارية في غاية الاهمية.

الا أن البعثات الخاصة كانت كلها تدور في فلك التعليم الديني، وفي الوقت نفسه اهملت الجانب الآخر من التعليم فلم تقدم لنا هذه البعثات مهندسا أو طبيبا أو محاميا، ومرجع ذلك الى مكانة التعليم الديني والاجلال الذي يختص به علماء الدين، الذين يحظون بكل تقدير في المجتمع فكان الاهالي يحرصون كل الحرص أن يتلقى ابناؤهم تعليما دينيا.

1 ـ انظر ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 983.
2 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية ملف المعارف.
3 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 59 د تر. عبد السلام ادهم.
4 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 1021.
5 ـ التعليق على حاشية الوثيقة رقم (59 د).
6 ـ الترقي، العدد 22، السنة الاولى، 25 جمادي الاخر 1315هـ، 8 تشرين الثاني 1313 مالية.
7 ـ أرشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 224.
8 ـ أرشيف المحفوظات التاريخية وثيقة رقم 223.

# المبحث الرابع :

## المكتبات العامة وحركة النشر:

يتصل التعليم اتصالا عضويا بالمكتبات فهي تحدد الى حد بعيد نجاحه أو فشله من حيث هي مخزن المعرفة التي ينهل الطالب منها. ولذلك فان دراسة موضوع التعليم تتصل بأسباب كثيرة بدراسة المكتبات. والمتتبع لتاريخ المكتبات في ليبيا يجد انه تأسست في العهد القره مانلي ثلاث مكتبات قديمة ملحقة بالمدارس الدينية التي كانت قائمة في مدينة طرابلس، وأقدم هذه المكتبات هي التي تأسست في عهد عثمان باشا (1649–1662) لطلبة المدرسة الدينية، وكانت ملحقة بالمدرسة التي أسسها عثمان باشا. والثانية هي التي أنشأها احمد باشا القرهمانلي (1711–1745) وكانت ملحقة بمدرسته وجامعه الشهير[1].

أما الثالثة، فكانت اكثر شهرة وهي المكتبة التي اسسها «مصطفى خوجة» وألحقها بمدرسته المعروفة بمدرسة الكاتب، وقد تأسست سنة 1183 هـ[2].

### مكتبة الاوقاف:

وفي سنة 1316هـ–1898م اسست في ليبيا أول مكتبة عامة كانت نواتها المكتبات الثلاث السابقة، وأهمها مكتبة الكاتب، وقد جرى احتفال رسمي بمناسبة افتتاح هذه المكتبة العمومية، تبرع فيه الوالي وبعض العلماء ببعض الكتب أضيفت الى كتب المكتبات الثلاث، وقد غطت الصحف الصادرة في ذلك الوقت هذا الحدث الجليل ورحبت به كثيرا فكتبت (الترقي)[3] تقول:

«ذكرنا في العدد الماضي ما كان من الاحتفال بافتتاح المكتبة العمومية التي توفق لانشائها حضرة ملجأ ولايتنا السامي بما بذله من الهمة والحزم حيث اشترى لها كتب المرحوم المفتي السابق، وضم لها جميع الكتب الموقوفة بمدارس الولاية حفظا لها من الضياع.

وقد رأى حفظه الله تعالى أن يزيد في أهمية هذه المكتبة ويوصلها الى أعلا (كذا) درجات الكمال فتبرع عند افتتاحها هو وحضرة المشير كمال لكل منهما بمائة مجلد من نفائس الكتب قيد اسماءها لاجل أن يجلبها من دار السعادة العلية حيث لا توجد هنا، وقد اقتدى بهما في هذا السبيل الخيري كثير من حضرات العلماء الاعلام والامراء الكرام والوجهاء والاعيان، ولا غرو فالناس على دين ملوكهم، وقد رأينا أن تزين اعمدة هذه الصحيفة بذكرهم وهم:

| | |
|---|---|
| الشيخ عبد الرحمن افندي البوصيري | 20 كتابا |
| حسن بك قورجي | 20 كتابا |
| المفتي | 11 كتابا». |

ويوجد فهرست للمكتبة بارشيف المحفوظات التاريخية يحتوي على (42) صفحة يبدأ ترقيم

الصفحات من (2 وينتهي بـ43)، وقد سجل هذا الفهرست عند افتتاح المكتبة، وتحتوي هذه الصفحات على 513 كتابا مطبوعا و499 مخطوطة[4].

## مكتبة الجغبوب:

كانت بالجغبوب مكتبة عظيمة عندما كانت مركزا للدعوة السنوسية تحدث الحشائشي عن خزانة كتبها فقال:

«أما الكتب الموجودة بخزانتها فقد نيفت على الثمانية الاف مجلد من تفاسير وأحاديث وأصول وتوحيد وفقه وغير ذلك من كتب العلوم المعقولة وغير ذلك ولا يطبع كتاب باللغة العربية الا ويبحثون عنه ويظفرون به، فيوجد عندهم ديوان العلامة المفلق الشيخ سيدي محمود قابادو والشريف التونسي، وتاريخ الشاعر الاديب سيدي محمد الباجي المسعودي»[5].

والى جانب المكتبات العامة توجد العديد من المكتبات الخاصة، ورغم ندرة الكتب في تلك الحقبة وعدم انتشار المطبوعات، الا أن بيوتات السراة والوجهاء يقبلون على اقتناء الكتب ويتوارثون خزانة في الحائط أو صندوقا مليئا بالكتب الفقهية والادبية وقواميس اللغة وشروحها[6].

## المكتبات اليهودية:

وكان للجالية اليهودية في طرابلس عدة مكتبات خاصة وهي: مكتبة عدادي، ومكتبة ميمون، والربي يوسف، وانجيلو اربيب، ودار سويد وهي تبين مدى حرص اليهود على نشر تراثهم وتعاليمهم بين الاوساط الشعبية اليهودية والمحافظة على تراثهم من الضياع[7].

## حركة النشر:

أما حركة النشر فكانت ضئيلة جدا، اذا استثنينا الجرائد التي كانت تصدر في طرابلس، فلا نجد كتابا واحدا مطبوعا في ليبيا، وهناك عدة كتب طبعها مؤلفوها الطرابلسيون في القاهرة منها ديوان مصطفى بن زكري وما نشره سليمان الباروني من كتب الاباضية[8].

هوامش

1 ـ Mario SCAPARRO (Biblioteca della Tripolitania).
2 ـ علي مصطفى المصراتي (لمحات أدبية عن ليبيا) ط 1 1956 طرابلس ص 37.
3 ـ الترقي، العدد 64، السنة الثانية، 12 رجب 1316هـ، 13 تشرين الثاني 1314 مالية.
4 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية وثيقة بدون رقم وبدون تاريخ.
5 ـ رحلة الحشائشي الى ليبيا مرجع سابق ص 151–152.
6 ـ علي مصطفى المصراتي، ديوان احمد الشارف، مرجع سابق ص 13.
7 ـ انظر Mario SCAPARRO (Biblioteca della Tripolitania).
8 ـ احمد صدقي الدجاني مرجع سابق ص 289.

## المبحث الخامس:

# الاخفاق في سياسة التعليم:

رأينا فيما سبق أن الادارة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب قامت بفتح العديد من المدارس التي سمتها مدارس عصرية، وفي سنواتها الاخيرة ـ قبل الاحتلال الايطالي ـ اعدت خطة شاملة لانشاء مدارس اخرى تصل حتى منطقة جبل تيبستي، وغات في الجنوب الليبي، الى جانب العشرات من المدارس التي قام الاهالي بتشييدها، وأسست الى جانب ذلك ادارة خاصة ترعى شؤون التعليم وتهتم به، كونت مجلسا للتعليم العمومي يرأسه في بعض الاحيان الوالي وأوفدت العديد من التلاميذ لاستكمال تعليمهم التخصصي في بلاد مختلفة الا أن التعليم ظل جامدا عقيما ولم يمسه التطور الا في بعض ملامحه الظاهرية اذا استثنينا هذا العدد القليل من المدارس التي تم الاعلان عن فتحها، وهي عبارة عن بيوت مؤجرة وضيقة أعدت اساسا للسكنى، وقد وصفت جريدة المرصاد في احد اعدادها حال المدارس في طرابلس والتي تفتقر الى أبسط القواعد الصحية الواجب توفرها في المدرسة... ولعل المدرسة النموذجية الوحيدة التي قامت ادارة الولاية ببنائها وفق الأسس الحديثة، هي مدرسة الفنون والصنائع، والتي لحقها الاهمال أيضا من الناحية الادارية والتعليمية، وكل الدلائل تشير الى أن سياسة التعليم أخفقت كل الاخفاق في النهوض بالمجتمع، والقضاء على الجهل ويرجع ذلك الى عدة اسباب أهمها:

= نقص المدرسين، حيث لم تتمكن ادارة المعارف من ايجاد المدرسين وخاصة في الدواخل، وقد تكررت شكاوى الاهالي من تقصير ادارة المعارف في الايفاء بحاجتهم من المدرسين للمدارس التي قاموا ببنائها ـ انظر وثيقة رقم 875 في هذا الفصل الموجهة الى الوالي من أهالي غدامس.

= رغم أن موازنة ادارة المعارف من تبرعات الاهالي، ومن بعض الضرائب التي خصصت لبعض المدارس، ورغم انه تم تأسيس مجلس للمعارف لجمع التبرعات، الا أن أوجه صرف الموازنة كانت في غير محلها، وتصرف على ادارة عقيمة لا فائدة منها وحاولت (الترقي)[1] أن تنبه المسؤولين والرأي العام الى هذا الفساد فكتبت مقالا تحت عنوان (سعادتنا بالعلم) جاء فيه:

«اما ترى الامة تدفع من شرايين حياتها مبلغا عظيما باسم المعارف ولا يسألون عنه، ولا في أي شيء يصرف هذا المال، نعم هذه الحال تؤلمنا وتؤلم من كان له احساس شريف نحو وطنه وامته حالما يرى اموالها تنفق على غير طائل، نعم تنفق على اسم عديم الجسم هو المعارف، لاننا اذا فسرنا كلمة المعارف، لا نجد الا أن الحكومة فتحت دائرة اسمها دائرة المعارف وجلبت لها مديرا، وأصبحت تنفق عليه مرتبا شهريا قدره 3000 قرش أما يحاسبنا الله

على بذر الأموال، وخصوصا اذا لم نتداركها بالتي هي انفع لنا حيث سنان اللسان ومقاطع الاقلام حاضرة لقول الحق طبقا للقانون الاساسي، نعم يجب علينا وجوبا أن نعمل طريقة لامر المعارف، ولا شك بأن الطريقة الموصلة الى رغائبنا هي مطالب الجمعية الوطنية، اذ تعرف الحكومة المنتظرة من الامة مثل هذه الطلبات والاقتراحات العالية الموجبة لسعادتها الموضوع المهم تبحث فيه عن تأسيس المكاتب الدينية الابتدائية، ابتداء من غات وهكذا الى كل الملحقات، واذا سألونا عن المصارف فذلك امر سهل جدا، يجب على دائرة المعارف ان تضيف 2000 قرش شهريا زيادة على ميزانيتها وتضم عليها ايضا معاش مدير المعارف فيبقى عندنا 5000 قرش شهريا واظن هذا القدر يكفي تأسيس مكاتب ابتدائية بالملحقات لتستوعب مئات الطلبة».

الى جانب هذا التسيب في الامور المالية كان المسؤولون في المتصرفيات في اكثر الاحيان يتقاعسون عن ارسال الاموال التي تجبى من الاهالي والمخصصة للتعليم. فتحت عنوان (النصيحة قبل الفضيحة) وجهت (المرصاد)[2] خطابها الى متصرف لواء الخمس الذي رفض اوامر الولاية في ارسال اموال مكتب الفنون والصنائع فقالت:

«اليك يا متصرف لواء الخمس نصيحتنا قبل ان نفضحك فتصبح من النادمين وهذه نصيحتنا بأن تتبع النظام وقبول اوامر الولاية العادلة والاسراع في ارسال اموال مكتب الفنون والصنائع من البلديات ودع عنك غيك وعنادك واسلك سبيل رشادك الذي به سميت ومن اجله اعطيت».

= البعثات التعليمية كانت جميعها من نصيب أبناء رجال الحكم وأغلبهم من الاتراك الذين يفضلون العمل في استانبول بعد تخرجهم اذا إستثنينا أبناء الليبيين الذين يوفدون الى مدرسة العشيرة وهم أيضا من أبناء زعماء القبائل والاعيان وفي الوقت نفسه عددهم قليل جدا ـ أربعة تلاميذ في السنة ـ ويربون تربية عثمانية لا تعود على المجتمع بالنفع، وخاصة انهم يتخرجون ضباطا في الجيش التركي موالين للسلطة العثمانية. اما نصيب المواطن العادي من هذه البعثات فكان معدوماً.

اما البعثات الخاصة فكانت لأبناء الأثرياء القادرين على مواجهة مصاريف تعليم أبنائهم، وعلى كل حال فان هذه البعثات قدمت نتائج ملموسة للمجتمع تتمثل في العدد الكبير من العلماء والمثقفين والأدباء والصحافيين الذين تولوا الكثير من المناصب الادارية.

= كان العدد الذي تقبله المدارس من التلاميذ قليلاً جداً بالمقارنة الى عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة، والى حاجة البلد الى المتخصصين، فعلى سبيل المثال، لم يقبل

المكتب الاعدادي الليلي الا (30) طالبا والعدد الذي يمكن أن تستوعبه دار المعلمين وبشكل مكتظ (50) طالبا.

= وخلال المسيرة التعليمية في العهد العثماني الثاني لم يطبع كتاب واحد في ليبيا. وبناء الاجيال عن طريق المدارس وبدون كتب امر لا يتصوره احد في العصر الحديث. وحتى وان كانت هناك كتب فكانت تطبع في استانبول وفق المناهج الموجهة للاتراك.

= وفي محاولة تقديم الغلاج الناجع للامور التي آلت اليها المعارف فقد رفع (محمود ناجي بن حسن) مبعوث طرابلس الى مجلس المبعوثان مذكرة مطولة عن الاوضاع المتردية في الولاية تتضمن مطالب الشعب لاصلاح حال الولاية، وحصرت في 33 مطلبا خصص أربعة منها للتعليم وهي:

27 ـ تأسيس مكتب للزراعة.

28 ـ اصلاح وتعديل جدول دروس مكتب العرفان بصورة تفوق المكاتب الاجنبية بالولاية، وايصاله الى درجة مدرسة قريبة من المكتب السلطاني.

29 ـ تكثير المكاتب الابتدائية واصلاح الموجودة.

30 ـ اصلاح ما يسمى بالكتاتيب والمدارس على حسب الاصول الحاضرة بمصر وتونس[3].

كما أن ملف مجلس المبعوثان في أرشيف المحفوظات التاريخية يضم من بين وثائقه الخطاب الذي ألقاه صادق بك وناجي بك في جلسة 27 كانون أول 1326 هـ وقد وضح ناجي بك الحالة السيئة التي يعيشها مرفق التعليم في ولاية طرابلس الغرب، وفيه ابلغ وصف للحالة العامة التي كانت تعيشها بلادنا قبيل الغزو. وقد ورد في كلمة «المعارف» لناجي بك وهو يشمل عرضا تفصيليا مدققا ومدعما بالارقام والبيانات كما انه يقدم الى حد بعيد الحلول التي يمكن أن تنقل البلاد اذا ما اخذ بها. ولذلك فاننا نورد فقرات مطولة من هذا الخطاب على طوله وبه نختم هذا الفصل، فليس هناك من استطاع أن يرسم مثل هذه الصورة للتردي الذي وصلت اليه بلادنا من الناحية التعليمية والتوجيهية في الوقت الذي كان الاعداء يعدون كل عددهم لغزو البلاد.

هو ذا نص الخطاب وموضوعه (المعارف).

«ان ولايتنا اليوم في حالة النزع، وبتعبير أوضح فان حياة ولايتنا الاقتصادية اليوم تحت تصرف ايطاليا.

يجب أن تقتنعوا أيها الاخوان تمام القناعة بذلك. ان حكومتنا متغافلة جدا تلقاء هذه الحالة المؤسفة والاهالي في بأس شديد.

ان ايضاح وتفصيل نفوذ الاجانب يرجع بعضه الى باقي النظارات فلذا أريد أن اتكلم اليوم عن السبب المهم الذي ساعد على توسع ذلك النفوذ وهو المعارف، وأعلق ايضاح الباقي على ما استقدمه من الاستيضاحات في جميع الاحوال العمومية لولايتنا. ان لايطاليا اليوم 12 مكتبا منها اثنان اعداديان والباقي ابتدائية. وتلقاء هذا لم تفتح نظارة معارفنا في دور المشروطية ولو مكتبا واحدا ان المكاتب

الموجودة بولايتنا أربعة ومعاش معلميها جزئي فلا يصح أن تسمى مكاتب فالملة الموسوية البالغ عددها نحو (30) ألفا جميع اولادها يتعلمون بالمدارس الايطالية لانتظامها. فبالطبع أن اولئك الطلبة يتربون على ميل مخل لعواطفهم العثمانية، وأقدر أن أمنيكم بأنه يوجد من (20) الى (30) ألف موسوي هم اليوم قد حضروا مساعيهم لخدمة آمال ايطاليا فأولاد المسلمين هم في حالة السفالة لعدم وجود المكاتب الامر الذي اوجب التحسر حتى من غيرنا. ان نظارة معارفنا فضلا عن كونها لم تحدث مكاتب لرقابة هذه المكاتب الاجنبية فانها لم تهتم باصلاح الموجود منها، اذ ادارة معارف الولاية مهتمة بتشكيل دائرة (فقط) فنظارة معارفنا شكلت دائرة من الصنف الاول لأجل أربعة مكاتب (اسمية) وتريد ان تعين مفتشا بمعاش 2500 قرش ولاجل 17 مكتبا ابتدائيا تريد أن تعين خمسة مفتشين فهذه الدائرة والمأمورين أي المكاتب تريد ان تدير؟

فالمعارف بدل احداث المكاتب ترتب الدوائر. فلم ادر هل ان القصد من المعارف هو تشكيل الدوائر او فتح وايجاد المكاتب انى لفي حيرة من هذه النظارة.

انه بسبب المكاتب الايطالية قد صار نحو 20 ألفا من النفوس يتكلمون باللسان الايطالي، واخذوا يتركون اللسان المحلي ومقابل ذلك لا يوجد حتى 200 نفس من مليون ونصف يتكلمون اللسان العثماني، وهذه الحال ناشيء (كذا) من قلة المكاتب والمقابلة بين انتظام مكاتبنا والمكاتب الايطالية موجب للبكاء. ونحن لم نتأخر منذ ثلاث سنوات عن عرض ذلك عن انظار الحكومة، حتى اننا في الاجتماع قدمنا لائحة مفصلة بينا فيها حالة معارف ولايتنا (ولعلكم تذكرون ذلك جميعا) وأحيلت من هنا الى نظارة المعارف ولكن مع الأسف لم تهتم بها وفي السنة الماضية بيّنا حالة ولايتنا تماما لجناب ناظر المعارف الحالي اثناء تدقيق الموازنة وقد اشترك معنا بعض الاخوان في لجنة الموازنة واستلفتوا لذلك انظار حضرة الناظر، ولكن مع الأسف ناظرنا لم يلتفت لذلك ولم يصرف أدنى اهتمام، وقد وعد بأن يؤسس بولايتنا احد المكاتب التسعة السلطانية التي اذن ببنائها وصرح بذلك في لجنة الموازنة [......](*).

هذا المجلس العالي وقد بعث برسالة برقية الى الولاية ويشعرها بذلك ويطلب تهيئة محل له بالأمر الذي أوجب سرور الأهالي حتى ان (15) طالبا كانوا عازمين على الحضور معنا الى دار السعادة لاكمال تحصيلهم فتأخروا منتظرين افتتاح هذا المكتب، وأخيرا نقلت النظارة هذا المكتب الى ولاية أخرى.

ان نظارة المعارف اعلنت سابقا بكمال الافتخار انها فتحت بما أخذته من زيادة المخصصات 160 مكتبا رشديا و20 مكتبا اعداديا، ولكن مع الأسف لم يكن

(*) خرم في الاصل.

لولايتنا نصيب منها وقد نالت خمسة ملايين قروش زيادة في مخصصات المكاتب الابتدائية، ولم يكن أيضا منها شيء لولايتنا، ولا ندري ماذا نقول تلقاء عدم اهتمام النظارة بولايتنا فأترك هذا لحميتكم فان كان شخص حضرة النظار محترماً لديكم فحقوق مليون ونصف من المسلمين لابد وأن تكون محترمة أيضا لديكم.
نحن لا نريد أن تؤسس لنا مكاتب زيادة عن الولايات الاخرى لرقابة المكاتب الاجنبية وانما نريد مساواتنا في الحقوق في درجة معقولة، فنحن نطلب حقنا مبينا على قيودات رسمية، ان لنظارة المعارف 800 مكتب رشدي و120 مكتبا اعداديا، والولايات العثمانية عبارة عن (30) ولاية فيقتدي أن يكون بولايتنا (25) مكتبا رشديا، فماذا عندنا منها؟ ليس لدينا الان الا مكتبان.. فانصفونا..
ومع ذلك فان هذين المكتبين هما في حكم المعطل منذ زمان لان مرتبات معلميها هي (600) قرش وأي معلم مقتدر يرضى بهذا المرتب الزهيد في تلك البلاد القاسية؟
ويقتضي أن يكون قسطنا من المكاتب الاعدادية أربعة حال كونه ليس في ولايتنا الا مكتبا واحدا (كذا)، وهو ايضا منذ خمس سنوات يدار بصفة نهاري ومرتبات معلميه زهيدة فكان في حالة مظلمة حتى أن موجوده اليوم يتراوح بين العشرين الى 30 طالباً».

وأضاف المبعوث «صادق» بيانات جديدة الى ذلك فقال:

«ان اعطاء ايضاحات اكثر مما بسطه ناجي بك اراه زائدا، الا ان هنالك جهة اخرى اريد ايضاحها وهي ان ناظر خارجية ايطاليا كان قد قال كلمة اكررها هنا وهي (اننا لا نريد أن تبقى ولاية طرابلس الغرب منحطة بين ولايتين راقيتين هما تونس ومصر) هذه الجملة هي حقيقة ولكن من الواجب على الدولة ان تتنبه وتعمم المكاتب في ولايتنا فانها ان لم تهتم بما يرقي هذه الولاية المحتوية على مليون ونصف نفوس فان العاقبة تكون وخيمة وتكون حياة الولاية، قصيرة.
ايها السادة قايسوا بين الاهمال وبين مساعي ايطاليا وغيرها واعتبروا ذلك ثم ان شئتم افتحوا مكاتب وان شئتم لا تفتحوا»[4].

وفي المجلس الاستشاري التركي الذي تكون أخيرا فيما يتعلق بأمر ليبيا من الناحية الثقافية والتعليمية، تحدث «نجدي بي» المندوب بالمجلس في معرض وصفه لما آلت اليه الأمور في ليبيا فقال:

«يجب الا يكون لديكم شك بأن الايطاليين قد استولوا على طرابلس، وأننا الان نجتاز مرحلة خطيرة في حياتنا بتلك الولاية وأرجو أن تدعوني أن اركز كلامي على الاعمال العامة والمشاريع التي لدينا فالايطاليون لهم من المدارس الحديثة ما يكفي أبناء جاليتهم بينما لم تعرف حكومتنا حتى كيف تبني مدرسة واحدة، وكان جل

همها منصبا على تخطيط المدارس على الورق، اما الايطاليون فقد أسسوا مدارس لتدريس أبناء ثلاثين ألف ايطالي، وربحوا حتى الان العشرين ألف يهودي الموجودين هناك فيما يعيش مليون ونصف من شعبنا محروما من المعرفة والتعليم، وبدلا من أن نبني لهم المدارس نرى أنفسنا مشغولين فقط بالكلام والتخطيط لها وهميا وليس لنا الا أربع مدارس مغلقة لأنها لم تحصل على المادة ولا المدرسين. أيها الزملاء ان قارنتم وضعنا بوضع الايطاليين فانكم ستبكون ـ ولم يكمل كلامه[5].

★ ★ ★

ولكي نستكمل صورة الوجه الحضاري الذي كانت تعيشه بلادنا في مطلع القرن العشرين وقبيل الغزو الايطالي سنتوقف قليلا امام النشاطات الثقافية الاخرى التي كانت تعيشها بلادنا آنذاك ونقصد بذلك النشاط الأدبي وسنكتفي بالأدب المكتوب بالفصحى.

ففي التعرف عليها اتمام لجوانب هذه الصورة.

**هوامش**

1 ـ الترقي عدد 97، 7 صفر 1326هـ / 14 شباط 1324 مالية.

2 ـ المرصاد (عدد 14)، 12 محرم 1329هـ / 30 كانون أول 1326 مالية.

3 ـ انظر الترقي (العدد 85) 4 ذي القعدة 1326هـ / 15 تشرين الثاني 1324 مالية.

4 ـ نشرت الترقي ترجمة الخطابين في عددها (174) بتاريخ 3 صفر 1329هـ / 20 كانون أول 1326 مالية: وقد ألقى الخطابان باللغة التركية اذ كان يشترط لمن يكون عضوا في مجلس المبعوثان أن يجيد اللغة التركية اجادة تامة.

5 ـ منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق، ص 42.

# الفصل الرابع

## الادب



## المبحث الاول :

## بوادر اليقظة العربية وتأثيرها على الادب العربي في ليبيا :

يتفق النقاد ومؤرخو الادب العربي على أن الأدب العربي شهد خلال مرحلة الحكم العثماني بطولها فترة ركود وجمود ونكوص الى الوراء لم يتعرض لها في حياته بطولها، وقد شملت هذه الظاهرة مختلف الاراضي العربية في المشرق والمغرب وهو ما يسري على الادب الليبي كجزء من الادب العربي.

وهكذا لا نلمح في هذا العصر الذي امتد ظلامه الدامس زمنا طويلا، الا محاولات تافهة، وابتعادا كاملا وانحرافا تاما عن تقاليد القصيدة العربية وعن التراث الشعري الذي انتجته عصور الازدهار.

تجاوب الشعر مع الجمود العام الذي سيطر على كافة ميادين الحياة الفكرية فكان من الطبيعي أن يأتي «تافها سخيفا لا ينبض فيه شعور ولا يتألق فيه فكر فارغ المضمون، صعب الشكل، يزخر بالمحسنات البديعية، والبهرجة اللفظية التي لجأ اليها الشعراء، وسيلة رخيصة لتغطية العجز في التعبير عن اعماق النفوس»[1].

فالادب السائد آنئذ ـ كما يقول ـ ميخائيل نعيمة :

«كان في الغالب ادب القصيدة، وأدب للمقالة، الشاعر الشاعر، والناثر الناثر، من نظم الكثير ونثر الكثير بأقل ما يمكن من الهفوات اللغوية والعروضية ومن غير أن يقول شيئا حريا بالقول.

ولقد كان الفكر مغلقا، والذوق آسنا، والارادة الخلاقة مشلولة، فما يجرؤ شاعر أن يحيد في القصيدة الواحدة عن الروي الواحد، ولا أن يتخطى الابواب التي طرقها الشعراء العرب منذ اقدم الازمنة من فخر وحماسة، ومدح وهجاء، وغزل ورثاء وما اليها، ولا أن ينوع في الاسلوب والهندسة، فالفخر والحماسة والمدح مغالاة يمجها الذوق السليم ويعافها القلب الصادق، والهجاء قدح وشتيمة ونميمة والرثاء تفجع بغير عظة، وبكاء بغير دموع والغزل وصال وصد، وعتاب وشكوى وأكباد حرّى، وجفان مقرحة وسهاد وقتاد، وخدود ونهود الى آخر مفاتن الحب ومتاعبه، كما تراها عين بدوي ويحسها قلب صحراوي»[2].

ومع منتصف القرن التاسع عشر، واطلالة القرن العشرين، بدأت اليقظة القومية الشاملة

تحفز الجماهير الى النهوض من سبات القرون الطويلة التي عاشتها في جهل مستمر، فقدت فيها اتصالها بتراثها وقيمها، ومنغلقة على كل تجديد فكري. وحملت هذه اليقظة بواكير التيارات الفكرية التي تجمع المثقفين في فئات متميزة حسب اصولهم الاجتماعية، واتجاهاتهم السياسية والثقافية. بدأت كل جماعة تنظر الى نفسها ضمن اطار ثقافي سياسي محدد، اذ ربط المثقفون المسيحيون، الذي وجهوا في قوة نحو الثقافة الاوربية، والقيم الاوربية، انفسهم بقيم البورجوازية الاوربية، في حين اعتبر المثقفون المسلمون محافظين كانوا أم اصلاحيين ام علمانيين انفسهم معارضين للثقافة الاوربية والسيطرة الاوربية[3].

كان ميلاد هذه اليقظة في العام 1847م عندما اسس (ناصيف اليازجي) و(بطرس البستاني) ـ من المثقفين المسيحيين ـ دعائم يقظة عربية ادبية تمثلت في جمعية «الآداب والعلوم»، كان من بين اعضائها جماعة من المبشرين الامريكان والانجليز، وبعد عامين من تأسيسها بلغ عدد اعضائها مائة وخمسين عضوا لم يكن من بينهم مسلم واحد، ولكن هذه الجمعية لم تعمر طويلا وسرعان ما اجهضت قبل ان تجني ثمارها، وبعد عشر سنوات اسسا جمعية ثانية تضم عددا اكبر من الاعضاء جلهم من العرب وكان من بينهم عدد من المسلمين منهم (محمد ارسلان) و(حسين بيهم)، وحاولت هذه الجمعية أن تحافظ على كيان الادب العربي واللغة العربية، وأن تتخلص من التكلف والرطانة التي لحقت بالتراث الادبي، وكان من اهداف الجمعية العناية بالعلوم الحديثة، وأن تكون الغاية من تلك الجهود رفع مستوى المعرفة بين الشبان الكبار عن طريق اتصالهم بالثقافة الغربية[4].

وكان للمثقفين المسلمين دور مهم في اليقظة العربية ايضا، اذ استمروا بافكار (جمال الدين الافغاني) التي تهدف الى رفع الشعوب الاسلامية الى مستوى الشعوب الحرة المتقدمة عن طريق نشر التعليم نشرا واسعا، وتطبيق الدين الاسلامي تطبيقا يلائم مقتضيات العصر، وكان يعتقد أنه لا بد من الثورة لتحقيق هذا الهدف، وكان يريد أن يرى البلاد الاسلامية متحررة من السيادة الاجنبية[5]. وجاء من بعده (محمد عبده) الذي استعمل تعاليم الافغاني كنقطة انطلاق، وأعطى هذا الاتجاه صيغته المحددة، ورسم اربع مراحل رئيسة لعملية الانبعاث[6]. تتمثل في تحرير العقل من قيود التقليد، والفهم السليم للدين مع التشديد يقود الى القوة والفضيلة، وأن السلطة النهائية في كل ما يتعلق بالعقيدة الدينية لا تكمن في المذاهب أو رجال الدين بل في القرآن والسنة، ثم وضع المرحلة الرابعة فكانت، وضع فئات عقلانية للتفسيرات أي «لدراسة الحقيقة الدينية عقلانيا» وتركز اهتمامه فيما بعد وكذلك اهتمام تلاميذه على القضاء على النماذج الجاهزة للتفكير القائم على التقليد[7].

وكانت الاندية الادبية النوع الثالث من هذه الجماعات، وبالرغم من أن النادي الادبي كان اكثر تنظيما من الناحية الرسمية، الا انه كان اقل تماسكا من الحلقات والدوريات، واستخدم في الدرجة الاولى كمركز للقاءات الاجتماعية والمناقشات الادبية، وبعد الاطاحة بعبد الحميد 1908 اصبحت هذه الاندية اكثر اهتماما بالسياسة، وأصبحت ارضا لتوليد التحريض القومي[8].

وقد انعكست هذه التيارات على الادب العربي انعكاسا ملحوظا كان من نتاجه العديد من المدارس الشعرية منها :

### المدرسة التقليدية الحديثة :

التي تمثل العودة الى التراث العربي الاصيل، وتجديد انماطه الشعرية التي فسدت كثيرا وانقطعت صلاتها بالشعر العربي في عصو ازدهاره، ولم تعلن هذه المدرسة أية ثورة على جوهر ومضمون القصيدة العربية في نهجها القديم، وكان من روادها (محمود سامي البارودي) و(احمد شوقي) و(معروف الرصافي) و(جميل الزهاوي)، ومن الملاحظ على هذه المدرسة أن شخصية الشاعر لا تظهر فيما ينظمه من قصائد.

أما الدور الذي قامت به فهو تحرير الشعر من الصناعات اللفظية والمحسنات الزائفة، وأعطته اشراقة، وهي التي خلصته من البهرج الزائف ووضعت اللبنة الاولى في اتصاله بالمجتمع والحياة، وبالطبع فقد ظلت تقاليد القصيدة العربية ثابتة لم تتغير، وهي ماثلة في وحدة البيت والوزن والقافية[9]. وحاولت أيضا أن تطور القصيدة العربية، وتخلصت من استهلالها بالغزل التقليدي، وأصبحت متماسكة البنيان، أما المديح والرثاء والنسيب فلم يطرأ عليها جميعا تغيير، فقد كانت النماذج القديمة طاغية على ذهنية الشعراء التقليديين.

### مدرسة الديوان :

وفي غياب شخصية الشاعر في المدرسة التقليدية الحديثة أكدت مدرسة الديوان على ابراز هذه الشخصية في القصيدة بدلا من اهمالها واغفالها جريا وراء اللفظ والتحسين المنمق الزائد ونادت ببناء القصيدة ووحدتها الفنية والموضوعية، ويقول (العقاد) وهو من روادها.

> «ان القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع، أو اذا تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها.
> فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم فيها مقام جهاز من أجهزته»[10].

ولم تحاول هذه المدرسة التحرر من الوزن او القافية بل ظلت تنظم ضمن الاطار القديم للقصيدة العربية وان عمقت معناها بوصف الخلجات النفسية والتأملات الفكرية.

### مدرسة المهجر:

وعلى نقيض هاتين المدرستين قامت مدرسة المهجر والتي كانت نتاج ثورة (الرابطة القلمية) والتي وصفها ميخائيل نعيمة بقوله :

> «لقد كان من ثورة «الرابطة القلمية» على التقليد أن خلقت ادبا انسانيا شاملا، وخلفت شعرا لا اثر فيه للفخر والحماسة والهجاء والتسكع في المدح والتفجع

الكاذب في الرثاء، أما الغزل فقد اقلعت فيه عن اساليب القدامى أما القوالب الشعرية فقد زاوجت فيها ما بين البحور الكاملة ومجزوئها، والبحور التي تدانيها في جرسها ونوعت القوافي فقسمت القصيدة الواحدة الى مقاطع، جاعلة لكل مقطع قافية غير التي للذي قبله او بعده، ومن ثم فقد ربطت القصيدة من اولها الى آخرها بفكرة واحدة أو قصد واحد بحيث لا تبدو مفككة الاوصال عديمة الانسجام وذلك مع الافتتان في تبديل الصور وتلوينها، وفي تزاوج الانغام وتنويعها»[11].

ويتضح أن التجديد المهجري تناول المضمون والصياغة، فقد تخلصت الصياغة من كل الاساليب القديمة وجعلت القيم الانسانية مبدأ في القصيدة مع التنوع في الاوزان والقوافي، وقد تأثرت الى حد كبير بأوزان الموشحات الاندلسية وأحدثت ثورة على الاغراض الشعرية القديمة.

ثم استمر التجديد والتطوير في الشعر العربي وتمثل في مدرسة (ابوللو) والشعر المنثور، الا أن هذا الاخير تأخر بعض الشيء عن المرحلة التي ندرسها الآن.

**هوامش**

1 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) ط 3 1976 ص 13، 14.
2 ـ ميخائيل نعيمة (الغربال الجديد) مؤسسة نوفل، بيرت 1972 ص 93-94.
3 ـ د. هشام شرابي (المثقفون العرب والغرب) دار النهار للنشر بيروت 1972 ص 16-17.
4 ـ جورج انطونيوس مرجع سابق، (بتصرف).
5 ـ المرجع السابق.
6 ـ د. هشام شرابي، مرجع سابق ص 47.
7 ـ المرجع السابق (بتصرف).
8 ـ المرجع السابق (بتصرف).
9 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 18.
10 ـ المرجع السابق ص 21.
11 ـ ميخائيل نعيمة مرجع سابق ص 95.

## المبحث الثاني :

## تطور الأدب العربي في ليبيا :

والادب العربي في ليبيا لم ينفصل انفصالا تاما عن الاوضاع التي سبق ذكرها على الاقل من الناحية السياسية والاجتماعية التي ظلت تحت السيادة العثمانية، والتي اكسبت الادب العربي بعض الخصائص التي تتشابه الى حد كبير في كل الاقطار العربية التي كانت تحت هذه السيادة، ثم ان الادب في ليبيا لم يكن بمعقل عن الاتجاهات السياسية في فترة النمو القومي الذي اخذ يتزايد بفعل الاحداث المستجدة على رقعة الوطن العربي، حتى وان كان هذا التجاوب ضئيلا وبالقدر الذي لم يسمح له بالانطلاق نحو رحاب اوسع، وعلى كل حال فان تطور الادب العربي في ليبيا يرتبط كل الارتباط بالتطور العام في عصوره الحديثة وعلى الرغم مما يبدو من ضعف الصلة الادبية بين الادب الليبي الذي ظهر في اواخر القرن الماضي وبداية القرن الحاضر وبين الادب في البلدان العربية[1] فقد كان انعكاسا للحياة الاجتماعية والسياسية وقد مرت ايام العهد التركي بالمحنة التي تعرض لها في بقية البلدان العربية اذ تركت فيه هذه المحنة بصماتها ونفثت في كيانه ما جعله ينزوي في الركود الذي أمات كل نبضة من نبضات الخلق الفني، وأخمد كل ومضة من ومضات الابداع الادبي، وحال دون جنوح الخيال وانطلاق الفكر الى آفاق التأمل والتعمق فكانت الاغراض الشعرية التي عالجها شعراء هذه المرحلة هي نفسها التي تتردد على الالسنة في بقية الحواضر العربية من مدح أو مداعبات أو وصف مبتذل الى غير ذلك، وكانت اساليبها تمثل منتهى الركاكة والاسفاف والتصنع[2] ولا يزال الشعب الليبي يحتفر له معالم وسمات، لم تتبلور بعد، كذلك لم يتخذ له هيكلا واضح البنيان، كما انه لم يفتح آفاقا جديدة، بحيث يُفرد له اثر في تطور الادب العربي المعاصر وان مرد ذلك الى الاغلال التي تكبله[3].

ولقد غلب على الشعور الليبي نفس الاساليب التي كانت سائدة في المشرق العربي، ويقول المصراتي :

«كان المستوى الثقافي محدودا والادب له مناخه التقليدي والدراسات ذات

المناهج تستمد بحوثها من كتب الشروح والحواشي والمنقولات، ومن تلك الدراسات، كان الشعب يستمد شرايين الثقافة، وطابعها الفقه واللغة والفلسفة، وما يتصل بذلك، ونشأ الادب في ظل هذه الدراسات عن طريق حفظ الشعر ورواية أبيات الشواهد ودراسة ما في اللغة من طرائف ومعان، وما في كتب البلاغة القديمة من اساليب وتشبيهات واستعارات وكنايات وان كانت المواضيع محدودة مقيدة مكررة، فالاسلوب أيضا كان يدور في اطار التقليد حدث كل هذا نتيجة ركود الفكر الخلاق عهودا طوالا، وعشرات القراء كانوا ينظمون، ولو قرأت ما نظموا لما طربت اذنك، ولا اهتزت نفسك، لان ومضات الاحساس الفني كانت مفقودة في اكثر ما ينتج هؤلاء»[4].

وهكذا نرى أن هذا اللون من الشعر يتفق في طابعه مع الالوان التي وجدت في البلدان العربية، من حيث الاغراض والاسلوب، فقد كان الاسلوب ضعيفا يتلمس طريقه بالقوة وهزيلا يبحث عن السلامة ومتانة التركيب، والاغراض كانت محدودة في المسرح وفي الغزل الصناعي الركيك[5].

من هنا يمكن القول بأن الادب العربي في ليبيا في مرحلته الاولى قد مر بنفس الظروف التي مر بها الادب العربي، فكان مقلدا للقوالب الشعرية التي نسجها القدماء، مع المحافظة على النماذج الادبية نفسها التي كان يأتي بها شعراء عصور التخلف والانحطاط الذين يجدون في البحث على الصياغات اللفظية الخالية من المعاني مع ركاكة في الاسلوب الذي يفتقر الى الرصانة والقوة، وكان الشاعر يحرص كل الحرص على التشطير والتخميس والتضمين، ويجهد ذهنه وراء المحسنات البديعية والتوليدات، وبشكل عام نجد الاتجاهات الادبية الشعبية في ليبيا هي نفس الاتجاهات في مصر وسوريا والعراق وتونس. رغم انه كان هناك نوع من الشغف بالادب ورغبة في قرض الشعر، وممارسة النظم، وان كان الادب آنذاك وفي المدارس بالمدينة والدواخل أشبه ما يكون بالتقليد والاجترار، ولم يدرس الادب كفن مستقل له حيثياته ومقوماته، وطابعه ودلالته بل هو في ترتيب مواده وعند شيوخ الدراسة شيء اضافي، وهو امر متروك للهواية والسير على غير منهاج شيء متوقف او مرتبط بالمطالعة الحرة. ومن هنا كان الاديب في كل الاحايين يترك امره لنفسه اولا لا مقوم ولا سند[6].

وبدأت ملامح النهضة الادبية تلوح في اواخر القرن التاسع عشر الا أن هذه النهضة تأخرت بعض الشيء عن النهضة الادبية في المشرق العربي، وأخذ التاريخ يسجل شيئا من الصفحات القليلة يرصد فيها هذه الحركة ويتابع خطواتها[7].

وطلع في أواخر هذا القرن شعراء احتفظوا بقوتهم في زمنهم واحتفظوا بشيء من التوازن رغم زحام الحياة، وبرزت ملامح في موكب الشعر، ودنيا الادب امثال (بن زكري) و(شتوان) و(الشارف)[8].

كان هذا التطور نتيجة للنشاط الديني الذي تركته الحركة السنوسية التي صاحبتها اقامة بيئة ادبية، والاشعاع الذي كان ينبعث في القرن الماضي بفضل المعهد الجغبوبي وفروعه والذي كان

دينيا أكثر منه كونه اديبا، اذ أن تلاميذه يرون أن الادب الذي لا يتصل بالدين والخلق لا يجب أن ينهل منه[9] وتحقق مع الحركة السنوسية والمدارس الدينية معنى انفتاح البيئات الاسلامية على بعضها بفضل العلماء الذين تجمعوا حولها ووفدوا اليها من مختلف الديار، وبواقع الخصائص الفنية التي تتشابه فيها مع المدرسة الشعرية التي سبقت البارودي[10].

وقد كانت البيئة الثقافية الاسلامية العربية التي نشأت حول الزوايا اكثر ملاءمة لنشأة الشعر وأكثر تشجيعا له، ومن هنا كانت النماذج التي وصلتنا منه ـ وهي قليلة ـ ارفع مستوى من حيث الصياغة من هذا الشعر الذي نشأ في الحاضرة[11].

ومن هذا الاثر «سرت في مجالس أدباء طرابلس في القرن التاسع عشر الوان من حديث المسامرات وفنون من شعر المعارضات، وأدب الرواية والحفظ وألوان وانماط تدور حول الشعر القديم»[12]. وأقبل بشغف الطلاب والمتسبون للعلم على حفظ شعر الفحول أو المشاهير من الشعراء المتقدمين، فكان الشباب المثقف ـ ثقافة ذلك العهد ـ يعجب بالشعر وطرائف الادب، يراها في فصل من اغاني الاصفهاني، أو يتلمسها في المستطرف، وقد يهمس بفكرة حلوة أو نادرة عجيبة أو عبارة مكشوفة يراها في «المخلاة» أو هامش في «العقد الفريد» أو في كتاب «ابن سكرة».

وكانت هذه المجالس والندوات أو اصحاب هذه الاسماء ترى أن طريق التكوين الادبي هو ما اشار اليه «ابن خلدون» أنه على دارس الادب أن يقبل على الامهات وينهل من المصادر المعتمدة مثل «الامالي» لابي علي القالي و«العقد الفريد» لابن عبد ربه و«البيان والتبيين» للجاحظ[13].

ويلاحظ على أدباء هذا الطور انهم من الرجال الذين لم يتفرغوا كل التفرغ للادب، وانما كانت لهم مشاغل حياتية صرفتهم عن ذلك واغلب الذين عرف منهم، واستطاع التاريخ أن يحتفظ باسمائهم كانوا من علماء الدين الذين يتخذون الشعر تسلية أو سيلة للتطبيق والتعليم والتوجيه الاصلاحي، وذلك أمر واضح في اكثر نماذج هذا العصر[14].

هذا فضلا عن شخصيات، «وان كانت محدودة الاثر غير ان الوقار يحوط بها والتبجيل يلقونه من الناشئة والشباب لان هؤلاء شيوخ اتوا من الجامع الازهر او الزيتونة فالاذان تصغي اليهم والقلوب تهفو لهم عندما يتحدثون عن العلم والادب ومجالس اهل العلم في المغرب او المشرق»[15].

ورسمت المدارس والمعاهد والزوايا الدينية ورجال الدين معالم الطريق امام الشعر في ليبيا نحو الاتجاه الذي يجب أن يتخذه، فغلب عليه الطابع الديني، والتعاطف مع الدولة العثمانية التي رفعت شعار الاسلام لاستقطاب المسلمين في كل الولايات التابعة لمركز الحكم استانبول.

ونتيجة لهذا التأثير لم يسلك الشعر الليبي قبل الاحتلال الايطالي المسلك القومي او المحلي، شأنه شأن الشعر في المشرق، ولم يتبلور بسبب الشعور الديني الفياض لدى الشعراء وخاصة رجال الدين منهم، ونلاحظ عليه النزعة العثمانية الاسلامية على مضمون الانتاج الفكري، والولاء للسلطة الحاكمة التي تنادي بالتآخي الاسلامي والعودة بالاسلام الى قوته ووقوف

المسلمين في وجه التحدي الاوربي الذي بدأ يقتسم الولايات العثمانية، وخاصة العربية التي بدأت تتساقط في قبضته أو يمهد لابتلاعها، وكان العرب ينظرون الى هذا التحدي الذي بدأت بوادره في الولايات العثمانية في اوربا المسيحية على انه حرب صليبية جديدة، فوقف الشعراء العرب جميعا يتصدون لهذه الحملة، حتى الذين وقعت بلادهم بالفعل تحت الاحتلال الغربي متلاحمين ومساندين للدولة العثمانية، ونجد اثار هذا التلاحم وهذه النزعة واضحة عند شوقي، وحافظ والرصافي، والزهاوي وغيرهم، وهؤلاء جميعا حاولوا المحافظة على كيان الدولة العثمانية وهيبتها، فكثر المديح والاطراء للخليفة في قصائد الشعراء في كل عمل يقوم به لصالح المسلمين، خاصة السلطان عبد الحميد الذي اجمع المؤرخون على استبداده وظلمه فتناسى الشعراء مآسي هذا المستبد عندما حقق انتصارا على اليونانيين في محاولتهم الانفصال عن الخلافة الاسلامية، وقد نظر الشعراء الى اية حركة انفصالية عن جسم الخلافة العثمانية على انها الانفصال من عرى الاسلام، وتعبيرا عن هذا الشعور مجد الشعراء هذا الانتصار الذي تحقق بفعل سياسة عبد الحميد الاسلامية.

فالشاعر (جميل صدقي الزهاوي) نظم قصيدة جعل عنوانها (الفتح الحميدي) قال فيها:

هو الفتح التي في قلوب العدا هولا ... وأثبت أن الحق يعلو ولا يعلى

ثم يبالغ في مدح السلطان عبد الحميد حيث قال:

لسلطاننا عبد الحميد سياسة ... طريقتها في المعضلات هي المثلى
سللت لنصر الدين سيف عزيمة ... فللت به ما لم يكن فَلَّه سهلا
فجهزت جيشا للجهاد عرمرما ... قهرت به ذاك العدو الذي ولى[16]

وشوقي لم تفته هذه المناسبة فيمدح ايضا السلطان في قصيدة جاء فيها:

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب ... وينصر دين الله ايان تضرب
وما السيف الا آية الملك في الورى ... وما الامر الا للذي يتغلب[17]

وعلى هذا النهج كان الشعر العربي في ليبيا يسير ايضا، فنعثر على قصيدة للشاعر مصطفى بن زكري نشرت في جريدة (الترقي)[18] وهي طويلة يبتهج فيها بانتصار الاتراك على اليونانيين ويسخر من هزيمة الأعداء، ونشرت القصيدة في ديوانه ايضا بلغت ابياتها المائة تحت عنوان (التهنئات الطرابلسية على المظفرات السنية) ومنها هذه الابيات:

يا سعد سر مترنما ... ببشائر النصر المبين
ودع المطية، طوايا ... بخفر السفين على السفين
وأعبر عباب الدردنيل ... وحيي حمى الأكرمين

ثم يمدح الخليفة:

تاج الخلافة، بهجة الدنيا، وعز المسلمين
عبد الحميد، وناصر الدين الحنيفي المبين
ونصرت دين المصطفى خير البرية اجمعين
ايات نصر، لم تزل تتلى على مر السنين

ويرحب الشاعر (عبد الله الباروني)(*) بهذا الانتصار مادحا السلطان عبد الحميد قائلا:

أسرورا بحاجر حين بانا | أم جناب الحبيب بالبشر لانا
أم اتاك البشير بالعهد منه | فكان قد قربت مكانا
قلت بل سرني انتصار مليك | ذاك عبد الحميد قطب رحانا
هو بدر الدجى وكنز المعالي | هو سلطاننا وحامي حمانا
هو ظل الله في كل أرض | اذ غدا الملك في يديه افتتانا[19]

الى جانب انتصار عبد الحميد الذي ابتهج له الشعراء. عندما قامت الثورة في سنة 1908، وأعادت الى الولايات العثمانية الدستور القديم احتفل الشعراء العرب بعودة الديمقراطية، فنظمت العديد من القصائد تخليدا لهذه المناسبة، وقد حيى الشاعر «معروف الرصافي» هذا الحدث الكبير في قصيدة بعنوان (تموز الحرية) قال فيها:

في شهر تموز صادفنا لما وعدت | بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هي المساواة عمتنا فما تركت | فضلا لبعض على بعض وتمييزا[20]

وكان الزهاوي يؤيد قادة الانقلاب والحركة الدستورية واعلان المشروطية التي رفعت شعار (حريت، عدالت، مساوات) في كافة ارجاء الامبراطورية العثمانية، والتي بموجبها عمت الفرحة ابناء الشعب العربي بهذا الحدث ومن قصائده في هذا التأييد:

ان العدالة، ويك اليوم في الطلب | يا ظلم فاستخف أو فالجأ الى الهرب
قد كانت العين قبل اليوم باكية | من الاسى وهي تبكي اليوم من طرب
البرق اهدى لنا بشرى بها هدأت | ارواحنا بعد طول الخوف والرهب

وفي هذه المناسبة نلتقي ايضا بأبيات للاستاذ (احمد الشارف) تعبر عن الاستبشار بصدور الدستور. وهي ابيات تعبر عن روح هذه الفكرة، وتفصح عن مدى تلهف الناس حينذاك الى صدور هذا النظام. وتدل على أن البلاد كانت متصلة بالتيارات السياسية التي كانت تسود الامبراطورية العثمانية:

أعيد لنا الدستور والعود احمد | فحق الورى تثني عليه وتحمد
شفى غلة منا وكنا على شفا | ونار الاسى كانت بنا تتوقد
ولاحت شموس الحق بعد خفائها | وضاءت لنا في حندس الليل فرقد
ومانحة عبد الحميد لأمة يحق له | الذكر الجميل المخلد[21]

وتنشر (الترقي)[22] قصيدة اخرى احتفالا بعودة الدستور تحت توقيع (ابو القاسم المنتصر):

شمس العلا اشرقت بالمجد والكرم | وأصبح العدل في الاسلام كالعلم
في غرة تموز نلنا سؤددا وعلا | وصارت دولتنا اعظم الامم
بهمة الشهم (مدحت) الذي شهدت | له الخلائق من عرب وعجم

(*) عبد الله الباروني: ولد في كابا وبجبل نفوسة، اشتغل بالعلم، وألف كتاب (سلم العامة والمبتدئين الى آئمة الدين في علماء الاباظية) توفي سنة 1914.

ونظم الملك بالدستور حتى غدا　　امنا لدى كل عثماني مع النعم

مع المديح والاطراء والاحتفال بالمناسبات العامة في الدولة العثمانية نجد اتجاها اخر يناقض هذا الاتجاه ظهر في المشرق العربي يتمثل في الرفض للسلطة العثمانية وينادي باصلاح ما افسدته سياستها، وكثيرا ما كانت القصائد تلقى في الجمعيات السرية المناهضة للحكم العثماني والتي تدعو الى الوطنية الصادقة والاحساس بالشعور الوطني.

فالزهاوي الذي مدح السلطان عبد الحميد في أول عهده يلقي قصيدته المشهورة (حتام تغفلٍ) في احد الاجتماعات السرية التي عقدتها خليته يخاطب فيها السلطان مهددا ومنذرا قائلا:

الا فانتبه للأمر حتام تغفل　　اما علمتك الحال ما كنت تجهل

ومنها:

ايأمر ظل الله في ارضه بما　　نهى الله عنه والرسول المبجل

تمهل قليلا لا تغظ امة اذا　　تحرك فيها لغيط تتمهل

وأيديك ان طالت عليها قصيرة　　فان يد الايام منهن اطول[23]

والقصيدة طويلة، وهي التي كانت سببا في توقيفه.

ونلاحظ جرأة الرصافي على السلطان عبد الحميد، بل ان قصيدته (رقية الصريع) دعوة لخلعه وفيها يقول:

ابت السيادة ان تدوم حكومة　　خصت برأي مقدس لم يسأل

ان الحكومة وهي جمهورية　　كشفت عماية قلب كل مضلل

سارت الى نجح البلاد بسيرة　　أبدت لهم حمق الزمان الاول[24]

هذا التحرر الصارخ الواضح لا نجده الا طفيفا في ثنايا الشعر العربي في ليبيا، تميز في ظهور بعض الشعور الوطني عندما بدأ الاحساس بخطر التمهيد الايطالي لاحتلال ليبيا، او خيبة الامل في عدم اهتمام تركيا باصلاح ولاية طرابلس. ونجد في بعض قصائد مصطفى بن زكري وأحمد الشارف وسليمان الباروني هذا الاتجاه.

فالشاعر مصطفى بن زكري يتبرم من الذين ينسبونه الى الاتراك او الروم بل يعتز بانتمائه الى الاسلام، وكان مفهوم الاسلام في ذلك الوقت يعبر عن الوطنية الصادقة فيقول:

وينسبني للترك والروم معشر　　ولست بتركي ولست بروماني

ولكنني من يعلم الله سره　　ويعلم بالاسلام وجدي ووجداني[25]

وبدايات اليقظة الوطنية كانت في قصيدة احمد الشارف (رضينا بحتف النفوس رضينا) التي تمثل انطلاقة التعبير عن النزعة الوطنية في الشعر العربي في ليبيا، والتي نظمت للتنبيه الى مخاطر الاحتلال الايطالي، ولاشك انه قد نظمت قصائد اخرى كثيرة ولكن شهرة هذه القصيدة تجعلها باكورة التعبير عن الشعور الوطني الفياض، والنزعة الوطنية الليبية:

رضينا بحتف النفوس رضينا　　ولم نرض أن يعرف الضيم فينا

ولم نرض بالعيش الا عزيزا　　ولا نتقي الشر بل يتقينا

فما الحر الا الذي مات حرا ولم يرض بالعيش الا امينا
وما العز الا لمن كان يفدى ذماما ويفنى عليه الثمينا

ويقول عن الحملة الصحفية التي تشنها ايطاليا ضد ليبيا:

وجاءت صحائفهم كاذبات تزيد الورى كل يوم طنينا
فقالوا وما غرنا قولهم ابى أن يكون التوحش فينا
ايا من يجرون اسطولهم الينا بآلافهم والمئينا
فما ضرنا ان حللتم شطوطا اذا شط ما كنتم تقصدونا
فكم في طرابلس الغرب ليث يصون البلاد ويحمي العرينا
وما زاد صرخ المدافع الا زئيرا لاشبالها الضارئينا[26]

كما يرد سليمان الباروني على صحفي حرض المستعمر الايطالي على الهجوم على طرابلس وكانت ملامح المطامع الايطالية في بلادنا قد بدأت بالظهور فقال في هذه المناسبة:

نصول اذا حان الدفاع ولا نرى جزاء من المولى سوى جنة الخلد
نحب اللقيا ولا نبغض الطعن ان يكن نضالا عن الاوطان والدين والمجد
هنيئا لمن امسى صريعا مجاهدا له حلة من الارجوان على الجرد
فيا مغرما بنا تقدم لفتية ترى الموت فوزا في مصادمة الهند[27]

وتمثل الشعور الوطني ايضا بحب الوطن، والحنين اليه والاعتزاز به والتمني بأن تمسه يد الاصلاح، وأن تقام فيه المشاريع، وتتحقق فيه الحرية والعدل والمساواة، ونجد هذا الحنين عند الشاعر احمد بن شتوان(*). وسليمان الباروني، وهما من الشعراء الذين هاجروا الوطن.

والشاعر احمد بن شتوان يحن الى مسقط رأسه والذي يعاني من تعسف الولاة فيقول وقد شده الشوق الى بلدته مصراته وكان يطلق عليها (ذات الرمال):

ذات الرمال عادها كف عاديها لما استقر غراب البين واديها
داء عراها فما تنفك في قلق وحار كل طبيب في تداويها[28]

وينشر سليمان الباروني قصيدة طويلة في جريدته (الاسد الاسلامي) التي كان يصدرها في مصر، ودع فيها وطنه، وعاهد نفسه الا يعود اليه الا اذا شمله الاصلاح في كل المرافق ورفرفت فيه الحرية فيقول:

وداعا ديار العز حتى نعود اليك في أهنا نهار
اذا ما نحو قطرك مد خيط حديدي الى تلك القفار
ونور الكهرباء اتاك يسعى وقيل الماء في البيداء جار
وشيدت المدارس واستقامت رجالك واكتست ثوب الفخار
وحررت الجرائد واستعدت مطابعها الى نشر القرار

ثم يقول:

---

(*) أحمد بن شتوان، ولد في مصراته، تولى القضاء في برقة، وسافر الى مصر وتعرف على أدبائها، وسافر الى الاستانة حيث تولى التدريس في جامع السلطان محمد الفاتح.

هنـــاك يـــا وطن المعـــالي غـزيـر العلم مجتمع النظار
يسود المرء فيك ينـال عـزا يحوز الامن يطمع بانتصار[29]

فالقصيدة هذه تعبير عن طموحات الشاعر في وصول بلده الى مراقي الدول المتقدمة. واحساس واضح بأننا لن نستطيع ان نجابه الدول المتقدمة التي تطمع في استعمار اراضينا الا اذا كنا على المستوى الحضاري لهذه الدول، ويخاطب قومه في قصيدة اخرى يدعوهم الى الاستيقاظ من الغفلة الطويلة والجهل الذي لحق بهم حتى هاموا في الصحارى فيقول:

الا يـــاقوم قـد نمتم طويلا وهمتم بـالجهـالـة في البراري
فهل من يقظة تشفي غليلا وتمحو ما استوى من سحب عار[30]

مما تقدم يتضح مدى تأثر الشعر العربي في ليبيا بالاتجاهات السياسية السائدة في المشرق العربي، فقد اتفق شعراء ليبيا وشعراء المشرق في بعض الخصائص والاغراض، لاسيما مدح الخليفة والابتهاج بالمناسبات العامة في دولة الخلافة، كما اتفقوا أيضا في نبذ الاستبداد الحميدي والتخلص من السيطرة العثمانية والانتماء الى الوطن، وان كان شعراء المشرق أكثر حدة ووضوحا وصراحة من شعراء ليبيا، وتتباين اتجاهات النزعة الوطنية لدى شعراء المشرق وشعراء ليبيا، فالوطنية الليبية لم تدع الى الانفصال عن الدولة العثمانية، ولم يتبلور عنها اتجاه فكري او سياسي يدعو الى الانسلاخ عن العاصمة ـ المركز ـ كما هو الحال في كثير من الوطنيات في المشرق العربي التي حملت فكرة الانفصال عن السيادة العثمانية، ويمكن ان نفسر ذلك قبل كل شيء بالمقارنة التي كان يجريها الليبيون بين استعمار غربي كشر عن انيابه لالتهام البلاد مثلما فعل في الجزائر وتونس ومصر وبين الدولة العثمانية التي ترتبط بها بلادهم بروابط مختلفة وكانوا بالطبع يفضلون البقاء الى جانب الدولة التي تجمع واياهم تحت لواء الدين والمصالح المشتركة يضاف الى هذا سبب آخر هو ان اليقظة المشرقية ترتبط في كثير من أواصرها بالمسيحيين الذين لم يكن هناك ما يربطهم بالخلافة العثمانية.

اما فيما عدا ذلك فقد كان الشعر في ليبيا شعر المناسبات السريعة العابرة، التي يجري فيها القريض عن الانفصال الشعري وقد تتسع المناسبة عند الشاعر فينطلق من النطاق الشخصي الضيق الى النطاق الرحب، فيتناول المشكلات الاجتماعية أو محاولات الاصلاح المتمثلة في انشاء مدرسة او صدور جريدة، أو الاقبال على التدريب العسكري، أو التهنئة بمناسبة سعيدة.. الخ. ومما يدل على تقبل الناس هذا الشعر وقدرة الشعراء على النظم ذلك العدد الهائل من القصائد التي تنشر في جريدة (الترقي) في فترة صدورها الاولى لشعراء مغمورين ومطمورين تتناول مختلف القضايا وهذه نماذج منها:

عندما تأسست جريدة الترقي قدم لها الشعراء التهاني بمناسبة الصدور مبينين في قصائدهم ومقالاتهم النثرية الفائدة التي ستجنيها البلاد من انتشار الجرائد، وقد كتبت الترقي في عددها الرابع ما يلي:

«ورد لنا هذا التقريض من صاحبه الشاب الغيور، وشاعر طرابلس وأديبها، وأول من مد يد الانجاز الى هذه الجريدة فلا عدمت انامله قال:

زمـــانك حيـــاة نشر الترقي | فبشرى طـرابلس بـالترقي
وشمس المعارف بالغرب لاحت | فتـاه بطـلعتها كل شرقي
تـدير سلاف الحوادث صرفا | وراح الاماني براحة صدق

الحمد لله الذي زين سماء المعارف بنجوم الجرائد وقلد بحور صدرها فرائد الفوائد، وأخرج من بحر السياسة جوهر الضمائر، وأنشأ فلك الافكار فيه بواخر تجري بما ينفع الناس من الحكم، وتترجم اسرار الحوادث بلسان القلم ليتجرد كل غافل من عوامل الخفض والسكون، وينتصب لرفع شأنه باجتناء ثمرات الفنون، ولما كانت الجرائد أعظم أسباب النجاح في باب الفلاح شملتنا العناية السلطانية وآلاء زاده السنية بنشر الترقي في هذه الولاية السعيدة الحظ فنرجو لصاحب امتيازها ومديرها الفاضل كمال التقدم والاتصال وأن تكون جريدة حميدة الطبع منمقة الوضع تدعو الى صالح العباد والبلاد، وتخدم الدين والوطن بساعد الجد والاجتهاد، وتقوم عن العموم بواجبات الشكر وفرايض العبودية بين يدي مولانا وسعدنا أمير المؤمنين، ونعرب عما تضمنته وجبلت عليه، قلوبنا من الخضوع والطاعة، وعظيم الميل، والارتباط بدولته السعيدة وملته الحميدة، أيد الله به الدين والمسلمين، ومنع بوجوده عبيده الصادقين... مصطفى بن زكري»[31].

وهذه القطعة تقدم مادة ثرية لمؤرخي الادب العربي وبالتحديد لمؤرخي اللغة التي كان يكتب بها ذلك الأدب، فنحن امام مرحلة انتقالية طريفة لم تكن اللغة قد تجردت كليا من قيود الصنعة والسجع والتكلف لكنها لم تعد مقيدة بكل تلك الاصفاد القديمة التي كانت تضحي حتى بالمعنى من أجل الحصول على السجعة أو الترصع العضوي، وواضح في هذه القطعة أيضا أن المعنى بدأ يغلب على الشكل وبدأ الانتقال الى الطريقة الحديثة في الكتابة لكنها لم تكن بعد قد بلغت استقلالية عهودنا الحاضرة حيث تعد اللغة وسيلة لاداء المعنى لا أكثر.

وأنشأ الشيخ محمد سعيد المسعودي هذه القصيدة مهنئا فيها الترقي بصدورها:

روح الـروح يـا حـادي مطاياها | واذكر بفضلك لي معنى حكاياها
واقصد حماها اذا ما لاح شارقها | وقـد تلألأ بـرق مـن ثـنـايـاهـا
كـل المحاسن في انـوار طـلـعتهـا | تحكي امتياز الترقي في سجاياها
جريدة قد بدت في محفل أدب | تـــزهـو بهاء فما احلى محيـاهـا
شكرا لسلطاننا عبد الحميد فقد | أحيـا طـرابلسا بها وحيـاهـا
وفي المحاسن اجلالا يـؤرخـهـــا | وفي الترقي الا فـاهـنـأ بمسراهـا[32]

ومع دخول التعليم العصري الى الولاية، نظم الشعراء قصائد تحث المواطنين على الاقبال

على التعليم، حتى تنهض البلاد من كبوة التخلف والجهل، واللحاق بركب الامم المتقدمة فقد كتب الشيخ ابراهيم باكير(*) في جريدة الترقي:

«قد كنت اطالع العدد الثالث من جريدة الترقي الغراء الى أن وصلت الى نبذة عنوانها (امتحان في خصوص المكتب الرشدي) وما وصل اليه من المعارف، فأخذني السرور عندما مرت في فكري تلك الاجراءات الحسنة التي اجراها حضرة ذي العطوفة والينا الافخم في زمن قليل، وما في نيته من اجرائه في المستقبل مما يبشر ولايتنا بالترقي الى اوج الكمال في أقرب وقت فما تممت تلك النبذة الى ان أتاني البشير بتشكيل قومسيون المعارف تحت رياسته حفظه الله تعالى فهزتني اذ ذاك الاريحية وتمايلت طربا حينما تصورت الدرجة الى سيصل اليها طالع سعد ولايتنا بهمة ذلك الشهم الهمام فخطرت لي هذه الابيات ارجو درجها لما فيها من الاحساسات (وان لم تف بعشر المعشار) نحو والينا الافخم ودولتنا العلية أيدها على ممر الدهور»:

| | |
|---|---|
| بشرى طرابلس بندر فلاحها | بالبشر في فلك السعادة قد ظهر |
| نالت من الملك الجليل عواطفا | ومراحما ونفائس المنن الغرر |
| اعطى قلائد جيدها الشهم الذي | بين الولاة بأكمل الحزم اشتهر |
| فغدا بتوفيق الاله يسوسها | وعناية المولى تحفه بالنظر |
| واهتم يسعى في ترتيبها باع | لاهمسة عظمى وانتاج الفكر |
| حتى ازدهرت وزهت بعنصر مجدها | وقد استتب الامن فيها واستقر(33) |

رغم أن الشاعر قدم للقصيدة مبشرا بالمستقبل الذي ينتظر الولاية بعد انتشار التعليم، الا أننا نقف امام قصيدة طويلة كلها في مدح الوالي نامق باشا يعدد فيها محاسنه ويسأل الله أن يحفظه ويشكر سعيه ويدعو له بالظفر.

وتغنى الشعراء أيضا ورحبوا كثيرا بالقرار الذي يدعو الناس الى التدريب على حمل السلاح، ونظر الشعراء الى هذا القرار نظرة اعتزاز واكبار لما سيترتب عليه من قوة وكيان لليبيا، وسيكون لها سياجا منيعا يحفظها ويصونها من الطامعين، فالشاعر (مصطفى بن زكري) يرى في التدريب العسكري المجد والفخر الذي ينتظر طرابلس فيقول:

| | |
|---|---|
| بشير السعد ام ثغر التهاني | بدا يغتر عن در الاماني |
| بدا يدعو طرابلس لمجد | وفخر لا تطاوله اليدان |
| فأطربنا براح من سرور | يدار على القلوب بلا آذان |
| بتعليم السلاح وأي مجد | كتعليم الرماية والطعان |
| وطال مطاله عن طالبيه | وهل تجنى الثمار بلا آوان |

(*) ابراهيم باكير، عالم وأديب وفقيه ومحدث وشاعر، ولد سنة 1273هـ تولى التدريس، ومن سنة 1306 الى سنة 1324 عين عضوا في محكمة الاستئناف ثم رئيسا للمحكمة الاتهامية ثم في وكالة مجلس الادارة قسم المحاكمات والجنح في طرابلس، عين مفتيا لطرابلس، توفي في 21 ابريل سنة 1943م، عن 89 سنة.

وحيث دعاك للعليا داع | فلا تقنع بمنزلة الجبان
ترى هل تنكر العلياء نفس | وتسمح نفس حر بالهوان[34]

أما الشاعر ابراهيم باكير فهو يدعو أبناء وطنه لنيل هذا المجد بنشاط واجتهاد حتى يصل الوطن الى درجات عليا من الرقي والتقدم فيقول:

هلموا بني وطني هلموا | لنيل المجد واسعوا باحتفال
فان السعى عنوان الترقي | وخير السعي في خير النضال
تعالوا بالنشاط وباجتهاد | لتعليم السلاح على التوالي
ولا مجد ولا فخر يسامي | كتعليم الرماية للرجال
وأشرف من معانقة الثريا | معانقة البنادق والنصال
ولا يهوى اللبيب الشهم الا | تمرنه على حسن الخصال[35]

والشيخ علي بن كريمة الزاوي(*) بعد مدح السلطان عبد الحميد والوالي نامق باشا في قصيدة طويلة، يصف الاقبال على التدريب قائلاً:

وعلم الضراب العسكري استنفاره | جميع الاهالي حين ايداه به قولا
فصاروا جميعا يعلمون فنونه | وهم عسكر عند اللزوم به اهلا
تلقوه عن ارباب صدق ونجدة | ونصح من الضباط أحسن بهم فعلا
قد انقاد كل الخلق طوعا لامره | فأضحى مديما فيهم ينشر العدل
بحلم وعفو ساسهم وفراسة | وأجمل اخلاق له تجلب الوصلا[36]

ويصف الشيخ محمد السنوسي(* *) كيفية التدريب والاقبال عليه أيضا.

فلو رأيتهم يوم الحماس اذا | ما خاف حب عن السمحاء فابتدعا
ترى رماحا بأيدي الاسد جائلة | أحياء قوم لها البتار قد قلعا
باعوا النفوس لواليهم وسيدهم | ولازموا بابه فالكل قد رفعا[37]

ونعثر في بعض اعداد جريدة (الترقي) على قصائد بعضها موقع بالاحرف الاولى والاخرى دون توقيع لا تختلف في مضمونها عن القصائد الاخرى منها:

هلموا تعلموا فن الرماية | وضرب بالكروب جيوش غدر
وقولو سمعنا ثم اطعنا جميعا | لما يدعو الخليفة خير بر
ففي القرآن امر بالجهاد | في الاخبار تفصيل ببحر[38]

وقصيدة اخرى بتوقيع ع. ن جاء فيها:

بناء جيشه صبروا ونادوا | بأنا الرابطون على الفلاح
وبعنا المال والارواح جمعا | لمولانا باثمان رياح
وقلدنا البنادق للمعالي | وعانقنا السيوف مع الرماح

---

(*) علي بن كريمة الزاوي: عالم من علماء الزاوية، وولد بها بقرية اولاد يربوع وتولى القضاء فيها، توفى سنة 1328 هـ عن سن تناهز الثمانين.

(* *) محمد السنوسي: تولى القضاء والافتاء في مصراته.

في التوراة والانجيل وعد　　　وفي الفرقان وعد بالنجاح
وفي ايلول كان النصر ارخ　　　سمير النصر في بعث السلاح(39)

ونجد الشاعر نشر العديد من القصائد في جريدة الترقي في مناسبات مختلفة واغراض متعددة بعضها تحت باب ثابت من الجريدة وهو باب (المباحث الأدبية) ومن الغريب أننا لا نجد ترجمة للشاعر في أي كتاب من كتب التراجم التي تتعلق بالاعلام الليبية وكل ما استطعنا الحصول عليه من معلومات أنه تولى القضاء في نالوت، واسم هذا الشاعر (علي عريبي) وجاء في قصيدته وهي من الاوزان الخفيفة من نوع التخميسات:

فقوموا للتعليم بالسلاح　　　وشدوا العزم في مرمى براح
فكم جاءنا في الكتب الصحاح　　　من الغزوات في بدر النجاح
وأهل أحد لهم مجد وفخر
معانقة السلاح ولا الملاح　　　وترك الغانيات ولا الرماح
وهدر دماء مختلط السماح　　　الذ وأشهى من شرب الراح(40)

ولما اصدر السلطان فرمانا بترقية الوالي نامق باشا الى درجة وزير، وجاء المنشور العالي بالخبر الى الولاية، وفدت على الوالي العديد من القصائد الشعرية تحمل في طياتها التهنئة بهذه المناسبة:

يا سائق الركبان ينتهب الفلا　　　بالله قف لي واستمع يا سائق
وانقل حديثا صادقا ومسلسلا　　　عني وقل هذا الحديث الصادق
سعد الزمان وأهله ببشارة　　　طرقت بخيرنا لتعم الطارق
والي الولاية البسوه وزارة　　　قد هنأته مغارب ومشارق(41)

والشاعر عبد الرحمن البوصيري(*)، يقول مهنئا الوالي في قصيدة طويلة عنوانها المنشور العالي:

منشوره الميمون أيد فخره　　　فكماله لا ينتهي بلسان
يا سيد الوزراء عشت معززا　　　ومقلدا بقلائد العقبان
لا غرو إن قال الخطيب مؤرخا　　　احرزت حزم الدهر بالعرفان
اذ توجتك وزارة تاريخها　　　منشورها من اصلح التيجان(42)

ويمدح الشيخ أحمد المختار الفطيسي(* *) ويهنئه بالترقية قائلا:

شهر الربيع تزايدت انواره　　　يوم العروبة شرفت اخباره

---

(*) عبد الرحمن البوصيري: ولد بمدينة غدامس سنة 1258هـ، وتردد على تونس ومصر والاستانة للتجارة وطلب العلم، له عدة مؤلفات في مختلف العلوم منها (فاكهة اللب المصون على شرح الجوهر المكنون) في علوم البلاغة و«نزهة القلقين في رياض امام الحرمين» في علم الاصول «الجواهر الزكية، في مصطلح خير البرية» شرح الفية العراقي في مصطلح الحديث، و(مبتكرات اللآلي والدرر في المحاكمة بين العيني وابن حجر) نصب نفسه فيها حكما فيما اختلف فيه العينين وابن حجر، و«الدرر المجنية من حديث خير البرية» على الجامع الصغير للامام السيوطي في اربعة أجزاء وتولى التدريس الديني، واسندت اليه سجلات العقود، وتولى رياسة كتبة المحكمة الشرعية، وتولى النيابة عن القضاة في غيبتهم، وكذلك تولى القضاء في النواحي الاربعة، وفي الزاوية، توفي بطرابلس في 19 ابريل 1935.

(* *) احمد مختار الفطيسي، من علماء زليطن على جانب كبير من العلم، جمع تراجم الكثير من علماء زليطن ممن تقدمه ومن عاصره توفي في ورفلة سنة 1942م.

باب الحكومة زينت اعتابه | وتمايلت طربا به زواره
نال الوزارة والفخامة نامق | فهو الوزير تطلعت أقماره
باشا توشح بالعدالة وارتدى | تنبيك عن احسانه اثاره
قسما بمكة والنبي فانه | نعم الامير ومن هم انصاره
أبقاه ربي دائما لبلادنا | غيثا يعم جميعها مداره[43]

ولشاعر آخر من الشعراء الذين لم نعثر على ترجمة لهم قصيدة طويلة مهنئا نامق باشا بالوزارة يقول فيها (عبداه محمد):

وزير ترقى للمعالي بجبه | همام تسامى بطلب الفلك الاعلى
اذا ما ترامت للعوالم همة | تسابق للمرمى، وكان بها اولى
اتتنا بشارات احاطت بسعده | فيا لك من البشرى فأهلا بها اهلا
فعمت جميع الساكنين وبرهنت | لما لجناب الشهم من اثر يجلى
فيا لك من يوم تحل عليه الـ | ـوزارة والينا فنعم الذي حلا[44]

ومهما يكن حظ هذه القصائد الشعرية من الجودة الفنية ومهما بالغنا في تقويمها على اساس مقاييس العصر الحاضر فاننا لا نستطيع أن نغفل أمرين هامين: الاول أن هذه القصائد كانت ـ من حيث البناء واللغة ـ أمينة لمقاييس فرضتها مرحلة الخروج من الصيغة والقيود الى المرحلة الحاضرة وهو ما يتسم به الكثير من الجوانب البنيوية والعضوية. والثاني أن هذه القصائد تعبر عن طموح الامة الى الافضل وتطلعاتها الى الخروج من عالم التخلف والجهل والضعف الى عالم جديد عالم التقدم والمعرفة والقوة، ومن هذا المنظور فقط يمكن أن نفسر الفرحة التي عبرت عنها القصيدة لانشاء مطبعة أو افتتاح مدرسة أو لخروج الرجال للتدريب على السلاح. كان الشعراء ـ ضمير الامة ـ ينبهون الى ذلك بقصائد ربما تبدو ساذجة بالنسبة لايامنا هذه الا انها كانت في معايير ذلك العصر صرخات مدوية من أجل اليقظة والتقدم.

هوامش

1 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 23.
2 ـ الصيد محمد ابو ديب (احمد قنابة دراسة وديوان) ط 1، بيروت 1968 ص 15، 16 عن راشد الزبير، الانتقاضات العربية في الشعر الليبي.
3 ـ محمد الصادق عفيفي الشعر والشعراء في ليبيا / مكتبة الانجلو المصرية 1957 ص 65-67.
4 ـ ديوان مصطفى بن زكري تحليل وتقديم علي مصطفى المصراتي مكتبة الفكر طرابلس 73 ص 8-9.
5 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 36.
6 ـ علي مصطفى المصراتي، مرجع سابق ص 17.
7 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 34.
8 ـ علي مصطفى المصراتي (ديوان احمد الشارف) مرجع سابق ص 17.
9 ـ الطيب الاشهب (برقة العربية بين الامس واليوم) القاهرة 1947، ص 57.
10 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 34.
11 ـ المرجع السابق، ص 36.
12 ـ علي مصطفى المصراتي (ديوان احمد الشارف) مرجع سابق ص 13.

13 ـ علي مصطفى المصراتي (ديوان أحمد الشارف) مرجع سابق ص 13.
14 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق ص 35.
15 ـ علي مصطفى المصراتي مرجع سابق ص 10.
16 ـ جميل صدقي الزهاوي (ديوان) دار العودة بيروت ص (ح) من المقدمة ص 2.
17 ـ انظر د حلمي علي مرزوق (شوقي وقضايا العصر والحضارة) دار النهضة العربية، بيروت ط 1، 1981، ص 70 وما بعدها.
كذلك انظر احمد شوقي (ديوان) دار العودة جـ 1 قصيدة صدى الحرب.
18 ـ الترقي العدد 2، 3 يوليو 1897 ونشرت القصيدة ايضا في كتاب رفيق شاعر الوطن، مرجع سابق، ص 107.
19 ـ الترقي، عدد 15، 6 جماد الاولى 1315هـ/20 ايلول 1313 مالية.
20 ـ معروف الرصافي (ديوان) ج 2، دار العودة، بيروت، ص 234.
21 ـ خليفة التليسي (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق، ص 110.
ونشرت الترقي القصيدة في عددها (97)، 7 صفر 1327هـ 14 شباط 1324.
22 ـ الترقي، عدد (153)، 22 شعبان 1328هـ/14 اغستوس 1326 مالية.
23 ـ جميل الزهاوي، مرجع سابق، ص (ط) من المقدمة.
24 ـ معروف الرصافي، مرجع سابق، ص 703.
25 ـ مصطفى بن زكري، مرجع سابق، ص 201.
26 ـ خليفة التليسي، (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق، ص 112–113.
27 ـ علي مصطفى المصراتي، لمحات أدبية عن ليبيا، مرجع سابق، ص 82.
28 ـ المرجع السابق، ص 55.
29 ـ المرجع السابق، ص 96–97.
30 ـ المرجع السابق، ص 97.
31 ـ الترقي، عدد (4) السنة الأولى، 17 صفر 1315هـ / 17 يوليو 1897 مالية.
32 ـ الترقي، عدد (3) السنة الاولى، 17 صفر 1315هـ / 17 يوليو 1897 مالية.
33 ـ الترقي، عدد (4) السنة الاولى 17 صفر 1315هـ/17 يوليو 1897 مالية.
34 ـ مصطفى بن زكري، (ديوان) مرجع سابق، ص 161، الترقي العدد (9).
35 ـ الترقي، عدد (7) السنة الأولى، 9 ربيع الأول 1315 / 7 اغشت 1897.
36 ـ الترقي، عدد (12) السنة الاولى، 14 ربيع الاخرة 1315هـ/30 أغستوس 1313 مالية.
37 ـ الترقي عدد (9) 23 ربيع الاول 1315، 9 أغستوس 1313 مالية.
38 ـ الترقي، عدد (153) 22 شعبان 1328، 14 أغسطس 1326.
39 ـ الترقي، العدد (17) جماد الاولى 1315، 4 تشرين 1313.
40 ـ الترقي، عدد (153) 22 شعبان 1328 / 14 اغسطس 1326.
41 ـ الترقي، عدد (7) 9 ربيع الاول 1315هـ / 7 اغشت 1897م.
42 ـ الترقي، عدد (14)، 28 ربيع الاخر 1315 / 13 ايلول 1313.
43 ـ الترقي، العدد (9) 23 ربيع الاول 1315، 9 اغستوس 1313 مالية.
44 ـ الترقي، عدد (12) السنة الاولى، 14 ربيع الاخرة 1315هـ / 3 اغستوس 1313 مالية.

# الباب الثاني
# التـمهيد الثقافي داخل البلاد الايطالية



# مدخل:

## ايطاليا والمسألة الليبية:

بدأ الطموح الاستعماري الايطالي يعلن عن نفسه في أوقات مبكرة وظهرت بواكيره الاولى حتى قبل الوحدة(*)، في بعض محاولات التفكير في الاحتلال التي تعود الى العام 1838 عندما قال (ماتزيني MAZZINI): «يجب أن يكون شمال افريقيا تابعا لنا»(1)، وأيضا من خلال عقيدته التي تذهب الى «أن افريقيا هي الامتداد الطبيعي لشبه الجزيرة الايطالية والمتنفس لاستيعاب افواج المهاجرين».

(*) «كانت ايطاليا قبل الوحدة مقسمة الى ثمانية أجزاء، وتم هذا التقسيم في معاهدة فيينا. وهذه الاجزاء هي: مملكة بيد مونت، والولايات النمساوية في الشمال. ودويلات الكنيسة ودويلات توسكانا، ومودينا، ولوكا، في الوسط. ومملكة نابولي وصقلية في الجنوب. وقد اعطيت (بارما) الى الاميرة النمساوية (ماري لويز) أرملة (نابليون)، وأعطيت (لوكا) الى الأميرة البورونية (ماري لويز) ـ وكانت تحكم بارما قبل الثورة الفرنسية ـ أما الدويلات الأخرى فقد أعيدت الى أصحابها باستثناء (البندقية وجنوة). وقامت ثورة في مملكة نابولي عام 1948 انتقلت سريعا الى الشمال، وعلى اثرها تحصلت أكثر مناطق ايطاليا على الدستور وبفضل ((غاريبالدي وماتزيني وكافور) انطلاقا من (بيد مونت ومن الجنوب الايطالي تحققت الوحدة الايطالية في سنة 1861 بعد سلسلة من الحوادث دون انضمام روما. وفي 22 يناير 1968 نرى في المجلس الايطالي اقتراع على الاقتراح بتأييد حقوق ايطاليا في روما، وكان ماتزيني بعد أن أسس حزب الاتحاد الجمهوري، ولهذا الحزب عدة نواب ساعدوا ماتزيني لأنه لم يتيسر له تدبير ثورة.
وفي سنتي 1868–1869 نفد صبر ماتزيني لأنه لم يتيسر له تدبير هذه الثورة، ووقعت عدة مقررات في عام 1870 ولكنها لم تبلغ درجة الحد والخطورة حتى شهر سبتمبر عندما بدأت المدفعية في قصف اسوار مدينة روما وأحدثت ثغرة بالقرب من (بورتابيا) دخل منها الفاتحون الذين قوبلوا بالتصفيق، في 27 نوفمبر 1871 افتتح الملك في مقره في روما، البرلمان في العاصمة الجديدة، وبذلك تمت الوحدة الايطالية) أنظر:

1 ـ بولتين كينج (الوحدة الايطالية)، تر. طه باشا الهاشمي، مكتبة النهضة المصرية 1952.
2 ـ نور الدين حاطوم (تاريخ الحركات القومية)، جـ3، دار الفكر، ط79.
3 ـ جواهر لال نهرو (لمحات من تاريخ العالم) تر. لجنة من الاساتذة، دار الآفاق، بيروت 1979.
4 ـ أ.ج. جرانت (اوربا في القرن التاسع عشر والعشرين). تر. بهاء فهمي. د. أحمد عزت عبد الكريم مؤسسة سجل العرب، ط6، 1976.
5 ـ هـ. أ. فشر (تاريخ اوربا في العصر الحديث 1789–1950) تر. احمد نجيب هاشم، وديع الضبع، ط5 دار المعارف بمصر.

وفي سنة 1840م أعلن (باللو BALLO) ـ وهو دبلوماسي ايطالي ـ صراحة على أن واجب ايطاليا بعد أن تتحد دويلاتها هو البحث لها عن مستعمرات اما في طرابلس او تونس او بالجزر المحيطة بها في البحر المتوسط تضمها لترابها والسيطرة عليها[2].

وما ان تحققت الوحدة في سنة 1871م، حتى خرجت ايطاليا من هذه الوحدة منتشية باحلام المجد والعظمة، متعطشة الى المجالات التي تستطيع أن تمارس فوقها غرورها القومي، واعتقدت أن المجالات كلها ينبغي أن تفسح أمامها لتحقق سياستها في الامتداد والتوسع والحصول على مستعمرات جديدة تزيد من هيبتها وتبسط سيطرتها وتساعدها على حل مشاكلها الداخلية التي أخذت بخناقها عقب الوحدة وتمهد لها الطريق لان تكون دولة ذات هيبة وسلطان بين الدول التي تقدمت عنها في زحمة اقتسام المغانم الاستعمارية.

وبرزت بعد الوحدة ايضا فكرة مستعمرات النفي لابعاد اعداد كبيرة من السجناء الايطاليين اليها، وكانت الدولة الجديدة قد ورثت من العهد السابق عددا كبيرا من السجناء لم يلبث أن تضاعف حين التزمت الحكومة الايطالية جانب الشدة ضد خصومها، وضد عصابات السلب فملأت السجون الآلاف من الخصوم والاشقياء، حتى بلغ عدد المساجين بعد احتلال روما واتخاذها عاصمة الدولة حوالي (71) ألف سجين[3].

وقد بدأ الاتجاه جديا نحو التوسع والتطلع نحو الشمال الافريقي عندما تمكن السياسي الالماني بسمارك أن يوجه انظار فرنسا وايطاليا الى تونس، حتى يتمكن من امتصاص حقد الاولى، واشغال الثانية في مواجهة اطماع التوسع الفرنسي، فكان جواب فرنسا انها لا تطمع في التوسع الترابي في تلك المناطق في الوقت الذي لا تسمح فيه لأي دولة اخرى بالتوسع، اما ايطاليا فقد رفضت حتى تحين الفرصة دون أن تواجه فرنسا مباشرة معتمدة على مصالحها الكبيرة في تونس، وبالفعل كانت الصحافة الايطالية تكتب عن تونس الايطالية.

واعترف بسمارك بحق ايطاليا في احتلال طرابلس وبرقة عندما وقع اتفاقا ثقافيا في فبراير 1887م. رغبة منه في تقوية علاقات التحالف مع ايطاليا من جهة واثارة الصدام بينها وبين فرنسا من جهة أخرى وخاصة عندما زادت من توسيع نشاطها في الشمال الافريقي[4].

ودخلت ليبيا منطقة اهتمام الرأي العام الايطالي سنة 1881م. وهي السنة التي فقدت ايطاليا فيها كل أمل لها في تونس وبعد أن سبقتها فرنسا الى بسط الحماية عليها بموجب معاهدة قصر السعيد (باردو) التي عقدت بينها وبين الباي القائم على الحكم حينذاك وقد اصيبت ايطاليا من جراء ذلك بخيبة امل كبيرة، قضت على آمالها في احتلال ذلك القطر الذي كانت ترى أنها احق الدول بالسيطرة عليه وامتلاكه لاعتبارات كثيرة اهمها مزاعم الحقوق التاريخية في البحر المتوسط وقرب تونس من ايطاليا، وقيام مصالح ايطالية بها ممثلة في جالية ايطالية كبيرة، وبكل ما يرتبط بوجودها هناك من مصالح وامتيازات.

ومنذ تلك السنة اخذ الاهتمام الايطالي يتركز حول القطعة الوحيدة الباقية في الشمال الافريقي تحت السيادة الاسلامية وهي ليبيا[5]. وقد نوقشت مسألة ليبيا وأثيرت لاول مرة في جلسة البرلمان التي عقدت في 6 ابريل 1881م والتي حضرها اعضاء البرلمان (مساري

(MASSARI) و(دي روديني DI RUDINI) و(دي سانت اونفريو D'ONOFRIO)، واستجوبوا الحكومة حول مسألة تونس السياسية التي اتخذتها في ردها حول هذه المسألة حيث طرحت في تلك الجلسة العبارة التي أدلى بها المفاوضون الفرنسيون في المحادثات التي جرت بين فرنسا وانجلترا حول تونس وقبرص والتي تقول (حسنا سوف نقول للايطاليين خذوا طرابلس). وفي الجلسة نفسها كان البرلمان يناقش قضية المصالح الايطالية في منطقة البحر المتوسط مع التنويه مباشرة الى طرابلس[6].

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الايمان بضرورة أن يكون لهذه الدولة النامية صوت مسموع بين الدول التي اضحت ذات مكانة في تقرير مصير العالم والاستحواذ على اراضيه ونهب ثرواته، وأصبح هذا الشعور يستند الى مبررات تاريخية قديمة تعود الى زمن روما الامبراطورية، وقد بدأ هذا الشعور يعلن عن نفسه رسميا.

وبدأ النائب البرلماني (دي مارينس DI MARINIS) في اثارة ما يسمى بالدوافع التاريخية واستثارة عواطف مواطنيه مذكرا اياهم بخرافات وردت منذ آلاف السنين في اساطير العالم القديم: «تفكرنا الاساطير وهذا ما يؤكده لنا (بلينيو BLINIO) من بحر سرت، كانت عرائس البحارة يوجهن النداء بأصواتهم الشجية العذبة الى البحارة، كما كانت (ايوبليا EUPLEA) تناديهم من بحرنا (مارجلينا MERGELLINA).

(حسنا فلتنادينا اصوات اخرى من ذلك الساحل لنرفع رايتنا وننشر حضارتنا ومثلنا في تلك البلاد، وبالهمة والشجاعة اللتين تدفعاننا الى العمل في بلادنا)[7].

وفي الثمانينيات من القرن الماضي كان الاستعماري (فرنشيسكو كريسبي) رئيس وزراء ايطاليا يتحدث عن اعتبار البحر بين صقلية وخليج سرت «مضيقا ايطاليا» وبذلك هو أول من اثار الانتباه الى اهمية ليبيا الاستراتيجية، ورجعت الى ايطاليا النزعة الاستعمارية الرومانية القديمة بالحديث عن البحر المتوسط «كبحيرة الروم»[8].

وتولى كريسبي تثبيت دعائم السياسة الاستعمارية، وسلوك سياسة العظمة وكان من اشد الدعاة المتحمسين لسياسة الهيبة الخارجية بالتوسع الاستعماري والتحالف مع الدول المركزية ضد فرنسا، وقد القى خطابا في باليرمو عام 1882 بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس منظمة (الدبابير VESPRI) حيث قال «كان واجب فرنسا أن لا تتعدى على حقوق اختها اللاتينية في تونس، أما الان وقد فعلت فاننا نطالبها بأن تصحح غلطتها وتترك طرابلس لايطاليا صاحبة الحق لان البحر المتوسط الممتد بين ايطاليا وشمال افريقيا يشكل بحيرة يجب أن تكون بحيرة ايطالية خالصة»[9].

وقد عبر عن هذا الطموح جوليتي الذي كان رئيسا للحكومة اثناء الحملة فقال في مذكراته:

> «أما تقدير أهمية قضية افريقيا المطلة على البحر المتوسط وضرورة عدم استياء ايطاليا من اي حل يتصل بها فقد اظهرته منذ دخولي في البرلمان، بانضمامي وتأييدي لجماعة كانت تختلف عن بقية اعضاء اليسار بالذات، لانها كانت تلوم

رئيسها (كايرولي) وتأخذ عليه موقفه من قضية تونس، كما عارضت ايضا الحكومة التي تستجب لدعوة انجلترا لمشاركتها عملياتها في مصر»[10].

كما القى (دي مارينس DI MARINIS) خطابا في سالي ركز فيه ايضا على البعد التاريخي لاحتلال ليبيا جاء فيه:

«منذ تاريخ الحروب القرطاجنية الرومانية، والحروب الرومانية اليونانية، بدأت وحدة البحر المتوسط الجغرافية تفرض نفسها، ومن هنا فانها ليست فكرة امبريالية بقدر ما هي احترام لقانون تاريخي يمكننا من أن نمنع دولة أخرى من السيطرة الكاملة على هذا البحر، ومن ارساء دعائم امننا العسكري، وتحقيق ضماننا الاقتصادي والتجاري الذي ننشده»[11].

ومنذ ذلك الحين (1881) بدأت المطامع الايطالية تبرز من خلال رحلات الرحالة، واهتمامهم باكتشاف الواقع الليبي من جميع وجوهه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبشرية، ومن خلال المقالات السياسية التي بدأت توجه الرأي العام الايطالي، وكذلك خطب وكتابات الزعامات القومية التي تؤمن بالتميز العنصري والنعرات العرقية والتوسع الاستعماري، وادعاء الرسالة الحضارية تغطية للاهداف الحقيقية في تكوين الدول الكبرى، واعادة الامجاد الرومانية وايجاد المنافذ القريبة للهجرة التي تهددها البلدان النائية والمسافات البعيدة بالتفسخ والذوبان، ويدفعها القرب من الوطن الام الى المحافظة على الخصائص الوطنية والمميزات العرقية، ويجعل من الاراضي التي تسكنها امتدادا رابعا، وقد وجدت هذه الاتجاهات في ذلك الوقت صيغتها المثلى فيما عرف باسم التغلغل السلمي[12].

وكانت عبارة «التغلغل السلمي» معروفة في السنوات التي سبقت الحملة على ليبيا وكانت تعبر عن: المجهود الذي تبذله الحكومة لخلق سلسلة من المبادرات في طرابلس وبرقة من اجل تسهيل ابتلاع الولاية تدريجيا وبصمت ثم ضمها بعد ذلك بهدوء ودون اهدار رصاصة واحدة[13].

وكان قرب طرابلس من ايطاليا ووقوعها تجاهها في البحر المتوسط، والصلات التاريخية الموجودة بينهما منذ عصر الرومان، علاوة على اهمية موقع طرابلس الاستراتيجي في البحر المتوسط، وأهمية موقعها بالنسبة للاسطول الايطالي، كان كل ذلك من العوامل التي جعلت ايطاليا تفكر جديا في طرابلس بعد هزيمتها في شرق افريقيا، وساعدتها الاحوال الداخلية للولاية والدولة العثمانية في ذلك التفكير[14].

وقد حاولت ايطاليا الى جانب ذلك منذ هذه الفترة أن تثبت اقدامها في المجال الدولي وأن تدخل بقوة في اطار الصراعات الدولية والمساومات الاستعمارية حتى لا يفوتها نصيبها من اقتسام المغانم وبخاصة فيما يتصل بالمركز الذي تتطلع اليه في البحر المتوسط الذي سيطرت عليه بعض الدول التي لا تستطيع أن تدعي ما تدعيه ايطاليا ـ في رأيها ـ من شرف الانتماء الى حضارته وامجاده الرومانية التاريخية، واعتمدت ايطاليا في تحقيق اغراضها خطة ثقافية لاعداد الرأي العام الايطاليا واقناعه بضرورة الغزو، وتوسيع رقعة البلاد وتهيئته حتى يقبل بأن

الاحتلال امر واقع لا بد منه، ووجهت لهذا الغرض الصحافة من اجل الدعاية والاعلام لتأجيج الروح العنصرية الاستعمارية وتوجيه الافكار الى ليبيا، وكانت الحملة مكثفة وعنيفة وشاركت فيها كل الصحف تقريبا في مختلف اتجاهاتها السياسية.

كما شجعت ظهور أدب ايطالي جديد يمجد الاستعمار، ويسعى الى خلق الاساطير والاكاذيب التاريخية، ويهدف الى تأجيج الروح العسكرية وتشجيع روح الحرب في البلاد، وسندرس في هذا الباب صور ومظاهر هذا التمهيد الثقافي داخل البلاد الايطالية.

هوامش

1 ـ جون رايت (ليبيا منذ أقدم العصور) تر. عبد الحفيظ الميار، أحمد اليازوردي، مكتبة الفرجاني، ط 1، 1972 ص 113.

2 ـ منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق ص 51.

3 ـ محمد بازاما، (بداية المأساة)، بنغازي المطبعة الاهلية بنغازي 1961.

4 ـ محمد خليفة التليسي، (معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911-1931)، الدار العربية للكتاب، 1980، ص 19.

5 ـ خليفة محمد التليسي، (معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الحزبية الايطالية)، المنشأة العامة للتوزيع ط 2، 82، ص 13.

6 – Paolo MALTESE (La Terra promessa) Roma 1976 p 10

7 – Paolo MALTESE op. cit. p 13.

8 ـ جون رايت، مرجع سابق، ص 113.

9 ـ خليفة المنتصر، (ليبيا قبل المحنة وبعدها) سلسلة الكتاب الليبي 1963.

10 ـ خليفة التليسي، (مذكرات جوليتي) الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان ص 47 كان جوليتي عضوا في البرلمان سنة 1882 وكان وزيرا للخزانة في حكومة كريسبي.

11 – Paolo MALTESE op. cit. p 12

12 ـ خليفة محمد التليسي، (مذكرات جوليتي) مرجع سابق، ص 10-11

13 – Giuseppe BEVIONE (Come siamo andati - Tripoli Torino 1912 p 122.)

14 ـ د. جلال يحيى، (المغرب الكبير)، مرجع سابق، ص 705.

# الفصل الاول

## دور الصحافة الايطالية في التمهيد للاحتلال

# المبحث الاول:

## مدخل في مهمة الصحافة:

**«اذا ارتفع العلم الايطالي خفاقا في يوم من الأيام على طرابلس وبنغازي فسيكون هذا بفضل الدفع الكبير الذي قدمته الصحافة الايطالية في سبيل هذه العملية»**
**صحيفة «روما» 13 سبتمبر 1911**

أدى التقدم العلمي في العصر الحديث، عصر الآلة والشركات والانتاج الكبير الى زيادة اهتمام الدول الصناعية الكبرى ـ وبخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعشرين ـ الى الحصول على المستعمرات أو زيادة رقعة مستعمراتها لضمان موارد رخيصة للمواد الخام والايدي العاملة وأسواق واسعة لاستيعاب الانتاج المتزايد، واستغلال رأس المال المتراكم نتيجة الارباح الطائلة[1].

ونتيجة لهذا التقدم العلمي، تقدمت وسائل الاتصال بالجماهير في القرنين التاسع عشر والعشرين، بشكل لم يكن متوقعا، وقفزت قفزات رائعة بسبب كثير من التغييرات التي تحققت في هذه الفترة ومن اهمها: التطورات الاجتماعية والفكرية وتقدم الاختراعات[2].

وبطبيعة الحال كانت الدول الصناعية الحديثة التكوين والتي لم تلحق بالركب الاستعماري القديم في العصور السالفة ـ كالمانيا وايطاليا والولايات المتحدة ـ في مقدمة الدول المتطلعة الى الاستعمار.

وجنبا الى جنب مع دعوى رسالة الجنس الابيض التي كان يتذرع بها الاستعماريون البريطانيون، ودعوى نشر التمدن التي كان يتذرع بها الفرنسيون ظهرت دعوى «ولهلم الثاني» قيصر المانيا لقيادة العالم ونشر الثقافة فيه[3].

وقد سلكت ايطاليا هذا المسلك في عهد «كريسبي» واعتمدت اعتمادا كليا في تمهيدها للاحتلال على الوسائل الثقافية وفي مقدمتها الصحافة التي تعتبر من الوسائل الاكثر تمكنا من السيطرة على الرأي العام وعلى صانعي القرار السياسي من أية وسيلة أخرى باعتبارها اسهل تغلغلا وأعمق أثرا، وخاصة عندما كان الرأي العام على علاقة بنمو الصحافة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الذي شهد إزديادا في نمو الصحف ومع انخفاض أثمانها واتساع توزيعها تعودت على ممارسة اعطاء الأخبار والموضوعات لتشكيل الرأي العام الذي لا يتناقض مع سياستها.

والصحافة كوسيلة اعلام وتثقيف للجماهير، وأداة للتأثير على الرأي العام ولدت في ايطاليا مع اطلالة القرن الجديد، وقد ادى التطور الاقتصادي في عهد جوليتي الذي عرفته البلاد في السنوات الاولى من حكمه، وتقلص الأمية ومع زيادة اهتمام الطبقات الشعبية بالحياة السياسية، وتنامي الطبقة المتوسطة من أصحاب الحرف والموظفين الذي يسكنون المدن ويكونون هيكل ايطاليا في عهد جوليتي، وكذلك ظاهرة توسع المدن، كل ذلك ساعد على تكوين جهاز جديد قوي لا يقتصر على الاعلام ولكن لاقناع الجماهير أيضا[4].

وقد تحدث (البرتو كاراتشولو ALBERTO CARACCIOLO) عن المهمة التي يمكن أن تنهض بها الصحافة بقوله:

«من كان له معرفة والمام بكيفية الاستفادة من الوسائل الجديدة، في امكانه أن يكسب معارك كبيرة في تلك التي يسمونها الحرب النفسية، التي بامكانها أن تقوي الانفعال في النفوس والقوات للحصول على جهود لم تعرف من قبل، لا شك أن الوضعية الجديدة للاعلام والصحافة والتعليم والنتائج الجيدة التي حققها هذه الوسائل تفضح من خلال نقل احداث في الحال الى تجمعات كبيرة من الجماهير وحيث أن هذه التجمعات كانت قابلة لان تكون من خلال وسائل الاعلام الجماهيرية دائما اكثر تماثلا في المواقف كما يقول (توينبي TOYNBEE) وبالتالي حتى في القرار والعمل ايضا[5].

وباعتبار أن الصحيفة لم تعد شيئا ثمينا يخص النخبة السياسية والثقافية فقد اصبحت الصحيفة مع مولد القرن الجديد سلعة للاستهلاك يتزايد انتشارها باستمرار، وتدخل في كل يوم الى المكاتب والمنازل وفي المصانع أيضا وتنجح في استقطاب العقول والنفوس[6]. فان ايطاليا اعتمدت على الصحافة في شن حملة اعلامية مكثفة لتهيئة الرأي العام واعداده لقبول فكرة الغزو وخلق رأي عام موحد يسير في هذا الاتجاه. الا انه يصعب تحديد التاريخ الدقيق الذي بدأت فيه هذه الحملة، وان كان المؤرخون ودارسو السياسية يجمعون على وجود حملة صحيفة حقيقية تستهدف التأثير في الرأي العام الايطالي بقبول فكرة الاحتلال، فانهم منقسمون حول تاريخ بدء هذه الحملة فتقول (مارشيلا بينيكرلي MARCELLA PINCHERLE) أن الحملة الصحيفة بدأت في الشهور الاخيرة سنة 1910م و(مالجيري MALGERI) يرى أنها بدأت فقط في أول مارس سنة 1911م.

الا أنه من الصعب الترجيح بين هذه الآراء وتحديد تاريخ دقيق لبدء الحملة فقد تحدثت الجرائد عن طرابلس الغرب وبرقة، ونشرت كتب عن الولايات التركية في افريقيا منذ بداية القرن، ولكن المقالات المتعلقة بالحوادث الايطالوتركية بدأت تتضاعف في شهر اكتوبر 1910.

وقد عثرنا على ما يعزز هذا الرأي في بعض الاعداد من الجرائد التي صدرت في الشهور الاولى من سنة 1902، وقد حفظت في ارشيف المحفوظات التاريخية مترجمة، فمن ضمن هذه الاعداد، العدد الصادر في 15 فبراير 1902 من جريدة (تريبوناTRIBUNA)، تحت موضوع (طرابلس وبرقة ـ الماضي)، وقد جاء فيه:

«لا حاجة الى معلومات واسعة تاريخية وجغرافية للقول بأن هذين الاقليمين كانا قبل الحروب البونية منطقتين مختلفتين فبرقة التي افتتحها اليونانيون ـ باتوس الذي قادته اليها كورين ـ وقعت بعد ذلك تحت حكم البطالمة وآخر ملك لبرقة ـ ابيون ـ تركها بين ايدي الرومان الذين بعد احداث مختلفة حولوها الى ولاية عام 75 ق.م وسميت برقة أيضا باسم بنتابوليس نسبة الى المدن الخمس الثرية الموجودة فيها وهي «تشيريني وأبولونيا وطلميثة وأرسيترية وبرينتشي» وسميت هذه الاخيرة قبل ذلك بهسيبريد، لأن ضواحيها ثرية بالنباتات الزاهرة وامتدت منها على ما يقال حدائق الهسيبريدي المشهورة، وقد كانت برقة بلادا في غاية الخصوبة وأحد الاسواق التي كانت تغذي روما العتيقة بالقمح.

وخضعت طرابلس اول الامر لقرطاج وحدود قرطاج من جهة برقة كانت على طول الموقع المسمى (بأربية فيلينورم) في اعماق سرت الكبيرة»[8].

ولا نعتقد أن امثال هذه الدعاوى بحاجة الى التعليق عليها الا أن التاريخ يعيد نفسه على نفس هذه الصورة في فلسطين المحتلة حيث استغلت أيضا مزاعم مشابهة من اجل احتلال الارض العربية وتهجير الناس اليها، وحيث بدأ كل شيء بتمهيد دعائي ثقافي سخرت له المزاعم الاسطورية التاريخية... بينما قام كل شيء على قاعدة عنصرية استعمارية فاجعة هي (حق الاقوى في استعباد الاضعف).

ويتضح أن الصحف في هذه الفترة كانت تشير الى ارتباط ليبيا التاريخي بايطاليا، وأنها بلد روماني يرتبط عضويا بالوطن الام روما، فكان الربط الثقافي أحد المبررات التي تستند الصحف عليها في ما يسمى بحقوق ايطاليا التاريخية في الاحتلال.

وفي مقال آخر لجريدة «الجورنالي دي ايطاليا Giornale d'Italia» من مراسلها الخاص في تونس بتاريخ 19 ابريل 1902 تحت عنوان «طرابلس وتونس» ترد مزاعم باتجاه اهل الجنوب بأنظارهم الى السلطات الفرنسية، فالصحف التونسية: «تؤكد على القلق الذي ينتاب أهالي غدامس وفزان للاستفزازات التي تقوم بها الفرق العسكرية التركية، وفي الوقت نفسه قلقون لاحتمال احتلال ايطالي ولذلك فهم يتجهون بانظارهم الى فرنسا الذين تعلموا منها محبة الحرية التي تعتبر عندهم رمز الأمان لأشخاصهم وممتلكاتهم».

وتعلق الجورنالي دي ايطاليا على هذه الصحف بقولها:

«ان هذه الجرائد تسعى الى استمالة الشعب، وقد ثبت لي من مصادر أخرى رغبة فرنسا في ضم غدامس الى تونس».

وفي المقال نفسه ركزت الجورنالي دي ايطاليا على الثقافة الايطالية التي انحدرت كثيرا في تونس بفعل الثقافة الفرنسية، ونوهت الصحيفة بالاهتمام بالثقافة الايطالية التي ستساعد بدون شك في التمهيد للاحتلال فقالت:

«لقد لاحظنا في ثلاث مدارس يديرها معلمون ساليزيان ويتردد عليها طلبة من الايطاليين، ان تعليم اللغة الايطالية لا يزال ناقصا وهكذا فان أهم وأضمن دفاع عن الروح الايطالية في المستعمرة هو دائما المدرسة الحكومية طالما تضمنها المعاهدات السارية، وقد يمكن تحسين نسبياتها وضماناتها بمعاهدات تبرم فيما بعد، ان وجود عدد كبير من العنصر الايطالي في المدينة الجديدة في تونس حقيقة ظاهرة رغما عن تنازل هذا العنصر عن حقوقه وامتيازاته، وكنت بالامس ازور الاثار القليلة الباقية في المنطقة الواسعة من قرطاجة وجدت الاولاد هناك يجتهدون في التكلم بالايطالية ولو انهم يعرفونها أقل من الفرنسية، وتحت أروقة جادة فرنسا صادف أن تصادم معي عربي وهو سائر فالتفت اليَّ ببشاشة وقال لي (سكوزا SCUSA)(*) وبعد ذلك (باردون PARDON)(**) وطالما نحن في طريق التفاهم الفرنسي الايطالي يجب علينا أن نتمسك بأن ذلك لا يكون لائقا اذا كانت حرية العمل الاجنبي التي قبل بها السنيور بشون لا تصحبها حرية في الثقافة الوطنية وفرض الحماية على وسائل الثقافة الادبية لاهالي البلاد»[9].

وهكذا تقرر الصحيفة وبكل صفاقة أن الثقافة الايطالية هي الثقافة الوطنية لاهالي البلاد في تونس، وأن حمايتها والدفاع عنها لا بد أن تتم بالتفاهم مع فرنسا، وكيف لا يكون ذلك وقد نطق أحد الشبان العرب بكلمة (سكوزا SCUSA) الايطالية، ولا ندري كيف يكون موقف الصحيفة لو نطق شاب ايطالي الكلمة بالالمانية ثم طالبت صحف المانيا بحماية ثقافتها في ايطاليا.

واذا كانت التلميحات والتوجيهات نحو طرابلس قد بدأت في الصحف الايطالية منذ القرن الماضي، فان أول اشارة صريحة ومباشرة للاحتلال ربما وردت في صحيفة (التمبو IL TEMPO) الصادرة في ميلانو بتاريخ 24 مارس 1902 تحت موضوع (ثرثرة طرابلس) جاء فيه:

«هل سنذهب أم لا الى طرابلس؟ سألنا منذ بضعة ايام في روما أحد رجال الحكومة ـ الان تحت الطلب ـ وهو مطلع على المسائل الدولية، كما له اهتمامات بنوع خاص بالسياسة الخارجية نظرا لمركزه واتصالاته مما سيجلعه من أحسن

(*) سكوزا Scusa كلمة ايطالية تقال للاعتذار.

(**) باردون Pardon كلمة فرنسية تقال للاعتذار.

الملمين في هذا الموضوع. اندهش صديقنا لسؤالنا المفاجىء ـ غير الديبلوماسي ـ وأجاب ـ لا نذهب انما أرى ضرورة الذهاب.
ـ إني أفهم أننا بعيدون للغاية عن النظر في المسائل الاستعمارية بوجه عام والافريقة بوجه خاص، ولكنني أرى انكم أعضاء اليسار الاقصى من جمهوريين واشتراكيين ستغيرون وتعدلون اراءكم تعديلا كبيرا في مواضيع كثيرة، وعن مشكلة طرابلس بنوع خاص»[10].

الا أن الحملة الاعلامية كظاهرة عامة ومحرضة في جميع الصحف التي اتفقت في هدفها لاعداد الرأي العام وتهيئته بقبول فكرة غزو طرابلس وبرقة قد بدأت بشكل مكثف في نهاية 1910، ونهاية هذه السنة تمثل المرحلة الاولى التي تتناول على وجه الخصوص العلاقات الايطالية التركية، وتنتهي هذه المرحلة في شهر مارس 1911.

والمرحلة الثانية تمحورت فيها الحملة على ضرورة التدخل المباشر الايطالي في ليبيا، وبداية شهر مارس 1911 اتجهت الحملة الصحفية نحو التعميم في جميع الصحف[11].
وقد اعتمدت الصحافة الايطالية أسلوبا مبسطا في صياغة حملتها الدعائية رغم أن الاساليب الدعائية لم تكن معروفة بصورة كافية بعد ولم تظهر الا خلال الحرب العالمية الثانية أو في اعقابها الا أن الصحافة الايطالية اقتربت الى حد كبير من تطبيق أغلب متطلبات أية حملة دعائية فعالة بشكل يكاد يكون تلقائيا من حيث البساطة والقدرة على جذب الانتباه واثارة الاهتمام وقابليتها للتصديق وصلتها وارتباطها بالجمهور المخاطب وتوفقها وعدم تناقضها ـ الى حد ما ـ والترديد والتكرار المستمر لبعض عناصر الدعاية[12].

واعتمدت في اسلوبها على بعض العناوين البارزة ذات الرنين الذي يسهل حفظها وترديدها والتي في الوقت نفسه تخاطب عواطف الجماهير التي تنفعل مع هذه العناوين انفعالا دهمائيا. مثل «طرابلس الجميلة، وأرضنا الموعودة» أو الاستناد الى مبررات تاريخية واهية، أو الاشادة بالاهمية الاستراتيجية والاقتصادية لطرابلس وبرقة، والتشديد على خصوبتها ووفرة ثرواتها الزراعية مستغلة الاوضاع الاقتصادية المتردية لدى الجماهير، وطموحها الى الرفع من مستواها الى مستوى الشعوب الاوربية المجاورة، وتصوير ليبيا بأنها الهدف المثالي للهجرة الفلاحية لسكان الجنوب، واتفقت الصحافة جميعها باستثناء ـ الصحافة المعارضة ـ على الاشادة بمقدار الربح الكبير الذي يمكن أن تحققه ايطاليا باستيلائها على ليبيا، وأثر ذلك على انتعاش البلاد اقتصاديا.

وكل ذلك تعززه باستمرار الذكريات القديمة للحروب الصليبية بالاضافة الى صورة روما الامبراطورية وممتلكاتها في افريقيا التي يمثل احتلالها عودة ايطاليا الى الطرف الآخر من شواطىء البحر المتوسط التي كانت تملكها.
وكانت ايطاليا قبل هذه الحملة قد نمّت ادعاء عاطفيا بحقها في هذه الولاية التركية طيلة

أكثر من قرن وقد بنت ذلك الادعاء على حقيقة أن طرابلس تقع بعد مسيرة يوم بالباخرة من صقلية، وأنها كانت في السابق ولاية رومانية[13] كما ركزت الصحافة على الرسالة الحضارية الانسانية التي تنتظر الايطاليين في تمدين الشعب المتخلف في ليبيا وذلك بنقل حضارة ايطاليا اليهم، كما نقل الاجداد حضارتهم وثقافتهم الى هناك.

**هوامش**

1 ـ د. مختار التهامي، الصحافة والسلام العالمي، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم. نشر الرسائل الجامعية، القاهرة 1964، ص 23.

2 ـ د. محمود فهمي (الفن الصحفي في العالم)، دار المعارف بمصر، 1964، ص 15.

3 ـ د. مختار التهامي، مرجع سابق، ص 23.

4 ـ Francesco MALGERI
La Guerra Libica 1911 - 1912 / Roma 1970 p 49.

5 ـ IBID p 50 in Alberto CARACCIOLO «L'ingresso delle Massa sulla scena europea BARI 1970 pp 187 O;ss

6 ـ Francesco MALGERI op; cit; p 49

7 ـ Mahmoud LARFAOUI (L'Occupation' italienne de la Tripolitanie et la Cyrenaque ou naissance d'un imperialismo «1882 - 1911» Trese doctorat. Paris (Dactylo graphie) 1978 - p 534

8 ـ La Tribuna (Tripoli e Crenaica) 5.2. 1902.

9 ـ الترجمة، من وثائق المحفوظات التاريخية (تر. خليل حبيقة)
Giornale d'Italia - Tripoli, Tunisia 19. 4. 1902

10 ـ جريدة (التيمبو IL TEMPO) مقال محفوظ بأرشيف المحفوظات التاريخية.

11 ـ Mahmoud LARFAOUI op; cit; P. 534

12 ـ اسماعيل صبري مقلد (العلاقات السياسية الدولية) جامعة الكويت، ط 1 ـ 1971 ص 183.

13 ـ فرانسيس ماكولا، (الغزاة) تر. عبد الحميد شقلوف، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ط 1 1979، ص 29، ويستغرب ماكولا هذا الادعاء فيقول: «ولا أجد حاجة للاشارة الى هزال هذه الاساليب فقد كان إنجلترا أيضا رومانية، وهنالك مالطا المستعمرة الانجليزية التي هي أقرب الى طرابلس من صقلية».

## المبحث الثاني :

### أ ـ الصحافة القومية : (*)

كان القوميون الايطاليون منذ سنوات يؤملون في حرب مهما كانت تكاليفها ونوعها لتخلص ايطاليا من الاتجاهات السلمية والانسانية والديمقراطية الاممية وجميع ما يشابهها من تيارات كان يعتبرها القوميون قد سممت الحياة في البلاد، وأحالتها الى حياة خانقة كئيبة، والسبب سياسة الحكومات الاصلاحية الضعيفة[1].

وتزعّم حركة القوميين الرامية الى الحرب (انريكو كواراديني E. CORRADINI) والذي كان باتجاهه الامبريالي يرى في التوسع الاستعماري وفي حرب الاستيلاء نظاما اخلاقيا، وأسلوبا للبعث الوطني وكان يرى في تلك الحرب :

ـ «علامة لعصرية متحررة من أي نوع من وخز الضمير والنفاق الحضاري، صادقة وعملية، وكل ذلك يعني أن العاطفيين والانسانيين والمبشرين بالحب والسلام وفلاسفة الطبقات والثقافات الاممية، هم فعلا مناقضون لروح عصرنا في الوقت الذي يجب أن يعبروا عن الجانب الافضل منها»[2].

ومنذ مؤتمر فلورنسا في نوفمبر 1910 وهو المؤتمر الذي ضم عناصر من مختلف الاتجاهات من الاشتراكيين والليبراليين والمعتدلين والمحافظين والذي عقد تحت رئاسة (شيبيو سيغيلي SCIPIO SIGHELE) وفيه تقرر انشاء لجنة مركزية للحركة ولجنة تنفيذية، وانشاء الاتحاد القومي.

وفي هذا المؤتمر كتب النجاح لتيار كوراديني، ويمكن القول انه منذ ذلك الوقت أخذت تتحرك الحملة القومية لصالح احتلال ليبيا وقد حدد القوميون مسارهم المباشر في الصراع فكان الخيار اما أن تحتل ايطاليا طرابلس في الحال حتى تتقدم الى الامام أو أن تتنازل عنها كلية وتتخلف بصورة لا يمكن تلافيها مستقبلا[3].

---

(*) نقصد بالقومية والقوميين أصحاب الاتجاه المتطرف الضيق الذي ينطلق، من فوقية الامة على سواها والذي كان منطلقا للاتجاه الفاشي فيما بعد ونظرا لموقف القوميين المتطرف، الداعي الى استعمار ليبيا، والذين يرون في التوسع الاستعماري انبعاثاً جديداً لايطاليا، اطلقت الصحف الوطنية «الترقي والمرصاد» اسم (حزب الاستعمار) على اصحاب هذا الاتجاه.

وكانت حركة القوميين مؤيدة من عدة صحف ودوريات مثل:
(لا غراندي ايطاليا La Grande Italia) (لا فوتشي La Voce) (ال رينيو Il Regno) (لا ريفيستا دي روما La rivista di Roma) (ال كاروتشيو Il caruccio) (لا بربارزيوني Preparazione) (ماري نوستروم Mare nostrum) (ليطاليا الليستيرو L'Italia all'estero) (ال تري كولوري Il Tricolore) (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale).

وتهدف (ال رينيو Il regno) التي تأسست في 7 نوفمبر 1903 لاحداث ردة فعل ضد حالة الانحطاط التي بلغتها الامة بسبب اخطاء (الملكية الاشتراكية)، وحلت محلها (لافوتشي La voce) في عام 1908 المناهضة للاوضاع القائمة، وعدت نفسها جريدة تنطق باستقلال عن الاحزاب وتعبر عن المبادىء العليا للنضالات السياسة، أي أنها تعبر عن الوحدة الوطنية التي يجب تحقيقها فوق الطبقات وفوق كل الاحزاب[4].

كما أنشئت الجريدة اليومية الكبرى (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) ومهمتها أن تمارس على الرأي العام تأثيرا مستترا، وهي الممارسة التي ادت كما لاحظ (بينون R. Pinon) الى دمج الجماهير في العجينة القومية دون ضجة.

ويعتبر أول مارس 1911 تاريخا لاصدار العدد الاول من الجريدة القومية ويرتبط هذا التاريخ بالذكرى السنوية لهزيمة (عدوة Adua)(*) ويعني ذلك أن القوميين لا يريدون أن تتكرر مثل هذه الهزائم، وأن يكون هذا التاريخ بداية لعهد جديد عهد بعث الروح القومية[5].

وفي عددها الاول حددت (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) موقفها في مقال بعنوان (Che Cosa si vuole per la Tripolitania.) ماذا تساوي وطرابلس؟ كتبت فيه:

«المسألة الطرابلسية قائمة اليوم، وتبدو واضحة في جميع سوابقها التاريخية والسياسية والدبلوماسية، والتجارب المؤلمة لسياسة الوفاق مع الباب العالي أصبحت واحدة، وهي الاختيار الحاسم الذي يجب أن يوضع من قبل حكومة ايطاليا امام الحكومة التركية، أمّا أن تضع حدا لعدائها، أو تعترف بحقوقنا في طرابلس، أو أن نحتل الاقليم وليس هناك طريق وسط»[6].

ومنذ هذا الوقت صارت الفكرة التي تمسكت بها الصحيفة هي الغزو الضروري لطرابلس وبرقة، وكما لاحظ (شيبيو SCIPIO SIGHELE) فان السياسة الخارجية والسياسة التوسعية نالتا مكانة سامية في المقالات التي حررها فريق المتعاونين الذي يضم (كورراديني CORRADINI وكوبولا CUOPOLA) وهو من المحافظين، وثلاثة اشتراكيين وهم (فيدرازيوني، FEDERAZIONE) وفورجيس دوفانزاتي F. DAVANZA (ومارفيليا MARVIGLIA).

ويبدو ان (انركيو كورراديني E. CORRADINI). كان الاكثر الحاحا على فكرة الغزو، وأخذ ينشر افكاره عن الحرب الضرورية ضد تركيا ولم يتردد عن السعي في مناكب ايطاليا

(*) الهزيمة التي منيت بها ايطاليا في الحبشة سنة 1846 حيث قتل حوالي سبعة الاف جندي ايطالي في هذه المعركة.

عاقدا مؤتمرات في عدد من المدن الايطالية وزار في شهر يوليو 1911 ليبيا حيث كتب فيها عدة مقالات الى جريدته، جمعها فيما بعد في كتاب «ساعة طرابلس L'Ora di Tripoli» ولعب كوراديني بمقالاته دورا جوهريا في اعداد الرأي العام الايطالي لفكرة الغزو.

وكان (كوراديني CORRADINI)، يرى أن الدولة العثمانية فقدت كل مقومات وجودها في طرابلس، بعد أن بدأت بالانهيار والضعف، ويرى أن طرابلس أصبحت من حق ايطاليا التي تملك القوة وهي أحد أسباب الوجود والبقاء فكتب في صحيفة (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) الفكرة الوطنية:

«ان حقوق الشعب التاريخية في ارضها تبقى ثاتبة ومستمرة ما دام لها نظام حكم مستمر.. ويمكن القول أن حقوقها التاريخية تكون قائمة ما دامت حكومتها قائمة، وبمجرد انتهاء نظامها الحكومي فانها تترك شيئا يجب ان يحكم ويصبح خاضعا، ومن العدالة أن تفقد الدول الميتة صلتها بالارض، والشعوب تفقد حقها في هذه الارض لانها فقدت امكانيات البقاء والقوة التي تمكنها من اثبات تلك الحقوق»[7].

وهذه بمجموعها أفكار غريبة في كل المعايير الانسانية للتعامل البشري ومهما قابلناها بالاستنكار فانها هي التي تفسر سياسة الصهاينة حاليا في اسرائيل وسياسة العنصريين في جنوب افريقيا، فما دامت هناك قوة فذاك يعني أنها يجب أن تسيطر والشعب ــ وفق هذه النظرة ــ فقد حقه في الوجود لأنه فقد القوة التي يمكنه بها مجابهة الغزاة. والحق أن المستعمرين الايطاليين قد طبقوا بالضبط هذه الافكار في خلال تعاملهم مع اهل البلاد خلال فترة طويلة.

ويحاول كوراديني أيضا أن يجعل من ليبيا مغنما ينقذ الايطاليين من فقرهم مستغلا الظروف القاسية التي يعيشها الايطالي في بلده، وجعل من الاحتلال حافزا للانتقال الى حياة أفضل مؤكدا على أن ليبيا بلد غني وخصب وان كان لبعض نواحيها مظهر الصحراء فذلك عائد الى الانسان الذي توقف منذ زمن عن خدمتها فيقول:

«هذه الاراضي لم تهمل لأنها جدباء، بل هي جدباء لأنها مهملة»[8].

ويكتب عن ثروة طرابلس وغناها، وخصوبة برقة فيقول:

«يعتقد أن بطرابلس ثلاثة ملايين نخلة مثمرة، وبرقة خصبة جدا فقيرة في المياه السطحية وغنية بالمياه الباطنية ومرتفعاتها الجبلية مغطاة بالغابات وبالقمح والشعير، وهناك معادن كبريت وفوسفات، ويشبه جو برقة اغلب مناطق طرابلس وهو صحي جدا، والحرارة شبيهة بحرارة صقلية فهاتان المنطقتان ــ أي طرابلس وبرقة ــ هي كل ما تبقى لنا من امبراطورية روما على شواطىء افريقيا»[9].

ويرفض (كوراديني CORRADINI) الدخول في معارك كلامية حول هذا الموضوع، خاصة أن بعض البعثات أكدت في ابحاثها على فقر ليبيا، ولكن بالنسبة اليه لا يهم أن تكون ليبيا بلدا غنيا أو فقيرا، لأن العامل الجوهري الذي يدفع القوميين الى المطالبة بغزو هذه البلاد

هو دافع سياسي وليس اقتصاديا، ويتعلق بالسياسة الخارجية، وليس بالسياسة الداخلية فكتب:

«الموضوع الأول ضرورة قيام ايطاليا بالاحتفاظ بمكانتها وتنميتها على البحر المتوسط ضد القوى التي تسيطر على نفس البحر، الزياتين والواحات يجب أن تستهوينا، وجعلها تثمر سيكون انجازنا الذي نفخر به في هذا القرن، والثمار ستكون جائزتنا ومكافأتنا، ولكن عبور البحر سيكون واجبنا حتى وان كان في ذلك تضحية، وهذا الواجب فرضه علينا الاخرون»[10].

وتدارست صحيفة (ايديا ناسيونالي Idea Nnazionale) المسألة من كافة جوانبها، وقد حاول (غوالتيري كاستيلاني G. CASTELLINI) الذي زار طرابلس بعد عودته نشر سلسلة مقالات تشيد بثروة وموارد البلاد وحاولت الصحيفة أيضا أن تخلق ضغوطا ضد تصرفات الحكم التركي المعادية للمبادرات الايطالية، وفي المقابل كان مراسلو الصحف القومية الداعون للحرب والذين زاروا طرابلس قبل الحرب يدبجون رسائل عنيفة اللهجة يتحدثون فيها عن عدم التزام العرب بواجبات اللياقة والاحترام الخاص الذي يجب أن يميّز به الايطاليون عن غيرهم وفق اوهام هؤلاء الصحافيين، فيشكو أحدهم من أن الايطالي في الجمرك بالقلعة ـ في طرابلس ـ وفي كل المكاتب العامة كان يترك لينتظر آخر الناس ويقف آخر رجل في الصف بينما يأتي في مقدمة الصف الانجليزي والالماني والفرنسي بينما أحفاد «سيبيوس» يصنفون علميا مع اليونانيين والاسبان وأبناء امريكا الجنوبية، ومن الممكن تماما أن هذا كان احد الاحزان المطوية التي أجبرت «جوليتي» اخيرا على الحرب وأعلن أنه سيجبر العرب المتغطرسين على الارتعاد لدى ذكر اسم روما[11].

واهتمت الصحافة القومية بالتركيز على موقف ايطاليا في الحلف الثلاثي الذي لم يكن يسمح بالتردد في اتخاذ القرارات[12] وفي الخصوص نشرت صحيفة (ايديا ناسيونالي I. Nazionale)، مقالا تحت عنوان «المصالح الايطالية مهددة في طرابلس» جاء فيه:

«اذا ما اظهرنا لحلفائنا بتواجد قواتنا، فاننا نزودهم بالثقة التي فقدوها، واذا كنا نطرح بوضوح حقنا في طرابلس فاننا نقدم الدليل على رغبتنا في مناقشة سياستنا الخارجية على اساس مصالحنا، والذي يزيد خطورة اليوم نظرا لاحترامنا للوضع القائم الذي يرغبون منا أن ندفع ثمنه في البحر المتوسط وذلك في محاولة منعنا من أي عمل نرى أننا نتمتع بكامل الحرية في أن نقوم به»[13].

وكان هؤلاء القوميون المتطرفون يأملون في أن يتم الاحتلال في اسرع وقت ممكن حتى ولو كان هذا الاحتلال على حساب الاوضاع الداخلية السيئة في ايطاليا والتي تحتاج الى الاهتمام، ولا يمانعون في تأجيل الاصلاحات الداخلية لسنوات عدة في سبيل تحقيق احلامهم التوسعية، وقبل أن تفوت الفرصة على ايطاليا وتكون من نصيب دولة اخرى، وفي هذا الصدد يقول كوراديني:

«يجب علينا أن نضرب قبل أن يضرب غيرنا، بالامكان أن نؤجل تغيير الاوضاع

في الجنوب لعشرات السنين، ولكن لا يمكننا بأي حال من الاحوال أن نغض الطرف عن الصراع بين انجلترا وفرنسا والمانيا والنمسا حول استقلال طرابلس واذا ازدادات مصالح هذه الدول في طرابلس ستقضي على مصالحنا بدون شك»[14].

وبعد أن حقق القوميون غرضهم من حملتهم الاعلامية في التأثير على الرأي العام، اتجهوا الى الضغط على الحكومة للتعجيل باحتلال ليبيا، ومع شهر سبتمبر بدأ ينفد صبرهم، وأخذ ذلك الشعور يتزايد يوما بعد آخر، وبدأوا في شن حملة شديدة للضغط على حكومة جوليتي المتلكئة في الاحتلال وبدأ الاقتناع بأن هذا الاحتلال أصبح ضرورة لازمة لا تقبل المماطلة من قبل الحكومة وحول هذا الموضوع كتبت (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) منتقدة سياسة جوليتي المتباطئة المتمهلة:

«اذا كان جوليتي شيخا مترددا، وضايقته المهاترات الاشتراكية فلا يجب أن يؤخر الامة التي تجاوزت التردد والخطر الذي فرضته انانية الاشتراكية الديمقراطية الجبانة فاذا كان جوليتي يماطل في هذه المرة فقد يلحق عمله هذا الضرر بايطاليا، وسنعرفه هذه المرة أنه أخطأ وسيعاقب وكل خطأ سيكون خيانة»[15].

وواضح أن صحيفة القوميين (ايديا ناسيونالي I. Nazionale) ذات أفكار مضادة للاشتراكيين وهي ذات اتجاه محافظ، بل قريبة من الاكليروس والفاتيكان وباعتبار الجريدة لسان حال التوسع الايطالي، فانها لم تناقش موضوع السياسة الداخلية الا بطريقة تبعية وعندما تكون ذات تأثير على السياسة الخارجية لايطاليا[16].

وقد جسدت هذه الصحيفة اتجاها كاملا في الحياة السياسية والاجتماعية في ايطاليا وهو اتجاه القوميين المتطرفين، الذين يجمعون بين العناصر التي اعماها الهياج القومي المتحمس، وعناصر الاكليروس والفاتيكان والصناعيين الذين كانوا يبحثون عن سبل جديدة لتشغيل الصناعة الاستعمارية، وتحقيق المكاسب، ويبدو أن هذه العناصر هي التي كانت تمسك بدفة الحكم في البلاد وتصنع قراراته الأساسية التي انتهت كما نعرف بالمحنة المعروفة في تاريخنا الحديث.

هوامش

1 – Francesco MALGERI op. cit. p 37
2 – IBID
3 – Francesco MALGERI op. cit. p 38
4 – Mahmoud LARFAOUI op, cit p 557.
5 – Mahmoud LARFAOUI op, cit p 558.
6 – Idea Nazionale (Che cosa si vuole per la Tripolithaine)
7 – ENRICO CORRADINI (L'ora di Tripoli ) Milano 1911, p 12.

8 - IBID p. 97.

9 - IBID p. 12.

10 - IBID p. 223.

11 - فرانسيس ماكولا، مرجع سابق، ص 35.

12 - Francesco MALGERI op. cit. p. 41.

13 - Idea Nazionale «Gli Interessi Italiani in Tripolitania» 5.4.1911.

14 - Enrico CORRADINI op. cit. p. 30.

15 - Idea Nazionale «La Nazione torna Crispi» 14.9.1911.

16 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 562.

## ب ـ الصحافة الليبرالية:

من بين اليوميات الصحفية الهامة الليبرالية نذكر:
(كوريرا دي لاسيرا Corriere della sera) (لاستامبا Stampa) (لاتريبونا la Tribuna) (جورنالي دي ايطاليا G. d'Italia).

والصحيفتان الاولتان تمثلان التيار الليبرالي المؤيد للاتجاهات الحكومية بينما كانت الاخيرتان تعبران عن المعارضة، وكانت (الجورنالي دي ايطاليا Giornale d'Italia) بصفة خاصة والتي كان مدير تحريرها (جورجو سيدني Giorgio SIDNEY) من اكثر الخصوم شراسة وعداء للرئيس جوليتي، أما (لا تريبونا la Tribuna) فكانت لسان حال المؤيدين للحكومة بل كانت تظهر وكأنها جريدة (رسمية) مسيطر عليها مباشرة من طرف جوليتي بعد تدخل مباشر قام به في بعض الاوساط المالية مثل (المصرف التجاري Banca Commerciale) أو الصناعية مثل (شركة السكر la Sucurie Ligure Lombarde)، بهدف دعم الجريدة ماديا وخصوصا بعد أن تعرضت لبعض الصعوبات المالية[1].

وعين جوليتي صديقه الشخصي (اولندو مالاغودي O. MALAGODI) ويذهب (فولبي Gioacchino VOLPE) الى درجة القول بأن الحملة كان مخططا لها من طرف جوليتي نفسه[2]، ويؤكد هذا القول تدخل جوليتي في تعيين صديقه الشخصي مديرا للجريدة.

وقد ركزت الصحافة الليبرالية اهتمامها على محورين، نقد السياسة الخارجية للحكومة. ووصف اسطوري لليبيا كأرض ميعاد حقيقية للايطاليين وبدأت (الجورنالي دي ايطاليا Giornale d'Italia) لسان حال المعارضة مهاجمة وزير الخارجية (دي سان جوليانو Di san Giuliano) بسبب سياسته التي تفتقر الى القوة تجاه الباب العالي.

ومنذ بداية يناير 1911م، طالبت الصحيفة بسياسة خارجية فعالة، ونشرت مقالا تحث فيه على ضرورة اعداد الرأي العام بطريقة تؤدي الى وقوفه الى جانب مثل تلك السياسة الفعالة[3]. وفي الاسبوع الاول من يناير من نفس السنة كانت الصحيفة أكثر وضوحا في تحديد المسار الذي يجب أن تسلكه السياسة الخارجية تجاه طرابلس فقالت:

«في البحر المتوسط، طرابلس الغرب وحدها لا زالت مفتوحة للنفوذ الايطالي، وكذلك يجب اعداد البلاد لكل الاحتمالات»[4].

وطوال الشتاء والربيع اتجهت انتقادات (الجورنالي دي ايطاليا) الى شخص وزير الخارجية ولم تتردد في توجيه هجومها مباشرة الى شخص رئيس الوزراء نفسه فتقول في عددها الصادر في 5 يوليو 1911:

«بينما تعمل كل الدول بجد من أجل تحقيق احلامها الاستعمارية، يترتب على ايطاليا أن تبقى دائما خالية اليدين فقط لانها محكومة من قبل دكتاتور يكره الحديث عن السياسة الخارجية ومن وزير خارجية يفتقد تماما للانضباط والارادة»[5].

وسرعان ما انضمت جريدة (لاستامبا La Stampa) الى جريدة «الجورنالي دي ايطاليا» في

نفس الاتجاه، وفي 4 يونيو والجريدة لا زالت تحت تأثير أفكار العظمة والقوة التي يروج لها القوميون، تنشر مقالا رئيسيا عنوانه (Politica di Vilta) أي سياسة الضعف طالبت فيه بتغير جذري في السياسة الخارجية الايطالية، جاء فيه:

«لقد آن الأوان لكي تقرر بصراحة ووضوح ما اذا كان على ايطاليا أن تتخلى عن كل نفوذ خارج حدودها، وحان الوقت لمعرفة ما اذا كانت هذه السياسة المتخاذلة الخانقة مفروضة بظروف ضعف عضوية، أم هي بسبب ضعف ودونية الحكومة ان الشعب الايطالي لا يستحق مثل هذه السياسة الخارجية عديمة القيمة والمفروضة عليه والتي كان يتحملها بكل مرارة».

وبلهجة ساخرة نصحت الجريدة الحكومة بتوفير نفقات الجيش والاسطول اللذين لا مبرر لها اذا كانت ايطاليا ستستمر في سياسة التخلي عن البلقان وطرابلس، والبحر المتوسط، والبحر الادرياتيكي، وقالت باللهجة التي يستعملها العسكريون العنصريون حاليا والذين لم تصنع الاسلحة والبوارج بالنسبة لهم الا من اجل الاعتداء على الاخرين، ومن أجل تقتيل الناس واشاعة الموت والدمار، فاذا لم تقم بمهمتها هذه جاز بيعها، تقول الصحيفة:

«لننغلق اذا داخل حدودنا، ونبيع جميع بوارجنا ومدافعنا التي اكتسبناها بتضحيات جمة، ولنقبل أن يجعل منا سويسرا وأن نحيا حياة محدودة وخانقة»[6].

وهاجمت الجريدة مباشرة وزير الخارجية ووجود القناصل قائلة:

«انه عندما تقتصر السياسة الخارجية على تسجيل المقاولات والشركات الاجنبية فان وجود وزارة للخارجية يكون ترفا مبالغا فيه»[7].

وفيما يخص هذا الموضوع انتقد (دي سان جوليانو) لهجة (لاستامبا) وموقفها السلبي من العمل الدبلوماسي الذي يقوم به وقد بعث برسالة الى جوليتي في 19 اغسطس وصف الصحيفة بأنها:

«وزارية في كل شيء ماعدا السياسة الخارجية»[8].

وهاجمت الصحيفة أيضا رئيس الوزراء جوليتي وعقدت مقارنة بينه وبين (كريسبي) فكتبت تقول:

«ان ايطاليا اليوم تحتاج الى رجل مثل كريسبي. لم يكن لكريسبي من قبل وسائل تحقيق السياسة الخارجية التي كان يدعو لها، وايطاليا تملك اليوم هذه الامكانيات ولكن ينقصها الرجل القادر على استعمالها، وبالنسبة لهذا الرجل العظيم كريسبي فان ايطاليا اليوم قد استوفت التقدم الاقتصادي اللازم للبدء في النشاط الاستعماري في طرابلس الغرب»[9].

وقد ظلت هذه الصحف حتى شهر مارس تنتقد بصورة شاملة العداء التركي والتعليق على تصريحات وزير الخارجية لاظهار مدى اهتمامها بالمسألة الطرابلسية ويقول (مالجيري MALGERI) لم تكن الحملة حسب وجهة نظري حملة مركزة في مستوى اللهجة والحرارة التي عرفتها فيما بعد[10]، وحتى تحقق الحملة أغراضها فقد ارسلت الصحيفتان (La STAMPA) و(La

(TRIBUNA) مندوبين الى طرابلس هما (جيوسيبي بيازا G. PIAZZA) و(جوسيبي بيفيوني G. BEVIONE) في اول مارس 1911م. ويرتبط هذا التاريخ بذكرى هزيمة عدوا وبانشاء صحيفة (IDEA NAZIONALE)، ويبدو أن هذا التاريخ أصبح كابوسا مزعجا في تاريخ ايطاليا ويرغبون في الخلاص منه بأي حال من الاحوال وقد أكد على هذا الرأي (Gualtiero Castellani) في كتابه (تونس وطرابلس) بضرورة التأكيد الامبريالي من أجل بعث ضمير وطني ايطالي[11]، وقد حاول (بيفيوني BEVIONE) في حملته أن يؤثر على الرأي العام بتهييج عواطفه وتوجيهها نحو الماضي السحيق حيث كانت الامبراطورية الرومانية دولة مترامية الاطراف لها ممتلكات على الشمال الافريقي، وينسى أن الحضارة العريقة قد قامت وازدهرت على الارض الليبية منذ قرون طويلة قبل أن توجد روما على خارطة العالم، ولهذا تبدأ مغالطات التاريخ عندما يشير الكاتب الى ضرورة عودة الحكم الروماني الى ولاية طرابلس، وكأنه يمثل المرحلة الحضارية الوحيدة في تاريخ هذه الارض فهو يطالب ايطاليا بأن تعود الى هذه البلاد لتعيد أمجاد الماضي فيقول:

«ان الحكم الروماني الذي جاء من بعده حكم العرب والترك بآفاتهما الى ولاية طرابلس كان يجب أن يأتي من بعده حكم رابع ليعيد انطلاقة الحكم الروماني في نفس الاوطان، حيث جاءت الى برقة تحمل النور والارادة القوية لاعادة الاوضاع القديمة، ولتعيد بناء المدن الخمس التي أقام فيها الرومان حدائق الهيربيدس درة البحر المتوسط»[12].

ويشير (بيفيوني BEVIONE)، الى الناحية الاقتصادية التي يمكن أن تخدم ايطاليا، فيصف طرابلس وبرقة في سلسلة من المقالات، ولعله كان يتذكر كاتون عضو مجلس الشيوخ الروماني الذي جاء الى الشمال الافريقي قبل حروب قرطاج وعاد منها بسلة من التين الذي رماه امام أعضاء المجلس صائحا «ثلاثة ايام فقط تفصلنا عن الارض التي تنتج هذه الثمار». فأرسل بيفوني هذه المقالة التي عبرت عن الجشع الاستعماري وقال فيها:

«لقد رأيت اشجار التوت كبيرة كأشجار الزان، وشجر الزيتون أكثر ضخامة من شجر البلوط، والبرسيم يمكن ان يحصد اثنتي عشرة مرة في العام، اشجار الفاكهة تنمو نموا رائعا، الحنطة تعطي انتاجا يزيد ثلاثة او اربعة أضعاف عن انتاج اوربا المزروعة بالاساليب العلمية، الشعير من اجود الانواع المعروفة، وقد استأثرت به انجلترا لصناعة الجعة، الماشية تتكاثر رغم الاهمال الحالي، تصدر بمئات الالوف من الرؤوس الى مالطا ومصر. الكروم تعطي عناقيد تزن الى 2 او 3 كيلوجرام للواحد منها، الشمام والبطيخ تنمو بأحجام لا تصدق تصل الى عشرين أو ثلاثين كيلوجراما للثمرة الواحدة»[13].

ويصف درنة في 8 مايو بأنها:

«تكتسي البساتين والمزارع بأشجار النخيل والزيتون والتين واللوز والمشمش والبرتقال والاترج والموز، وتفيض الاشجار بسخاء على الحوائط القصيرة التي

تفصل البساتين، كما يفيض خمر عتيق على جنبات كأس مترعة»[14].

ومن جهة أخرى فان صحيفة الجورنالي دي ايطاليا قبلت بكل تأكيدات بيفوني وردت على الذين يدعون بأن ليبيا ليست أكثر من صحراء شاسعة وأن الامر لا يعدو كونه اسطورة خلقها الاتراك، وأيدت الصحيفة قناعتها أنه باستغلال الارض استغلالا عقلانيا رشيدا، وبالعمل على مدى متسع من الوقت فان مشكلة الفقر في طرابلس ستحل، أما عند حديثها عن فقر ليبيا الحالي وضرورة القضاء عليه بتنمية البلاد فان الصحيفة تقبل ضمنا أن ليبيا جنة عدن أو حدائق هيسيريدس حسب وصف بيفوني[15].

أما جريدة (تريبونا TRIBUNA) الرسمية فبالرغم من انها كانت أصل الحملة الصحفية في بدايتها، فقد التزمت حيال السياسة التوسعية التي تطالب بها (الجيورنالي دي ايطاليا) و(الستامبا) والصحف الاخرى القومية والكاثوليكية موقفا محافظا، فاذا كانت (الستامبا) بالرغم من قربها من جوليتي استطاعت، أن تهاجم مباشرة السياسة الخارجية للحكومة مكررة نفس ما قالته صحيفة المعارضة الجيورنالي دي ايطاليا فان التريبونا المتصلة شخصيا بجوليتي لاسباب بيناها فيما سبق، فانها لم تكتف بعدم مهاجمة وزير الخارجية بل بلغت حد الدفاع عن أعماله، فكتبت عنه في 3 سبتمبر 1911، بأنه ساهم في مد الاشعاع الثقافي الايطالي الى الخارج وبفضل مجهوداته تم ايجاد عدد من المدارس الايطالية في طرابلس الغرب[16].

ولكن سرعان ما تغيرت لهجة (التريبونا)، تجاه السياسة الخارجية ويبدو أن هذا التغير كان موجها من جوليتي الذي كان يخشى التضحية بماضيه السياسي في حالة الفشل، وكان أكثر ما يخشاه رئيس الوزراء أن تتجدد حادثة (عدوة) التي اضاعت عليه كل ما كسبه بسبب صبره على الامور الداخلية.

وأشادت (التريبونا TRIBUNA) في حملتها عن الغنى الزراعي والمعدني في طرابلس والذي صور بطريقة فيها الكثير من المبالغة، فقد كانت هذه الصحيفة تنشر سلسلة من المقالات التي كان يرسلها من طرابلس (جيوسيبي بيازا G.PIAZZA) الذي سار على درب بيفوني، وقد ألف كتابا حول ليبيا صورها بأنها الارض الموعودة ونشره في شهر مارس 1911م (أرضنا الموعودة La nostra terra promessa).

ولم يتردد «Piazza» في الكلام عن مزارع العنب والزيتون والبساتين والحبوب المدهشة.

ونشر (فيريرو Guglielmo FERRERO) في جريدة التريبونا في 25 مايو مقالا خاصا ودون أن يتحدث بصفة خاصة عن ليبيا بل عن الشمال الافريقي اظهر ايمانه بالبعث الاقتصادي للمنطقة بعد بذل جهود، وشارك (فيريرو) في تغيير لهجة الجريدة وكتب في 15 سبتمبر أنه يجب عدم انتظار أية نتائج اقتصادية سريعة:

«في السياسة الاستعمارية كثيرا ما يقع أن جيلا يزرع وجيلا يحصد وأنه يجب عدم انتظار أعجوبة أو معجزة عند ادارة سياسية استعمارية وأهم فضلية علينا أن نتحلى بها، كيف ننتظر»[17].

ولم يكن ثمة شك لدى (فيريرو) في أن هذه الارض ستصبح ذات فائدة عظيمة وكانت

(كوريري دي لاسيرا) واحدة من أكبر الصحف الاخبارية التي انضمت الى جوقة الدعاية لصالح العملية الليبية، وكانت في بداية القرن الصحيفة الايطالية الاولى دون منازع، وبالتالي فان انضمامها للحملة الصحفية المؤيدة للغزو سيكون حاسما في تحديد ملامح الحملة، وفي بدايتها عارضت كل مغامرة استعمارية وكل مطالب انضمامية (Ivedentisme) في اوربا ويمكن أن تحل بالحلف الثلاثي الضامن الاساسي لأمن ايطاليا لذلك امتنعت هذه الصحيفة خلال معظم الصيف عن الانضمام الى حملة الصحف القومية والليبرالية والكاثوليكية الداعية الى غزو مسلح على ليبيا واستطاعت (الكوريري دي لاسيرا)، تحت رئاسة لويجي البيرتيني والى بداية شهر سبتمبر أن تلتزم الصمت في كل ما يتعلق بالمسألة الطرابلسية[18].

ويؤكد «البرتيني» أن الامر الذي جعله يكسر الصمت ويقنعه بتأييد الحملة الليبية، هو تأكده في ذلك الوقت من:

«انه لم تعد هناك امكانية الاختيار في مفترق الطرق، فلم يعد هناك امكانية التخلي عن ممارسة حقوق أقمنا عليها معاهدات وصداقات، خاصة وأن الامر يتعلق بالرهن الذي أخذته ايطاليا على طرابلس الغرب»[19].

ولم يؤد دخول (الكوريري دي لاسيرا Corriere della sera) الى أوركسترا الحملة الصحفية الصيفية حول المسألة الليبية الى ظهور عناصر جديدة تستند عليها، فالحجج التي قدمتها الصحف السابقة أعيد تقديمها نفسها مع اضافة بعض التحفظات، فعندما تساءلت عن القيمة الاقتصادية لطرابلس وافقت على وجود «آفاق واعدة» في البلاد ولكن لم يكن الامر خاليا من صعوبات وجهود مضنية ستقابل المعمرين الايطاليين في المستقبل[20].

واقتصرت حملة (الكوريري دي لاسيرا Corriere della sera) على ميدان السياسة الخارجية حيث قدمت حجة بسيطة ولكنها مقنعة في ذلك الوقت، وبناء على مبدأ حفظ التوازن بين الدول يجب الا تترك ايطاليا، فرنسا والمانيا تمدان نفوذهما الاستعماري، وعندما تم الاخلال بالتوازن بسبب توقيع الاتفاق الفرنسي الالماني حول المغرب كتب (اندرياتوري Andrea TORRI) حول هذا الموضوع أول مقالاته على صفحات «الكوريري دي لاسيرا» في 10 سبتمبر 1911 وبعد أن نوه على أن الاتفاق الفرنسي الالماني يضع نظاما جديدا في افريقيا أضاف قائلاً:

«هذا النظام الجديد ليس من مصحلة فرنسا ولا انجلترا ولا المانيا تعكيره، بل ستعمل هذه الدول جميعا لكي لا تعكره دول أخرى، وهكذا من المناسب لايطاليا أن تتحرك اليوم لتصفية المسألة الطرابلسية وعدم تركها لوقت آخر»[21].

وفي مقال نشر في «الكوريري دي لاسيرا» بتاريخ 1911/9/18 تحت عنوان (طرابلس وضمير البلاد) شرح (توري Torri):

«أنه اذا كان على ايطاليا أن تفتح طرابلس فذلك لوجود «مصلحة عليا فوق ارادة الحكام انفسهم» وضرورة سامية، وواجب سياسي يفرض نفسه على الضمائر المترددة».

ولكن «اندرياتوري» يذهب الى مدى ابعد بقبوله للافكار الامبريالية للحرب الضرورية مؤكدا:

«أن سياسة التوسع ليست ناشئة عن نزوة الامم ولكنها ناجمة عن حاجة حالية وأيضا لاشباع حاجات مستقبلية».

واستنتج من كل ذلك، أنه يعتبر تغيير اتجاهات الرأي العام تجاه التوسع الاستعماري ظاهرة مشجعة، وأكد على أن مناهضي التوسع صاروا «أقلية»[22].

ولم يبحث توري على تبرير الامبريالية الايطالية فالامر بالنسبة له يتعلق بحق «حق المحتل الاقوى» أو حق الذي يعرف أكثر كيف ينشر المدنية[23].

ويتضح من خلال مقالات توري والمقالات الاخرى التي نشرت في الكوريري دي لاسيرا التي كان يكتبها البرتيني أنها حققت نتائج ايجابية لا يستهان بها خاصة في القرارات التي أصدرها جوليتي، وأن انضمام هذه الجريدة التي كانت أكبر صحيفة معارضة لنظامه الى زمرة المحرضين على الحملة العسكرية بالتأكيد ينال رضى جوليتي الذي كان دائما حساسا للقضايا الداخلية.

هوامش

1 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 538.
2 – Giacchimo VOLPE (l'Impresa di Tripoli) Roma 1946 p. 41
3 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 539.
4 – IBID, p. 539.
5 – Giornale d'Italia (El Italia) 5.7.1911.
6 – La Stampa (Politica di Vilta) 14.6.1911.
7 – La Stampa (Lettera all'Onorevole Giolitti) 30.7.1911.
8 – Francesco MALGERI op. cit. p. 56.
9 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 541.
10 – Francesco MALGERI op. cit. p. 39.
11 – Gueltiero CASTELLANI - Tunis e Tripoli - Torino 1911. p. 221.
12 – Giuseppe BEVIONE (Come siamo andati a Tripoli) Torino 1911 p. 54.
13 – IBID p. 171.
14 – IBID p. 63.
15 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 546.
16 – Mahmoud LARFADOUI op. cit. p. 538.
17 – IBID ..... op. cit. p. 548.
18 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 553.
19 – Luigi ALBERTINI (vennt'Anni di vita politica) parte I - Vol.: 11-1909-1911 Bologna 1951 p. 113.
20 – Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 557.
21 – IBID p. 557.
22 – Andria TORRE (Tripoli e la coscienza del paese) in Corriere della Sera 18.9.1911.
23 – Andria TORRE (La nostra diritto) in Corriere della Sera 4-10-1911.

## جـ ـ الصحافة الكاثوليكية :

من الجانب الكاثوليكي قادت الحملة المؤيدة للاحتلال، (دار النشر الرومية Società editrice Romana) ومجموعة هذه الجرائد كونت ما يسمى (بالترست Trust)[1]، وجمعت تحت رئاسة (جيوفاني كورسولي Giovanni CORSOLI) عددا من الصحف مثل (كوريري ديطاليا (Corriere d'Italia) الصادرة بروما، (لافنيري ديطاليا l'Avvenire d'Italia) الصادرة ببولونيا و(لايطاليا L'Italia) الصادرة بميلانو و(المومينتو Il Momento) الصادرة بتورينو (والمساجيرو توسكانو Il Messagero Toscano) و(كوريري ديللا سيشيليا C. di Sicilia) الصادرة بباليرمو[2].

وتعكس هذه الجرائد الاتجاهات الجديدة في الكثلكة الايطالية وأرادت في الوقت نفسه العزوف عن تصلب الكاثوليكية القديمة والابتعاد عن الفاتيكان. وعن هذه المهمة الجديدة للصحافة الكاثوليكية كتب (روسا G. de ROSA) يقول :

«نريد صحافة لا علاقة لها بالصحافة القديمة المتعصبة ذات معلومات واسعة مهتمة ومشاركة بكبريات مشكلات الحياة اليومية الايطالية دون أن تستقطبها المشكلة الرومية وتؤيد مشاركة الكاثوليك في السياسة»[3].

ويمكن تفسير التأييد المشروط الذي أبدته صحف «الترست» الكاثوليكي لانصار غزو ليبيا بسهولة اذا وقفنا عند العون المادي الذي تلقته شركة النشر الرومية من بنك روما والأوساط الكاثوليكية المالية في روما والتي تريد استثمار أموالها تحت ستار المصرف.

وتعكس أعمدة الصحف الكاثوليكية نفس الموضوعات المقدمة في (La Stampa) و(Idea Nazionale) ولكن مع نوع من المزايدات الموجهة لجذب الرأي العام الى الحرب، وازالة ما بقي من العقبات الموجودة في الضمائر المسيحية فأحد الكتّاب المرموقين في هذه المجموعة الصحفية وهو (Salvadori) يرى أنه لابد من تطهير جميع الآراء المعارضة للحرب، وأن يتحد الكاثوليك في اتخاذ موقف يساند ايطاليا فيقول :

«لابد من تطهير آراء خصوم الحرب، ولابد من أفكار وطنية حماسية دون حدود، ووطنية متطرفة، حتى تبدو وكأنها تريد أن تبين للرأي العام كله أن الكاثوليك صاروا متحدين مع موقف ايطاليا مع الدولة الوحدوية»[4].

وانضمت الى هذه المجموعة، صحف أخرى من بينها صحيفة (Corriere d'Italia)، وهي صحيفة أسست عام 1906 في روما وفرضت نفسها في ميدان السياسة والصحافة ذات النزعة الكاثوليكية وباعتبارها صحيفة من النوع الحديث وتمتلك خدمات ومراسلات واسعة وجديدة بالمقارنة الى امكانيات الصحافة الكاثوليكية فيما بعد الوحدة، وحاولت أن تكون ناطقة باسم السياسة الهادفة الى تطويق التطرف الاحتجاجي القديم، واشراك الكاثوليك في النظام السياسي الليبرالي[5].

ولم تتردد «الكوريري ديطاليا» في الصعود الى اعلى هرمية السلطة الايطالية ناعتة الملك نفسه بأنه سبب اضمحلال الدور الدولي لايطاليا وهاجمت الجريدة الملك الذي زعمت أنه

عارض مطامح الشعب الايطالي بمعارضته لأي عملية في ليبيا، واذا كانت الحكومة وعلى الأخص رئيس الوزراء يبدو عليهما التردد فان ذلك ناشيء عن عدم تشجيع السلطة العليا[6].

وواصلت الصحيفة وبمغالاة واضحة حملة دعائية قائمة على نفس الأسس الكلاسيكية السابقة، الاضطهاد التركي للرعايا الايطاليين ـ ثراء ليبيا ـ مدح ما يمكن أن تنجزه ايطاليا في ليبيا ـ ضرورة وجود سياسة خارجية أكثر فعالية وحيوية[7].

أما الصحف الاخرى وخاصة (l'Avvenire d'Italia) الصادرة ببولونيا و(Il Momento) الصادرة في تورينو، فواصلتا أيضا حملتهما العنيفة ضد السياسة الخارجية للحكومة الايطالية، ففي مقال صادر عن (l'Avvenire)، في 1911/7/5 هاجمت الصحيفة «السياسة المشؤومة» لدى سان جوليانو وهاجمت الوزير الشيخ دون اعتبارات وتكون قد جاوزت المألوف بقولها:

«ان اليوم الذي ينزل فيه السيد دي سان جوليانو الرجل الذكي والذي صار خاملا فتك به تصلب الشرايين، ونخر جسمه التهاب المفاصل والذي لا يبارحه لحظة، اليوم الذي ينزل بخطاه العرجاء سلم وزارة الخارجية (الكونسولتا) نحو التقاعد سيكون يوم انفراج وأمل لايطاليا»[8].

وطالبت (Il Momento) من جهتها رئيس الوزراء جوليتي بابعاد الاشتراكيين والعلمانيين أعداء الكنيسة، وأن يقرر غزو ليبيا والذي سيتم دون صعوبات بل هي مجرد «نزهة عسكرية» ويجب:

«على رئيس الوزراء أن يتوقف عن إعارة سمعه لتثبيطات حلفائه الاجانب غير الاستعمارية»[9].

ولم تجامل (Il Momento) رئيس الحكومة الذي نعتته بالديماغوجي، وبالمسلمين الماسونيين وبأنصار «سياسة الايدي الخالية»:

«التي حولت ايطاليا من حالة السادة الى حالة الخدم في تلك الاقاليم التي كانت تتلقى من روما هبة القانون الروماني، ومنحة الحضارة المسيحية»[10].

أما صحيفة (La Voce dell'Operaio) الصادرة بتورينو والتي كانت منتشرة في اوساط العمال والفلاحين في شمال ايطاليا، فبالرغم من انها لم تكن في ذلك الوقت عضوا في (الترست الكاثوليكي) فانها شاركت في الحملة المؤيدة لغزو طرابلس وبرقة وقدمت في البداية حججا ذات طبيعة اقتصادية مركزة على ثراء ليبيا وعلى امكانيات التشغيل الكبرى التي يمكن أن تقدمها للعمالة الايطالية، ودعت هذه الصحيفة الحكومة لكي تحذو حذو فرنسا والمانيا اللتين ضمنتا لعمالها المهاجرين بحثا عن الخبز، آفاقا جديدة وأسواقا لتجارتها وصناعتها.

وهاجمت (La Voce dell'Operaio) مثلها مثل بقية الصحف الايطالية، المعارضين لحملة الغزو وخاصة الاشتراكيين الذين اتهمتهم بتخريب مصالح الامة ومصالح العمال، وسرعان ما ضمت صوتها الى الصحف التي تمجد هذه الحرب التي طال انتظارها، وأعادت نفس الحجج وقدمت هذه الحرب على أنها حرب «اخلاقية»:

«لانها حرب الحضارة ضد البربرية، وحرب المسيحية ضد الاسلام وحرب الحرية ضد الاستعباد»[11].

وعلى أي حال بالنسبة للدعاوى الاستعمارية فقد كانت مليئة بالتناقض لانها كانت تقوم بطبيعتها على الكذب والظلم. فهذه الدعاوى تزعم ـ من ناحية ـ أن غايتها تحرير الشعوب الفقيرة في طرابلس وبرقة من الظلم الاجنبي ومن البربرية والتخلف... وهي في الوقت نفسه تثير المشاعر نحو اعلان الحرب باسم العقيدة المسيحية ضد هذه الشعوب نفسها.

هوامش

1 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 22.

2 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 562.

3 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 57.

4 ـ Massimo L. SALVADORI Il Movimento Cattolico Torino 1911 - p. 41.

5 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 57.

6 ـ Corriere d'Italia. 14-9-1911 - in LARFAOUI op. cit. p. 564.

7 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 564.

8 ـ L'Avvenire d'Italia «Un'altra offesa turca 5-7-1911.

9 ـ Il Momento «Tripoli incombe l'Onorevole GIOLITTI al bivio» 12-9-1911.

10 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 565.

11 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 568.

## د ـ صحافة الجنوب الايطالي:

شاركت الصحف الصقلية في الحملة وأولتها اهتماما بالغا، وكان جميع السياسيين الصقليين بلا استثناء يعتقدون أن احتلال ليبيا سيكون بلسما شافيا لكل الامراض التي تنخر الجنوب الايطالي والذي كانت تواجهه مشكلة تزايد السكان بشكل مخيف، وتستند الصحافة في حملتها على أن مشكلة السكان يمكن أن تحل اذا هاجر الفائض السكاني الى الاقاليم الجديدة بالاضافة الى أن الجنوب سيعرف تقدما اقتصاديا لا شك فيه لانه سيكون «الجسر الطبيعي» بين المستعمرة الجديدة والمدن الصناعية في الشمال الايطالي وصار الصحفيون دعاة لمثل هذه الافكار التي نشطوا في نشرها بين الرأي العام في الجنوب.

وقد كان من بين الصحف الجنوبية صحيفة (Roma) التي أكدت على ثروات ليبيا الضخمة التي ستساهم في استقطاب اكثر عدد من المهاجرين بينما أبرزت صحيفة (Il Mattino) على أن طابع العملية الليبية توطيد للسياسة الخارجية.

فقد اعترفت صحيفة (Roma) بالمشاكل المزمنة التي تعانيها ايطاليا داخل اقليمها الوطني، وبعجز الحكومة عن حل هذه المشاكل، لكنها ترى مع ذلك أن ايطاليا لا تستطيع أن تقف على هامش الحركة الاستعمارية التي تحرك معظم الدول دون أن تعرض للخطر وجودها نفسه، فكتبت:

«ان السياسة المهتمة بالداخل ستكون شيئا رائعا بالنسبة لايطاليا ذات المشاكل الداخلية، فكم من الاصلاحات يجب القيام بها وكم من الجراح المؤلمة يجب شفاؤها، ولكن ايطاليا لا تستطيع ادارة ظهرها لبقية العالم، ولا يمكنها أن تحيا حياة منفصلة ومنفردة دون أن تمد نظرها الى ما وراء حدودها ووراء البحر الذي يحيط بها، وان حياتها متصلة بحياة غيرها من الامم، ويجب عليها أن تتبع الحركة التي عليها النظام الاوربي كله»[1].

واتخذت جريدة (Il Momento) موقفا أقل عقلانية يمثل اتجاها قوميا واضحا وطالبت بتغيير جذري في السياسة الخارجية الايطالية، وفي الوقت نفسه طالبت بعمل في ليبيا:

«جدير بأمة تنفق 600 مليون في العام على جيشها وبحريتها».

وفي عشية اعلان الحرب على تركيا، لما زال الشك حول قرار الحكومة الايطالية باحتلال ليبيا عسكريا مجدت الجريدة انبعاث الامة بصفحات عنصرية خالصة لم تبلغه لهجة جريدة (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) فقالت:

«خمس عشرة سنة بعد معركة عدوة، خمس عشرة سنة من الوهن والخور القينا خلالها السلاح، بينما يعكف كل من حولنا على اعداد دروعهم وصقل سيوفهم، وهكذا في اللحظة الاكثر ظلمة والاشد حزنا عندما أرادت هذه الفئة الديماغوجية وباشرت في تجريد الوطن من رجولته... فعند ذلك استيقظ ضمير الامة، ونبض من جديد قلبها الذي لا يستسلم للموت وفرضا الحركة على

الحكومة الاكثر تعصبا عن مثل هذه الامور والاكبر عجزا عن التصرف بسبب روابطها السياسية»[2].

أما صحيفة (C. di CATANIA)، فترى في احتلال طرابلس تغييرا للنظام الاجتماعي وتعديله وتطويره في شكل يقوم بمهام اقتصادية جديدة فتقول الصحيفة:

«لن تبقى صقلية والجنوب على هامش الوظائف الحيوية لحياتنا الاجتماعية، بل سيصبحان بدورهما جسر مرور بين الفعاليات الاقتصادية المتطورة لبلادنا الجميلة، والمناطق التي يجب تنميتها في اقليم اكثر اتساعا وأكثر ثراء من ايطاليا أربع مرات»[3].

هوامش

1 - Francesco MALGERI op. cit. p. 64 in il Momento 27-9-1911.

2 - Francesco MALGERI op. cit. p. 64 in Roma 10-9-1911.

3 - Carra ALFIO «La Sicilia Orientale dell'Unità Impresa Libica» CATANIA 1968 p. 232.

### هـ ـ الصحف الاشتراكية المعارضة للغزو:

ظهرت أصوات معارضة لغزو ليبيا، تزعمها الحزب الاشتراكي ومنظماته، حيث وضحوا موقفهم في صحفهم ومجلاتهم، الى جانب قوى أخرى من ذوي النفوذ الثقافي العالي، وبعض أعضاء البرلمان الايطالي الذي كانت تقلقهم النتائج التي قد تحدثها سياسة مغامرة على حياة البلاد الداخلية وعلى علاقاتها الدولية.

وقد حاول المعارضون تفنيد آراء القوميين والليبراليين والكاثوليك الذين صوروا ليبيا على أنها الحل الامثل لانعاش ايطاليا اقتصاديا مؤكدين على عدم الأهمية الاقتصادية لطرابلس وبرقة وأن مردود الاستثمار في هذه الولاية القاحلة لن يأتي بنتائج الا بعد مرور زمن طويل من الترقب والانتظار، ومن بين هؤلاء (لويجي ايناودي Luigi ENAUDI) وهو اقتصادي مرموق وأستاذ في العلوم المالية بجامعة تورينو، وفي الاساس لم يكن يعارض الاستعمار كمبدأ، بل بالعكس كان يؤمن بالتوسع الاقتصادي الايطالي ونشر أفكاره الاستعمارية في كتاب له صدر عام 1899م. عنوانه (الامير التاجر Un Principe Mercante) وحاول أن يحصر في مقال نشره في مجلة (ريفورما سوشيالي Riforma Sociale) ملاحظاته عن المشاكل الاقتصادية تضمنت تحليلا في غاية الوضوح والدقة وكانت هذه الملاحظات قد ضايقت الكثير خصوصا في الفترة التي كانت مشحونة بالآمال والتطلعات نحو الأفضل وقد وضح في مقدمة مقاله الطويل أنه يهدف الى اظهار حقيقتين:

الاولى : «يتوهم كل من يعتقد أن طرابلس ستدر أرباحا وفيرة على الوطن الأم، الا بعد زمن بعيد وبصورة غير مباشرة.

الثانية : أن المستعمرة ستفرض تضحيات اقتصادية باهظة على ايطاليا وهذه حقيقة يجب أن نواجهها بادراك وهدوء»[1].

وبعد أن قام بعدة مقارنات احصائية تجارية واقتصادية بين ليبيا وطرابلس كتب:

«من الاهمية بمكان أن نستبعد كل الآمال في أن المستعمرة قد تصبح في يوم ما منتجة لميزانية الدولة، وأن نقتنع بأن المستعمرة الجديدة ستكون دافعا لزيادة النفقات بالنسبة لنا، وهذه النفقات ستزداد كلما أحسنا القيام بواجبنا حتى اذا اقتصر على اقامة العدالة والأمن ونشر التعليم وشق الطرق ومد السكك الحديدية، وانشاء الموانيء الرئيسية والاستراتيجية والمدنية وغيرها، فانه يتوجب علينا انفاق المئات من الملايين كمصاريف سنوية جارية على آمل لا يقل عن ثلاثين سنة قد تستطيع بعدها ميزانية المستعمرة الحياة بمواردها دون مساعدة الوطن الام، ومن المحتمل أن يكون حتى ذلك الامل سرابا»[2].

وانتقل بعد ذلك الى الطعن في مقالات بفيوني حول الثروات الزراعية في طرابلس مؤكدا أنه لا ثروات اطلاقا سوى الكروم وربما الزيتون.

وانتقد في سخرية لاذعة الاحزاب المؤيدة للغزو وخاصة حزب القوميين وقدم مبررات

ذات صبغة أخلاقية علاوة على المبررات الاقتصادية، فكان يرى أن الضرائب المحتملة الممكنة في المستقبل يجب أن يتحملها:

«كل الذين ارادوا العملية بحماس أو بما أن هذه العملية قد تسببت فيها بصورة رئيسة حركة فكرية للطبقات المثقفة والمتعلمة والثرية والمهنية والادارية، هذه الطبقات هي التي يجب أن تدعم الاحتلال والاستعمار، وفي الوقت نفسه من الممكن اعفاء أصحاب الدخولات الصغيرة التي تصل في ايطاليا الى 1200 ليرة، وهي تشمل بالاضافة الى جزء كبير من العمال كل الطبقات القروية التي تشمل العملة والفلاحين والمزارعين بالمشاركة وصغار الملاك وهي الطبقات التي ظلت غريبة تماما عن هذه الحركة المثالية وهي التي تساهم بشكل مكثف في حدود امكانياتها الذاتية وذلك بتقديم الجنود للجيش»[3].

ولم تكن هذه الملاحظات الموقف الثابت «لإيناودي» بل كان في بعض الاحيان متفائلا بالمستقبل السعيد لبلاده على المستوى الثقافي والأخلاقي والسياسي بعد نهاية الحرب، وكوّن اقتناعا بأن ايطاليا ستتجاوب بصورة ايجابية، وقد دفعه هذا الاعتقاد أن الطليان في امكانهم أن يكونوا:

«الباعثين للقوات الخفية للشعوب البدائية وسيهيؤون العظمة السياسية والثروات لاحفادنا، وقال: «ان الشعوب العظيمة هي التي تضحي مدركة من أجل الاجيال القادمة»[4].

ولم يرق لـ(ادوارد جيريتي GIERETTI) الرأي الذي أبداه ايناودي بالنسبة للمشكلة الليبية في خلاصة مقاله التي وصل اليها فيما يتعلق بمستقبل البلاد، وكان يرى فيها أنها مغرقة في التفاؤل، رغم أنه كان يشاركه في كل العناصر الاساسية التي صاغ بها مقاله.

وكان جيريتي من أبرز ممثلي التحرر اليساري وكان يشارك في تحرير (صحيفة الاقتصاديين GIORNALE DELL'ECONOMISTA) وفي صحيفة (اونيتا UNITÀ) التي كان يصدرها (سالفيميني SALVEMINI) أحد زعماء الحزب الاشتراكي، وعرف جيريتي بثقافته الاقتصادية غير العادية كما وصفه (فليفريدو باريتو Vilfredo PARETO)[5].

واعترف جيريتي في مجلة (ريفورما سوشيالي Riforma Sociale) في العدد التالي من مقال اناودي، اعترف له بالشجاعة لقوله كلمة الحق وان كانت قاسية في ضجة الانبهار الاستعماري الذي تملّك الرأي العام الايطالي فقال:

«ولكن لم يتمكن من اخفاء شكه حول الاماني التفاؤلية التي عبر عنها ايناودي والتي يعتبر تحقيقها مثلا نادر الحدوث في التاريخ ويكاد يكون وحيدا وهي السياسة الاستعمارية القائمة على المثالية وعلى العمل الطويل النفس من أجل انكار الذات لصالح قضية تمدين شعوب متخلفة. ومن أجل وضع أفضل لاجيال بعيدة جدا»[6].

وتشاؤم جيريتي يقوم على تجارب عملية، جعلته يخشى من أن يتلاشى بصورة سحرية

الحماس المنقطع النظير لجزء كبير من الشعب الايطالي عندما تقدم له فواتير الحساب[7].

ولم تكن المسائل الاقتصادية وحدها التي أقلقت جيريتي بقدر ما كانت تقلقه المسائل المعنوية والسياسية فكان يبدو له:

«أن شيئا قذرا وغير مهذب أخذ يتسرب الى المجتمع الايطالي وأن الحماس الذي تركته العملية الطرابلسية في كثير من الايطاليين هو «الجشع اللامتناهي والاستحواذ على ما يملكه الغير» وهذا يعطي دلالة على الانحدار السريع لايطاليا من النمط الحديث المتمدن الذي نتجه اليه بتمهل ولكن تدريجيا الى نمط آخر متخلف لمجتمع بربري عسكري، وتغلبت غرائز جديدة ليست شريفة على الشعب الايطالي مع ازدياد جرائم العنف والدماء، وفتور في حب العمل المنتج»[8].

وكان يعتبر الغزو عملية «مضادة للقيم الوطنية وخارقة لقانون الاخلاق الذي يرتكز عليه التعايش ما بين الرجال والدولة، وقد انتقد بمرارة الحملة الصحفية المؤيدة للحرب التي سيكون ثمنها غاليا فيما بعد يقول:

«التفكير السليم والعادل عن النزق والطيش الذي جعل ايطاليا بكاملها حكومة وشعبا تنقاد وتقتنع بترهات المجد والاثراء التي يروجها عشرات من الصحفيين أصحاب المصلحة الذين مات فيهم الضمير، ولا يشعرون بالمسؤولية»[9].

يتضح أن لهجة جيريتي أكثر حدة من ايناودي ويتبين ذلك من خلال نقاشه، وكان متبرما من الأمور التي تجري في تلك الفترة في ايطاليا، ومتفقا مع اينادوي في الاسس الاقتصادية والفنية التي جاء بها، ووصولا الى النتائج الجوهرية نفسها التي ذكرها اينادوي، فان جيريتي قد أكد وبشدة على الخلاف المعنوي المتعلق بالمظهر المثالي للعملية، فبدا وكأنه متفق تماما مع (قايتانو سالفيميني Gatano SALVEMINI) الذي كان في تلك الفترة على صلة وثيقة به كمحرر بصحيفة (اونيتا UNITÀ) وأكد سالفميني من جانبه في كتابه «كيف ذهبنا الى ليبيا Come Siamo Andati in Libia»[10] الصادر في عام 1914م. على عدم صحة المبالغات التي غمرت كتب وصحف تلك الفترة التي ضللت الرأي العام كثيرا، وخلقت حوله أطماع الثراء والمغانم التي سينالها من الغزو فيقول:

«وتقوم حملة صحافية مجنونة أساسها الأراجيف وعدم الدقة والتزوير والطيش ويتم ذلك في سرية منظمة، والواجب الذي يحتم على كل من لا يريد أن يتقدم الى الامام ورأسه في المخلاة أن ينبه البلاد الى حقيقة الوضع المعاش والى الاخطار الماحقة الاكيدة التي ستنتج عن هذا الوضع»[11].

ويتساءل:

«هل سيوافق الشعب على الحملة بهذا الحماس لو أنه لم ينخدع بالثراء وسهولة الاحتلال، ولو أن رجال الدولة الذين رهنوا ايطاليا دبلوماسيا منذ عشر سنوات في سبيل هذه العملية قاموا بتقدير أفضل للاثار القريبة والبعيدة لمبادرتهم»[12].

وتصدى بالرد على الصحف التي كانت تتغنى بثراء ليبيا، ففي 28 سبتمبر وقع مقالا باسم (لافوتشي La Voce) ردا على المقالات التي كتبها بفيوني على صفحات (لاستامبا La Stampa) والتي أكد فيها على أن ثروة طرابلس تساوي الملايين التي يكلفها الاحتلال العسكري وتساوي المخاطرة بالاعتداء على كيان وهيبة الامبراطورية العثمانية وكل ذلك سيؤدي الى طرح المشكلة الشرقية بصورة شرسة»[13].

وفي المقال نفسه رد على (اندرياتوري) الذي أكد على صفحات (كوريري ديللاسيرا Corriere della Sera) بتاريخ 15 سبتمبر أن مناجم الكبريت في طرابلس تمتد لمسافة آلاف الكيلومترات، ورد على (موسكا) الذي ذكر من جديد على صفحات (لاتريبونا La Tribuna) بتاريخ 22 سبتمبر الفوائد الناتجة عن استغلال مناجم الكبريت الليبية[14].

ومن المعارضين لعملية الغزو (ليوني كاتياني) الذي حذر الحكومة الايطالية من مخاطر استعمار ليبيا، وكان كاتياني من كبار رجال الاقطاع بروما ومستشرقا له مكانة بارزة في عالم الاستشراق وتحصل على جائزة (اللينشي Lence) على مؤلفه الضخم (حوليات الاسلام Annali dell'Islam) الذي صدر عام 1908م. وعندما نوقشت ميزانية وزارة الخارجية في مجلس النواب، كان صوته من الاصوات القليلة التي برهنت على عدم جدوى المجهود العسكري والمالي المرتبط باحتلال اقليم ضئيل الفائدة.

وقد لاحظ في مداخلاته في البرلمان أن:

«طرابلس لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون ذات أهمية استراتيجية لان سواحلها كثيرة التضليل في جميع حوض البحر المتوسط، لدرجة أن سواحل سرت الطرابلسية كانت أحد الموانىء التي كانت سفن القدماء تتعرض فيها للغرق».

ويقول أيضا:

«ان هذا البلد ـ أي طرابلس ـ يخلو تماما من الطرق والموانىء والسكك الحديدية، ويفتقر الى العمران، ومن أجل الدوافع السامية جدا التي لا أفهمها يتوجب علينا احتلال طرابلس وعلينا أن ننفق الملايين التي لاحصر لها في عمليات عسكرية عقيمة... هل يتوفر الكثير من المال لدينا حتى نلقي به هباء؟»[15].

لقد كان يخشى المطب الذي وقعت فيه ايطاليا باحتلالها للحبشة والبنادير، وخاصة أن البلاد لا زالت تدفع الثمن.

أما (اوقو أويتي Ugo OJETTI) وهو ناقد أدبي مشهور فقد كان قلقا من موقف الكاثوليك المؤيد لحرب ليبيا، ومن جهة اخرى كان قلقا بسبب المحن الصعبة التي تمر بها البلاد نتيجة اشتداد حدة المشاكل الاجتماعية فبعث برسالة الى (لويجي البرتيني) بتاريخ 5 سبتمبر 1911، يضع فيها مقارنة بين كتابات بفيوني وكوراديني وكتابات بارزيني وفيلاري فيقول:

«عندما أقرأ أن بيفوني يطلب منذ الان خمسمائة مليون ليرة من اجل طرق وموانىء واصلاح الاراضي في طرابلسنا، وأن كوراديني يرى أن الطبيعة في طرابلس يجب

أن تتخذ مسارا صحيحا ولكن قبل كل شيء يجب أن نغير السكان والنظام وهي مهمة تقع على كاهل ايطاليا.

وعندما أفكر فيما كتبه (بارزيني BARZINI) عن فيربيكارو وما كتبه (فيلاري VILARI) عن الجنوب بصورة عامة عن عجزنا التام خلال نصف قرن، وما لم نتمكن من القيام به لقلة الرجال والمال ولفقد الاخلاص، والنظام، عندما اتذكر كل ذلك يعتريني الخوف، وقد يكون الخوف كلمة شجاعة عندما يتعلق الامر ببلد ينمو وهو متفكك الاوصال كبلدنا، لم يتمكن حتى الان من اصلاح نفسه»[16].

ونبه (اويتي) حكومة ايطاليا الى أن مشاكلها المزمنة التي تعاني منها تكمن في الجنوب الايطالي في جميع جوانبها المأساوية القاسية، ويجب عليها أن تولي عناية للانسان الايطالي في الجنوب الذي يعاني القهر والتخلف والعسف، ونبه الضمائر الى حقيقة الجنوب المؤلمة، وكأنه قد وضع أصبعه على جرح ايطاليا الملتهب.

كما تحدث (لويجي بارزيني Luigi BARZINI) عن الجنوب وذلك في مقاله عن (فيربيكارو Ferbeccharo في صميم العصور الوسطى) الذي نشره في صحيفة (كوريري ديللاسيرا) رغم أن هذه الجريدة من الصحف المؤيدة للغزو، فقال:

«في جزء جميل رحب من ايطاليا هناك سكان فقراء يبدو أنهم يختلفون تماما عنا كأنهم من جنس آخر بعيد، حياته وطبيعته ونفسيته كأنها لا تمت الينا بصلة»[17].

وفي موضوع آخر نشر في 2 سبتمبر 1911 قبل الغزو في صحيفة (كوريري ديللاسيرا) تحت موضوع (في بلاد الخرافات المتوحشة) يصف فيه الحالات النفسية العامة والطابع الاجتماعي في الجنوب فيقول:

«ان الجهل الذي يعانيه انسان الجنوب الذي يشبه الجهل الحيواني الذي قد تجاوز حد المعقول فهو يتحسس الطريق في ظلام موحش، وفي اعماق ضميره ليل غارق، ويعتقد في كل شيء والوطنية عنده قصة خيالية طفولية، وفي عمق هذا الظلام ينتابه كابوس مخيف كأنه حكم عليه بالاعدام في انتظار التنفيذ، ويشعر الانسان بالتمزق والألم عندما يسمع الامهات يصرخن في أصوات مضطربة ـ الرحمة ـ أنت أيها الاجنبي قل كلمة من أجل أولادي كي لا ينفذوا فيهم الاعدام»[18].

هذا التحليل الذي قدمه بارزيني ترك أثرا عميقا عند (أوييتي Uietti) كما يتضح من الرسالة التي كتبها الى (البيرتيني) يؤكد له فيها مسؤولية خطيرة تقع في تلك الفترة على عاتق صحيفة (كوريري ديللاسيرا) وأن في امكانها ايقاف هذا السباق نحو طرابلس[19].

الى جانب هؤلاء، كان الاشتراكيون الايطاليون يتزعمون حركة معارضة غزو ليبيا، وكانوا يقومون بأكبر حملات الدعاية لا يقاظ الرأي العام الايطالي، وقام أعضاء الحزب الاشتراكي بمهاجمة محطات السكك الحديدية لعرقلة تحرك القوات وشل حركة النقل ووزعوا المنشورات

التي تهاجم بنك روما وبنك الفاتيكان ومن ورائهما الكاثوليك واليهود الذين كانوا يرمون بمصير الشعب الايطالي في كفة القدر في سبيل أن تدور عجلة الصناعة في الشمال ويثرى أصحابها على حساب ضرائب الشعب الايطالي، وقد كان هم هؤلاء الاشتراكيين توحيد صفوف المعارضة، وتقديم الحقيقة أمام الايطاليين من الخسائر التي ستتعرض لها الخزينة الايطالية بسبب غزو لا ينفع أحدا الا أصحاب رؤوس الأموال[20].

وأعلن الاشتراكيون أن ليبيا لن تكون جنة لأبناء ايطاليا وفقا لتصوير رئيس الوزراء والكاثوليك وتأييد الفاتيكان المعنوي، ولكنها ستكون مقبرة لهم، وفوق كل اعتبار فان ايطاليا سوف لن تكون دولة استعمارية في تاريخها بأي حال من الاحوال، وعقد الاشتراكيون مؤتمرا عاما اتخذوا فيه قرارا يعارض الحرب كلية ويتهم كل من يؤيدها أو يستعد لها بأنه عدو لايطاليا، لأن الدافع الكامن وراءها جعل تفكير ايطاليا لا يتعدى الانتقام والجشع وسيطرة الرأسماليين على مقدرات الشعب الايطالي، وطالب قرار الاشتراكيين العمال باضراب عام لشل حركة المواصلات وايقاف المعامل وبالتالي ايقاف موارد الخزينة المالية.. ولكن تحمس هؤلاء الاشتراكيين آل الى الفشل عندما أدخلت الحكومة الايطالية بين صفوفهم من لا يؤمنون بالاشتراكية كمذهب ولا بمبادئها، وتمكن هؤلاء الدخلاء من السيطرة على مجرى أمور الحركة الاشتراكية الايطالية، ووزعوا منشورات غريبة المنطق قائلة (ان انتصار طبقة البروليتاريا العالمية سوف لن يتم الا على يد الاستعمار لأن الاستعمار وحده يمكنها من ضرب الرأسمالية في أضعف نقاطها والقضاء عليها).

وبلغ تحمس المتطفلين على الحركة الاشتراكية حدا أخجل حتى قائد الاسطول المكلف بالغزو عندما أصر دي فيليس أن يكون أحد الركاب الأول في باخرة القيادة[21].

من خلال ما قدمناه من نماذج لبعض الصحف المحرضة على الغزو على اختلاف ايديولوجياتها وانتماءاتها الحزبية، تبين لنا أن جميع هذه الصحف اتخذت مسارا واحدا، وحدها في الاتجاه والمسلك نحو الغزو، وركزت في حملتها على عدة أهداف هي:

### 1 ـ محاولة التأثير على الرأي العام وتهيئته لقبول فكرة الغزو:

وذلك عن طريق:

أ ـ استغلال فقر المواطن الايطالي، ومشاكله الاقتصادية المزمنة بالتركيز على الثروات الاقتصادية المدفونة في باطن الارض الليبية والتي تنتظر الايدي العاملة الايطالية للاستفادة منها لانعاشه اقتصاديا، وانعاش ايطاليا وحل أزماتها المالية، واخراج الايطاليين جميعهم من دائرة الفقر التي تحاصرهم منذ أزمنة بعيدة.

ب ـ ركزت الصحافة على انسان الجنوب الايطالي الذي يعاني من ضنك الحياة أكثر من غيره في ايطاليا، واعتمدت على اسلوب الايحاء والتأثير وأغرته بالمكاسب المادية الوفيرة التي ستغمر جيبه من خلال استثمار خصوبة أراضي طرابلس وبرقة واستغلال معادنها، وقد

نجحت في حملتها الى الحد الذي جعلت مواطن الجنوب يعيش لحظة الانتظار والترقب الى اليوم الموعود.

جـ ـ الى جانب ذلك خاطبت الطبقات الغنية واستغلت غريزة الايطالي البرجوازي الذي يسعى الى مضاعفة أمواله بشتى الطرق، فأشارات الى مجالات الاستثمار المفتوحة في هذا البلد الغني المهمل الذي ينتظر أموالهم كي تنمو وتزداد أضعافا.

د ـ خلق مشاعر مسعورة لدى المواطن الايطالي بادعائها أن الجالية الايطالية في ليبيا تعاني من الاضطهاد والمضايقة أمام تقدمهم الاقتصادي والاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم، كما يتعرض بنك روما والمؤسسات الاقتصادية الأخرى، والامتيازات الايطالية، التي تسعى الى خلق كيان اقتصادي في ليبيا لمصلحة ايطاليا، بالاضافة الى محاولة التركيز على بعض الحوادث العامة التي يتعرض لها بعض أفراد الجالية الايطالية والتي يمكن أن يتعرض لها أي انسان آخر في أي مكان، وقد صورت الصحافة هذه الحوادث على أنها مقصودة لاهانة الجالية الايطالية في هذا البلد الذي كان تابعا لروما.

هـ ـ كما أكدت الصحافة في حملتها على أن ليبيا يمكن أن تكون البلد المثالي للهجرة لقربه من الوطن الام، الأمر الذي يحافظ على كيان ايطاليا القوي باحتفاظ أبنائه المهاجرين بخصائصهم القومية والثقافية عن طريق ربطهم مباشرة بوطنهم وثقافتهم التي تسعى ايطاليا الى نشرها في هذا البلد الجديد.

و ـ صورت الغزو على أنه مهمة انسانية حضارية سيقوم بها المواطن الايطالي من أجل النهوض بالسكان الليبيين الذين توقفت حياتهم تماما لخلو بلدهم من الوسائل الحضارية والثقافية، وأن القدر التاريخي هو الذي يدفع بايطاليا الى هذا البلد لتعيد فيه الأمجاد الحضارية التي كانت روما رافعة لوائها.

وفي الوقت نفسه حاولت الصحف تقوية الاتجاه الاستعماري باعادة صورة الامبراطورية الرومانية وممتلكاتها في افريقيا.

## 2 ـ التركيز على الصراع الاسلامي المسيحي:

ركزت الصحف على الجانب الديني وصورت الحملة على أنها صراع بين المسيحية والاسلام، وأن واجب الايطاليين اعادة الصليب الى الشمال الافريقي وقد بدأت الحملة بأحاديث حول استبدال الهلال بالصليب وبارك الاساقفة موقف الصحف في خطبهم الدينية، كما طبعت في ايطاليا بطاقات بريدية تبين الجندي الايطالي وهو يغرس علمه ذا الصليب فوق مئذنة الجامع.

وكانت الصحف لا تترك مناسبة الا وتستغلها من أجل تأجيج العواطف الدينية واستقطاب تعاطف رجال الدين.

ومثلما كان الفاتيكان من أكبر المساهمين في الحملة فان رجاله كانوا من أشد الدعاة لها والمحرضين على نجاحها، وهكذا تحول رجال الدين الداعين للمحبة والتسامح الى طبول دعاية

حربية تهيب بالجنود لتحقيق الانتصارات وانتزاع النصر والرايات مهما كلف ذلك من دماء ودموع ومآسي.

وقد أثمرت الحملة الاعلامية في هذا الجانب وبمباركة الكنيسة في الرأي العام، وخلقت عداء مفعما بالروح الاستعمارية عبر عنه ما جاء في نشيد ايطالي تردد مع الغزو على لسان الجنود الايطاليين يخاطبون فيه امهاتهم[22].

## 3 ـ الضغط على الحكومة من أجل اتخاذ قرار الغزو:

أ ـ طالبت الصحافة بعمل سياسي حاسم يحقق آمال ايطاليا في أن تكون لها مكانة مرموقة بين الدول الأوربية وأن تكون دولة مهابة تملك مستعمرات على حوض البحر المتوسط تزيد من قوتها وتجعل الدول الاخرى تشعر بوجودها على مسرح السياسة الدولية، وفي الوقت نفسه تغسل عار هزيمة عدوة وتقضي على خيبة الأمل في ضياع تونس. وتكون هذه القوة كما قال «كوراديني» قوة لا قياس لها ولكنها كاسحة، قوة هي الضمير البحري لامتنا، لقد كان الشعور بسيادة ايطاليا على البحار من أعمق أعماق النفس الوطنية وكانت أسماء (امالتي وجنوة والبندقية وبيزا) قد قامت بالمعجزة وتسببت في الهزة، لقد تحلل كابوس عدوة واندثر واستمعت روح الأمة الى نداء البحر[23].

ب ـ حاولت أن تغذي الاقتناع بأن الاحتلال أمر لا يقبل المماطلة ولا التأجيل واستهدفت الحملة رجال الدولة الذين تقاعسوا في صنع القرار السياسي بغزو ليبيا، وطالبت بشدة بالعمل الفوري والسريع قبل فوات الاوان ونبهت الحكومة بأن الحملة قد تغدو لا مفر منها.

وقد نجحت الى حد بعيد في استقطاب بعض رجال الدولة وكسبهم لتأييد الغزو. مثل (دي سان جوليانو) وزير الخارجية الذي تعاون ولو جزئيا مع الصحافة لتهيئة الرأي العام للعملية ولمحاولة التأثير على جوليتي بزيادة ضجة الصحافة حول ليبيا، وقد كان له دور بارز في تحويل مثل (كوريري ديللاسيرا) الى جانب تنفيذ العملية.

واعتمدت الصحافة الاسلوب التالي في الضغط على الحكومة:

- العمل بقوة في سبيل بلورة سياسة الحكومة الايطالية حتى تتجه كلية الى الغزو.
- محاولة استفزاز رجال الدولة، وتصويرهم أمام الرأي العام بأنهم غير مخلصين لمصلحة ايطاليا، حتى يحاولوا قدر الامكان تغيير هذه الصورة أمام الجماهير، وكان دورها التشهير بكل من يرفع صوته ضد الغزو.
- التأثير على الرأي العام من أجل التأثير على الحكومة في اتخاذ القرار وبالفعل فان تيار الرأي العام الشاسع والكاسح هو الذي سير الحكومة.

وتبين أيضا أن الحملة الصحفية كانت مدعمة من مؤسسات رأسمالية تجارية أنشئت خصيصا للاستعمار، كبنك روما والبنك التجاري ومصانع السكر، أو من مؤسسات دينية كالفاتيكان، وكانت الصحافة الوجه المعبر للسياسة الاستعمارية التوسعية لهذه المؤسسات.

واجمالا فان الحملة حققت النتائج المطلوبة في تهيئة الرأي العام الايطالي، وخلقت حماسا شعبيا يدفع بايطاليا الى الغزو، وعلق (اوقو بروساتي Ugo BRUSATI) على ذلك في مفكرات تتعلق بالحرب الايطالية بقوله:

«لقد أشعلنا النار في الجسور وراء ظهورنا وبحماس لا يكاد يخفي خوفنا من التراجع».

أما صحف المعارضين للغزو:

أ ـ كان صوتها خافتا ضعيفا يشبه الهمس تلاشى وسط الضجيج المتواصل للصحف المحرضة على الغزو، وكانت في أكثر الاحايين تظهر بمظهر العقم والانقسام وعدم الوصول الى النتيجة.

ب ـ لم تكن هذه الصحف قد تبنت موقفا موحدا ضد الغزو بل كان أكثرها ينظر الى الحملة من الناحية الاقتصادية وكانت تركز موقفها في معارضة الصحف التي أشادت بثراء وغنى ليبيا، ولم تكن ضد التوسع الاستعماري في ناحيته المأساوية اللاانسانية.

جـ ـ والملاحظ أيضا على رجال المعارضة التبدل السريع في المواقف وعدم الثبات على المبادىء، فهذه المواقف لم تكن عقائدية بقدر ما كانت مصلحية.

د ـ ثم إن المعارضين للغزو كانوا منفردين، ولا يملكون أية امكانية لتغيير تيار الرأي العام الذي تكوّن في ايطاليا وحتى الحزب الاشتراكي الاكثر تنظيما وهو القوة الوحيدة التي كان في الامكان الاعتماد عليها. انقسم على نفسه واعتنق الكثير من رجاله البارزين الفكرة الاستعمارية.

هوامش

1 ـ Francesco MALGERI op. cit. pp. 74-75.
2 ـ IBID -.
3 ـ Luigi ENAUDI (Riforma Sociale) vol. 12 - p. 638.
4 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 79.
5 ـ IBID p. 79.
6 ـ IBID p. 80.
7 ـ IBID p. 80.
8 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 80.
9 ـ IBID.
10 ـ AA.VV. Come Siamo andati in Libia FIRENZE 1914.

11 – «La Voce» La cultura Italiana a Tripoli 28-9-1911.

12 – AA.VV. op. cit. pp. 1-17.

13 – Casparo DE CARO «SALVEMINI» Roma pp. 153-161.

14 – La Voce op. cit. 28-9-1911.

15 – Francesco MALGERI op. cit. p. 69.

16 – IBID pp. 69-70.

17 – IBID p. 70.

18 – Luigi BARZINI «Nei paesi della superstizione feroce» in «Corriere della Sera» 2-9-1911.

19 – Francesco MALGERI op. cit. p. 71.

20 – منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق، ص 64.

21 – المرجع السابق، ص 66.

22 – انظر التمهيد، ص 15.

23 – Francesco MALGERI op. cit. p. 00.

# الفصل الثاني

## الادب الايطالي في خدمة الغزو

# مدخل في وظيفة الأدب الايطالي

## الادب الايطالي في خدمة الغزو:

في وقت مبكر وعى الانسان دور الفن والادب ومسؤوليتهما في بناء حياته ومجتمعه، فمنذ الفجر الاول للانسانية استخدم الانسان الفن لتغيير العالم والتقدم به من تطوير لأدوات العمل، الى التنكر، الى أغنيات العمل الجماعية عرف الانسان الأول ضرورة الفن[1].

والتقدم الثقافي والتقني قوىّ في الجماعة الحاجة الى الأدب والفن، وضاعف من طرق التبادل فيه، وبفضل اختراع فن الطباعة، وتطوير صناعة الكتب، وتراجع الأمية، ثم من بعد، بفضل تطبيق الوسائل السمعية ـ البصرية فان ما كان امتيازا لارستقراطية المثقفين أصبح «همّا» ثقافيا عند نخبة برجوازية متفتحة نسبيا، ثم في العهد الحديث غدا وسيلة تنمية ثقافية للجماهير.

فهذا الاختصاص من جهة وهذا الانتشار من جهة ثانية بلغا حدا حرجا حوالي سنة 1800، واذ ذاك بدأ الأدب يعي بعده الاجتماعي[2].

ومن هذه المنطلقات أولت ايطاليا الامبريالية للأدب اهتماما بالغا كوسيلة للتأثير على الرأي العام لتحقيق اهدافها في وضع فكرة التوسع والاحتلال.

ولم يعد الادب مجرد ترف أو تصوير محايد لسياسة ايطاليا وأطماعها التوسعية، بل أصبح عملا يهدف الى استقطاب الجماهير حتى تندفع بحماس الى الخطط المرسومة من قبل رجال الدولة لاحتلال ليبيا.

ومن هنا تكمن وظيفة الأدب الايطالي الذي كان بمثابة التخطيط الشامل لتعبئة الرأي العام لتحقيق حلم ايطاليا التاريخي في أن تكون دولة امبريالية قوية تعيد مجد روما القديم.

وقد ولدت هذه الوظيفة الجديدة للأدب تحت ضغط نمو فكرة التوسع مع اطلالة القرن العشرين، ولعبت دورا مهما في خلق التيار الشاسع الذي ما لبث أن تبلور في حركة أدبية جديدة عرفت (بالحركة المستقبلية) التي أصبحت تشكل تيارا أدبيا جديدا، الى جانب التيار الذي كونته الحركة القومية من قبل.

وربما كانت تجربة الأدب الايطالي الممهد والمواكب لغزو ليبيا تجربة مستجدة على واقع الأدب، حيث أمكن استخدام أدوات الأدب في جميع أشكالها ومستوياتها للقيام بأكبر وأوسع عملية تضليل وتزوير فرّخت نتائج في منتهى الخطورة، وكانت النتيجة الأولى لهذا التزوير، أنها حققت نجاحا ملموسا في استقطاب تيار عارم من الشباب الايطالي الذي اندفع بكل الحماس في تمجيد هذه الحرب والدعوة لها، ونجحت في خلق حركة التفاف متضامنة مع الحكومة في اتخاذها قرار الغزو.

وهكذا كان الأدب الايطالي في مقدمة الوسائل الثقافية التي شرعت في مسح العقل الايطالي أولا والذي كان مناخا صالحا أمام كل حركة تدعو الى القوة والسيطرة، وفي الوقت نفسه كان غزوا ثقافيا مكرسا لمساندة الغزو العسكري في محاولة تبريره، وقد نجح أيضا في تكوين فكرة التفوق والتميز عند الايطالي وواصل بقوة على انضاجها وبشكل سريع ولعب دورا بارزا في تعميقها في قالب عنصري شوفيني.

وبالفعل كان الأدب الايطالي، كما كانت الصحافة جزءاً لا يتجزأ استخدمته ايطاليا على أوسع نطاق ليس فقط لكسب الرأي العام المؤيد للغزو ولكن لخدمة حملاتها العسكرية وتقويتها معنويا.

ونحاول في هذا الفصل أن نستعرض نماذج من الأدب الايطالي لفهم ذلك الدور الذي لعبه في خدمة سياسة ايطاليا الامبريالية في مطامحها التوسعية وغير المشروعة تتمثل في بعض الروايات والقصائد والخطب وبعض الكتابات الأخرى التي قدمت اسهامات في التمهيد والتأكيد على ضرورة الغزو.

وبالطبع فان هذه الدراسة لا تغطي الا النزر اليسير من ذلك الانتاج العارم الذي صدر في تلك الفترة، ولكن حاولنا أن نتعرف قدر الامكان على ملامح هذا الأدب.

**هوامش**

1 ـ أحمد محمد عطية (الالتزام والثورة في الأدب العربي)، دار العودة بيروت، دار الكتاب العربي ـ طرابلس ـ الطبعة الاولى 1974 ص 12 عن ارنست فيشر، «ضرورة الفن»، تر. اسعد حليم، الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة 1971.

2 ـ روبير اسكاريت «سوسيولوجيا الأدب»، تر. آمال انطوان عرمون منشورات عويدات، بيروت، باريس 1978 ص 29.

# المبحث الأول:

## الحركة القومية والأدب:

ثمة عوامل كثيرة جديدة أسهمت في اثراء الأدب الايطالي المؤيد للغزو في الفترة التي اشتدت فيها الحملة الثقافية لاعداد الرأي العام، فقد عادت الى الأفق من جديد أسطورة روما الامبريالية المسيطرة على بحار وشعوب الشرق، وقد طرح هذا الموضوع بشكل يهيج المشاعر، ويوقظ أساطير المذهب الكلاسيكي، ويخلق أجواء من الكبرياء الوطنية وطموحات العظمة، وقد تكوّن هذا الموضوع كظاهرة عامة مع ميلاد الامبريالية الايطالية، وتجاوزت الخطب والمقالات التي كان يدبجها (كوراديني CORRADINI) و(دي فيرنزي DE FERENZI) في انتشارها في صفوف الطبقة البرجوازية المتوسطة في البلاد[1].

ويحلل (روبيرتو ميكيليس Roberto MICHELS) في كتابه «الامبريالية الايطالية l'Imperialismo Italiano»، هذه الظاهرة المستجدة على ايطاليا في تلك الفترة في محاولته تسليط الأضواء على التناقض حول مطلب يستند على حق يرجع الى أكثر من خمسة عشر قرنا الى الوراء فيقول:

.. «أثرت الظاهرة في عقلية اتباع المذهب الرومانتيكي، وحتى الذين لم يتأثروا بهذا المذهب في ذلك الوقت خلقت فيهم حقا عنصريا ومعنويا، واستبعدوا المسافة الزمنية بين طرابلس الرومانية وطرابلس التركية التي تمتد الى مسافة ألف وخمسمائة عام، وتناسوا بذلك كل التغيرات الكبيرة والعنصرية والقانونية والمعنوية والاجتماعية التي خلقتها هذه الحقبة الزمنية، وأحدثت تغييرا في تنظيم شمال افريقيا، وفي تنظيم ايطاليا نفسها، وكانت الغالبية تصدر احكامها على أسس منطقية معكوسة منادين: أن طرابلس لنا، ويجب أن تعود الينا»[2].

وفي رده على هذا المنطق المذهل يقول:

«لو رغبت الأمم في المطالبة بحقها التاريخي في اعادة حدودها في أيام مجدها فان أوربا قد تجد نفسها تحولت الى ميدان صراع بربري ورجعت الى زمن هجرة الشعوب الهمجية، وبذلك لن يبقى شعب واحد يتملك سيادته على أرضه.

ومن هنا يتضح بيسر خيال هذا البرنامج المقدم من الأدباء المولعين بفن سياسة رجال الدولة، ولا أحد ينكر، أن ذكرى الممتلكات القديمة قد تكون

وسيلة مفيدة في فترات حرجة في السياسة الخارجية لمحاولة اشعال حماس الجماهير حتى وان كانت هذه الوسيلة ناقصة من الناحية المعنوية، الا أن نبش القديم يكون عملية خداع لازمة لاثارة نشاط الجماهير من أجل الحرب وهي المتلهفة دائما للعدالة بقدر ما هي عاجزة عن اكتشافها»[3].

وتدفق سيل زاخر من الكتابات الأدبية والفكرية والخطب الحماسية لكثير من الأدباء والكتاب والفنانين المرموقين والشباب ورجال الدين، وفق منهج هذه الحركة ـ الحركة القومية ـ التي تستند الى ذكريات الرومان، وامبراطوريتهم المترامية الاطراف، والتي تلهب حماس جيل ايطاليا الموحدة، وتدعوهم بالحاح الى استعادة أمجاد الماضي.

فالأديب الصحفي (كوراديني CORRADINI) شارك في نشر الأطروحات القومية والامبريالية، عندما كتب مسرحية (يوليوس قيصر Guilio CESARE) المكونة من خمسة فصول والتي كتبها عام 1902م. والتي تمجد روما الامبراطورية (الامبريالية)[4].

وبعد عودته من أمريكا في عام 1910م. حيث درس بتعمق اوضاع المهاجرين الايطاليين، كتب قصة عنوانها (الوطن البعيد La Patria lontana) كان المهاجرون الايطاليون أبطالها من جهة، والقوميون من جهة أخرى، فقد أراد (كوراديني) أن يظهر في الهجرة صورة دولة ايطاليا القديمة، وأن يصور القومية ببداية ارادة التحرر والتجديد[5].

وهذا الطرح الذي قدمه (كورادني) يبدو هاما جدا للقوميين، حيث طوروا فكرة الهجرة الايطالية الى الخارج والتي انتهت برأيه الى تشتيت اليهود في جميع أنحاء العالم وربما ينجم عنها الانفصال النهائي عن الوطن وضعف الروابط التي تجمع بين الايطاليين وهو ما قد ينتهي الى تلاشي الروح القومية في داخلهم، وهذا يعني خطر التفكك المحتمل للأمة الايطالية في الخارج وهو ما نبه اليه كوراديني:

«ضد خطر ذوبان الجماهير في المجتمعات والامم التي تستقبلهم»(*).

ووجد كوراديني، علاجا واحدا لهذا الخطر فقال بأن القومية هي الضمان الوحيد للمحافظة على هوية الايطاليين في الخارج وارتباطهم بوطنهم الأم، فالهجرة داء لايطاليا، وهي عيب يجب القضاء عليه، ويجب المحافظة على الوحدة الروحية وتدعيمها بالنسبة لكل الايطاليين الذين يعيشون على التراب الوطني أو في الخارج[6].

وبعد (الوطن البعيد La Patria lontana) كتب رواية أخرى (الحرب البعيدة La Guerra lontana) نشرها عام 1911م وتدور أحداثها وقت الحملة على افريقيا عام 1896م، وتبرز الحرب في هذه الرواية كالفضيلة الباعثة للأفراد، وهي كما كتب المؤلف في مقدمة الرواية ترمي الى اظهار:

(*) حول هذا الموضوع عرضت الاذاعة المرئية الايطالية برنامجا مرئيا في صيف عام 1982 استضافت فيه علماء اللغة وبعض المهاجرين الايطاليين الى امريكا الذين هاجروا في سن متأخرة، لمعرفة مدى تأثير اللغة الانجليزية على لغة المهاجرين الأم، وقد تبين أن الهجرة أفسدت لغتهم حتى من الناحية الصوتية.

«التناقض الموجود بين أوضاع ايطاليا الحالية وعظمتها المستقبلية التي بدأت تنمو في طموحات الجزء الخير من الايطاليين»[7].

وهذا يشير الى بعض اتجاهات الرأي العام خلال عام 1910 و1911 فالوضع الحالي لايطاليا مرتبط بالهجرة التي تشتت الايطاليين عبر العالم وتجعل منهم أقنانا في اقطاعيات الأجانب، كما صرح به كوراديني فان (الحرب البعيدة) مرتبطة (بالوطن البعيد)، وعلى صعيد الأفكار، فان الروايتين تكملان بعضهما (فالحرب البعيدة) تحاول أن تثبت من أصفى منظور قومي (الضرورة الحيوية) لفتح أقاليم جديدة تتجه اليها اليد العاملة التي لا تجد عملا في الوطن الأم، وهكذا يتخلص المهاجرون الايطاليون من حياة شاقة وضنكة وراء المحيط أو وراء الألب، ومن البديهي أن هذا الفتح لا يتم الا بالقوة التي اشتق منها اسم الرواية الثانية، وفي مقدمتها يشرح المؤلف:

«ما الذي يجب فهمه من كلمة Guerra ـ الحرب».

التي يجب أخذها منذ البداية بمعناها الحقيقي والتاريخي، ذلك لأن النسيج للرواية والمحيط الذي يتحرك فيه بطلها ايركولي كولا (E. COLA) هو محيط الحرب التي شنتها ايطاليا في الحبشة عام 1896م. ولكن يجب فهمه باعتباره «المعنى الرمزي لكل القوى التي على الوطن أن يحشدها وكل الجهود القومية التي يجب بذلها من أجل أن يفوز الوطن بواسطة الكفاح الدولي بمكانته في العالم»[8].

ولقيت هاتان الروايتان نجاحا كبيرا وأتاحتا لكوراديني أن يفرض نفسه كزعيم رئيسي للحركة القومية، وأن يكون على رأس الحركة المؤيدة للحرب ضد تركيا.

وقد كتب (بيرلود فيكواوكيني P. L. OCCHINI) الذي كتب ترجمة حياة كوراديني قائلا «ليس من المبالغة اذا قلنا ربما لم يقم أحد بأكثر مما قام به كوراديني من أجل اقناع الايطاليين في اتخاذ رأي عام يؤيد احتلال طرابلس»[9].

وتتوجه الروايتان الى نشر الافكار القومية المتطرفة بين الجمهور وخاصة جعله يقبل ضرورة أنه لا مندوحة لايطاليا من غزو أقاليم جديدة على غرار الدول الاستعمارية الأوربية الكبرى، ويجب على كل الايطاليين أن يطالبوا بهذا الغزو الوشيك، لأنه الوسيلة الوحيدة التي تستطيع أن تضمن استمرارهم وتجددهم.

ورغم أن ليبيا لم تُحدَّد بالاسم في الروايتين، الا أن كوراديني حددها بعد ذلك في سلسلة من المقالات نشرها في صحيفة (ايديا ناسيونالي Idea Nazionale) لسان حال الحركة القومية الايطالية ـ كما عرفنا في الفصل الثاني من هذا الباب.

وتجول (كوراديني) في بداية عام 1911 في أنحاء ايطاليا فقام بزيارة ميلانو وفلورنسا وجنوا وبولونيا وروما حيث القى سلسلة من المحاضرات حول موضوع «البروليتاريا» «الهجرة» «طرابلس الغرب»[10].

وتكون الروايتان السابقتان والمقالات التي نشرت في الصحف والمحاضرات التي ألقيت في العديد من المناطق، أسس كتابه (ساعة طرابلس L'Ora di Tripoli) والذي كان مكرسا

لطرابلس وبرقة، وقد نشر هذا الكتاب عشية اعلان ايطاليا الحرب ضد الدولة العثمانية، وكأنه يعلن في هذا الكتاب أن الساعة قد حانت لغزو طرابلس.

ويحتوي كتابه (L'Ora di Tripoli) على بعض الأفكار السياسية الجديدة، ومنها الدور الرئيسي الذي لعبته القومية كعامل محرك ديناميكي في دفع الجماهير الى الايمان بضرورة قيام الامبريالية الايطالية (اقامة امبراطورية) تكون ليبيا حجرها الأول ويرى أن:

«حزب الأمة لا يولد حسب ارادة (بعض) الرجال ولكن لحاجة الأمة نفسها، ومن غريزة الحفاظ على النفس لدى الأمة، وهؤلاء الرجال بمجرد قيامهم بخدمة الأمة سيجدون أنفسهم قوة لا تقهر، نفس قوة الأمة التي تنهض في النهاية ضد الذين جرحوها بعمق في غريزتها الاساسية غريزة المحافظة على النفس»[11].

وحسب رأي (كوراديني) فان فتح طرابلس يجب أن يتمم الانجاز التحرري الذي حققه (البعث Risorgimento) فيقول:

«من المؤكد أن الأمة في البداية نجحت في التحرر من العبودية التي كانت مكبلة بها من قبل طغاتها، ولكن هذا التحرر الداخلي لا يمكن أن يكون له معنى الا اذا أكمل على الصعيد الخارجي، باستغلال فعلي قائم على سياسة خارجية قومية، ان قضية طرابلس ولدت نتيجة فقر القادة الايطاليين في مجال السياسة الدولية، وأمام هذه الحقيقة التاريخية قام «انحطاط الحكومة»[12].

ان طرابلس بالنسبة لايطاليا هي قبل كل شيء رد الفعل الفوري ضد هذه الحقيقة التاريخية، تعطيل (عدم ظهور) سياستها الخارجية خلال خمسة عشر عاما، أي أنه بالنسبة لأمة ما تعطلت وظيفتها الطبيعية بعد حرب استعمارية أوقفتها هزيمة عسكرية، وبالاهتمام مجددا بقضية طرابلس تستعيد ايطاليا وظيفتها الطبيعية»[13].

واذا كان كوراديني مثل غالبية أنصار الغزو قد قدم حججا اقتصادية واجتماعية فانه لا يعطي أولوية لـ «ثراء ليبيا» وما يمكن أن توفره من امتصاص الهجرة الايطالية، ولا يعدها حججا رئيسة وهو يصر من جديد على أن الحجة الرئيسة التي اعتمد عليها القوميون في حملتهم ذات طبيعة سياسية وليست اقتصادية، وتتعلق بالسياسة الخارجية لا الداخلية، ويحدد (كوراديني) أن الحجة الأولى:

«ان على ايطاليا أن تحافظ على وضعها في البحر المتوسط في مواجهة الدول التي تمارس نفوذها على نفس البحر، وعلى ذلك فلأسباب سياسية دولية يجب على ايطاليا أن تحتل ليبيا».

ويقول:

«ان من محاسن الصدف أن حبت الطبيعة هذه المنطقة ـ أو جزءا منها على الأقل ـ بأراض جديدة تلائم اقامة مستوطنات سكانية».

ويوافق كوراديني على أن فتح طرابلس كان محك مطالبة لكي تنشأ هناك مستوطنات

سكانية، أو مستوطنات انتاجية، ولكنه يلفت انتباه قرائه في نهاية كتابه الى حقيقة أن «الغاية الأولى والرئيسة» في مثل هذه العملية هي غاية متوسطية ودولية[14].

التأكيد التاريخي والسياسي المفعم بالشعور القومي ألهم قريحة (كوراديني) نحو «الفتح الأعظم» ـ كما يسميه ـ لاعادة التوازن في البحر المتوسط، وعندما تحققت الحملة وغزت ايطاليا بجيوشها ليبيا، ولم تتمكن من احراز أي تقدم ملموس كما كانت تتوقع في نزهتها العسكرية، وواجهت صعوبات جمة في الاحتلال، قوبلت بانتقادات شديدة من قبل معارضي الغزو... اندفع (كوراديني) بحماس بالغ والقى خطابا بفلورنسا بقاعة المحاضرات التابعة «لجمعية ليوناردو دافنشي» تحت عنوان «اخلاقيات الحرب» (La morale della guerra) وفيه يظهر حماسه المرضي المتطرف وشعار الشهوة الى الحرب:

«الى أن يعي الايطاليون تماما أننا نحارب اليوم ضد الاتراك سيشارك الاطفال الذين هم دون الثالثة بعواطفهم في هذه الحرب، وأنني أعرف جيدا أطفالا نظموا نشيدا تغنوا في حماس منقطع النظير وروح عالية، لتخفق عاليا رايتنا فوق طرابلس وعلى أنغام مدافعنا، فليغرق الهلال في البسفور»[15].

ويؤكد باستمرار على اعادة الحق التاريخي لروما القديمة والذي لا زال ـ حسب قوله ـ شاهدا على أن طرابلس كانت رومانية في يوم ما.

ويزداد هذا الشعار تأججا عندما تظهر قطعة أثرية في البلاد، فقد عثر على قطعة فسيفساء يرجع تاريخها الى عهد الرومان، في احدى المعارك التي وقعت في عين زارة في 4 ديسمبر 1911.

وقد أثارت هذه اللوحة أقصى مطامح المتعطشين الى الغزو ونشّطت فيهم كل الدعاوى والمزاعم القومية في الحق التاريخي لروما وسرعان ما أعدت لوحة خاصة للاحتفال بهذا الكشف كتب عليها:

«ان هذا الاثر الجميل لفنون روما المجيدة، وحضارتها، تهديه السرية السابعة (بيرساليري)(*) من اللواء 23 في السادس من ديسمبر 1911م. لينال اعجاب أحفاد الرومان ويؤكد حق ايطاليا الثالثة(**) في طرابلس الغرب لينتشلها من البربرية بقوة السلاح»[16].

وينتشي (كوراديني) بهذا الحدث الذي يراه عظيما، ويرى فيه جذوره التاريخية تنبعث من جديد من تحت الرمال تؤكد له أينما ذهب كانت هناك روما:

«هذه هويتنا لاحت تحت الرمال ـ رمال الصحراء ـ ان حقنا في السيطرة على ولاية طرابلس لا أسسه على فسيفساء عين زارة وأنا لا أميل الى تدبيج الألفاظ،

---

(*) (بير ساليري)، كانت تعرف هذه الفرق في ليبيا باسم «عسكر بوريشة» لاستخدامهم ريش الطيور على قبعاتهم تمييزا للفرقة عن غيرها من الفرق.

(**) يقصد بذلك ايطاليا الموحدة وعاصمتها «روما» أما «ايطاليا الاولى» فتعود الى ما قبل 1861، وكانت عاصمتها تورينو، وتلتها «ايطاليا الثانية» (بين 1861—1870) وعاصمتها فلورنسا.

بقدر ما أصف هذا الاكتشاف على أنه (حدث شاعري عاطفي) يدفعنا باعتزاز على التأكيد أينما ذهبنا كانت هناك روما»[17].

كان دائما يؤكد على هذا الحق التاريخي، ويمجد في اسلوب شاعري الجنود الايطاليين الذين يقاتلون من أجل استرداد هذا الحق على صفحات مجلة (Illustrazione Italiana)، التي كانت تنشر حلقات متتابعة بعنوان (أخبار احتلال طرابلس Cronache della conquista) وتضمنت هذه الحلقات مقدمة (لكوراديني) تفيد بأنها «سلسلة تاريخية»:

«ثابتة ثبات التاريخ، وشامخة في اسلوبها شموخ الشعر الاصيل»[18](*).

ويبدو أن ارتباط الماضي الروماني بايطاليا الحالية لم يترك اختيارا للمفكرين والأدباء الايطاليين، فقد كتب (الفريد وأوريانو Alfredo ORIANO) صديق (كوراديني) القومي مثله كتابا حول (الكفاح السياسي لايطاليا La lotta Politica Italiana) عام 1892م. وكتابا حول (الثورة المثالية La rivolta Ideale) عام 1907م. حيث قدم موضوعات شعبية ومثالية في الوقت نفسه تتصل كلها بالفكرة الامبريالية، ففكرة الامبراطورية كانت دائما خاتمة مطاف رحلة (البعث Risorgimento) التي لم تصل بعد الى غايتها النهائية، ويؤكد أيضا على أن التحرر لا يكون بغير العنف «المستقبل للذين لا يترددون» «المستقبل للأقوياء» كما كتب[19].

وفي سنة 1907 يؤلف السناتور (مارتينو Giacomo MARTINO) مساعد سكرتير الشؤون الخارجية ـ في الفترة من فبراير الى اغسطس 1901 ومنظم أول مؤتمر للايطاليين في الخارج، ومؤسس ثم رئيس «المعهد الاستعماري الايطالي (Istituto Coloniale Italiano) كتابا يتعلق «بقورينا وقرطاجنة» يهدف الى دفع الايطاليين والحكومة الايطالية الى فتح طرابلس وتضمن كتابه أهم العناصر التي تناولها الانذار النهائي الموجه في 1911/9/27 من الحكومة الايطالية الى الباب العالي بعد أربع سنوات من تأليف الكتاب، وتضمن الكتاب وجهة النظر التالية حول موضوع احتلال ليبيا:

«نحن لا نتكلم عن الذكريات (الانتكاسات الدبلوماسية لايطاليا) لكي ننصح ولا لكي ندعو الى احتلال عسكري لليبيا ولكن طبقا لاتفاقات معقودة مع فرنسا وانجلترا، اعترفت فيها هذه الدول المهتمة بالبحر المتوسط، بشكل صريح بحقنا في التصرف والحركة في هذا الجزء من البحر المتوسط... دون تدخل من قبلها، ولذلك نحن نسأل ايطاليا من جهة عما ستفعله لتبرير هذه الاتفاقيات، ونسأل تركيا سيدة البلاد من ناحية أخرى عما فعلت من أجل ضمان سلامة هذا الجزء من اقليمك.

ونطلب من ايطاليا أن لا تقتصر رسالتها في البلاد على الحفاظ على سلامتها الاقليمية بل يتعدى ذلك الى المحافظة على الاوضاع الداخلية الحالية للولاية، أما

---

(*) ان فرانسيس ماكولا يناقش هؤلاء بمنطقهم فلماذا لا يجرون وراء آثارهم المثبوثة في انجلترا، واذا كان تخلف منطقة من المناطق مبررا لاحتلالها من قبل دولة أجنبية، بهدف تمدينها، فماذا يكون موقف ايطاليا لو ان دولة اجنبية هاجمت صقلية الايطالية بهدف تمدينها.

بالنسبة لتركيا فاننا نتساءل عما اذا كانت معارضتها لأي عمل تمديني وحضاري يمنع البلاد من الزحف الى مستقبل مشؤوم. وهل يقبل أنه على الساحل الشمالي لافريقيا تبقى طرابلس وحدها في أوضاعها الحالية البربرية. وأن تبقى هذه الحالة مضمونة ومحمية من قبل ايطاليا؟ نحن نريد أن تفهم تركيا أن الخطر بالنسبة لها يكمن في معارضتها المستمرة الموجهة ضد القيام بهذه الأعمال التمدينية والتي تضمن وحدها حقوقها في السيادة[20].

(ومارتينو MARTINO) الذي كان يطالب ايطاليا بألا تقتصر رسالتها في البلاد على صيانة سلامتها الاقليمية بل وأن تتعدى ذلك الى المحافظة على الاوضاع الداخلية الحالية للولاية، ويأتي من بعده العديد من رجال الدين الذين دفعتهم غيرتهم الرعوية تجاه الشباب الذي يسافر للغزو الى أغراقهم بسيول من الخطب الرنانة التي ساهمت بجزء كبير في تقرير الاتجاه القومي المتطرف وبلورته في نفوس هؤلاء الشباب.

وكان من بين أوائل الذين اتخذوا هذا الموقف (الاسقف، كريمونامونسيور جريميا بونوميلي Cremano mons. Geremia BONOMALLI) الذي سبق وأن سلك هذا الموقف في عهد كريسبي أثناء الحملة على الحبشة ونشر على صفحات (افنيري ديطاليا) بتاريخ 10 اكتوبر 1911 رسالة حيي الجنود الذين شاركوا في الحملة جاء فيها:

«في أواخر عمري أوجه نظري ـ أنا أسقف المسيح والمواطن الايطالي ـ الى الشباب الأبي ذي النظرة النفاذة، وأبتهج من صميم قلبي، وعلى ايطاليا أن تفتخر بهؤلاء الابناء.. ايها الابناء ان روحي متأثرة تلاحقكم في البحار وفي اراضي افريقيا، ومع روحي الاحقكم في كل عمل من اعمالكم المجيدة.. أيها الرهبان ـ ايها الشعب ـ لنصلّ وننتظر بثقة عالية العودة المظفرة»[21].

واتخذت الحملة صيغة أخرى من صيغ التعصب الديني تدور بأحاديث وخطب حول استبدال الهلال بالصليب في تلك المناطق الاسلامية زاد من حدتها خطب الاساقفة حتى سرت عدوى التعصب في كل شيء، ففي هذه الفترة طبعت في ايطاليا بطاقات بريدية تبين جندي (البرسياليري) الايطالي يغرس علمه ذا الصليب فوق مئذنة جامع[22].

وأقيم في كنيسة «بيزا Pisa»، في 11 اكتوبر قداس لتوديع الفوج الثاني والعشرين الذي كان متوجها الى طرابلس، وفي نهاية القداس عزف النشيد الوطني وكان المبنى الديني قاعة للموسيقى ثم قام الكاردينالي (بيترو مافي Pietro MAFE) أسقف بيسا بمخاطبة الجنود وأشار في خطابه الى الاعلام التي استولى عليها المسيحيون من المسلمين في العصور الوسطى والتي تتدلى الآن على جدران الكنيسة، وأعرب الأسقف عن أمله بأن يعود الفوج حاملا أعلاما أخرى ومجللا بالنصر[23]. فكان خطابه دعوة صريحة مكشوفة الى تجديد الحروب الصليبية التي جسدت خلال عشرات السنين أشنع صور التعصب والفظاظة والعنف في التاريخ البشري قال الكاردينال:

«على جدران هذا المعبد التاريخي تشاهدون المائة راية والمغانم العظيمة تنحني لكم

داعية بالاماني الطيبة والعودة المظفرة قريبا، وباعلام أخرى مماثلة، لبعث أمجاد جديدة لأرضنا ايطاليا ـ اذهبوا ان زئير الأسد مجهول هناك، كما هو مجهول التمساح... ولكن عصافير السنونو سبقتكم وعندما تصلون تقدم لكم تحية الوطن، سافروا أيها الجنود حيث يسافر معكم حبنا وصلواتنا، ومعكم الله وانتصاراته»[24].

وبمناسبة عقد قران (الماركيز باتريس ودونا صوفيا اوديسكالكي) الذي تم في روما يوم 18 اكتوبر، القى الكاردينال (فانوتيلي FANOTILLI) خطابا ذكر فيه حادث الدفاع عن فيينا عام 1687م. الذي تولاه البابا (بينيتو اوديكالي) ـ امينو تسترو الحادي عشر ـ والبطولات التي قام بها في تلك المناسبة (جوفاني باتيستا G. BATTISTA) سلف العريس فقال:

«ان الذكريات العظيمة للماضي المسيحي المجيد، تكون دائما مصدر الهام للوطن الايطالي، وبرضاء ابنائه في نقل مدنية الصليب الى اراض تخضع لبطش الهلال البغيض»[25].

لا شك أن هذا الخطاب الذي يعود الى ذكرى الحروب الصليبية ضد الاسلام يجتهد في البحث بأية وسيلة عن ايجاد مبررات تاريخية تعطي الحملة رسالة سامية. وقد اجتهد الكثير من الاساقفة في تلك الأيام لايجاد روابط تاريخية قديمة تربط الحملة الليبية بسوابقها.

ولما كان يوم 7 اكتوبر ذكرى مرور ثلاثمائة وأربعين سنة على معركة (ليبانتو)(*)، التي وقعت بين المسلمين والمسيحيين فقد تهيأت فرصة لذكريات تاريخية أخرى تبرر وتشيد «بالحرب المقدسة» الجديدة ضد الاسلام.

والى جانب الاساقفة قام أعضاء مجلس النواب بالقاء العديد من الخطب الحماسية التي تدعو بالحاح الى تكثيف الغزو وتمجيده، وخاصة عندما طرح على المجلس في جلسة الافتتاح المرسوم الملكي(**) الذي يفرض السيادة الايطالية على ليبيا للمناقشة وابداء الرأي في امكانية تحويله الى قانون قدم النائب (فردينالدو مارتيني Ferdinando MARTINI) نص المرسوم الى المجلس موفقا بخطبة مطولة مضافة الى التقرير التقديمي للمرسوم صور فيها الاحتلال على أنه

---

(*) ليبانتو، معركة بحرية وقعت في ليلة 7 اكتوبر 1571 بين الاتراك والمسيحيين في (خليج باتراس)، ورغم أن كفة المعركة كانت متقاربة، الا أن المسيحيين ادعوا الانتصار في هذه المعركة.

(**) المرسوم القاضي بضم ليبيا نصه كالآتي:

بناء على اقتراح رئيس الوزراء ووزير الخارجية، وبعد موافقة رأي مجلس الوزراء عليه. وبعد الاطلاع على المادة (5) من دستور المملكة رسمنا بما هو آت:

يوضع قطر طرابلس الغرب وقطر برقة تحت السيادة الكاملة الشاملة للمملكة الايطالية، وستحدد بقانون الاحكام والقواعد النهائية لادارة شؤون القطرين المذكورين. وحتى صدور مثل ذلك القانون، يستعاض عنه بمراسيم ملكية. يعرض هذا المرسوم على البرلمان لتحويله الى قانون صدر في 5 نوفمبر 1911.

فيتوريو عمانويل الثالث. جوليتي ـ دي سان جوليانو.

(حول الاسس القانونية لشرعية الضم الايطالي بعد مرسوم 5 نوفمبر 1911) انظر، علي عبد الرحمن ضوي (المسؤولية الدولية عن الاضرار الناشئة عن البقايا المادية للحرب العالمية الثانية في الاقليم الليبي)، رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة قار يونس، يونيو 1983، ص 74 وما بعدها.

«القدر التاريخي لايطاليا» مؤكدا على فكرة جوليتي وأضاف الى التقرير مواضيع كانت عزيزة على الأدب في ذلك الوقت ومرتبطة بذكرى مستعمرة روما القديمة فقال:

«وليبيا التي كانت لنا: ان معول الفلاح يعيد الى نور الشمس أمجاد الحضارة اللاتينية، ومآثر الاجداد البعيدين وشجاعة جنودنا تعيدها اليوم... وغدا ستعود الينا وهي أكثر أمانا، وسيستمتع الأهالي المحليون بعد ازالة العتمة التي كونها التحريض الكاذب بالسلام والأمن بفضل حرية الاعتقاد المضمونة التي يمنحها لهم جيشنا الصامد، ونور الحضارة والمدنية الذي يبدد الظلام سيعم كل الأرجاء كما حدث في مستعمرات ايطالية أخرى أصغر حجما وأقل قيمة، وسيعم الرخاء الذي لم يألفوه من قبل»[26].

أما النائب (بانتاليوني Pantalioni) فكان أكثر دقة في التعبير وأكثر وضوحا وصراحة عندما عبر عن الحملة التي وصفها (مارتيني) بأنها تعيد الى الشمس ضوء الحضارة اللاتينية لتعيد ليبيا التي كانت لهم، وتمنح أهل البلاد الرخاء والهناء والسلام والحرية التي تنقشع أمام نورها غشاوة التحريض الكاذب، وخطا خطوة جديدة في تاريخ العنصرية البشعة والعرقية الشائنة التي كانت تمثل ابشع مظاهر الاستعمار في تاريخه الطويل فقال:

«ان الجماعة المهجنة التي يتكون منها السكان المحليون والناتجة عن اختلاط أحقر ما انجبته السلالات البشرية، لابد من سحقها وتدميرها نهائيا، ليأتي في مكانها العنصر الايطالي الجديد»[27].

كان الهاجس الأكبر للقوميين المتطرفين أن تبدو ايطاليا قوية فتية وأن تعيد للعالم حضارة روما وأمجادها الغابرة حتى وان تم ذلك على جماجم الشهداء وآلاف الضحايا، وكان الأدباء والكتاب والخطباء من الاساقفة وأعضاء البرلمان ينظرون الى الحملة على أنها استمرار لمسيرة الرومان واقتفاء لأثر الاباء القدماء، وأنها ستكون مقدسة من أجل الحضارة والمدنية.

وتدعم مجلة (ليتورا Lettura) هذا الرأي في مقال بعنوان (ماضي طرابلس Il passato di Tripoli) لكاتبه (بيترو جيلاردي P. GILARDI) نوه فيه بأن الدماء التي تجري على أرض ليبيا سيكون لها الأثر الفعال في اعادة بناء الحضارة فيقول:

«ان ازهارا متفتحة ندية أبدية ستنمو، وصرحا شامخا سيبنى بقطرة دم واحدة اذا سقطت..

سينتشر عبير الزهرة التي غذتها قطرة الدم هذه على أرض ما وراء البحار، عبير يعيد فضائلنا القديمة والحديثة»[28].

وألقى المحامي (ارتورو فيكيني Arturo VECCHINI) خطابا في اجتماع عقد بمسرح (لاسكالا La Scala) أكد فيه على قيمة البحر المتوسط التاريخية والحضارية، الذي شهد التقاء الحضارات، وعلى ضفافه تنتشر الديانات فقال:

«أربعة براكين تضيء هذا البحر ومائة خليج تبتسم له، وألف مدينة تزينه، ملتقى الاجناس ثلاثة، وماء مطهر لديانات ثلاث، وممر رئيسي لحضارات ثلاث، وعلى

مشهد من سرت التي رأت مقدمات سفن الرومان المستديرة والتي عليها ـ الكبش ـ رمز اله الحرب ـ وهي تصطدم بسفن قرطاج ذات الطبقات الخمس. هذا البحر الذي عاصر صراع الهلال الاسلامي والصليب المسيحي، وعلى أمواجه ومع صدى المعارك التي دارت فوقه عبرت أساطيل ملوك المغرب وجنوا وفينيسيا، ولا زالت حتى اليوم تحوم أطياف (حنبعل ANNIBALE) و(شيبون SCIPIONE) و(سيللا SELLA) و(متريدات MITRIDATE) و(قيصر CESARE) و(دون جوان DON GIOVANNI) و(كارلو الخامس CARLO. V) و(نابليون NAPOLEONE) و(ماركونتونيو كولونا Marcantonio COLONNA) و(اندريا دوريا Andrea DORIA)[29].

ويبدو أن انتاج الكتّاب والأدباء والخطباء والصحافيين، ورجال الدين والبرلمان الغزير لأجل الحملة لم يرض غرور ايطاليا ولم يكن كافيا، فحاولت أن تستعين بأدباء العالم المشهورين لتعطي لحملتها تأييدا ثقافيا عالميا.. وفي هذا الاطار قامت مجلة (ايطاليا المصورة I. Illustrata) بارسال عدة رسائل الى نخبة من المفكرين والأدباء والكتّاب الذين يمثلون الثقافة الاوربية، ويكتسبون شهرة في مجال الفكر والأدب، تطلب رأيهم في الحرب التي تخوضها ايطاليا، وكان صاحب هذه الفكرة (تيتو ماتزوني Tito MAZZONI) بناء على رغبة مدير المجلة ووكيل وزارة الخارجية (لانزا دي سكاليا Lanza DI SCALEA)، ومن بين هذه الاجابات التي احبطت همة المجلة كانت اجابة «بيير لوتي Pierre LOTI»(*) التي نشرها على صفحات مجلة (لوفيغارو Le Figaro) في عددها الصادر في 1 ديسمبر 1911 وجاء فيها:

«تسألونني رأي في الحدث «المجيد» الذي تقوم به ايطاليا ولكن المجد دائما هو الحق الذي أراه الى جانب الذين يناضلون من أجل أراضيهم، أتراكا كانوا أم عربا، الذين لا يملكون الا السلاح البدائي، والذين فاجأتهم رشاشاتكم ورغم ذلك لم يتوانوا عن الشهادة من أجل الوطن.

ان المجد الحقيقي لا يمكن أن يكون الى جانب الغزاة وأعتقد أن رأيي هذا هو رأي الاغلبية التي تستطلعون رأيها»[30].

وفي مقال آخر على صفحات (لوفيغارو Figaro) نشر مقالا آخر في أحد أعداد يناير هاجم فيه ايطاليا، وندد بموقفها وسلوكها اللاانساني والذي وصفه بغير الحضاري، جاء فيه:

«انني اتوقع منكم الشتائم بسبب موقفي، وخاصة من الذين أصابهم العمى والذين لا يفرقون بين المدنية والسكك الحديدية والاستغلال، والمجازر البشرية، فلتسقط حروب الاحتلال مهما كانت المبررات»[31].

ومن ثم فقد قام الايطاليون الذين بشروا بالحرب الصليبية في طرابلس قاموا بخلق المزيد من

(*) بيير لوتي ـ هو الاسم المستعار للأديب الفرنسي (لوي ماري بولياغلوا).

الحماس ولزمن أطول بالتبشير بالحرب التي تستعيد الأرض المسلوخة من ايطاليا، ويقول «شيبيو سيغلي Scipio SEGHELE) في كتابه عن «القومية»:

«ان استعادة الأرض المسلوخة ليس فقط عاطفة ثابتة بل ضرورة وواجبا تفرضها علينا الحقوق التاريخية والمصالح الاقتصادية والاعتبارات (السوقية الاستراتيجية)»[32].

لقد استطاعت الحركة القومية المتطرفة أن تنمي الادعاء العاطفي في حق ايطاليا التاريخي في ليبيا، وأن تمارس تأثيرا فعالا على الأدباء والكتاب والصحفيين الذين ينتمون الى هذه الحركة، أو حتى على الذين كانوا يقفون في الطرف المحايد مكتفين بالتفرج على الصراع الدائر بين التيارات المؤيدة للغزو والمعارضة له، والى جانب ذلك حققت نتائج ملموسة في التأثير على الاتجاهات الأدبية في تلك الفترة، وتحديد مسارها وفق تصوراتها الاستعمارية، والتي كانت بمثابة الارهاص لمولد حركة أدبية جديدة (عرفت بالحركة المستقبلية Futurism) والتي كانت استمرارا للحركة المتطرفة في بعثها للتاريخ القديم في شكل مستقبلي يعتمد على القوة والسيطرة، ونبذ كل ثقافة تابعة لأمم اخرى.

**هوامش**

1 - Francesco MALGERI op. cit. p. 53.
2 - Roberto MICHELS (l'Imperialismo Italiano) Milano 1914 p. 115.
3 - Roberto MICHELS op. cit. p. 118.
4 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 576.
5 - Francesco MALGERI op. cit. p. 433.
6 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 576.
7 - Enrico CORRADINI «La Guerra lontana» Milano 1911 p. 5.
8 - Enrico CORRADINI «La Guerra lontana» op. cit. p. 6.
9 - P.L. OCCHINI «Corradini» FIRENZE 1933 pp. 230-231.
10 - Enrico CORRADINI «L'Ora di Tripoli» op. cit. pp. 9-10.
11 - IBID pp. 9-10.
12 - IBID p. 223.
13 - IBID p. 224.
14 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 580.
15 - Paolo MALTESE op. cit. p. 212.
16 - IBID p. 212.
17 - IBID p. 195.
18 - IBID p. 171.
19 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 581.
20 - Giacomo MARTINO «Cirene e Cartagine, note e Impressioni della Carovana de Martino BALDARI, Bologne Juni Jullet 1907. p. 125.

21 - Francesco MALGERI op. cit. p. 2398240.

22 ـ فرانسيس ماكولا، مرجع سابق، ص 306

23 ـ فرانسيس ماكولا، مرجع سابق، ص 308

24 - Piccioli ANGELO «Tripolitania scuola d'energia» Roma 1932. p. 77.

25 - Francesco MALGERI op. cit. p. 240.

26 ـ انظر نص الخطاب في وثائق البرلمان الايطالي:

Atti del Parlamento Italiano «Carriera del deputato sessione 1909-1912, Discussione del 25.2.1911 - in Paolo MARTESE op. cit. p. 232 - MALGERI op. cit. p. 00.

27 - Paolo MALTESE op. cit. p.p. 196-197.

28 - IBI p. 185.

29 - Paolo MALTESE op. cit. pp. 196-197.

30 - IBID p. 195.

31 - IBID p. 195.

32 ـ فرانسيس ماكولا، مرجع سابق، ص 34.

## المبحث الثاني:

### الحركة المستقبلية:

عرفت الدعوة المستقبلية في ايطاليا، وكان لها من الصدى والاستجابة في بداية القرن العشرين ما جعلها تشكل تيارا أدبيا جديدا ينبذ الأساليب القديمة للمدارس الأدبية والفنية، سرعان ما آل الى الزوال والاضمحلال لغرابة الدعوة وتطرفها وجنوحها الى المغالاة في تهديم وتدمير كل قديم[1].

وكان مولد هذه الحركة وخروجها من الكنائس والمنتديات الأدبية والفنية لتخلق تأثيرا في عقلية الجماهير، وبشكل خاص في الشباب الذين استحوذت عليهم فكرة التقدم التقني في مظهره الخارجي مثل السيارة والدراجة النارية والطائرة، وتملكتهم مظاهر القوة والسرعة والأخطار وأسلحة الحرب والرياضة العنيفة[2].

والحركة المستقبلية (الفوتورزم) التي أبصرت النور قبل الحملة الليبية بأشهر قليلة كانت تنظر الى هذه الحملة كما جاء في منشور (فيليبو توماسو مارينتي Filippo T. MARINETTI) ـ زعيم الحركة ـ ذلك الاعلان العنيف الناري ـ كما يسميه نقاد الأدب ـ الذي كان يهدف الى خلاص البلاد من الغطرسة المتعفنة، ويتغنى بالثورة والشجاعة، وكان يهدف الى تمجيد الحرب على انها السبيل الوحيد الى صحة العالم، ومن هنا فالحركة المستقبلية تتفق مع القوميين للبحث عن صيغة تخرج ايطاليا من كبوتها.

وقد صاغ الشاعر (مارينيتي MARINETTI) بيانه المستقبلي الذي نشره في صحيفة (لوفيغارو LE FIGARO) سنة 1909م. فأثار ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية ووجد له من الاتباع المولعين بالدعوة الجديدة عددا كبيرا منهم الكاتب الايطالي الشهير (بابيني PAPINI) الذي تخلى عن هذه الدعوة عندما ادرك النضج الأدبي، وقد كانت هذه الدعوة موجة من الموجات العنيفة التي شاركت في صياغة الوجدان الايطالي المتطرف الثائر على التقاليد القديمة في الأدب والفن والداعي الى تغليب مفاهيم السيطرة والقوة والسيادة والعنف[3].

لقد أصدر ماريتيني «بيانه» الغريب الذي يستوقف النظر بما فيه من دعوة غريبة تعود بالانسان الى ما قبل شريعة الغاب وتجعله من جديد ضربا من الوحوش يلتهم القوي منها الضعيف، ويظهر في البيان انعكاس التقنية المدنية على نفسية الذين امتلكوها، وهذا ما يذكر الى حد كبير بمفاهيم جديدة تعيش الان في رؤوس الكثيرين من أصحاب الافكار الاستعمارية المعاصرة يقول ماريتيني:

«نحن نحب أن نتغنى بحب الخطر، ان الشجاعة والجرأة والتمرد ستكون عناصر اساسية في شعرنا وقصائدنا، لقد غنى الأدب حتى الآن ومجد التأمل الساكن، والانجذاب والحذر ولكننا نحن نريد أن نتغنى ونمجد الحركة العدوانية والأرق المحموم وخطوات العدو، والقفز القاتل، والصفعة واللكمة، ونحن نؤكد أن روعة العالم قد ازدادت غنى، بجمال جديد هو جمال السرعة، وليس هناك جمال الا في الصراع.

لا يمكن لأي عمل أدبي لا يحتوي مضمونا عدوانيا، أن يكون عملا كبيرا ممتازا، نحن نريد أن نمجد الحرب ـ العافية الوحيدة في العالم ـ ونريد أن نمجد العسكرية من أجلها والاستهانة بالمرأة واحتقارها».

وكان (مارينيتي) ينظر الى الانذار الموجه الى تركيا على أنه «مستقبلي» ويرى في الحكومة الايطالية التي يرأسها «جوليتي» أنها «مستقبلية».

ولعلنا نخطىء اذ نظن أن الفكر الفاشي العنصري جاء وليد العقد الثاني أو الثالث من هذا القرن. ان له بذورا عميقة تعود الى فترات زمنية أبعد ترتبط الى حد بعيد بالشعور بالقوة وبرؤية الجيوش المدججة بالسلاح والأساطيل والطوربيدات والطيارات والأسلحة الفتاكة وهي تبحث عن ضحاياها بين الشعوب الضعيفة. هوذا مارينيتي «يتغزل» بأمثال هذه الجيوش الجرارة، ويعين لها «الرسالة» التي يجب أن تؤديها.. ان الحكومة الايطالية في رأيه:

«تتخذ مظهر السفينة المدرعة تسير مع جزر من (الطوربيدات) ان حماسنا للحرب يضاهي الاعتزاز بشعورنا الذي يعم كل البلاد، أخيرا أصبحت الحكومة الايطالية «مستقبلية» ونحن بدورنا نحرضها على أن تستخف بكل الاتهامات التي ترميها بالقرصنة، وأن توسع الطموح الوطني لنعلن جميعا ولادة الجامعة الايطالية.. الشعراء، الرسامون، النحاتون، الموسيقيون، كلنا من المستقبلية الايطالية، لندع القصائد، وفرق الموسيقى، وفرش الرسم، وأدوات النحاتين، مادامت الحرب مستمرة، لا شيء يجذبنا الى الاعجاب به اكثر من سيمفونية أسلحة (شرابنيلس Shrapnels) أو فن النحت الذي تفعله مدفعيتنا في صفوف الأعداء، اننا نطالب أن تكون ايطاليا للشباب الايطالي الذين صنعوا الضمير الوطني بقتالهم في طرابلس.

ونحن هنا نطالب بتنمية هذا المثل الأعلى بالتربية المستقبلية التي تقوم على البطولة والشجاعة التي تصل الى حد التهور والقوة وركوب المخاطر، نطالب بالرياضة العنيفة في الهواء الطلق، العدو، والملاكمة، والألعاب الحربية»[4].

هكذا كان يرى (مارينيتي) في قعقعة السلاح ولعلعة الرصاص أنغاما موسيقية شجية ولحنا جميلا، وفي الدمار والخراب الذي تحدثه المدافع وقتلى الحرب نحتا بديعا لفنان مبدع، يرى في كل ذلك مستقبلية ايطاليا وعظمتها.

ومن الذين تأثروا بهذه المستقبلية وتغنوا بالحرب التي يدعو اليها الشاعر (باولو بوتزي Paolo

BOZZI) الذي كتب عن الحرب المستقبلية:

«أيتها الحرب، أغني لك، وألقي بنفسي لأموت.
أريد أن أقاتل صامدا.
أريد أن اقاتل تحت مظلة من الرصاص.
أعطوني رشاشة المستقبل الكاملة.
اعطوني عشرة آلاف سيف.
من السيوف التي سلتها السواعد الرومانية»[5].

ومن طرابلس أرسل (مارينيتي) عدة رسائل الى الصحيفة الفرنسية (لينترا انزيجان l'Intran sigant) من 25–31 ديسمبر 1911 جمعها فيما بعد في كتاب بعنوان (معركة طرابلس La Battaglia di Tripoli) وقد كرر في هذه الرسائل نفس اللحن الحربي وفي خيال غاضب دفعه الى تشبيه الرشاش بالمرأة الجميلة فيقول:

«علي حين غرة ينطلق الرشاش ليؤدي دوره بغضب. وصبره قد نفد، فمزق سكون الليل.
انني مقبل الى هذا الرشاش، وكأنني على موعد مع امرأة أنيقة رشيقة.
نظراتها القاتلة ربما تكلف حياة بطل شجاع، في سبيلها يرحب بالموت دون أن يتحسر على حياته.
ها هي تنحني الى الأمام، كأنها امرأة رشيقة القوام، نحيفة الجسد شدت في رداء مطرز بالمخمل الاسود يشده حزام مرصع بالعيارات.. ومن بين شعرها الأسود، بل، من بين أسنانها الشرسة تتفتح أجمل زنبقة بيضاء وسط اللهيب الحاد الذي ينشر الموت أمامه»[6].

انها «لوحة» نادرة حقا في الأدب العالمي اذا سمي هذا أدبا ويجب أن يكون الانسان وحشا مسعورا أو ضربا من الحيوانات أدنى من الوحوش لكي يرى «الشاعرية» في رؤية الرصاص يمزق أجسام الأبرياء الذين يدافعون عن أرضهم، ولكي يرى في منظر تقتيل أبناء ليبيا على أيدي الغزاة الأغراب ـ رقصة للموت... زنبقة بيضاء. وتتردد هذه «الشاعرية» أيضا في لوحة المدافع التي تلفظ فوهاتها حمم الموت وهي تحيل الأبرياء الى كتل من العيون والأنوف... والبطون.

ويخاطب المدافع فيقول:

«يا فوهات تتراقص بجنون، كم أحسدكن ـ كم أحسدكن ـ لماذا لم اشارككن، وأكون واحدا منكن؟
تناثر الشظايا من أجسادكن اللامعة المعدنية، ما أجمله وهي تنغرز في عيون وأنوف بطون الأعداء الممزقة شر تمزيق. أشعر بحماس غامر مكبوت لأني شاب مثلكن، أود أن ارقص على أنغام الموسيقى، ولكن، ليس الآن.
فليتطاير رأسي وحده مثل قذائفكن الى مالا نهاية»[7].

ويصف الجياد المخصصة لجر المدافع ويتغنى بها واصفا اياها «بالمظهر» الذي يشبه التمثال والصدر العريض الواسع، والعيون الصقلية الجميلة، والظهر المربع، وصهيلها السرديني، - نسبة الى سردينيا - يهتف بالكلمة العظمى - ايطاليا، ايطاليا.

ويشطح به الخيال الشبقي فيصف الكثبان الرملية التي تشهد المعارك الحربية على أنها فتاة ذات نهدين بارزين تكاد تكون من لحم ودم[8].

وهكذا فاننا أمام «أدب» غريب ظهرت ملامحه الأولى في ملحمة «فيرجيل» ثم في ملحمة «توريبوس» عن ليبيا، وهما من الملامح النادرة التي تشيد بمخاطر العنف والقوة والموت وتحاول أن تبين الغازي دوما على حق بمجرد أنه قوي.

وقد أفادت (معركة ليبيا المستقبلية) حسب رأي (مارينيتي) - في اعداد (جو حربي عظيم) فيقول:

«لقد تحصل الطلبة الايطاليون في النهاية على مثل أعلى للبطولة، وحتى وان كان مجتمعنا لم يتخلص بعد من بعض العادات الضارة مثل «العاطفية» و«الشفقة» و«حنان القلب» و«الحساسية» الشبيهة بحساسية الأنثى»[9].

وقد بلغ من تأثير المستقبلية على الطلاب والشباب الى الحد الذي سافر وفد طلابي من الشباب الجامعي الايطالي في أعياد الميلاد الى طرابلس، وكان هذا الوفد يتصدر المسيرات المؤيدة للحملة، وحمل الطلبة معهم وثيقة تقدير واعجاب ببطولة الجيش الايطالي موقعة من عشرين ألف طالب، وأحضروا معهم تذكارا رمزيا مهدى من عمدة بلدية روما وهو عمود روماني، نصبوه بمنطقة سيدي المصري احتفاء بانتصار 26 نوفمبر وقد نقشت على العمود العبارة التالية:

«من طلبة الجامعات الايطالية الى أبطال الحرب الذين ماتوا من أجل مجد ايطاليا»[10].

يتضح من زيارة الوفد الطلابي، أن الشباب الايطالي الذي وصفه مارينيتي بأنه مستقبلي، لم يفقد جذوره المرتبطة بالتاريخ القديم المبني على أمجاد روما، ولم يصل الى الانطلاقة المستقبلية نحو الحضارة المدنية بآلاتها وضجيجها، ولا زال يتأرجح بين امبراطورية كوراديني وامبراطورية مارينيتي، أو كما كتب (جوفاني انسالدو Giovanni ANSALDO):

«تختلط في عقول الشباب الافكار القومية والمستقبلية، فكانوا يرغبون في اعادة نصب أعمدة الكنائس المدفونة في رمال ليبيا، وفي الوقت نفسه يريدون امبراطورية (كوراديني) بنسورها ويريدون امبراطورية (مارينيتي) بمحركاتها الآلية»[11].

ولم تقتصر عدوى المستقبلية على الشباب والطلاب، بل تسربت هذه العدوى الى العديد من الأدباء والكتاب - كما سنعرف بعد قليل - والى الصحف والمجلات ذات الشهرة الواسعة، والى المئات من جرائد الأقاليم التي تفتقر الى الشهرة، والتي غذتها قصائد الحملة المستقبلية

بأفكار الحركة المستجدة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد صحيفة اقليمية من (كلابيا) تحيي الجنود المسافرين الى ليبيا بقولها:

«تسافر المراكب العجيبة الى بحر الكوبلت الواسع مملوءة بأرواح فولاذية.. الأمهات والزوجات والأخوات من نساء ايطاليا يتبعن هذه الأرواح بالدعاء والعودة المظفرة، هذه الأرواح تمخر عباب البحر والأمواج تداعبها مبتسمة، يا أبناء ايطاليا الشجعان، على كثبان الرمال وفي الصحراء لتنتصر وتحيا ايطاليا دائما»[12].

وتستمر الحركة المستقبلية في وصفها الى كل شيء، حتى عالم الأطفال تعرض للتهديم بمطارق هذا الشعور، للسيطرة على عقولهم الطرية البريئة بزيف كاذب مبني على بطولات واهية هشة يصفها خيال صحيفة (كوريري دي بيكولي Corriere DEI PICCOLI) أكثر صحف الأطفال انتشارا، والتي ابتدعت شخصية (جان سائيتا Gian SAITA) الذي يقدم للأطفال متحليا بالذكاء والدهاء والبسالة، ويرمز الى الجندي الايطالي الشجاع والماهر والماكر الذي يستغل سذاجة العرب ليحقق عملية باهرة مسلية.

وفي العدد (رقم 39 الصادر بتاريخ 29 سبتمبر 1911م، وضعت ستة رسومات كتب تحتها (جان سائيتا) لا يعرف التعب، يحفر بئرا يضع في قاعها مرآة تعكس الصور، كما يعكسها الماء، يأتي العربِ بأوعيتهم لأخذ الماء فينحنون الى حافة البئر، ويبصرون وجوههم في قاع البئر فيعتقدوا أن بالبئر ماء، وفي تلك اللحظة يجذب جان سائيتا حبلا كان قد أعده فخا فيقيد العرب، ويجرهم مفتخرا الى المعسكر وسط هتاف الجنود[13].

وفي محاولة التأثير على الأطفال، اخترعت لعبة جديدة للأطفال عبارة عن دمى تمثل الجنود الأتراك الصرعى، والعلم الايطالي يرفرف في أيدي البحارة، وقد عبّرت مجلة (Illustrazione Italiane) عن هذه الحرب بأنها:

«عامل يظهر الاهتمام الذي تثيره في الصغار الحرب الدائرة في أراضي افريقيا»[14].

وقد وصف كوراديني من قبل هذا الرأي في قوله:

«حتى الأطفال البالغون ثلاث سنوات يعرفون اليوم أن حربا تدور ضد الأتراك، وهمّ الحرب يدور في قلوبهم»[15].

لقد كان الجندي الايطالي موضوع آلاف القصص والحوادث التي تتفاوت حدتها، والتي تخلق في بعض الأحايين أساطير البطولات حول هذا الجندي أو تزخر بمؤثرات مأسوية أو رومانسية، وفي وسط صخب الكلمات والأشعار ضاعت حقيقة الحرب الدائرة التي كان يعيشها الجنود وفقدت بعدها الواقعي وأخذت عقدة التفوق في النمو والازدياد، بشكل عنصري شوفيني.

وأمام هذا التصوير المزري للحملة والتشويه الكامل لمسبباتها ومجرياتها ونتائجها بدأت معاول الهدم تعمل في التحقير بالموقف البطولي النضالي لجهاد الليبيين في الدفاع عن أراضيهم في الوقت الذي لا يملكون فيه من وسائل المقاومة الا حرارة الايمان بالحق المقدس في حماية الوطن

من الغزاة وعدم التفريط فيه، حتى لو استمر وبدون هوادة تحت مدافع مارينيتي وسمفونية رشاشاته في حصد الآلاف، أو استمر ارسال قوافل الشهداء الى الله على حد تعبير بيانه الصفيق. «اننا نرسل ألف مؤمن الى الله مكبلين بقيود».

لقد قام رجال الأدب والصحافة بتصوير هذا النضال على انه خيانة عظمى ضد ايطاليا، وصورت الكثير من الموضوعات في سذاجة مزورة تكاد تكون صبيانية كما أن هذا الوضع الذي خلقته الصحافة والأدب انعكس حتى على الخيالة وهي في أول تجاربها. ومن خلال ما نشر في الصحف عن هذه الخيالة كتب (باولو مالتيزي) قائلاً:

«ان الخطوة التي قامت بها الخيالة الايطالية هي انتاج أشرطة وثائقية حول الحرب الليبية، ويمكن أن تقرأ من خلال الصحف ما نشر عن هذه الأشرطة.

«منذ اندلاع الحرب الايطالية التركية لأول مرة تصل الأخبار الى الجمهور من برقة في أشرطة متحركة وثائقية، فقد تمكنوا من مشاهدة العمليات الحربية خلال الهجوم على بنغازي في 25 ديسمبر الماضي، وتناول هذا الشريط مطاردة العدو من قبل جنود الفرسان الايطاليين خلال تلك المعركة، وكذلك قسم المدافع وهجوم (البرساليري) وجنود اللواء 68 كما التقطت من على متن السفينة الملكية، (كارلو البيرتو Carlo ALBERTO) صور القصف الجبار لشاطىء زاورة بقذائف المدافع».

ويقول الا أن الملاحظ أن هذه الأشرطة رتبت وأعيد تجميعها (توليف) لغرض الدعاية، وقد كتب أحد قراء (لاستامبا LA STAMPA) في رسالة بعث بها الى الجريدة في 19 فبراير محتجا على هذا التزوير:

«تقوم دور الخيالة في تورينو، وفي مدن أخرى بعرض أحداث حربية، وهجمات بالسلاح الأبيض، وحوادث بطولات مصطنعة اننا نرى جنودنا في ألف لقطة وفي شكل حقير مزر حيث تحذف من اللقطات ما هو قريب الى الواقع، وكل هذا لم يكن كافيا فالضباط أنفسهم يظهرون جماعات في وضح النهار يقفون كأنهم يلتقطون صورا بعد الانتهاء من المناورات الكبرى، يتبادلون التهاني، ويتصافحون ويبتسمون بلطف للجمهور، وهكذا تتحول الحرب الى مهزلة»[16].

لقد كانت المستقبلية بدعة أدبية تسعى الى الانطلاق نحو الجديد والتخلي عما هو قديم، في محاولة صياغة وجدان الشعب الايطالي صياغة جديدة وفق تصورات مارينيتي و(باتيني) وهذا الأخير الذي كان في مرحلته الأولى متأثرا بآراء زعيم الحركة (مارينيتي) يدعو الى احراق المكتبات والمتاحف والكف عن تمجيد أدباء ايطاليا المشاهير مثل دانتي وجونو، والثورة على الثقافة الايطالية التي لم تخرج على النمط التقليدي المقلد لثقافات الشعوب الأوربية الأخرى، والارتباط بتقاليد أدبية قديمة.

وفي الوقت نفسه كان يرى في ضجيج المدن أجمل ثقافة كما يرى في فلسفة الفلاح الذي يزرع الأرض، وفي عمل التجار الخالي من المواهب أعمق فلسفة.

ومهما كانت غرابة هذه الأفكار، فانها كانت مسؤولة عن اذكاء والهاب تلك النزعات القومية المتطرفة التي وجدت تعبيرا عنها في الدعوة الى العظمة الايطالية والتوسع الاستعماري.

**هوامش**

1 ـ خليفة محمد التليسي، (رحلة عبر الكلمات) الادارة العامة للثقافة، طرابلس (كتاب الشهر) عدد 13 لسنة 1973 ص 71.

2 – Francesco MALGERI op. cit. p. 269.

3 ـ خليفة التليسي، (رحلة عبر الكلمات) مرجع سابق، ص 71.

4 – Filippo Tomasso MARINETTI «Guerra sull'igiene del Mondo» MILANO 1915 pp. 153-154.

5 – Francesco MALGERI op. cit. p. 270.

6 – F.T. MARINETTI «La battaglia di Tripoli» MILANO 1912. p. 12.

7 – IBID p. 12.

8 – IBID p. 16.

9 – F.T. MARINETTI «Guerra sull'igiene del mondo» cit. p. 80.

10 – Paolo MALTESE op. cit. p. 207.

11 – Francesco MALGERI op. cit. p. 270.

12 – Emidio DE PASQUALE «Viva e Tripoli l'Italia in «Coronaki Calabrese» 5-11-1911. - MALGERI op. cit. p. 271.

13 – Francesco MALGERI op. cit. p. 270.

14 – Paolo MALTESE op. cit. p. 206.

15 – Francesco MALGERI op. cit. p. 000.

15 – Paolo MALTESE op. cit. p. 212.

16 – Paolo MALTESE op. cit. p. 230.

حسن يوسف اللموشي

# المبحث الثالث:

## الحركة المستقبلية والقومية في اتجاه واحد:

اذا كان هناك عامل وحد الحركة المستقبلية والحركة القومية في الاتجاه والمسلك فهو الحرب الليبية التي حددت ملامح التلاقي بينهما، والأكثر من ذلك جعلت فنانين وأدباء يلتقون على ضفة واحدة، ومن بينهم حتى أولئك الذين رفضوا الدعوة القومية والمستقبلية في البداية.

ولم يكن الشاعر دانونزيو الوحيد الذي وقف الى جانب مارينيتي وكوراديني بل وكان هناك أيضا (جوفاني باسكولي) و(أدانيغري) وجمع غفير من العاملين في المجال الأدبي، وكتب (أوجينو غارين Eugenio GARIN) عن هذا التلاقى قائلا:

«الحرب الليبية نجحت الى حد بعيد في أن يلتقي (كوراديني) و(دانونزيو) و(مارينيتي) وحتى (باسكولي)...

لم تعد للخلافات أهمية كبيرة فالحرب المستقبلية قدمت الدليل على ما يجب أن يعرض في مرات عديدة.

ان اعتبار هؤلاء أصحاب ضجة لاغير كما كتب بريتسوليني ليس صحيحا، لاشك أنهم ساهموا بقدر كبير في فتح الأبواب الموصدة أمام قواتهم التي كانت ترغب في قلب العالم وربما تم ذلك دون شعور.

أو كما قال عنهم (موسوليني) «عملوا بجد على تنمية الروح الايطالية»[1].

وكتب (ايجينيو بتروني Igino PETRONE):

«أن ايطاليا التي قدمت للعالم حضارتين، تضمن في نبوغها العالمي الضمان المباشر والخالد للشعوب والعشائر، وان قدر سير الحضارة يدفعها اليوم الى الاشتراك في مصائر التاريخ العظيم»[2].

ومن هنا فان الحرب الليبية جمعت القومية والمستقبلية على صعيد واحد تربطها الأماني العابرة وأحلام المجد الخالد فاللهجة الحادة للحركتين خلفت أتباعا في اوساط الطلبة وشباب البرجوازية المتوسطة والصغيرة بالمدن[3].

واجتاحت البلاد المئات من القصائد والأهازيج الشعبية التي تمجد الحرب وفق تصورات القومية والمستقبلية، فقد نظمت الشاعرة (جيا ديلا غارزيندا Gea della GRAISENDA) أنشودة (طرابلس يا أرض الحب الجميلة Tripoli bel sol d'amore) التي تركت المشاكل المتفاقمة والصعوبات الجمة جانبا لتتفرغ كلية للغناء من أجل طرابلس ومن أجل الحرب،

وأضحت البلاد كما يقول (فرانشيسكو ماجيري) تقبل وترغب وتسكر بنهم على هذه «القطعة الموسيقية» وقد تحققت الظاهرة نفسها في المستوى الثقافي وهي التي طبعت من قبل الحياة السياسية، لقد بدأ الشعور القومي يتفاقم ويزداد والحرية والامبريالية تتسلل بدرجات متباينة في نسيج المجتمع الدولي، وهكذا اكتسبت اتجاهات المستقبليين والطلائعيين اتباعا من الوسط الفني والثقافي ونتج عن ذلك انتاج عارم من البلاغة القائمة على التكرار[4]، عقب قصيدة (جيا ديلا غارزيندا) التي تقول:

«طرابلس يا أرض الحب الجميلة
أين يكون للشمس مجال أكبر
فوق البحر الذي يصلنا الى افريقيا الذهبية
ان نجمة ايطاليا ترشدنا الى كنز
طرابلس يا أرض الحب الجميلة
هذه عذوبة انشودتي اليك
لترفرف رايتنا المثلثة الألوان
فوق ابراجك وعلى دوي المدافع
ايتها السفينة شقي أمواج البحر
فالريح مواتية والموسم لطيف.
طرابلس ايتها الأرض الساحرة
مع دوي المدافع، ستكونين ايطالية»[5].

أما الموضوع الأكثر اثارة وانتشارا فكان موضوع الجندي الايطالي الذي يموت في الصحراء الليبية من أجل أمجاد ايطاليا، والأم التي تفتخر بموت ابنها ولا تبكيه وحول هذا الموضوع أنشدت (ادا نيغري Ada NEGRI):

هذا هو المجد يا بني... لا أبكيك
هذا هو المجد.. لا أبكيك
توزع قلبي المتحجر، ووجهي الذي يحتضر
على أمهات كثيرات
حب الوطن يفوق كل حب، وهكذا أراد الوطن
الانتحاب هو الصوت البائس على الابن الميت
فالمجد يا بني ثابت الى حد الأمومة
كما لو كان على صليب[6].

لقد كذب الشعراء الشوفينيون بصفاقة على عواطف الأمومة وحاولوا أن يقنعوا أنفسهم وقراءهم وآلاف النساء الايطاليات اللاتي طمرت أجساد أولادهن في رمال بلادنا وفوق جبالها وفي مياه بحارها بأن هؤلاء الأولاد ماتوا دفاعا عن قضية حضارية واستعاروا لذلك العبارات الطنانة الجوفاء حول المجد والعظمة والحضارة وسوى ذلك، ولم يكتف الشعراء الشوفينيون

بذلك بل صاغت أخيلتهم الاستعمارية مهرجانا طريفا يحتفل به بموت الجندي البطل ومن أجل ذلك تدبج القصائد وتستخدم فيها أيضا أضخم العبارات التي لم تغن أولئك الجنود الصرعى شيئا ولم تجلب السلوى الى قلوب امهاتهم ولم تزد على كونها فصلا داميا صفيقا من فصول المسرحية الاستعمارية المعروفة: فبينما كانت آلية الاستعمار تتجه لانتاج المدافع كان جزء منها يتجه الى انتاج القصائد وتدبيج المقالات الدعائية التي تهدف الى «تجميل» وجه الاستعمار البشع وحض أبناء الشعب الايطالي على تقديم المزيد من أبنائه من أجل زيادة النار الجهنمية اشتعالا.

وقد مجد الشاعر (جوزيبي ليباريني Giuseppe LIPARINI) أول بحار سقط في طرابلس في قصيدة جاء فيها:

«لقد نزلت لغزو البحر. فكنت الأول الذي قدم دمه.. ان اسمي لن يذكر.. في الرمال القاحلة رفاق ينامون معي القادمون من أعالي الجبال... ومن السهول الباسمة يرقدون معي وعيونهم محدقة في ايطاليا... ربما ألف أول بطل... لقد كنت الضحية الاولى.. والجميع يحسدني على هذا المصير»[7].

ولكن المهزلة لم تكتمل بدون شاعرها الشوفيني «غابريل دانوزيو» وكان هذا الشاعر منذ وقت سابق يزداد شهرة ويكتسب مكانة مرموقة ويبني لنفسه امبراطورية وهمية، وقد كتب منذ بضع سنوات كتابا سماه «السفينة» كانت حمولتها الاستعمارية والتوسع واكتساب المستعمرات وتولى عبء الرجل الأبيض، وقد كتب منذ بداية الحرب مجلدا من الشعر في الاشادة بها[8].

في عام 1908 ألف مسرحية (الاسطول La nave) غنى فيها للمآثر الاستعمارية والامبريالية الايطالية، ودعا فيها ايطاليا أن «تبحر نحو العالم»[9].

وحاول هذا الشاعر أن يتقمص شخصية الشاعر الملهم نبي الصعود ورسالة الهيمنة الوطنية[10]. كان يؤمن أن يتوصل بواسطة فنه الى أن يجمع حوله حزمة من الطاقات تستطيع أن تنقذ الأشياء الجميلة والمثالية من الموجة العامية الكاسحة التي تغطي هذه الأرض الممتازة حيث أبدع (ليوناردو) نساءه الجميلات و(ميكالا انجلو) أبطاله الذين لا يقهرون.

لقد كان يدعو الى فكرة القوة والسيطرة والتسلط التي وجدها في فكرة «السوبرمان» التي اقتبس معالمها الأساسية من (نيتشه) ثم أضفى عليها شيئا من نفسه والتي تتلخص ملامحها عند ظهورها في:

- عبادة الطاقة المتسلطة، سواء بدت في القوة والعنف، أو في القدرة على الاستمتاع والاحساس الجمالي.
- البحث عن القصائد التاريخية للحضارة اللاتينية. الرومانية اليونانية وعصر النهضة.
- رؤيا ارستقراطية للعالم واحتقار للجماهير الرعاع، والحياة البرلمانية التي تقوم عليها سيطرتهم.
- رسالة من القوة والعظمة تحققها ايطاليا عن طريق المجد.

وعند اندلاع الحرب الليبية كان (دانونزيو) موجودا في (أركاشون Arcachon) وهي بلدة

فرنسية في مقاطعة جيروند التي اتخذها مقرا لاقامته في منفاه الاختياري نتيجة الضائقة المالية التي مر بها ومطالبة الدائنين، وكان الشاعر على صلة مع صحيفة (كوريري ديللاسيرا) وعندما طلب منه (البرتيني) قصيدة غير طرابلسية تكون بمناسبة الانزال على السواحل التاريخية وثورة الشعور الوطني، تحمس دانونزيو وبعد أيام قليلة أرسل الأنشودة مصحوبة برسالة جاء فيها:

«ان الصفحات لا زالت ساخنة، لقد قضيت الليالي في أرق لقد أجبرت حماسا بالغا تضمن هذه الأبيات الرهيبة وعلى كل حال فالأنشودة نداء صادق من صميم القلب»[11].

وفي 18 اكتوبر 1911 نشرت صحيفة (كوريري ديللاسيرا) بأحرف بارزة في الصفحة الثالثة «أنشودة ماوراء البحار»[12].

«ايطاليا. ايطاليا يا دائمة التجدد، يا زهرة كل السلالات، يا عطر كل الأرض المقدسة للفجر الجديد بالمجرات والجوُجؤ»[13].

يمكنك أن تشاهدي يوما في حربك وأنت تغطين بمجزرة البحر اللاتيني... في سبيل تيجانك، ولك أكاليل من الغار والرياحين.

أيها النصر بدون أجنحة... أرمي بالغار تحت قدميك الآن قد حلت الساعة، وأنت تنظرين للأرض الغنيمة بابتسامة وغبطة، ايطاليا، من جذوة الحماس التي تفترسني، تبزغ أغنية أكثر طراوة من الصباح، بينما منفاي[14] في سبيلك يبدو لي أقل حزنا وقتامة.

أنت اليوم أكبر من مستقبلك... وأرحب مجالا من سمائك المتألقة والهواء الذي يحيط بك، ومن بعيد أرى محياك ازداد بهاء في شقشقة الطيور، اسمع خفقان النسر المحارب.

وفي البراح الخالي[15] في الصحراء الافريقية، أشتم رائحة البحر المتوسط، بحرنا. يرافق سفنك المتجهة نحو الجنوب تفكيرى، وأحلم بعامود (دوبليو)[16] الذي ستتويجينه برأس منقارية جديدة»[17].

في هذا المقطع والمقطع الذي يليه لخص (دانونزيو) التقارب الذي فعلته الحرب بين مختلف الاتجاهات الفكرية، فيؤكد هنا على مستقبلية (مارينيتي) التي يرى فيها هو أيضا مستقبل ايطاليا المتجدد من خلال الحرب ودوي المدافع التي تصنع الأمل لايطاليا وتخلصها من احزانها وذكرياتها المريرة، ذكرى الهزائم، ويؤسس دعائم هذا المستقبل على امبراطورية كوراديني بنسورها الرومانية وأعمدتها الرخامية المدفونة في رمال ليبيا التي ستكتشف من جديد، ليعاد بناؤها ويؤكد أيضا على ثراء ليبيا الذي ينتظر ايطاليا وهو بذلك يتفق مع دعوة بيفيوني وبياتسا لاستغلال هذه الخيرات المهملة فيقول:

«اسمك اليوم يتدفق في قلبي شابا وجارفا، كصياح بحارة سفن طروادة..

ايطاليا، ايطاليا، في مدينة الزهور[18] والأسد[19] عندما تكون كل نفس للحب رسالة... يأتي قط مايو[20] أكثر بهاء وتجددا، من هذا الفصل الرائع... الذي فيه

تنشد لك أفواه المدافع المستديرة: هذا هو ربيعك المقدس زاخر بكل أنواع الثمار، التي لا تجنى من هناك في نصف الكرة المقابل.
اليوم، أنت جسم جديد. في كل شيء حتى في أوردتك تعملين على نسيان عار الماضي[21]، وفي خليج سدرة سيتأكد وداعك الأخير للخداع والاسترخاء والجبن.
كيف يجب أن نعيش يا ايطاليا الجميلة، من أجل خدمتك بجدارة؟
كيف يموت يا زهرة البقاع حتى تتوجيننا باكليل آسك ورياحينك؟
حولي دم القتلى ندى طريا، واعتمدي وعد المشرق اذا كانت حقا (الجنة تحت ظلال السيوف)».

يظهر حب الشاعر لوطنه مفرطا وشاذا في الوقت نفسه، فالحب الذي يصرف الشاعر الى التغني بالظلم ليس حبا طبيعيا وهكذا علمنا الأدب العالمي منذ أن بدأ الأدب، وهكذا فان دانونزيو يستعيد لايطاليا أمجادا زائفة ويتغنى ـ شأن جميع الشعراء المتعصبين الضيقي الأفق والنظر ـ ببطولات وهمية لم تتحقق الا في خياله وهو في منفاه البعيد، ويرى في هذه البطولات ثأرا من عار قومي سبق أن عاشته بلاده في حرب استعمارية أخرى.

انه بهذه الحرب يريد أن تنسي ايطاليا أيامها الحالكة لتكون على عتبات مستقبل جديد يزخر بالطاقات الجديدة التي تبدد ظلام الماضي:
«نحن ننسى بسهولة، أننا أناس جدد منهمكون، تناسوا الأيام الحزينة، صبورون، مندفعون بافراط».
في بعض المرات لا نتذكر الزمن الذي كانت فيه ايطاليا مغرقة فيما يشبه السبات، وننسى المذلة التي تحملناها عندما كنّا نستجدي عواطف أكثر الناس خسة ودناءة، نقوم بأحقر الأعمال، نصنع الخبز في الأفران وننشد السلم الذي كان محل مساومة مثل انثى مبتذلة رهينة وسطاء السوء.

* * *

ايه يا أياما حالكة غاب عنها الفجر...
آن دق الطبول... ونفير الأبواق...
ذلك المصير المطل على عتبات المستقبل
الطاقات الجديدة التي تبرهن عليها ايطاليا
تدوي قوية حتى لا نسمع عند الشفق الأحمر
إنهيار الاشياء القديمة البالية.

* * *

اليوم المنتظر، يوم اليقظة، ها قد وصل
يوم امتشاقك للسلاح يوم النصر
ها قد ازفت الساعة.. أيها الرجال

لقد حانت للبحر المتوسط مدوية مجلجلة
مثل زوبعة عاتية...
أكثر فخارا من نجم على أكتاف مجرة الجبار
ألق لونا من حدقة العين على صيحة بحار
ارفع، ارفع، يصبح الجو كله علما واحدا»[22].

ومما لا شك فيه أن مثل هذا الشعر لا يصدر الا عن موهبة شعرية أصيلة ولكنها موهبة سخرت لأهداف استعمارية لا انسانية استطاعت أن تبارك القتل والغزو وسلب حقوق الآخرين من أجل أمجاد قومية يصوّرها وهم مريض ذلك الوهم الذي انعكس على الشاعر نفسه عندما أعلن نفسه الشاعر الأعظم فرفض أن يستلم رسالة حملها البريد موجهة الى أكبر شعراء ايطاليا قائلا (ليست لي... انني أعظم شعراء العالم)، وقد نفخه الغرور والاطراء الذي تلقاه من اضرابه من الشوفينيين المتطرفين حتى جعل نفسه يقف بنفس القامة مع (دانتي) اذا لم يكن أطول[23] وفي مصاف هوميروس، لقد تصور أن الآلهة اليونانية والرومانية عادت الى مسرح الحرب الدائرة لتؤثر في الكون والحياة من أجل ايطاليا وما يصطرع فيها من قوى الخير وقوى الشر، لقد اراد لأنشودة ما وراء البحر أن تخلد خلود الالياذة والاوديسا، فتدفقت الخرافة على الانشودة في خيال زاخر بالمفاجأة.

ولما كان الواقع الايطالي المعاصر لا يسعف الشاعر بشيء من «الشاعرية» ولا يهبه أي شيء من الصور ـ من أجل تجميل.. صورة الحملة العسكرية المجرمة التي تتجه لقتل شعب واحلال الغزاة في مكانه ـ فانه يتجه الى التاريخ الاستعماري القديم يستمد منه أوهاما وشخصيات وآلهة لم تعش الا في الماضي في عهود كان كل شيء فيها يخضع للاسطورة، ويفسر من خلالها.

أراد دانونزيو للجندي الايطالي أن يغضب غضبة (أخيل)، وها هي فيكتوريا (آلهة النصر) تقتل عطشها في صهاريج الرومان القديمة، وتتمنى أن تنام نوما حقيقيا بعد مقاومة النعاس تحت قوس روماني في لبدة، حتى تحلم بأن برقة أصبحت إيطالية وطرابلس لاتينية، وأن يتحقق هذا الحلم، ولا تتوانى في مساعدة ايطاليا لتحقيق النصر، فهي واقفة معها مع شعبها وجنودها منتصبة القوام تحارب معها، وغدا ترقبها بعناية عندما تشمر عن ساعديها للعمل وتمتلىء يداها بالثمار:

«ليّسا[24] من مياهك المقدسة الطهور
على سطحها يبرز رأس يصيح فاقد الدم
تذكري، تذكري...
ثم يغوص من جديد الى أعماق البحر[25]
البحر الذي اختبر القوة والمجد والأجناس
خير مقياس لاختبار قوة وعظمة أي شعب
هذا البحر تضطرب أمواجه اليوم
في شوق وحنين الى المعركة

فكتوريا... تخلع حذاءها
كفلاحة قوية من البانا[26].. على ضفاف نهر روما الجميلة
حيث تزدهر أشجار الزيتون المقدس والدفلى...
ومن الدفلى تقطف غصنا تضعه في لبدة
مهد بطليوس ملك مصر..
الذي ختم على قبر الاسكندر الأكبر

★ ★ ★

هناك حيث كنت أشرب وأزيل الظمأ ـ الكلام هنا لفكتوريا ـ ليس من حنفيات الطين الرطيب.
حيث ينحدر نهر الليثي[27] الى الممالك المظلمة
بل من صهاريج روما في بطاح الرمال القاحلة.
تعالى معي الى الصحراء الحارقة.
الخالية من الصخور الهائلة
انها في انتظار الزراعة والعمران
تعالي معي.. أيتها السلالة الغنية بالعمل العظيم
التي تتهيأ من جديد لاعادة أحياء المجد القديم
تعالي معي... كجندي ينتظر منتصرا التاج وورقة البلوط والسنبلة[28].
ايطاليا.. اليوم، على سفنك، ومع جنودك
أقف منتصبة القوام، مدججة بالسلاح..
كمحاربة تفتح الأرض الافريقية...
وغدا سأكون بقربك.. أنحني الى التربة التي تنتظر قدومك
وبقربك بعد ايداع السلاح، وأنت مطمئنة
تشمرين عن ساعديك... وتملئين يديك بالثمار.

★ ★ ★

لقد سهرت كثيرا، اتحدى النعاس والحمى
في أوسيتا[29] الميتة أو النصف النصف خالية
في مواجهة النهر تحت أقواس البوابة البحرية
التي من حجارتها عند المغيب يزحف الى النفس النعاس
ويتصاعد صوت الفضاء المحتوم المحمّل بالكوارث والمآسي[30]

★ ★ ★

لقد سهرت وحيدة مع أنفاسي المضطربة
المفعمة بالقلق والترقب

في انتظار دخول السفينة، أحدق الى مصب النهر
أو على أمل أن تؤكدي من جديد قوتك وعظمتك فوق البحر
بعد هذا الصمت الطويل... أنت يا ايطاليا..

★ ★ ★

آه ـ لقد سهرت كثيرا في الحراسة تحت أقواس البوابة البحرية
أمني النفس بنوم خفيف تحت قوس روماني قديم
بناه أباؤنا الرومان في الأراضي الافريقية
أو تحت قوس وراء البحر في أراضي ما وراء البحر
التي تتحرك ايطاليا لاحتلالها.
لتنفض عنها جمود السنين... التي رزخت تحتها طويلا...

★ ★ ★

أحلم بشحات، لا أحلم باليونان
لم أعد أحلم في أوسيتا تحت قوس البوابة البحرية
لكن تحت قوس أسسه الامبراطور الحكم ترانيانو[31] في افريقية
على أرض لم تعد براحا رمليا لم تعد صحراوية..
حيث حلت الحضارة محل البربرية...
في أرض متفتحة لانتظار الحضارة
من السفن الراسية في الميناء المخصصة لحركة الملاحة
ينبعث ما يشبه هالة للسلم فوق طرابلس التي أصبحت لاتينية.
حيث الابل رمز السكينة والوداعة
ستنتقل البخور من الدواخل الى الشواطىء
ولن تستخدم أبدا في الخدمات الحربية.

★ ★ ★

وينتهي حلم فيكتوريا باحتلال طرابلس وبرقة، وعند وصولها الى الاراضي الافريقية تتوجه بالتحية الى النبات والحيوان، الأرض المحتلة التي أصبحت ايطالية وتم تحديثها بارادة من القدر وارادة الله، ومجمل القول أن فيكتوريا ترغب أن يكون حلمها حقيقة، وتقول في تحيتها.

أحييكم...
يا بخورا، نقلت من الصحراء الى البحر من عمق افريقيا الى الشاطىء
يا بخورا، عطر البلاد التي تكاد أن تكون مجهولة لنا.
يا بخورا، ذات لون أشقر في لون لبدة الأسد
يا بخورا، ومعادن وقطعان وشوفان، وبرينيتشي[32] BERENICE ذات الجدال الذهبية[33].

وتنهي فيكتوريا كلامها مذكرة من جديد أن الجنة تكون حقا تحت ظلال السيوف، وأن

النخلة دائما أخت لأكليل الغار لأن كليهما رمز للفخر والمجد فالنخلة رمز للسلام وشجرة متميزة في الشمال الافريقي والغار رمز للمجد العسكري ودائما الأراضي لا تفتح الا بقوة السلاح وفنون الحرب، وتنتهي الى قولها تصبح النخلة رمز السلام والغار رمز المجد العسكري حليفان، وكأن دانونزيو يريد أن يقول على لسان فيكتوريا ان الحرب التي تخوضها ايطاليا مجد عسكري من أجل السلام.

ولا تلبث حقيقة الحرب العدوانية وأسبابها الاقتصادية القائمة على الطمع والجشع والسيطرة أن تظهر في قصيدة الشاعر المحلّق في طبقات الآلهة العليا وأوهام الربّات المتساميات... واذا كان شعراء العصور القديمة قد أوهمونا بأن للحروب أسبابا غيبية حدّدتها ارادات «الآلهة» فقد حسم شبيون عضو مجلس الشيوخ الروماني كل الأوهام عندما حمل سلة من تين قرطاج ورماها أمام أعين الشيوخ المذهولين قائلا: «ثلاثة ايام فقط تفصلنا عن الأرض التي تنتج هذا التين». فكانت تلك الكلمة الفصل في تحديد قرار الحرب ضد قرطاج... وقصيدة دانونزيو تنتهي الى هذه النهاية المنطقية ـ ان الحرب في نهاية المطاف تدور فوق هذه الأرض الخصبة وتتجه الى استنزاف خيراتها والاستئثار بثمراتها ورفعة الوطن وعظمة ايطاليا والأمجاد وسوى ذلك... كلها تنضوي تحت هذا الهدف الاقتصادي الجشع الذي يهون في سبيل تحقيقه كل شيء، الهدف في استعمار الأرض وامتلاك ثرواتها وخيراتها.

وفي المقطع الأخير يرى ايطاليا انتصرت بعناية السماء وتيتان الجبار ومساعدة نبيّات سبيللي[34]، ويدعو الايطاليين الى هدم عمل السلطان التركي بما فيه من سلبيات والاتجاه فورا للزراعة والصناعة والأعمال الانشائية الاخرى. ويرى في الحرب فجرا جديدا مشرقا يطل على ايطاليا مبتسما بالخصب والنماء ينسيها التفكير الحزين الذي يتلاشى بعيدا:

تحت السماء المؤثر والمسيطر عليها من تيتان[35]
وسبيللّي نبيّات اليونان والرومان
أيها الايطاليون، عوضوا سلبية السلطان[36]
بعملكم المفيد والحضاري
جهزوا المحراث المسيحي والمنجل والمعصرة والطاحونة
استعدوا لتشييد المباني
وجهزوا الفأس والمعول... والهراوة.
التي بواسطتها يعبّر السلطان[37] عن حبه الكبير
استعدوا للصناعة
في الورش وفي المصانع حيث ينطلق صرير الحديد
من تأثير العمل القاسي للحرفي الماهر
ستكون الأفران لحرق الآجر لفائدة البنّاء الماهر.
يتلاشى أمام الفجر الجديد... التفكير الحزين
يغرب من ورائنا في الأفق

ليشرق المستقبل الباسم المخضب بالثمار الطيبة
وهناك من يصيح في المستنقع القذر[38]
بينما أولادنا يقاتلون بروح مفعمة بالحماس
من أجل رفعة الوطن..

وفي ختام القصيدة يدعو ايطاليا الى القتال بالحاح ويدعو الله أن يكون مع الجنود، ولتغني ايطاليا انشودته ما وراء البحر باللحن الذي تجيد أداءه:

ايطاليا.. الى السلاح.. الى القتال
لنغني انشودة ما وراء البحار
أنشديها من جديد فقد حان الأوان
أنشديها بكل قوتك، في لحن تعرفين أداءه
أنشديها فوق سطح البحر المحمر.. بدم الجرحى...
وميض النار.
أنشديها كالصوت الذي يرتفع ويمتد في صخب وحشي.
اقتربوا.. اقتربوا[39] حتى يرتجف البحر من الصدى
حينما تتقدم السفينة نحو العدو، ويتلاشى البعد وراء المساحة
حينما تلتحم السفن بسفينة العدو
آلهتنا كن في عوننا يا دنياي[40]

★ ★ ★

ايطاليا.. في مسير القرون والاحداث
انصت اليك، وما زلت أسمع صيحة المحاربين
عنايتك يا الله في البحر وفي الأرض
من أجل المزيد من مجدك وقوتك[41].

لقد كانت قضية طرابلس نقطة الانطلاق لسلسلة من الكتابات التي يشير فيها دانونزيو «بالانضمامية L'irredenisme» والتدخلية والفتح.

ولم يكن احتلال ليبيا في نظره سوى رحلة يجب أن تؤدي الى غاية أعظم «الفتح الأعظم» فقد كتب في أنشودة (ماريوبيانكو):

ان افريقيا ليست سوى الحجر
حيث شحذنا سيوفنا
من أجل الامتلاك الأسمى ضد الأقدار المجهولة[42].

حقق دانونزيو من خلال قصائده تأثيرا كبيرا على افكار الشباب البرجوازي الذين تمكنوا من اكتشاف ذاتيهم من خلال «الدانونزية» وقاموا بهجوم مكثف على سياسة الأماني في كل الميادين وخاصة الثقافية والسياسية التي كانت تحد من تحقيق الطموحات السياسية والمدنية لافتقارها الى الأسس في تحقيق التطلعات[43].

«ولم تعرف ايطاليا في تاريخها الأدبي الحديث، وربما القديم شخصية أدبية استطاعت أن تسيطر على الحياة الادبية سيطرة قوية خانقة، وأن توجهها توجيها واضحا وأن تطغى على جميع الكتّاب والشعراء ولا تترك السبيل لغير اتجاهاتها أو السائرين في فلكها للظهور، كشخصية الشاعر دانونزيو»[44].

لقد حقق «دانونزيو» وقصائده وزنا عظيما ونال صيتاً واسعاً في جميع أرجاء ايطاليا وفي جبهة الحرب في ليبيا وقد أبلغه الجنرال (موكاغانا) أنه يحتفظ في صندوق واحد بقصائد دانونزيو وبالعلم الايطالي[45].

ووصفه امبراطور النمسا بحق بأنه «ملاك المشنقة الدائمة» وهذا الفوز خلده حتى الذين اكتووا بنيران قصائده وهي تقذف الحمم مع أفواه المدافع لتحدث الدمار والقتل في صفوف الشعب الآمن. ولم يفت شاعر الوطن أحمد رفيق المهدوي أن يرثيه في موته بقصيدة كلها ترحم على روحه جاء فيها:

«رفرفي في عالم الأرواح أصبحت طليقة
في خيال الشعر كم حومت تبغين الحقيقة
كنت في جسم، من الجسم الترابي أسيرة
تستشفين حجاب الغيب من نور البصيرة
كان ذاك الجسم يخفي نزوة الروح الكبيرة
فانجلى الآن حجاب الشك من شمس الحقيقة
فأمرحي في عالم الأرواح أصبحت طليقة
عاد كل منكما للأصل. فالفاني لفانٍ
للثرى حين سما الباقي الى أعلى مكان
فكأن لم يك ما بينكما غير ثوان
هي ميلاد وموت أو لقاء أو فراق
كنت في قيد من الجسم فأصبحت طليقة
بين مثوى شهداء الحب بين الحكماء
بين أرواح فحول الشعراء بين العظماء
حيث لاغل ولا حقد ولا نفاق
رفرفي في ملكوت الله أصبحت طليقة»[46].

ولا نعتقد أن هناك أي مبرر يمكن أن يشفع لشاعرنا الكبير في كتابة هذه القصيدة التي مهما قيل فانها تضمنت تمجيدا لشاعر لم يدعُ في شعره الا الى الحرب والغزو والاستعمار في أوضح معانيه الشوفينية المتطرفة ضد بلادنا.

وردّد الصدى عدد آخر من الشعراء ليسوا أقل شهرة من دانونزيو، أقبلوا على نداء الجوقة القومية منهم (جوفاني باسكولي GIOVANNI PASCOLI) الذي أيد أسطورة التوسعية القومية والكورادينية... فهو يرى أن اسطورة التوسع الايطالي تتخذ طابعا اجتماعيا ليس من

أجل اشباع حاجات الى المجد والقوة، ولكن بناء على الضرورة الاجتماعية فيقول:

«ان احتلال طرابلس سيمكن العمال الايطاليين من ضمان حماية حقهم الأساسي، حقهم في الغذاء والكساء بفضل انتاج الأرض التي يفلحونها، فايطاليا هذا... البروليتاري الكبير كما يجب أن نسميها أو «شهيدة الامم» يجب أن تضمن لأبنائها عن طريق الفتح حقهم في العمل، وهو الحق الذي تنكره لهم الأمم الأخرى باستمرار هذا الحق يجب على ايطاليا أن تحصل عليه بالقوة، ولن يقصر في اثارة الحماس أن نرى روما اليوم تسلك نفس طريق روما القديمة، وهكذا تصبح شواطىء السروت (جمع سرت) رومانية.. يا طرابلس يا برينتشي يا لبدة العظيمة ها أنتن ترين من جديد، وبعد قرون عديدة المستوطنين الدوريين، والفرق الرومانية، أنظرن الى أعلى ها هي ذي النسور»[47].

ويبدو أن باسكولي لم يتمكن من الخروج عن طابع الأدب الذي خلق حول العملية الليبية، كما لم يتخلف أسلوبه عن اسلوب ذوي الاتجاه القومي الا في الشكل، فالتوسع كحل لمشكلة الهجرة كان أحد المواضيع المفضلة لدى قومية (كوراديني) كذلك الاسطورة القائلة بأن روما تعود في النهاية لتسير في شوارع امبراطوريتها.

ويتضح عند (دانونزيو) أو في (باسكولي) الايحاء القومي، فبالنسبة لباسكولي يتخذ الايحاء القومي شكلا انسانيا غامضا لا يبتعد كثيرا عن دانونزيو وينتهي في أغلب الأحيان الى تقديم الموضوعات للدعوة القومية.

وقد كتب (انطونيو غرامشي Antonio GRAMSCI) في كتابه (البعث Risorgimento) فيما يتعلق بتأثير باسكولي على تكوين الفكرة القومية:

«لقد كان باسكولي يطمح الى أن يتزعم الشعب الايطالي ولكن اتجاه الجيل الجديد نحو الاشتراكية أحدث تغيرات جذرية كما فعل تأثير اتجاه الأجيال السابقة في الاتجاه الى المسألة الوطنية والتي كانت في مستوى الأحداث، وباسكولي نجح في تكوين فكرة الأمة العاملة في بلورة أفكار كوراديني والقوميين الذين ينتمون الى النقابات العمالية وقد اعتقد أن فكرة الأمة العاملة قد تجد قبولا لدى المسؤولين وكان باسكولي يريد أن يكون شاعرا حماسيا وشعبيا ولكن طبيعته التي تميل الى الهدوء والعاطفة لم تمكنه من تحقيق كل طموحاته»[48].

أما فيما يتعلق بتأثير تيار دانونزيو وباسكولي القومي فقد كتب (ساليناري Carlo SALINARI) ما يلي:

«لقد أعطى باسكولي ودانونزيو في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين صوتا أدبيا لجميع الأساطير التي انبثقت منها قوميتنا، وتأثير باسكولي الأقل ضجة كان أكثر بزوغا من دانونزيو، لقد كان باسكولي في عقيدته أقل شمولية وأكثر تأثيرا»[49].

وبالرغم من أن الأسباب الدافعة للمشاركة في هذه الحملة ولصالح غزو ليبيا تختلف لدى

دانونزيو عنها لدى باسكولي، فانهما لم يقصرا في دعم الدعاية القومية على صعيد الأفكار، بل يمكننا القول انهما والى حد كبير يشكلان مصدر بروز الايديولوجية القومية الايطالية.

* * *

من خلال استعراضنا لما تقدم يتبين أن الأدب الاسطوري قام بنشاط لا مثيل له، في تعبئة الايطاليين على خلق جو مؤيد للغزو، وقد تسلح على ذلك بكافة وسائل التزوير والمبالغة وطمس حقائق الماضي في محاولة التبرير لأحداث جديدة وأن هذا النشاط خلق سمة مرحلية للأدب الايطالي تعتمد في الأساس على اخضاع الحقائق بأي ثمن لخدمة موقف مسبق حتى لو كان هذا الاخضاع يستلزم تشويه المعطيات التاريخية، والكذب حينا، والتجاهل أحيانا، والفرار من النتائج التي تطرحها تحليلات ومواقف وافتراضات، مع محاولة خلق المبررات التي يصوغها في قالب يمنح الحق لايطاليا في غزو ليبيا.

ان احدى الحجج التي يقدمها الأدب الايطالي لغزو ليبيا تعتمد في جوهرها على أن ليبيا كانت رومانية.

واذا رددنا لهذا المنطق أعطينا للعرب الحق في احتلال صقلية التي كانت عربية منذ فترة أقرب ـ من الناحية التاريخية ـ من الغزو الروماني لليبيا.. ومع كل هذا فمن النادر أن نجد قصيدة أو كتابا أو مقالا يتناول هذا الموضوع الا ويستهله بالحديث عن امجاد روما الماضية، بل ان الحركة المستقبلية التي تدعو الى ترك القديم والانسلاخ عن الماضي من أجل مستقبل أفضل وجدت نفسها أيضا أسيرة هذا الحلم المغري بالوصول الى عظمة روما الامبراطورية.

اننا لا نجد ضرورة لمناقشة هؤلاء «الادباء» حججهم، فلو أعيدت صياغة العالم حسب الخرائط الجغرافية التي كانت سائدة من آلاف السنين لغرق العالم من جديد في بحار من الدماء ولخضعت ايطاليا للاحتلال، لكن الشيء الثابت هو أن ايطاليا لم تتغن بأمجادها في بلادنا الا لأنها كانت ضعيفة مستضعفة آنذاك فالامبراطورية الرومانية التي يدعي الايطاليون بالانتماء اليها ـ وهو أمر مشكوك فيه انتوغرافيا ـ كانت تنبسط من بريطانيا حتى البحر الأسود وقد عاشت تلك الامبراطورية ثم ماتت لتبقى بعض آثارها في متاحف التاريخ وبطون الكتب... الا أن الشيء الذي يفيدنا من دروس الماضي هو ما يدعيه الصهاينة اليوم من حقوق في أراضينا في الشرق، وما يجاهرون به ويصورونه لأنفسهم من تهويمات عجيبة يستنبطونها تارة من بطون الكتب المهترئة وتارة من العقول الشوفينية العنصرية المتطرفة، الا أن السبب الأول والرئيسي في صياغتها هو ضعفنا... فكان الماضي يعيد نفسه ومثلما يحدث في الماضي القريب فان هذه الاساطير المشوّهة الكاذبة اللاتاريخية ستظل تتكاثر وتترعرع كالفطور السامة الى أن يقضي عليها بضربة قوية باترة.

ومن الموضوعات التي استلهمها أدباء الغزو الايطالي ـ الاساطير اليونانية والايطالية التي اتجهوا اليها وضخموها وهوّلوا من شأنها لأن واقعهم المعاصر آنذاك لم يكن سيسعفهم بشيء من أجل فضح مبررات هذا الغزو وتهويلها والمبالغة فيها. ولذلك نجد في مقالاتهم وفي أشعارهم إحياء لأسماء الآلهة القديمة واعادة للماضي البعيد فالرّبات يحيين السفن وكبار الآلهة يباركون

الحملة والشخصيات الخرافية تساعد على الانتصار... وهكذا نجد أنفسنا امام جوقة عجيبة من هذه الآلهة الخرافية التي أثارت ابتساماتنا حتى عندما التقينا بها في اساطير هوميروس وفرجيل... فكيف اذا بعثت من جديد في القرن العشرين.

يضاف الى ذلك أن الهزائم المتكررة التي عاشتها ايطاليا في مطلع هذا القرن والوضع التابع الذي عاشته بين الدول الاستعمارية كان أيضا مثار «استلهام» للشعراء فقد حاولوا إحياء ما يسمى بالروح الايطالي القومي وتحقيق الانتصارات الباهرة التي تمحو عار الهزائم السابقة وتحقق للبلاد مجدا جديدا يسمح باحتلال مكان بين الأمم التي تحدد مصير العالم وهذا ما دفع بايطاليا الى الكثير من المجازر والدماء كان ضحيتها أبناء الشعب العربي الليبي وكان من ضحاياها أيضا أبناء ايطاليا الذين عززت بهم الأحلام ودفعتهم قصائد الشعراء الى الذهاب الى الحرب وقد صوّرتها على أنها نزهة في سبيل المجد القومي.

المعروف عن الأدب في اتجاهاته العامة أنه يتجه نحو التسامي بالانسان وأن يرتفع به نحو أهداف رفيعة ونبيلة، وهذا ما وجدناه في الاثار الأدبية الخالدة لدى مختلف الشعوب وفي مختلف العصور.. لكن أن يحضّ الأدب على الغزو والقهر وابادة الشعوب الآمنة فهذا لم يكن في يوم من الأيام رسالة انسانية للأدب.. إن من يكتبون مثل هذا الأدب اللاإنساني قد يحققون بعض النجاح في وقت معين - (وهو عادة فترات الهياج الاستعماري) لكنهم لا يلبثون أن ينسوا، لان الأدب لا يعترف الا بما هو انساني على الصعيد الفردي والانساني. لقد كان القائد العسكري موكاغانا يضع قصائد دانونزيو في صندوقه مع العلم الايطالي، وربما كان يضع فيه أيضا الخنجر المبلل بدماء الليبيين...

فهذه الأشياء تجتمع مع بعضها بشكل طبيعي... ولكن يا ترى ماذا يبقى لهذا الشاعر واضرابه بالنسبة للتاريخ وماذا يبقى له بعد أن انكشفت اللعبة الاستعمارية كلها وحدد الشعب الليبي مصير الجيوش الايطالية كلها؟

ان مصير مثل هذا الأدب يتبع بصورة تلقائية مصائر الدعوات والدعايات الاستعمارية كلها: عاصفة قد تكون شديدة هوجاء في حينها وقد تتمكن من تهييج الغرائز وايقاظ كل العناصر الوحشية الدنيئة في الانسان... لكنها لا تلبث أن تنتهي وتنكشف ويذهب الزبد جفاء.

تلك هي الخطوط العريضة للنشاط الثقافي التمهيدي الذي قامت به الاوساط الصحفية والادبية الايطالية فوق أرض بلادها، فما هي الصور التي اتخذها هذا النشاط فوق الأراضي الليبية؟

**هوامش**

1 - Igino GARIN, «Cronache della filosofia Italiana» 1900-1912 - BARI 1966 vol. 11. p. 298.

2 - MALGERI op. cit. p. 271.

3 - IBID p. 271.

4 - Francesco MALGERI op. cit. p. 271.

5 - Paolo MALTESE op. cit. p. 167.

6 - Ada NEGRI «La Madre» MILANO 1948 p. 537.

7 - Francesco MALGERI op. cit. p. 237.

8 - فرانسيس ماكولا، مرجع سابق، ص 32.

9 - Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 581.

10 - Ettore PASSERIN «D'ANNUNZIONISMO E FASCISMO IN AA.VV. dal Nazionalismo al primo Fascismo» Torino 1967 p. 28 - MALGERI op. cit. p. 272.

11 - والأناشيد الأخرى التي نشرت في كوريري ديلاسيرا وتاريخ نشرها كانت كالآتي:

1 - انشودة ما وراء البحار - La Canzone d'oltre mare, Corriere 8 Ottobre 1911.

2 - أنشودة الدم - La Canzone del Sangue, Corriere 22 Novembre 1911.

3 - أنشودة السر المقدس - La Canzone del Sacramento, Corriere 12 Novembre 1911.

4 - أنشودة الأسلاب - La Canzone Trofei, Corriere 12 Novembre 1911.

5 - أنشودة ديانا - La Canzone della Diana, Corriere 23 Novembre 1911.

6 - أنشودة هيلانة الفرنسية - La Canzone d'Elena di Francia, Corriere 3 Dicembre 1911.

7 - أنشودة البيروتوكاني - La Canzone di Umberto Cagni, Corriere 24 Dicembre 1911.

8 - أنشودة ماريو بيانكو - La Canzone di Mario Bianco, Corriere 7 Gennaio 1912.

12 - لقد نالت هذه القصيدة من الشهرة في تلك الأزمنة، وكسبت تأييدا شعبيا انتقل معها في تمجيد الحرب، وفي الوقت نفسه نشرت في معظم الكتب الصادرة في تلك الفترة الى ما قبل الحرب العالمية الثانية، ولشهرتها نقدمها كاملة في ترجمة تكاد تكون حرفية.

13 - الجؤجؤ، مقدمة السفينة.

14 - منفاه الاختياري في أركاشون في فرنسا.

15 - البرج الخالي، الأرض البور.

16 - دوبليو، قائد روماني، انتصر على القرطاجيين في معركة بحرية في ميلانو عام 260ق.م.

17 - الرأس المنقارية: سلاح يوضع في مقدمة السفن الحربية، على هيئة منقار الطيور الجارحة، ومزود برأس مدببة حادة تستخدم لخرق السفن المعادية.

18 - مدينة الزهور: فلورنسا.

19 - مدينة الأسد: البندقية.

20 - قط مايو: فصل الربيع.

21 - عار الماضي، عار هزيمة عدوا في عام 1896 في الحبشة.

22 - يقصد اقلاع السفن وارتفاع القلاع دفعة واحدة مثلما كان يحصل في الأزمنة القديمة.

23 - خليفة التليسي، (رفيق شاعر الوطن) مرجع سابق، ص 173.

24 - ليسًا، معركة بحرية جرت في مياه ليسًا بين البحرية الايطالية والبحرية النمساوية هزمت فيها ايطاليا، وهنا يوجه الشاعر نداء يطلب فيه أن يتذكر جنود البحرية الايطالية الذين توجهوا الى ليبيا تلك الهزيمة ويثأروا لمحوها.

25 - نداء من بحار ايطالي قتل في معركة ليسًا.

وهو موجه الى البحرية الايطالية يذكرها بهزيمتها ويريد أن تثأر له الان وتحقق انتصارا في البحر المتوسط يزيل الذكرى الحزينة، وهكذا يكون الشعب الليبي فداء يمسح عار هزائم ايطاليا المتكررة.

26 - الباتا: قرية ايطالية قريبة من روما.

27 ـ الليثي LETE، يعتقد أنه نهركان يجري في مدينة بنغازي، ولا زال مجراه تحت الأرض متصل بالبحر، اقامت عليه ايطاليا قصرا.

28 ـ تتخذ ورقة البلوط والسنبلة، رمزا للزراعة.

29 ـ أوسيتا: قرية تبعد عشرين كيلومترا عن روما على الضفة اليسرى لنهر التيفرى.

30 ـ يقصد الشاعر ما كان يقوم به البرابرة الذين ينزلون أوسيتا من أعمال الوحشية، مما يجعل السكان يغادرون منازلهم ويلتجؤون الى الدواخل.

31 ـ ترانيانو TRAIANO هو تراجان الامبراطور الروماني.

32 ـ برنيتشي BERENICE، مدينة في برقة يقال لها هسبرس HESPERIS وهي بنغازي الحالية، وهم اسم ابنة بطليموس أيضا، ويقال أنها أيضا لنذر ضمت الى تيتوس بشعرها الجميل الأشقر، وهي المقصودة في القصيدة.

33 ـ الشاعر في تحيته لبرينتشي ذات الشعر الاشقر، انما يريد أن يحيى السماء الافريقية أو الاراضي الخصبة ببرقة التي برينتشي (بنغازي) مدينتها الرئيسية.

34 ـ نبيّات سبيللي (جمع سبيلا) ربّات الرومان واليونان وقد رسم ميكلانجلو خمس منهن في كنيسة سيستينا بالفاتيكان وهن (سبيلا الليبية، سبيللا الفارسية، سبيلاكومانا، سبيلا ارتريا، سبيلا دلفكا) وسبيلا المعنية هنا الليبية، وباعتبار النبيات في الاساطير القديمة يحرسن الاختام الغامضة ويحتفظن بها سرية تامة كما لو أنها في سجل مختوم سري. وتذهب الفكرة هنا، يجب على الايطاليين في الممتلكات الجديدة أن يكرسوا جهودهم فورا للزراعة ـ على الأخص ـ ومن بعد الصناعة والأعمال الانشائية الأخرى ـ بعد أن تزيل سبيلا الختم المانع وتصدر حكمها من تحت السماء للسيطرة على مؤثرات صالحة للزراعة.

35 ـ تيتان (TITANO)، هو التابع السادس لكوكب زحل وأكبرهم ويدور حوله في 15 يوما و23 ساعة.

36 ـ السلطان: يقصد هنا لقب السلطة العليا لدى الاتراك التي تركت أعمالا سلبية في طرابلس.

37 ـ هراوة السلطان: يتحدث عنها في سخرية حيث يستخدمها الاتراك للتعذيب لتطويع الناس على حب السلطان قصرا، وتكون هذه الهراوة أكثر وحشية عندما يستعملها الاتراك.

38 ـ يقول الشاعر: أنه يقصد هنا تلك الأقلية الضئيلة التي بمقتضى سياسة حزبها، تظهر معارضتها للحرب التي أعلنتها ايطاليا ضد تركيا من أجل قمع الغطرسة وتلافي الخطر، ان سقوط طرابلس الغرب في حوزة امم اخرى يجعلنا منغلقين في طوق من حديد وسط بحرنا.

39 ـ اقتربوا: الترجمة لكلمة آريمبا ARREMBA، وهي تعني الامر الخاص بالحركة البحرية الحاسمة لدى القدماء الذي يكلف القائد بموجبه البحارة على الاقتراب بسفنهم الى سفن العدو وتحطيمها.

40 ـ دنياي DIENAI، صرخة المحاربين الذين ساهموا في الحروب الصليبية الذين باسم (الضرع المقدس SAN SEPOLCRO) ينشدون العون من الله.

41 ـ القصيدة ترجمت وكذلك الهوامش من كتاب:

Francesco PANDIANA «Le canzone di Guerra» Milano 1912.

ونشرت كاملة في كتاب:

Piccioli ANGELO «Tripolitania scuola d'energia» op. cit. pp. 2-7.

42 ـ Gabriele D'ANNUNZION «Ludi del cielo del mare della terra e degli eroi - libro IV Morope le canzone della gesta d'oltre mare (1911-1912) MILANO 1929.Canzone di Mario BIANCO p. 118.

43 ـ Francesco MALGERI p. 275.

44 ـ خليفة التليسي، مرجع سابق ص 172.

45 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 275.

46 ـ انظر: تعليق خليفة التليسي على القصيدة في كتابه (رفيق شاعر الوطن) ص 169–183 ـ قارن بين قصيدة رفيق في رثاء دانونزيو، وقصيدة ما وراء البحر ـ قارن بين هذه القصيدة والقصيدة التي قالها في التنديد بوحشية الاحتلال الايطالي، وتفنيد زعمهم القائل بأنهم جاءوا الى ليبيا لتمدينها وتطويرها والتي منها:

قالوا، لقد جئنا نمدن أرضكم ... أين التمدن والذي قالوا لنا
هدموا من الاخلاق في أوطاننا ... أضعاف ما شادوه فيها من بنا

... الخ. انظر ديوانه.

Il discorso di PASCOLI in l'origine pp. 164-169 Francesco MALGERI op. cit. p. 276. — 47

Antonio GRAMSCI «Risorgimento» Torino 1955 p. 208. — 48

Carlo SALENARI «Mitte cesienza del decadentismo Italiano» Milano 1962 p. 486. - — 49

Francesco MALGERI op. cit. p. 277.

# الباب الثالث
# التمهيد الثقافي الايطالي داخل البلاد الليبية

## الفصل الاول
### الرحالات الجغرافية



# مدخل:

أطل الربع الاخير من القرن الماضي وقد تمزقت أجزاء كثيرة من الشمال الافريقي بين المخالب الاستعمارية، فقد ثبتت فرنسا أقدامها في الجزائر ثم اجتاحت تونس دون استعمال الأسلحة تقريبا واحتلت بريطانيا مصر دون حرب أيضا وكان المغرب موضع مساومات بين الدول، وهكذا لم يتبق على «المائدة الاستعمارية» غير الاراضي الليبية التي اتجهت اليها أنظار الاستعمار الايطالي الذي تصور أن من حقه الحصول على طرف من الغنيمة الاستعمارية، فاتجهت انظار المسؤولين الى بسط نفوذهم في ليبيا عبر مختلف الوسائل وكان من أولها سياسة «التغلغل السلمي»، فبداية من 1881 وحتى 1911 جرت محاولات كثيرة من أجل التسلل الى بلادنا وبسط النفوذ فيها بوسائل مختلفة غير الوسيلة العسكرية وذلك عبر اجهزتها الثقافية والاقتصادية والسياسية، ونشطت في تنفيذها لهذه السياسة في طرابلس في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، واشتد هذا النشاط وخاصة بعد تولي (كريسبي) رئاسة الوزارة الايطالية عام 1887 الذي وضع فكرة تصميم النشاط الايطالي لبث اللغة والثقافة الايطالية في أقطار الشمال الأفريقي والمشرق العربي منذ سنة 1889م ولاسيما ليبيا[1].

ركزت السلطات الايطالية اهتمامها على الشخصيات المحلية التي تحتل مكانة اجتماعية وتهيمن على بعض المصالح الاقتصادية والتجارية، أو من ذوي المناصب الادارية العالية، لاستقطابها واستمالتها الى صفها لتكون عونا لها في زرع مؤسساتها الثقافية والاقتصادية، وفي الوقت نفسه حاولت استغلال ثورات الاهالي التي كانت تندلع بين الحين والحين في مناطق مختلفة، معلنة تذمرها من الحكم العثماني الذي أساء كثيرا الى الوطن وعملت بكل قواها على تحويل هذا التذمر لصالحها عند وقوع الاحتلال.

الى جانب ذلك لجأت السياسة الاستعمارية الايطالية للأسلوب المفضل لدى أكثر الدول الاستعمارية والذي يعتمد على التسلل الى عقول المواطنين من خلال التعليم والتبشير والقيام ببعض الأعمال «الخيرية»، ونشطت في هذه المرحلة بعثتها الاستكشافية فوفد على البلاد عدد من الرحالة والمكتشفين لاعداد تقارير عن أوضاعها العامة كما نشط الموفدون الدبلوماسيون الايطاليون في التمهيد للاحتلال، وقام بنك روما بدور هام وخطير في مجالات الاستثمارات المالية، وخلق المصالح الاقتصادية الايطالية[2].

كما قامت بانشاء العديد من المدارس التي تعبر عن الثقافة الايطالية لغرض تنشئة جيل يتربى على حب ايطاليا، يكون غدا الجنود المؤيدين لها عند الغزو، كما ركزت هذه المدارس على نشر اللغة والثقافة الايطالية بين المواطنين، وعملت على الربط بين التعليم والتبشير والقيام ببعض الأعمال الخيرية في محاولة السيطرة السياسية لسلخ الليبيين عن تراثهم الحضارى وثقافتهم العربية ودينهم الاسلامي وفصلهم نهائيا عن جذورهم القومية وبكل ما يربطهم بتاريخ أمتهم.

لقد أدركت ايطاليا أهمية الاجتياح الثقافي للسيطرة على الشعوب وتشويه ثقافتها وحضارتها، باعتباره أكثر نفاذا وتغلغلا الى عقول الشعوب حتى يسهل ترويضها على قبول النير الاستعماري فأنشأت لذلك العديد من الصحف الايطالية في البلاد.

وسنحاول في هذا الباب دراسة ما يمكن من بين هذه العوامل والتوقف أمام التمهيد الثقافي الايطالي داخل البلاد الليبية لخلق التبعية الثقافية التي تسهل مهمة الاحتلال ومن ذلك خاصة دور الرحالة والمكتشفين ودور المدارس والبعثات التبشيرية في خلق كيان ثقافي ايطالي في ليبيا كما سندرس أيضا دور المؤسسات الاقتصادية في الهيمنة على البلاد وأخيرا التمهيد الثقافي داخل البلاد العربية الأخرى ومحاولات استمالة الشخصيات الوطنية.

هوامش

1 ـ محمد بازاما، بداية المأساة، مرجع سابق ص 36.
2 ـ خليفة التليسي، معارك الجهاد، مرجع سابق ص 21.

# الفصل الأول
# الرّحلات الجغرافية

**«الرحلات الجغرافية»**

«مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع بذور أو على الأقل جذور الاستعمار المعاصر مباشرة، فقد ولد الاستعمار الحديث في حجر الكشوف الجغرافية، ولا نقول في رحمها، ففي تلك الفترة خرجت أوربا تضرب في المجهول فعادت تحمل الى العالم عالما جديدا، بل عوالم جديدة ومن الصعب علينا في القرن العشرين ان نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التي أحدثها هذا الكشف في وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لا تكاد تتغير ثم فجأة وفي عالم متمدد بأقصى سرعة تضاعف عدة مرات»[1].

ولقد شهدت العصور الوسطى صراعا مريرا بين الدول التي تتنافس على اكتشاف مساحات شاسعة من العالم، وقد استمر هذا الصراع حتى القرن الذي نعيش فيه ونتج عنه انتزاع مناطق مختلفة وضمها الى دول، وتغيرت خريطة الدول بالاتساع والاضمحلال حسب حركة الكشف الجغرافي.

وتعاظم نشاط حركة الكشف عقب الانقلاب الميكانيكي في اوربا الذي دفع الاوربيين الى البحث عن مواد خام وأسواق جديدة في مناطق مختلفة من العالم، فتزايد الاهتمام بالرحلات والالحاح عليها، وهكذا خرج عدد من الرحالة الأوربيين الى افريقيا، ولقد اختلطت دوافع عدة في نفوس أولئك الرحالة، دفعتهم الى القيام بمغامراتهم، فكانت المصالح الاستعمارية تختفي كمحرك رئيسي لهم وكان العلم دافعا مهما آخر عرف الاوربيون قيمته وأثره في نجاحهم في الاستعمار فرسخوا مخططاتهم الاستعمارية على ضوئه فحققوا نجاحا كبيرا في هذا المضمار[2]، فكان لابد للمصالح الاستعمارية أن تتخفى وراء ستار العلم، وتجعله وسيلة لتبرير أطماعها ووجدت في الجمعيات الجغرافية والعلمية والتجارية خير قناع يستر الدافع الحقيقي للكشف الجغرافي ويسمح بالعبور الى موارد تلك البلاد لتغذي آلات مصانعها الجديدة، وتغرق أسواق البلدان المستعمرة بالمواد المصنعة.

ولم يكن الكشف الجغرافي مهتما بافريقيا الا في مطلع القرن التاسع عشر حيث كان العلماء والجغرافيون، ودارسو الأجناس البشرية متلهفين لاماطة اللثام عن وجه القارة السوداء تلهف الساسة التجار[3].

ولم يكن ممكنا أن تحقق محاولات الرحالة نجاحا كبيرا لو أنها بقيت محاولات فردية يقوم بعبء الاعداد لها أفراد محدودو الاستطاعة وانما حققت ذلك النجاح لأن أصحاب المصالح الاستعمارية أقاموا مؤسسات رعت هذه المحاولات ووجهتها وأشرفت عليها، فهي التي تزود الرحالة بكل ما يحتاجه في رحلته من معلومات متوفرة، وتقدم له التسهيلات الممكنة عن طريق سفارات وقنصليات الدول التي تتبعها[4].

ولكي لا نظلم حركة الكشوف الجغرافية فلابد لنا من الاشارة الى الفوائد العلمية التي تحققت من خلالها وما وصفه الرحالة من دراسات وبحوث وخرائط اضافت اسهاما كبيرا على الحركة العلمية، غير أن الفائدة العلمية والتطبيقية لهذه النشاطات كانت دوما من نصيب الدوائر الاستعمارية التي رعت الرحالة وسخرت انتاجهم الفكري لمصالحها.

ونظرا للموقع الجغرافي المنفرد لليبيا فقد جعلتها الدوائر الاستعمارية مركز الانطلاق لحركة الكشف الجغرافي لافريقيا في أواخر القرن الثامن عشر واعتمدت على الرحلات كأساس للتعرف على افريقيا التي كانت أواسطها تمثل برقعة بيضاء في الاطالس الجغرافية، لأن الجغرافيين لم يكونوا يعرفون عنها شيئا. وتولت (الجمعية الانجليزية لاكتشاف دواخل افريقيا) رعاية هذه الرحلات العلمية الأولى، وشجعت عليها، وقد كانت طرابلس تمثل نقطة انطلاق وعودة لهذه الاكتشافات التي كانت تتجه الى البحث عن طريق عبر افريقيا الوسطى وبدأ (وليام لوكاس) الذي كان يشغل منصب نائب قنصل انجلترا بالمغرب في عام 1879م رحلة اكتشافية لافريقيا الوسطى تنطلق من طرابلس نحو غامبيا تحت رعاية الجمعية الانجليزية المذكورة، ولكنه لم يبلغ في رحلته هذه سوى مدينة مصراته ثم قفل راجعا لعدم قدرة حاكم المنطقة على تزويده بالابل اللازمة لمواصلة الرحلة[5].

وبتكليف من الجمعية نفسها سافر الرحالة الألماني (فريدريك هورنمان) في سبتمبر 1798 من القاهرة ووصل في 17 نوفمبر الى مرزق في سنة 1799 حيث تابع رحلته الى بورنو التي لقي فيها حتفه[6].

وبعد ذلك تتابعت الرحلات ونشطت حركة الكشف الجغرافي لاوساط افريقيا وتعددت الجمعيات الجغرافية في ألمانيا وفرنسا وايطاليا وامريكا وسنقتصر دراستنا في هذا الفصل على الرحلات الايطالية لكشف ليبيا تمهيدا لاحتلالها.

## الرحالة الايطاليون:

خاضت ايطاليا كبقية الدول الاوربية مجال الكشف الجغرافي حتى قبل أن تتوحد وتعلن عن طموحها الاستعماري في افريقيا، الا أن الرحلات الايطالية في أول عهدها اتسمت بالطابع الفردي في عمومها ولم تكن ـ مثل البعثات الانجليزية والفرنسية والالمانية ـ منطلقة على

أساس التنظيم الذي تقوم به الجمعيات الجغرافية وأول رحلة استكشافية ايطالية داخل الأراضي الليبية تمت في العهد القره مانلي وقبل استرداد العثمانيين للبلاد لحكمهم بسنوات قليلة، ولم تكن هذه الرحلة من التنظيم والاهتمام بالشكل الذي كانت تقوم به الجمعيات الجغرافية في البلدان الأوربية الأخرى، وقام بهذه الرحلة الدكتور (أ. شرفيللي A. CERVELLI) في عامي 1811، 1812 بوصفه طبيبا في البعثة التي نظمها يوسف القرمانلي الى برقة برحلة على طول ساحل سرت وبرقة، وقد كتب يوميات لرحلته باللغة الفرنسية ونشرتها (جمعية باريس الجغرافية) تحت عنوان (مجموعة الرحلات والمذكرات Recueil de voyagist et mémori)[7](*).

وبعد هذه الرحلة بأربع سنوات قام الدكتور (باولو ديللا شيلا P. DELLA CELLA)(**)، الذي عمل طبيبا مع يوسف القرمانلي ضمن حملة الى برقة كتب بعدها تقارير عن مدن برقة، وكان هذا الرحالة أول من دعا في رحلته الى الامتلاك الاوربي السلمي لليبيا الأمر الذي نادى به صراحة في رحلته التي تمت في سنة 1817(***)[8].

ويبدو أن هذه الرحلة والتي سبقتها تمت مصادفة حيث كان (أ. شرفيللي وشيلا) طبيبين مع يوسف القره مانلي الذي سير بعثتين الى برقة، وقد ذكر (ديلا شيلا) في تقاريره أن هذه الرحلة ما كانت تتم لو لم يكن مرافقا (للبي أحمد بن يوسف باشا القره مانلي)، ومثل هذه الرحلة لا يقدر عليها أي كان نظرا للمخاطر التي يمكن أن يتعرض لها عبر الصحراء، أما أنا فقد توفرت لي الحماية الكاملة.

وقد جاب ليبيا وكتب تقارير ثانوية عنها رحالة آخرون منهم (الارشيدوق لوديفكو سلفاتور دي توسكانا Lodovico Salvatori di Toscana) الذي قام برحلة بحرية مهمة على ظهر يخته (NIXE) في ربيع 1874م وقد استعرض الساحل الليبي ابتداء من السلوم حتى الحدود التونسية مرورا ببومبا ودرنة ومرسي سوسة، حيث توجه منها لزيارة قورينا، ثم زار بنغازي ولبدة وطرابلس والزاوية وزوارة.

ونشر حول هذه الرحلة ـ كعادته ـ تقريرا ضافيا مفصلا، مرفقا بصور عديدة استخرجها من رسوم أصلية، ونقرأ في هذا التقرير معلومات ضافية عن الأماكن التي زارها وتاريخها وعادات سكانها[9].

وقد انبهر المسافرون الاوربيون بالثروة الكامنة في المناطق الزراعية المهملة وعندما رأى

---

(*) ضاعت تقارير هذه الرحلة ولم يبق منها سوى القليل الذي نشر بالفرنسية وترجمت حديثا الى الايطالية، وهي منشورة في الارشيف البيولوغرافي الاستعماري.

(**) جاء باولوديلا شيلا الذي يقوم بمهمة طبيب البي احمد بن الباشا يوسف القرمانلي الى برقة مصاحبا الحركة العسكرية التي كان يقودها احمد بغية تأديب أخيه البي محمد الذي كان حاكما لمدينة بنغازي ودرنة والذي أعلن العصيان على والده يوسف بعد أن ضمن مساعدة قبيلة الجوازي في تصرفاته، الهادي أبولقمة، دراسات ليبية، مكتبة الفكر 1970 ط2 ص 64.

(***) ذكرت بعض المصادر أن الرحلة تمت في سنة 1916.

مكتشف الماني ـ رولف(*) ـ سنة 1879م المنطقة الشديدة الخضرة شمالي توكرة في منطقة طرابلس(* *) تذكر ايطاليا واقترح ذلك الالماني (وكأنه يملك حق التصرف في بلد لا يملكه) أن تغزو ايطاليا ليبيا وتحتلها[10].

وقد تمت رحلة رولف تحت رعاية القنصلية الايطالية بعد أن تحصلت على إذن من الحكومة العثمانية في طرابلس، وقد اخطرت الوالي بخطاب في نوفمبر 1878 تطلب فيه الترخيص لهذه الرحلة، وتشير وثيقة من وثائق ارشيف المحفوظات التاريخية الى هذه الرحلة التي نص عليها تصريح الوالي. ولعل من اطرف ما فيها الاشارة الى أن الرحلة قد نظمت «خدمة للعلم والمعرفة».

«الى القنصلية دولة ايطاليا الفخيمة

صاحب الرتبة حضرة الموسيو القنصل

اخذ تقريركم في 31 تشرين الثاني نوفمبر 1878 لاخطارنا باعطاء رخصة سفر الى الموسيو شواليه رولفي (كذا) السائح التابع لدولة ألمانيا الذي سيقوم برحلة الى السودان مع رفقائه وترفيق أدلاء له من فرسان الكول أوغليه الى سوكنة، ورغما على ما جاء في الامر السامي الذي بيده أنه سيقوم بهذه الرحلة باسم مستعار وهو مصطفى بك فانه أظهر رغبته بحضوركم بأن يحرر اسمه الأصلي في مرسوم رخصة السياحة، وعليه أرسلنا أمرنا الى متصرف فزان صاحب العزة علي بك باسم رولفي ونبهنا على صاحب العزة باش آغا أن يخصص فارسا من الكول أوغليه ليرافقه الى سوكنة. ومع أن الحكومة قد سارعت في تقديم التسهيلات والمساعدات الممكنة للمومى اليه ورفقائه في سياحتهم التي اختاروها خدمة للعلم والمعرفة فانه يجب تبليغ المذكور اجتناب الطرق الخالية من العابرين وحملات تجول العربان والعشائر الرحل البعيدة عن أنظار الحكومة التي أمنها غير مضمون أعد بيان ذلك من واجباتي والتمس من همتكم وصداقتكم تبليغ المومى اليه بذلك واتخذ هذه المناسبة لتأكيد احتراماتي الفائقة.

21 ذي الحجة 1295 ـ 2 كانون الاول 1293،

15 ديسمبر 1878، الوالي ...»[11].

ويبدو أن الرحلات التي قام بها رولف واشاراته المباشرة الى «الرسالة» التي تنتظر ايطاليا في استعمارها المقبل لليبيا، كان ذات تأثير لا يستهان به في تنشيط واثارة تلك الحركة التي حدث بجمعية ميلانو للاكتشافات التجارية بافريقيا الى توجيه نشاطها الى ليبيا وبرقة بصفة خاصة

---

(*) رولف: ولد في فيغراك بألمانيا وتوفي في قرية رونفدروف عام 1896 وكان من أهم المختصين بالشؤون الافريقية، وجميع مراسلاته عن افريقيا محفوظة في أهم المكتبات الألمانية مثل مكتبة الدولة في برلين ومكتبة الدولة في ميونيخ، ودار نشر بيترمان في غوتا بألمانيا الديمقراطية وقد صور مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي أهمها وهي متوفرة لدى قسم الوثائق والمخطوطات.
انظر مجلة البحوث التاريخية (مركز بحوث الجهاد الليبي) عدد 1 السنة الأولى 1979 (الرحالة الألماني رولفي وليبيا) تر. واعداد د. عماد غانم ص 123 وما بعده.

(* *) هكذا وردت في الكتاب توكرة في منطقة طرابلس والصحيح أن توكرة في منطقة بنغازي.

حتى كانت تأمل في القيام بسلسلة من الدراسات المفيدة بنية الاتجاه الى التغلغل الفعلي في هذا الاقليم[12].

وفي تلك الأثناء أخذت المطامع الايطالية القديمة في طرابلس الغرب وبرقة تتضح شيئا فشيئا، وكانت معظم البعثات الايطالية التي قدمت اليها في تلك الفترة قد قامت بزيارتها بناء على مبادرة «جمعية ميلانو للاكتشاف الجغرافي والتجاري» والتي كانت مدينة ميلانو مركزا لها. وبايعاز من رئيسها (كامبيريو CAMPERIO) مدير مجلة (المكتشف L'esploratora)[13].

وكان (كامبيريو) قد قام خلال فبراير من عام 1880 برحلة الى طرابلس الغرب زار خلالها الخمس ومسلاته وجمع معلومات كثيرة حول تلك البلدان كونت مادة صالحة لتقرير ضاف من أهم التقارير التي نملكها وأكثرها افاضة[14].

وتعتبر رحلات (كامبيريو) حلقة التواصل للرحلات السابقة التي بدأها أبناء وطنه والتي انقطعت حلقاتها مدة تبلغ على ما يزيد على ستين سنة(*)، وقد كان هذا الرحالة من غلاة الدعاة الاستعماريين، ومن الذين اسهموا بنصيب وافر في تكوين الروح الاستعمارية الايطالية الحديثة، وكان مهتما بدراسة الجانب الاقتصادي والسياسي وما يمكن أن توفره البلاد من امكانيات للاستعمار والاستثمار.

وفي رحلته يصف مقر القنصلية الايطالية في المدينة فيقول:

«إنه بائس رغم وجوده في مركز المدينة قرب الكنيسة ويذكر من عيوبه (عدم اشرافه على الميناء بحيث لا يمكن مراقبته للحركة البحرية بينما راعت القنصليات الأخرى ذلك الاعتبار الهام في مقارها».

وكانت القنصليات الاجنبية تحرص على اختيار مقارها في منطقة (باب البحر) الذي كان في ذلك الوقت يمثل الحي الدبلوماسي، ويظهر ذلك ويتأكد من مواقع القنصليات وأسماء الشوارع التي ما زالت تحتفظ حتى الان باسمائها القديمة مثل: شارع قنصل الفرنسيس وشارع قنصل الانجليز وشارع الاسبانيول.

قام (كامبيريو) في رحلته بزيارة النادي الصغير الذي يرأسه (اربيب) أحد تجار اليهود، وهو مركز تجمع للطبقة الرأسمالية من الأجانب وموظفي القنصليات ويقول:

«ان العنصر الاسرائيلي غالب عليه، وأغلبهم من رعايا ايطاليا، ويرى أن اقامة ناد أوسع من شأنه أن يساعد على جمع العرب واليهود والمسيحيين الذين يوجدون في حالة عداء دائم، وهو أمر يؤثر تأثيرا خطيرا على تطور التجارة والصناعة لفقدان

---

(*) وبعد انقطاع الرحالة الايطاليين قام (قويدو كورا Guido CORA) الجغرافي الايطالي بزيارة لليبيا قدم خلالها معلومات حول مدينة طرابلس، وبعض المدن الساحلية والذي حل بطرابلس في يناير 1875 وكانت رحلته قبل (كامبيريو) بخمس سنوات ونشرت اخبار رحلته في:

Guido CORA (Viaggio nella bassa Albania ed in Tripoli d'Africa cenni generali) COSMOS vol. III - Face I 1875 pp. 16-22.

عن: اتيليو مروي، مرجع سابق ص 115.

روح التجمع والتضامن. ويعزو هذا الانقسام الى روح التعصب المسيطرة على اليهود والمسيحيين والمسلمين على حد سواء، وهو بذلك يقدم الينا صورة عن الجاليات الاجنبية وعلاقاتها بالمواطنين في تلك الفترة الدقيقة ونكشف من خلال حديثه عن العناصر البارزة من الجالية اليهودية ذلك الدور الخطير الذي لعبته في التمهيد لحركة الاستعمار الايطالي لليبيا، وقد كان هذا الرحالة نفسه موضع تكريم واهتمام من اليهودي (اوجينيو اربيب) الذي قدم له كافة التسهيلات الممكنة لانجاح رحلته»[15].

وحين عاد (كامبيريو) الى ميلانو عمل بكل فعالية على اثارة اهتمام الجمعية التي كان يرأسها لارسال مبعوثين الى برقة واقامة مراكز تجارية في بنغازي ودرنة تصلح لان تكون قواعد انطلاق للتغلغل الايطالي في المنطقة، وقد أنشىء المركز الأول في بنغازي وأسندت مهمة الاشراف عليه وادارته الى الكابتن (بوتيليا BOTTIGLIA) وأوفدت الجمعية الرئيس نفسه مكلفا باقامة مراكز ثابتة في درنة وأخرى في طبرق وبومبا اذا تهيأت الأسباب لذلك وتنظيم اكتشافات ذات طابع علمي تجاري في المنطقة[16].

وقد توجه (كامبيريو) فعلا الى برقة يرافقه مندوبون آخرون وكان من بين رفاقه الكوماندتور (جوسيبي هايمان)(*) الذي قدم هو الآخر الى برقة في مهمة كلفته بها ايطاليا بالتجسس على أوضاع ليبيا الاقتصادية والزراعية[17].

وكان أيضا من أعضاء بعثه (كامبيريو) السنيور (بيترو مامولي P. MAMOLI) والسنيور (فيكتوريو باستوري Vittorio PASTORI)) وقد كلف العضوان الاخيران بملاحظة ودراسة النواحي الاقتصادية والزراعية وقد سافر كامبيريو ـ بعد أن سبقه رفاقه ـ من ميلانو يوم 17 فبراير 1881 والتقوا جميعا في بنغازي في أوائل مارس، وتقرر هناك اعداد بعثتين الاولى ذات اهداف علمية محضة وقد تولى قيادتها هايمان، والثانية اقتصادية وقد تولى قيادتها (كامبيريو) نفسه الذي انضم اليه مامولي بينما انضم الى البعثة الثانية زوجة هايمان وباستوري وقد قررت البعثتان عبور برقة بالسير في طريقين مختلفتين من بنغازي الى درنة.

وقد غادر كامبيريو بنغازي في 12 مارس سالكا طريق توكرة فوصل المرج يوم 15 منه، ثم تابع رحلته عبر مراوة وسيرة وسلنطة والزوى وأبوحسن محاذيا بعد ذلك مجرى وادى درنة، وقد وصل درنة بعد ثمانية ايام من الرحلة، وعاد في 26 مارس سالكا طريقا شماليا عبر قصر شغاب متجها بالرحلة الى قورينا، ومن قورينا اتجه نحو الجنوب مارا بسلنطة (حيث التقى بالبعثة التي كان يقودها هايمان)... ومن هناك توجه الى المرج حيث قام بجولة في طلميثه عائدا منها بعد ذلك الى بنغازي في الخامس من ابريل.

وفي الجولات التي قام وسلك فيها طرقا مطروقة وموصوفة من قبل بعض الرحالين كتب (كامبيريو) تقريرا ضافيا تضمن بالاضافة الى ملاحظاته الشخصية المعلومات الوافرة التي

---

(*) جوسيبي هايمان، ولد بميلانو 21 مايو 1828 ومات بالاسكندرية 15 سبتمبر 1883 وكان من رجال القانون الذين عملوا بمصر وكان دارسا مغرما بالشرق وقام بعدة رحلات في ربوعه.

جمعها مع الاخرين[18]. كما نشر مامولي تقريرا آخر يتصل بالاوضاع الزراعية للاقاليم التي مر بها والحياة العامة في مدينة درنة[19].

ونشرت صحيفة (La Ragioni) في اعدادها بتاريخ 13، 17، 24 سبتمبر 1911، وثائق ذات اهمية كبيرة تفصح عن مدى اهتمام الساسة الايطاليين بالرحلات التي كانت تسيّر الى ليبيا، وهذه الوثائق هي مراسلات تمت في النصف الاخير من عام 1894 وفي الاشهر الاولى من عام 1895 بين رئيس الوزراء فرانشيسكو كريسبي والباحث والرحالة «جيرالدو رولف GIRALDO ROHLF) والكابتن مانفريد وكامبيريو وشخصيات اخرى وذلك حول الوضع في طرابلس وبرقة، وكانت هذه الاوراق تتكون من ست وثائق، تقرير رولف الى كريسبي بتاريخ 5 يوليو 1894، رسالة من كامبيريو الى كريسبي بتاريخ 7 يوليو 1894، رسالة من كريسبي الى كامبيريو بتاريخ 9 يوليو 1894، وتقرير رولف الى كريسبي بتاريخ 18 يوليو 1894، رسالتان من كريسبي الى كامبيريو بتاريخ 24 يوليو و16 اغسطس 1894[20].

وصورت بعض التقارير الشعور الذي لقيه كامبيريو عند بعض الافراد البسطاء والموجدة التي كانوا يحسونها في نفوسهم ضد الاوربيين لسبب وقوع بعض البلدان العربية في قبضة الاستعمار[21].

أما البعثة التي كان يقودها (هايمان) فقد غادرت بنغازي في 20 مارس ووصلت الى سلنطة بعد أن سلكت طريقا تقع الى جنوب الطريق التي مر بها (كامبيريو) ووصلت الى درنة في 3 ابريل وبعد أن اقامت بها سبعة ايام، أخذت طريق العودة وبمحاذاة الساحل حتى وصلت بنغازي بعد أن مرت بتوكرة.

وقد القى هايمان بعض المحاضرات حول هذه الرحلة وقد نشرت كتاباته عنها أكثر من مرة وظلت من أهم الكتابات الحديثة المتوفرة عن برقة وقد زاد من قيمة هذا التأليف تلك الرسوم التي رسمها المؤلف نفسه الذي كان يجمع بين الثقافة الواسعة والمهارة الفنية[22].

ولم يتوقف عمل جمعية الاكتشافات الايطالية في برقة بعد عودة البعثتين اللتين كان يقودهما (كامبيرو) و(هايمان) وقد استمر هذا العمل عدة اعوام باشراف مندوبيها (مامولي وبوتيليا) اللذين أسندت لهما ادارة المركزين في بنغازي ودرنة.

وقد حاول مامولي في عام 1882 التوجه من درنة الى بومبا ولكنه أوقف عند ملاحات رأس التين والزم بالعودة، واستأنف محاولته في العام التالي، حيث تمكن من الوصول الى بومبا والمرور بطبرق، ثم انتقل من درنة الى بنغازي التي ظل بها حتى عام 1882 وكان يبعث منها، كما كان شأنه في درنة ـ بتقارير هامة عن الاحوال والأوضاع العامة في برقة[23].

لا شك أن رحلات كامبيريو ورفاقه فتحت بابا واسعا ولجته ايطاليا في تمهيدها للغزو بعد أن كونت معلومات جغرافية واقتصادية لليبيا في غاية الاهمية جعلت ايطاليا تفكر جديا في دراسة هذه الموارد التي يمكن أن تعود عليها بالفائدة الاقتصادية في المستقبل، وقد اقترح مانفريد وكامبيريو بجدية اقامة مستعمرات زراعية ايطالية في منطقة برقة، وقال: «ان المنطقة فيما بين طرابلس والخمس مثالية للمزارعين الايطاليين»[24].

ومع اطلالة القرن العشرين يتواصل البحث الجغرافي في ليبيا ويتعاظم ليتخذ شكلا آخر يسفر عن وجهه تماما ويدعو بالحاح الى الاسراع في اغتنام الفرصة الوحيدة لايطاليا الباقية على ضفاف البحر المتوسط.

«في الفترة الواقعة بين 1901-1920 وفي عهد الوالي حافظ باشا زار المنطقة الايطالي (جوستينانيو روسي Giustiniano ROSSI) وألف رحلة بعنوان (تونس وطرابلس اليوم) وقد فضل قبل أن يغادر السواحل الافريقية أن يزور طرابلس التي تتجه ايطاليا اليها بمطامحها بعد اخفاقها في الاستيلاء على تونس ويقرع هذا الكاتب طبول التحذير من ضياع هذه الفرصة على ايطاليا، ويخشى أن يضيع حديثه وحديث امثاله في لجج النسيان.

وقد وصل طرابلس في فجر احد الايام الجميلة قادما اليها من صفاقس بطريق البحر فبدت له كأنها خارجة لتوها ببياضها الناصع من زرقة البحر، بمنازلها البيضاء ومآذنها وبقلاعها الواهية وبخضرة واحة النخيل التي تحيط بها أشكال وحركات وألوان تعطي لهذه المدينة مظهرا انيقا ساحرا، ولكنك ما تكاد تحل بها حتى تصاب بالخيبة المريرة التي يصاب بها اغلب زوار المدن الشرقية، فذلك الاطار الجميل الذي تبدو به على البعد يضمحلّ لتحل محله الحقيقة السافرة بكل قسوتها»[25].

ويقدم اوصافا لبعض الاحياء داخل المدينة فيقول:

«وخلف السور الذي يصل القلعة بحصن المنار يمتد الشارعان اللذان يكونان الحي الاوربي الايطالي والمالطي، وتوجد بهما أجمل المنازل التي تتميز بطرازها الموحد تقريبا فهي مربعة مكونة من دورين، ذات صحن واسع تزينه نباتات الزينة وهي تشبه طراز البيت الاندلسي، وفي هذين الشارعين يسكن علية القوم من أبناء الجاليتين الايطالية والمالطية وكبار الموظفين الاتراك وبه مقر القنصليتين الايطالية والفرنسية ومقر القنصلية الايطالية يقع في منزل جميل يشغل القنصل القسم العلوي منه وبهذا البيت ايضا دائرة البريد الايطالي التي تعج بالناس بالنظر لدقة الخدمات البريدية الايطالية مقارنة بالبريدين العثماني والفرنسي»[26].

ويبدو أن جوستينانيو قد تأثر كثيرا بقراءاته لرحلة الدكتور نخنغال التي قرأها بالفرنسية وتأثر ببعض ارائها.

ومن الرحلات المهمة التي حدثت في مطلع هذا القرن نذكر بصفة خاصة تلك الرحلة التي وصفها باسلوب يتسم بالحيوية والتلوين والاهتمام بالطابع التاريخي والفني (دومينكو تومياتي Domenico TUMIATI) الذي حل بطرابلس عام 1905 ومر ببنغازي وحصل من حكومة الاستانة على الاذن بزيارة الدواخل وقد زار يفرن والرومية ومسلاته[27].

وتدخل رحلة تومياتي في اطار الرحلات السياسية التي حرص عدد من الساسة والصحفيين على القيام بها خلال الفترة التي سبقت الاحتلال الايطالي، وذلك من أجل دراسة الاوضاع العامة والتعرف عليها عن كثب[28].

وقد كان تومياتي من غلاة الرحالة الايطاليين الاستعماريين، كما كان قطبا من اقطاب الحزب

الوطني القومي المتطرف المعروف بنزعاته الاستعمارية وتعبئته الشديدة القومية للرأي العام الايطالي التي قام بها تمهيدا للغزو، وفي اطار هذه الحملة الاعلامية، قام برحلته ليحمل انطباعاته الى القارىء الايطالي عن الارض الموعودة التي تفتح احضانها لاستقباله والترحيب به وتنتظر بشوق بالغ دوره الحضاري التمدني كما يزعم، وقد شارك توميانتي بذلك في تضليل الرأي العام الايطالي ونسج أوهاماً كاذبة من أجل دفعه الى الحرب واحتلال ليبيا[29].

وفي عهد رجب باشا قام عضو مجلس الشيوخ الايطالي (جاكومو دي مارتينو DE MARTINO) برحلة الى ليبيا وتونس نشرها بعنوان (طرابلس برقة قرطاج) باقتراح من معهد الدراسات الاستعمارية، وفي صيف 1907 زار برقة صحبة المهندس بالداري وقد كانت الرحلة ذات اهداف سياسية محضة، وقد زار أثناءها درنة وقورينة وبنغازي وطرابلس[30].

ووصف طرابلس بقوله:

«لو بعث اجدادها ورفعوا رؤوسهم يتأملون طرابلس، فلن يدهشهم أن يروا سلطانة البحر الأبيض الجميلة وهي تستلقي في وهن وارتخاء بثوبها الابيض الشفاف في أحضان ذلك القوس الهلامي الذي تكونه شواطئها الممتدة من الجزر البحرية الصغيرة حتى القلعة المهيبة، وتلك الغابات من النخيل التي تغطي الارض بطبقة خضراء، لقد ظلت كما كانت ثابتة على الزمن. لم يغيرها شيء، ولماذا تتغير وكل شيء ساكن خامد لدى هؤلاء القوم الرافضين للتقدم ما هي الحاجات الجديدة التي يشعر بها العربي، والتركي فتختلف به عن اجداده؟ ان العرب والاتراك يجلسون في المقاهي بشاطىء الميناء تهب عليهم نسمات البحر الندية، وهم يدخنون ويحتسون القهوة، وتلك غاية السعادة في نظرهم»[31].

ان التفكير الاستعماري المحدود المعادي للانسانية كان معاديا أيضا للحقائق العلمية. فالمغالطات التي ذكرها في وصفه انما جاءت لتضلل القرّاء لا أكثر. وهذه الغابات الخضراء التي دفعته الى الدعوة لاستعمار بلادنا لم تبق هكذا خضراء منذ اقدم العصور لو لم يكن وراء ذلك الجهد البشري الدائب المتواصل لهؤلاء العرب الذي وصفهم ـ بكل عنصرية ـ بالكسل والارتياح الى حياة المقاهي والتدخين. ان هذه الارض لم تظل ثابتة كما زعم ولم تكن بعيدة عن التغيير وليست هي الارض القديمة التي توهمها خياله الاستعماري بل هي ثمرة العمل الذي وضعه فيه ابناؤها ففجروا فيها الخيرات التي رآها وراح يتلاعب بوصفها كما يريد.

ونجد أيضاً معلومات متنوعة تتصل بصفة خاصة بالفوائد الاقتصادية والسياسية التي تعود على ايطاليا من وراء احتلالها في مراسلات الايطاليين منهم (جينو لاغانا[32] Gino LAGANA) عن مدينة طرابلس وضواحيها و(غاستوني تريني Gastone TERRENI)[33] الذي قتل في الطريق بين الخمس وطرابلس في عام 1909م. وفي كتابات (دي ساندري DE SANDRI)[34] و(ديوتاليفي Dio TALLEVI) كما اهتم بدراسة الناحية الاقتصادية (سالفاتوري دجانو Salvatori GIANO)[35] الذي قام برحلة الى برقة، والدكتور (فيتوريو نازاري Vittorio NAZARI)[36].

وأكثر رحلات هذه الفترة وجهت اهتمامها نحو الموارد الاقتصادية لبلادنا أكثر من الاهتمام بالحقائق العلمية الدقيقة فكان هدفها تحديد المصادر الاقتصادية التي ستكون الدافع القوي لايطاليا في احتلالها لليبيا وفي الوقت نفسه ركز أكثر الرحالة على مخاطبة العواطف في ايطاليا في وصف ليبيا بأوصاف شاعرية، وأنها أرض موعودة للايطاليين.

ومما يدخل في اطار الرحلات الاستكشافية داخل الاراضي الليبية نشاط المنظمة الاستيطانية اليهودية التي أبدت في القرن الماضي اهتماما كبيراً ببلادنا انتقل الى حيّز التطبيق العملي بايفاد البعثات لدراسة الارض من أجل تأسيس ما اسموه بالوطن القومي لليهود. واذا كان موضوعنا لا يتناول دوافع وأبعاد هذا المشروع فان هناك من تناوله بكثير من التفصيل(*) غير انه لابد من الاشارة الى ان هذه المنظمة قد خرجت ببعض النتائج الهامة حول الاراضي الليبية وليس هناك ما يمنع القول أن تكون الاوساط الاستعمارية الايطالية قد أفادت من تلك النتائج التي نشرت في المصادر الفرنسية وغيرها وذلك نظرا للتنسيق المعروف بين الاوساط الاستعمارية وخاصة في ظل الكشوف والدراسات الجغرافية. لقد أرسلت المنظمة الى ليبيا عدة بعثات منها البعثة التي قام بها (ناحوم سلوش Nahom SLOUCH) الذي كان استاذا للدراسات اليهودية بجامعة السوربون في مطلع هذا القرن، وقد قام بزيارة المغرب العربي وليبيا ووضع كتابا عنوانه (رحلات في شمال افريقيا) وقد قامت بنشره «الجمعية الامريكية للمطبوعات اليهودية سنة 1927» وقد زار ليبيا في عهد ولاية رجب باشا(**) حيث كان عضوا في البعثة التي ارسلها اليهود لدراسة احوال برقة ومدى صلاحيتها لان تكون وطنا قوميا لليهود وذلك في سنة 1909م.

أما البعثة الثانية التي اوفدتها المنظمة الاستيطانية اليهودية (J.T.O.) تحت اشراف جريجوري GREGORY فعلى الرغم من ادعائها بأنها لم تقم بغير المسح الطبوغرافي العلمي فانها كانت في الحقيقة ترمي الى معاينة وفحص منطقة الجبل الاخضر لاقامة مستعمرات استيطانية صهيونية تحت سمع ونظر الدولة العثمانية، وقد زارت تلك البعثة في جولتها المدن والقرى التالية: درنة، شحات، سوسة، سلنطة، مسه، المرج، وبنغازي ثم نشرت تقريرا معروفا لكل دارس للاطماع الصهيونية في الوطن العربي عنوانه: «تقرير عن اعمال اللجنة التي ارسلت من قبل المنظمة الاستيطانية اليهودية تحت رعاية والي طرابلس لمعاينة الاقليم المقترح لاستيطان يهودي في برقة»، وقد نشر هذا التقرير في لندن سنة 1909 ويقع في 52 صفحة[37].

وتكشف لنا احدى وثائق ارشيف دار المحفوظات التاريخية بطرابلس أهداف «المنظمة الاستيطانية اليهودية J.T.O.) في الاستحواذ على منطقة برقة في رسالة لم يدون عليها اسم المرسل

---

(*) نشر سلوش الذي زار ليبيا سنة 1908 دراسة حول اليهود والديانة اليهودية في برقة القديمة، في عدة مجلات أهمها مجلة العالم الاسلامي. انظر:

N. SLOUSH (Une exédition à travers la Cyerenaique) Revue du monde musulman vol VII No 5 - 1909. (**)

اليه ولا المرسل(*) ومن مقدمة الرسالة يبدو أن المنظمة تمكنت من استقطاب احد شخصيات حكومة الولاية لصالح اهدافها واسمه (بكير بك) الذي تصفه بأنه ذو ثقافة عالية، وتفهّم تماما للنتائج التي سيحققها المشروع الصهيوني والتي ستعود حتما بالفائدة على اليهود والبلد وهو بالتالي لا يتوانى في تقديم يد العون للمنظمة والتوسط لدى الحكومة العثمانية في سبيل تذليل كل العقبات التي تعترض استيطان اليهود في برقة، وتضمنت الرسالة النتائج التي توصل اليها اجتماع المنظمة في لندن عام 1909 وهي :

«أولا : تأسس بنك يهودي لشراء اراض شاسعة.

ثانيا : حسب رغبتكم يكون قبول اليهود المضطهدين بوصفهم لاجئين عثمانيين، ويحصلون على الجنسية العثمانية ويسمح لهم بتشكيل هيئة دينية والرسوم والضرائب التي تستوفيها الدولة منهم لا تكون فردية بل جماعية بمبلغ مقطوع يحدد فيما بعد.

ثالثا : تؤسس الجمعية في موقع من تلك السواحل ميناء وسكة حديد، وشركة للملاحة، ويرفع العلم العثماني على جميع الدوائر والمؤسسات، وستعمل هذه الدوائر للرفع من شأن الدولة العثمانية وزيادة ثرواتها.

رابعا : ــ ان التدابير التي تتخذها الجمعية في اقرار أو نسخ هذه القرارات ستكون سرية، وان أربعة من أعضاء المجلس والرئيس المسيو (زنغويل) سيباشرون أعمال الاطلاع بقيامهم في الظاهر بجولة سياحية في البحر المتوسط لبحث بعض الشؤون في الدول الاوربية.

خامسا : ــ عندما نحل بصقلية ــ كاتانيا أو سيراكوزا نعلمك بتاريخ وصولنا الى مالطة لتحضر هناك في الحال وتزودنا بالمعلومات وكل التفاصيل اللازمة، لأننا قبل البحث معك لا يمكننا القيام بأي عمل في هذا الصدد.

سادسا : ــ بعد التفاهم معكم سيتوجه أربعة أفراد من الهيئة بينهم متخصص في فن الزراعة الى بنغازي متنكرين ويقومون بجولة الى درنة بحجة تأسيس مدارس يهودية هناك، واذا أوجستم خيفة علينا بسبب زينا الاجنبي فاننا على استعداد لارتداء الملابس الوطنية والنزول خلسة في موضع خال، ولكي لاتعترضنا بعض المصاعب يجب أن تكون الحكومة والقائمقامون على علم بذلك، وباذن الله سوف ننهي مهمتنا في ظروف عشرة ايام واذا قر رأينا على الاستقرار هناك، فإن أول ما سنطلبه اعطاءنا رخصة للزراعة واعمار الارض لأنه اذا لم يسمح لنا بالرخصة الزراعية فان الهيئة ستدخل في مفاوضات مع كندا أو استراليا في هذا الشأن.

---

(*) من المحتمل أن يكون محرر الرسالة ناحوم شلوش اذ تشير الوثيقة في ارشيف المحفوظات التاريخية انها مترجمة من الاصل الفرنسي لاعتبارين (1) لعلاقة ناحوم بالبعثة التي تمت، (2) ولاجادته الفرنسية والتي كان يدرس بها في السوربون.

لذلك. أرجو أن تشرح هذه المسألة لحضرة صاحب الدولة المشير باشا، وصاحب السعادة بكير بك(*)، وتبين لهم الجهود التي صرفتها منذ ستة شهور سببا لتحقيق المشروع وعن رغبتي الاكيدة في جلب السعادة والبركة لتلك البقاع وأن قصدي ادخال استثمار رؤوس الاموال اليهودية في الممالك العثمانية، وأننا واثقون من نجاحنا، فنرجو الا يبديا أية مصاعب، فاذا كانت الحكومة المحلية لا ترفض مشروعنا الزراعي عرفونا برقيا، اذ اننا متأهبون لمباشرة العمل حال وصول برقيتكم.

سابعا: ـ حين رجوع السادة المذكورين من زيارتهم لبنغازي الى صقلية سوف يتوجه المسيو زنغويل بعد الاطلاع على مالديكم الى دارة السعادة، استانبول للمفاوضة هناك حول الامتيازات وتأسيس البنك ويتفرغ فيما بعد لقضاء الشؤون الاخرى بكل راحة.

ثامنا: ـ اعرضوا على سيادة الباشا أن الهيئة في هذه المسألة قررت باتفاق الاراء ورغبتها في خير وسعادة البلاد العثمانية، واني استرحمه أن يدرس هذا المشروع المقدس الذي سوف يخلص اليهود من العذاب والمشاق التي يلاقونها.

تاسعا: ـ أرجو بذل مساعيكم بنجاح آمالنا التي شرحتها لكم في رسالتي هذه وأن تبعثوا لنا عاجلا بالبرقية المنتظرة»[38].

يتضح من فحوى الرسالة والبعثة التي تمت في بنغازي أن المنظمة الاستيطانية اليهودية، استطاعت أن تنال رضى الوالي بعد أن اوهمته بأن هذا المشروع سيعمل للرفع من شأن الدولة العثمانية وزيادة ثرواتها وسيحقق رغبة البلاد العثمانية في العيش في رخاء وسعادة، فقدم لها التسهيلات اللازمة.

وقبل أن تتدخل ايطاليا فعليا وبقوة السلاح في ليبيا بأشهر قليلة بدأت المؤسسات الاستعمارية، والمؤسسات الاقتصادية والاحزاب المتطرفة الايطالية في تسفير الكثير من بعثاتها الى طرابلس وبرقة بغية التقصي على الموارد الاقتصادية التي يمكن أن تجنيها ايطاليا من احتلالها لليبيا وتخدم اقتصادها ومدى امكانية استيعاب ليبيا لافواج المهاجرين، ونظرا للطابع الاستغلالي الذي تتسم به هذه البعثات فلا يمكن تصنيف من قاموا بهذه المهات في خانة رحالة الكشف الجغرافي، أو ادراج رحلاتهم تحت هذا البند. الا اذا اعتبرنا أن الرحلات الجغرافية انتقلت الى المرحلة التالية ـ المرحلة الاستعمارية التطبيقية.

والدافع الحقيقي وراء هذه البعثات يكمن في مطامع ومصالح المؤسسات التي كانت ترعى هؤلاء والتي تتمثل في وضع الخطط العسكرية للاحتلال ودراسة المناطق المستهدفة للعمليات العسكرية التي يقوم بتنفيذها رجال عسكريون يتسترون بستار البحث والكشف، أو مدى

(*) بكير بك كان كاتبا لحكومة الولاية في ولاية رجب باشا، ونائبا في الجبل وعندما استدعت الحكومة العثمانية رجب باشا وعينته وزيرا للحربية، عين واليا على طرابلس ولكنه لم يكن محبوبا من الاهالي فاجتمع رؤساؤهم وطلبوا من الحكومة ابعاده فاضطرت لاستدعائه.

امكانية القيام بأنشطة اقتصادية من خلال المؤسسات الاقتصادية، بشكل يكون ظاهرا للسكان المحليين لا يهامهم أن هدف ايطاليا الرفع من مستوى البلاد اقتصاديا أو ثقافيا، اذا كانت هذه المؤسسات ثقافية ـ كما سنعرف بعد قليل ـ.

وعلى الرغم من أن اغلب هذه الرحلات بهذا المفهوم لا تستند الى الاصول العلمية، الا أننا نعثر في بعضها على بعض المعلومات التي تتصل بصفة خاصة بالمدن الساحلية، وتقدم لنا ملامح عن الحياة العامة الثقافية والاجتماعية والسياسية في تلك الفترة.

وفي اطار الحملة الكبرى التي مهدت للغزو الايطالي، وعملت على تهييج واثارة الرأي العام الايطالي ودغدغة مشاعره الوطنية باحلام وهمية عظيمة في أرض موعودة، قام عدد من الصحفيين والسياسيين الايطاليين بزيارة ليبيا خاصة، خلال السنتين الاخيرتين من العهد العثماني، وعلى الرغم من أن هؤلاء الصحفيين لا يحسبون ضمن الرحالة الا أن انطباعاتهم ومشاهداتهم تكتسب اهمية خاصة في تصوير الحالة العامة من خلال هذه الفترة الهامة من تاريخ البلاد التي كانت تتابع الاحداث السياسية بقلق بالغ وتوتر شديد[39].

وكان في مقدمة هؤلاء السياسي الايطالي المعروف (انريكو كوراديني Enrico CORRADINI) زعيم الحزب الوطني الاستعماري المتطرف الذي قاد الحملة الاعلامية لتحريض الرأي العام الايطالي على المبادرة الى احتلال ليبيا. وقد كان كوراديني هذا من غلاة الاستعماريين الايطاليين ومن أكبر ممثلي الفكر الاستعماري الايطالي الحديث كرس جهوده لهذه الدعوة وتفانى من اجلها وعمل على الترويج لها بخطبه الحزبية ومقالاته الصحفية[40].

وفي شهر يوليو 1911 وقبل الاحتلال بشهرين جاء الى ليبيا حيث زار برقة وطرابلس، وأكد على قيمة برقة الزراعية وامكانية خلق نهضة زراعية كبيرة، وأدعى وجود الكثير من المعادن التي يمكن أن تنهض بصناعة ايطاليا، ووصف مناخها بأنه صحي وجميل يشبه مناخ صقلية وهي بالتالي صالحة لسكنى الايطاليين نظرا لوفرة المياه فيها.

وفي زيارته لطرابلس وصفها بأنها «تلك المدينة التي تفتح ذراعيها للقادم من اوربا، وأنها مدينة بيضاء ككل المدن العربية تتوجها أشجار النخيل ومظهرها الاولى جميل ولطيف» وجاء في وصفه الاولي:

> «ويمكن أن تصبح مدينة طرابلس واحدة من اجمل مدن البحر المتوسط اشترك البحر والصحراء في رسم ملامحها، فلا احد بقادر على وصف جمال القوس الذي يحيط بمرفأها، ولا أحد بقادر أن يصف جمال التاج الأخضر الذي تكلله نخيلها وأشجار زيتونها، ولا أحد بقادر على التعبير عن جمال طقسها ولطفه».

وكوراديني لا يعطي اهتماما للحياة العامة في طرابلس وبرقة، بقدر اهتمامه للتعرف على الامكانيات الموعودة التي تمثلها الاراضي الليبية، وقد أحاط هذه الامكانيات بهالة كبيرة أوهم بها القارىء الايطالي بأنه أمام جنة موعودة تنتظره، مستغلا بذلك الحاجات الضرورية والنواقص التي يعاني منها الايطالي مصورا له أن هذه الجنة ستسد كل الحاجات والنواقص لتوفر له اكبر قدر من الراحة، أمّا الصراحة التي تحدث بها هذا الصحفي فتضع له مكانة خاصة بين

الدعاة الاستعماريين الذين حاولوا التستر على الغزو بحجج مختلفة بينما يتحدث كوراديني بصورة مكشوفة عن غاياته عندما يقول:

«انني لا أكتب ذلك من اجل اهداف انسانية تتوجب على ايطاليا نحو سكان طرابلس الغرب، ذلك أن ايطاليا ينتظرها واجب احتلال هذه البقاع من اجل اسباب ومبررات خاصة تتعلق بمصالحها وضروراتها في البحر المتوسط ولكنني أكتب لأبين الحالة التي وجدت عليها عاصمة طرابلس الغرب في يوليو 1911»[41].

وتدخل رحلتا جيوسبي بياتسا وجيوسيبي بيفيوني[42]، في اطار الرحلات السياسية التي حرص عدد من الساسة والصحفيين على القيام بها خلال الفترة التي سبقت الاحتلال وذلك من أجل دراسة الاوضاع العامة في ليبيا، والتعرف عليها عن كثب، ونلاحظ أن الطابع السياسي هو الغالب على هذه الرحلات والذي كان يمثله هؤلاء وتكيف نظراتهم واحكامهم وانطباعهم بافكارهم السياسية التي جاءوا من أجل دعمها بالمشاهدة والوقوف الشخصي على الواقع، ومن العبث أن نعثر هنا على نظرة موضوعية محايدة، وانما يجب أن نقرأ هذه الرحلات من حيث هي تعبير عن اطماع واتجاهات اصحابها التي كانت موجهة بالدرجة الاولى للتأثير على الحكومة في التعجيل باتخاذ قرار الاحتلال في اسرع وقت ممكن وقبل فوات الفرصة، وفي الوقت نفسه التأثير على الرأي العام لتتخذ موقفا مماثلا لموقف الاحزاب حتى يكون عامل ضغط مؤثر على الدولة.

ولعل اكثر الرحلات اثارة في هذه الفترة الرحلة التي قام بها الكونت (اسكانيو ميكيل سيفورزا Cont. Ascanio M. SFORZA) الذي حل بمدينة طرابلس في 23 فبراير 1911 وهو سياسي ايطالي معروف الذي ربطته فيما بعد صلات ودية مع بعض الشخصيات الوطنية، وجاء الى ليبيا بمهمة القيام بدراسة شاملة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، بحجة البحث عن المعادن، ولهذه الرحلة اهمية خاصة اذ تم قبل الاحتلال الايطالي بقليل[43].

والتقى سيفورزا ببعثة (ابنازيو فيليبو Ignazio S. FILIPPO) الذي كان يقوم منذ عام 1910 بأبحاث في تلك المناطق، وقد غادرت البعثتان طرابلس يوم 8 ابريل 1911 وتوغلتا في الدواخل وتعذرت عودتهما بعد نشوب القتال بين ايطاليا وتركيا ووقع أعضاء البعثة في الاسر بيد الاتراك[44].

ويتحدث (اميليو توري) عن هذه الرحلة فيقول:

«أما بالنسبة الينا فقد اثارت اهتماما خاصا تلك الاحداث التي صاحبت بعثة سان فيليبو ـ سفورزا التي فوجئت باعلان الحرب أثناء قيامها بمهمتها فتعرضت الى قسوة الاسر لعدة اشهر، حتى تم الصلح، وأطلق سراح افرادها».

وكان الكفالير (ايناتزو سان فيليبو I. SAN FILIPPO) وهو من رجال الصناعة بصقلية قد قام صحبة الخبير المتخصص في شؤون المعادن (روسلي ROSSELLI) وعامل المناجم (فرانسيسكو لافينوريو F. LAVINORIO) والمترجم (فيتوريو مافاي Vittorio MAFFAI)

بالتوجه الى طرابلس عام 1910 وكانوا قد هيأوا انفسهم للقيام بابحاث ودراسات حول احتمال وجود مناجم الكبريت في مناطق سرت، وذلك تحت رعاية بنك روما الذي كان له نشاط اقتصادي واسع في ولاية طرابلس الغرب، وكان (سان فيليبو) قد قام قبل ذلك باستطلاعات أولية، ولكن العراقيل التي وضعتها الحكومة التركية المحلية اثناء ولاية ابراهيم باشا عاقته عن تنفيذ خطته وبلوغ اهدافه، وفي هذه الاثناء وصل الى طرابلس الكونت (اسكانيو ميكيل سفورزا) الذي كان ينوي أن يقوم لحساب بنك روما بجولة اكتشافية في المناطق الساحلية والداخلية من طرابلس الغرب بقصد اجراء أبحاث جيولوجية ومعدنية.

وبعد أن توصلت البعثتان الى التغلب على الصعوبات التي وضعها الوالي اتحدت في بعثة واحدة، وتمكنتا أخيرا من السفر تحت حراسة كافية.

وقد غادرت البعثة مدينة طرابلس يوم 8 ابريل وزارت منطقة الجبل الغربي وغريان ومنطقة ترهونة ومسلاتة حيث وصلت فيها الى الخمس في 31 مايو، وغادرتها يوم 16 يونيو في طريقها الى زليطن وسوكنة، حيث أُسرت في 2 اكتوبر عام 1911 بعد اعلان الحرب، ونقل اعضاؤها الايطاليون الخمسة الى مرزق واعتقلوا في قصرها، ثم وضعوا بعد ذلك في سجن يفرن، حتى تم عقد الصلح وأطلق سراحهم في 11 نوفمبر 1912[45].

وقد نقل الكفالبير سان فيليبو صورة عن أحداث هذه الرحلة في محاضرة القاها بعد عودته الى ايطاليا[46].

وبعد اعوام من ذلك كتب الكونت سيفورزا كتابا هاما حافلا بالملاحظات والانطباعات حول مشاهداته أثناء الرحلة والاسر[47].

ويحتوي الكتاب وصفا دقيقا للحياة العامة داخل طرابلس، ولفت انتباهه تسامح المسلمين مع غيرهم من الاديان.

من خلال استعراضنا لحركة الرحالة الايطاليين تبين أن الطموح الاستعماري للايطاليين أفصح عن نفسه منذ مطلع القرن التاسع عشر، وفي الفترة التي كانت تعاني فيه ايطاليا انقساما الى ممالك ودوقيات الا أن هذا الطموح لم يكن مدفوعا من قبل جمعيات جغرافية أو مؤسسات اقتصادية أو ثقافية، ولكن مجرد محاولات فردية قام بها أشخاص قذفت بهم الظروف الى ليبيا واتيحت لهم الفرصة في التجول في ربوعها كما حدث في رحلة الدكتور شرفيللي ورحلة الدكتور ديلا شيلا اذ تمت بمحض الصدفة لا غير.

ويمكن أن نستخلص من هاتين الرحلتين مدى افتتان الايطاليين بالدول الاوربية التي تكاملت قوتها فأخذت تضرب في آفاق القارة الافريقية وتتسع خريطتها في الوقت الذي تتمزق فيه خرائط دول اخرى، وكذلك محاولتهم أن يثبتوا انهم عنصر فعال في اوربا لا يختلفون عن غيرهم من الأنجليز والفرنسيين والألمان والأمريكان الذين كانوا يجوبون الصحراء وأواسط افريقيا في محاولة اكتشاف مواردها وطرقها، وحتى يكون لهم سهم في هذا المجال عملوا على نشر اخبار رحلاتهم في دوريات فرنسا.

وما ان تكاملت وحدة ايطاليا وأعلنت عن نواياها الاستعمارية حتى بدأت في إنشاء

الجمعيات الجغرافية مثل جمعية ايطالية الجغرافية التجارية وجمعية افريقيا الايطالية، وأسست مجلات جغرافية تهتم بتسجيل الكشف الجغرافي مثل مجلة (المكتشف l'esploratore)، وقبل أن تتكامل هذه الجمعيات بدأت اولا في رعاية الرحلات التي يقوم بها بعض الرحالة الألمان، كما لاحظنا في الرحلة التي قام بها رولف والتي تمت برعاية القنصلية الايطالية في طرابلس، والذي كان ايضا على اتصال بكريسبي صانع منهج ايطاليا الاستعماري واستغلت ايطاليا بذلك التسهيلات التي كانت تقدمها الحكومة العثمانية للألمان في محاولتها خلق منافسين ومزاحمين للنفوذ الاقتصادي والثقافي الايطالي.

ثم بدأ بعد ذلك سيل من الرحالة الايطاليين يقومون برحلات الى ليبيا تختلف اختلافا كبيرا عن الرحلات التي ترعاها فرنسا، وبريطانيا، وامريكا والتي تتوغل في عمق الصحراء، أما هذه فتكتفي بدراسة المناطق الساحلية او القريبة من الساحل، وقلما نجد رحلة اتجهت نحو الجنوب عبر الصحراء[48]، وهذا يوضح الغرض من وراء هذه الرحلات التي تهدف الى اكتشاف المناطق التي يمكن أن تكون موطنا للايطاليين أو أن تخدم ايطاليا اقتصاديا عند احتلالها.

## هوامش

1 ـ د. جمال حمدان، استراتيجية الاستعمار والتحرر، مرجع سابق ص 57.

2 ـ انظر، د. احمد صدقي الدجاني، «ليبيا قبل الاحتلال الايطالي» مرجع سابق ص 296.

3 ـ جيمس ويللارد، «الصحراء الكبرى» مرجع سابق ص 183.

4 ـ د. احمد صدقي الدجاني، المرجع السابق، نفس الصفحة.

5 ـ اتوري روسي «ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911» تر. وتقديم خليفة التليسي، دار الثقافة بيروت 1974، ط 1 ص 7.

6 ـ انظر كتاب، رحلتان عبر ليبيا، لفريدريك هورنمان وجوردون لينج مكتبة الفرجاني.

7 ـ انتوني. ج. كاتيا، «ليبيا خلال الاحتلال العثماني» 1835-1911 دار الفرجاني 1975، ص 172.

8 ـ الهادي ابو لقمة «أخبار الحملة العسكرية من طرابلس الى برقة عام 1917» مكتبة الفكر ـ الطبعة الثانية 1968.

9 ـ اتيليو موري، الرحالة والكشف الجغرافي لليبيا، تر. خليفة التليسي مكتبة الفرجاني، ط 1، 1971 ص 115.

10 ـ جون رايت، ليبيا منذ أقدم العصور، تر. احمد اليازوردي، عبد الحفيظ الميار ـ مكتبة الفرجاني، الطبعة الاولى 1972 ص 114.

11 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية (وثائق غير مصنفة)، ترجمة محمد الأسطى، الأصل تحمل رقم 1028، الترجمة تحمل رقم 576 وكذلك 86.

12 ـ اتيليو موري، مرجع سابق، ص 94.

13 ـ شارل فيرو، الحوليات الليبية، تر. د. عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني ب.ت ص 971.

14 ـ اتيلو موري، مرجع سابق، ص 94.
والتقرير المذكور مصاغ في شكل يوميات، وينقل الينا المؤلف بدقة تامة جميع ما يشاهده ويسمعه ويبدي اهتماما خاصا بالاحوال الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ويتضمن التقرير خارطة لتونس وطرابلس وبرقة تبرز طرق القوافل المنتهية نحو الدواخل ومقاسها (1:8000,000) وقد اعيد طبع هذا التقرير في مجلة المكتشف Camperio-MANFREDO (Gita in Tripolitania) l'esploratorio, Anno IV. 1880 pp. 221 - 252 - 273 - 337.

15 ـ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 171، 172، 173.

16 ـ اميليو توري، مرجع سابق، ص 95 CAMPERIO (Spedizione in Cir.) L'esploratore Anno V. 1880 pp. 10-18.

17 ـ شارل فيرو، تحقيق الدكتور الوافي، مرجع سابق ص 791.

18 ـ CAMPERIO (Gita in Tripolitania) cit. Anno 1881 - pp. 257-268-289: 303-344-361-362 Anno 1889 - pp. 5-16-67.

19 ـ Pietro MAMOLI (La cirenaica) l'esploratore Anno 1881 pp. 241-251 - Anno VII. 1883 - pp. 195-204.

20 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 00.

21 ـ خليفة التليسي، مذكرات جوليتي، مرجع سابق ص 15.

22 ـ اتيليو موري، مرجع سابق ص 97.

Giuseppe HAIMAN (La Cirenaica) Boll soc. geografica Ital. serie II vol. VII 1882. pp. 92-121: 248-269-313-340-446-463-601-615.

(LA CIRENAICA) Roma. Civelli 1882.

CIRENAICA - Tripolitania.

23 ـ اتيليو موري، مرجع سابق، ص 98، وقد نشر مامولي رحلاته في:

- Mamoli PIETRO (l'incidente di Derna) l'Esploratore. Anno VI 1882 pp. 218-227.

- Mamoli PIETRO (1) «TOBRUK» l'Esploratore. Anno V 1883 pp. 163-169.

(2) «TOBRUK E REGIONI FINTIME».

Boll. (soc. Africa d'Italia) anno XVII. Fase Gennaio Febbraio 1878 p. 16-19 e Fasc. 2 Marzo 1898 p. 45-59

وفي هذا التقرير الذي كتبه مامولي أثناء وجوده بنابولي وبعد عودته بأعوام الى ايطاليا، ذكر بالاضافة الى وصفه للطرق والمناطق المجاورة بعض التفاصيل عن الجولات التي قام بها عام 1833 انظر:

- Mamoli PIETRO (Stazione di Derna-Cenni storici e Geografici) l'Esploratore - Anno V. 1881 p. 406-409. Anno VI. 1882 p. 196-203.

- RELAZIONE AGRICOLA COMMERCIALE SULLA STAZIONE DI DERNA (Ibidem anno VII 1883 p. 195-204).

- CORRISPONDENZA DA DERNA (Ibidem anno VI 1882 p. 432 325 : 367-370 - Anno VII 1883 p. 29-33 : 69-71 : 109 : 314-322.

- CORRISPONDENZA DA BENGAZI (l'Esplorazione Commerciale Anno I 1886 pp. 18 - 71 - 109 - 182 - 214 - 336 - 376 - Anno II 1887 p. 81-138-201-228-265-334.

Anno III 188 p. 38 - PIONIERI ITALIANI IN LIBIA.

24 ـ جون رايت، مرجع سابق، ص 114.

25 ـ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 196.

26 ـ المصدر نفسه، ص 197، انظر كتاب روسي:

Giustiniano ROSSI (La Tunisia e la Tripolitania dell'oggi impressioni di viaggio) 1901-1902 - TRAPANI 1902.

27 ـ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق، ص 216.

28 ـ المصدر نفسه ص 217.

كذلك انظر:

.D. TUMIATI (La Tripolitania) MILANO 1911

29 ـ D. TUMIATI (nell'Africa - Romana Tripolitania) Milano 1905.

30 ـ انظر مقدمة الكتاب في الباب الثاني الفصل الثالث وكذلك:

DE MARTINO (Tripoli - Cirene - Cartagine) BOLOGNA 1912.

31 _ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 215، 216.

32 _ Gino LAGANA (Tripoli e suoi Din Tom) Boll soc. Africa d'Italia Anno XXIV. 1905.

33 _ Gastone TERRENI (appunti Tripoli) Boll soc. Africa d'Italia - Anno XXIV. No 5-6 Giugno-Luglio 1904 pp. 105-107.

34 _ Gino DE SANDRI (della Tripolitania) l'Italia all'estero Anno III No 22-20 - Nov. 1909 - pp. 2016-2019.

35 _ Salvatori GIANO (la Cirenaica) l'Italia Coloniale Anno III No 5 Maggio 1902 - Salvatori GIANO (la Tripolitania) l'Italia Coloniale Anno III No 5 Maggio 1902.

36 _ NAZARI (Tripolitania impressioni di viaggio) ROMA 1911.

37 _ شارل فيرو، الحوليات الليبية، ترجمة وتحقيق د. عبد الكريم الوافي ص 787، 788.

38 _ ارشيف المحفوظات التاريخية (ملف اليهود) ب.ت وثيقة رقم 2193، ترجمة عبد السلام ادهم، منشورة أيضا في كتاب وثائق تاريخ ليبيا الحديث، أحمد صدقي الدجاني، عبد السلام ادهم وكذلك، ليبيا قبل الاحتلال الايطالي، لأحمد صدقي الدجاني.

39 _ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق، ص 225.

40 _ انظر الباب الثاني، الفصل الاول، الصحافة _ والفصل الثاني _ الادب مقالات كوراديني الصحفية والادبية.

41 _ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق، ص 225، 226 وكذلك انظر:

Enrico CORRADINI (l'Ora di Tripoli) cit.

42 _ انظر:

Giuseppe PIAZZA (la nostra terra promessa) cit.

Giuseppe BEVIONI (come siamo andati a Tripoli) cit.

43 _ خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 220، 221.

44 _ Francesco MALGERI op. cit. p. 32.

شارل فيرو، مرجع سابق ص 792.

خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 221.

فرنشيسكو كورو، مرجع سابق، ص 175.

مفتاح السيد الشريف، مرجع سابق، ص 22.

45 _ اميليو توري، مرجع سابق، ص 125-126-127.

46 _ Ignazio SAN FILIPPO (la missione mineralogia Italiana in Tripolitania) Boll soc. Gegra-Italiana vol. I Roma 1913.

47 _ Ascanio MICHELE SFORZA (esplorazione e prigionia in Libica) MILANO Treves 1919.

48 _ تشير بعض الوثائق الى رحلة قام بها ايطاليان الى بورنو بمساعدة بعض الاهالي، ونظرا للمجهود الذي قدمه احد المواطنين لهذه الرحلة، قدمت له الحكومة الايطالية وساما ذهبيا عن طريق الدولة العثمانية، وهذا نص الوثيقة:

«الباب العالي، وزارة الامور الخارجية، السكرتيرية رقم 141 الى ولاية طرابلس الغرب الجليلة،

حضرة صاحب الدولة أفندم، بناء على اشعار معاليكم بخصوص قبول الوسام الذهبي الذي منحته الدولة (لمحمد باشامه) من أهالي ولاية طرابلس لمحافظته على حياة اثنين من أعضاء الجمعية العلمية التي قامت بسياحة الى بورنو وذلك اثناء اقامتها في مدينة سوكنة، فقد تفضلت الاراء السنية السلطانية بالاذن للمذكور على قبول الوسام وحمله في المناسبات والامر من هذا الباب لحضرة سيدي.

4 ربيع 1301، كانون الأول 1299 دیسمبر 1883».

وثيقة رقم (2) ملف التمهيد للغزو (مركز دراسات جهاد الليبيين)، كذلك وثيقة رقم 2422 ارشيف المحفوظات التاريخية.

# الفصل الثاني

## المؤسسات الثقافية



## مـدخــل:

كانت الكنيسة والمبشرون القافلة الأولى التي أرسلها الاستعمار الى الوطن العربي والعالم الاسلامي وافريقيا لتمهد لجيوش الاحتلال الطريق بهدف محاصرة الثقافة الاسلامية والعربية والقضاء على الدين الاسلامي، لخلق فراغ ثقافي في كيان هذه المجتمعات وقطع أي رابط يربطها بتراثها وحضارتها، ومقومات وجودها، وفصلها نهائيا عن فترة ازدهارها التاريخي.

لقد كان المبشرون والرهبان جنود هذه القافلة الذين استخدمتهم الكنيسة فقد كانوا في أخلاقهم ونمط حياتهم النقيض الكلي لجنود الفرق الأخرى، ولكنهم مع ذلك كانوا جنودا، وكان عليهم أن يحيوا حياة الجنود ويقاتلوا قتال الجنود قبل أن يتاح لعملهم التقدم الكافي[1].

اعتمدت جيوش الغزو الثقافي أسلوب نشر المدارس والمؤسسات التبشيرية والارساليات والقضاء على المدارس الوطنية، واعداد المدارس التي تشرف عليها الحكومة واعداد الارساليات، وينصب عملهم على نشر لغة المستعمر ودينه وتاريخه وعلى تعميق اللهجات المحلية في محاولة ايقاف اللغة العربية وتجميدها.

وحاولت جيوش الغزو الثقافي ربط التعليم والاستشراق بالتبشير من خلال المؤسسات التعليمية ومعاهد الاستشراق.

ولقد أيدت هذا النفوذ الجديد للتبشير المتمثل في الارساليات بمدارسها ومستشفياتها ومؤسساتها، وكانت حركة التبشير من أكبر الأعمال التي اعتمد عليها الاستعمار في تركيز وجوده وبقائه، ليس فقط خلال فترة احتلاله لهذه الأقطار بل ولاعداد ركائز تبقى بعد جلائه عن طريق أجيال تستقطب مفاهيمه وقيمه، وتزيفها حتى تصبح حقائق أساسية لا سبيل الى انكارها، وذلك بموالاة ترديدها عن طريق مختلف وسائل النشر والتي كان من آخرها الوسائل الاذاعية وسواها.

ومن وراء حركة التبشير تقف مؤسسة الاستشراق التي هي المصنع الذي يبعد الشبهات والظنون، ويقدمها للعاملين في حقل التبشير لنشرها والاذاعة بها، وهناك حقيقة يجب تقريرها وهي أن هدف التبشير لم يكن في اساسه تحويل المسلمين الى أديان أخرى، فقد تأكد للدعاة منذ أول الطريق استحالة ذلك ولكن الهدف الأكبر هو اخراج المسلمين من قيمهم ودينهم، ومفاهيم الاسلام أساسا، وبذلك يصبحون عجينة طيعة للتشكل وفق مفاهيم الفكر الغربي، والاستعمار، لذلك فان حركة التبشير هي اساسا حركة استعمارية لخدمة النفوذ الأجنبي وتأكيده وتعميقه[2].

«وقد اتجه المستعمرون ـ ولا يزالون ـ الى استغلال التعليم كميدان يمكن من خلاله أن يحققوا مآربهم فقد بينت التجربة الطويلة أنه الوسيلة الأكثر فعالية والأوفر جدوى بين الوسائل التبشيرية، وعلى هذا الأساس بدأ المبشرون بانشاء مدارسهم، ولكي يكون التبشير كاملا يرى المبشرون أن يتولوا هم أنفسهم التعليم في جميع انواعه ودرجاته، فرياض الاطفال، مثلا

مهمة جدا، لان التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابا مفتوحا للتبشير، وللتأثير في عقول الاطفال الغضة ثم إن الذين يشرفون على رياض الأطفال يكونون أكثر اتصالا بأهل الطلاب من الذين يشرفون على المدارس العالية، وكان التعليم الابتدائي وسيلة ثمينة للتبشير لانه يمكن المبشرين من أن يثبتوا أقدامهم في القرى، تحت ستار التعليم الابتدائي الذي تحتاج اليه القرى في الدرجة الاولى، وللمدارس الابتدائية فضل على الكليات، لأنها تمكن المبشر من أن يصل الى العقول وهي لا تزال تتأثر بما يلقى اليها، ثم ان المدارس الابتدائية كرياض الأطفال تساعد على أن يتصل المبشرون بأهل الطلاب»[3].

«لقد كان الاستعمار بصفة عامة حريصا على توجيه التعليم نحو تخريج طائفة من المتعلمين يخدمون مصالح الحكومة والشركات، هذا القول قاصر في الحق عن الغاية الكبرى، فقد كان الاستعمار حريصا على أن يرافق الفتح السياسي فتح معنوي حتى يتقرب أهالي المستعمرات من المستعمرين الى أن يندمجوا فيهم اندماجا، وذلك بنشر لغة المستعمر، وتعليم الأهالي تعليما ينشىء في نفوسهم حب المستعمر، فيستسلمون له عن طواعية.

كان ذلك هو الهدف الأكبر، ويتصل به هدف آخر هو: القضاء على الثقافة القومية، وذلك بالطعن فيها والتشكيك في حقيقتها واثارة الشبهات من حولها حتى ينظر اليها المواطن نظرة الازدراء والاحتقار، ويعلي عليها ثقافة المستعمر التي تقدم له في قالب براق، وتعرض عليه عرضا حافلا بالبطولة والقوة ولا يتوقف الامر عند هذا، وانما يتصل بأمور أخرى ترمي الى هدم اللغة العربية نفسها بحسبانها لغة القرآن، ومصدر الثقافة جميعا، وذلك بنشر لغته الاجنبية ونشر اللهجات العامية، بهدف المباعدة بين الوحدات الاسلامية والاقطار العربية.

«ومن أجل تدعيم هذا الهدف حاول الاستعمار أن يذيع دعايات براقة أقواها الزعم بأن الجماهير لا تعرف اللغة الفصحى، فعلينا أن نقرب اليهم وسائل التعليم باللغة المحلية أو بالعامية، وهذه كلها أهداف اساسية في خطة الغزو الثقافي والتغريب ترمي الى ايقاف اللغة العربية وتجميدها والى القضاء على مقومات الفكر الاسلامي»[4].

ان دراسة تاريخ ليبيا الحديث تبين أن بلادنا كانت مسرحا كبيرا «ناشطا» لهذا الضرب من الغزو الفكري، وهو الغزو التبشيري الذي كان يهدف الى القضاء على الثقافة العربية الاسلامية ابتداء من القرن التاسع عشر فقد تدفق علينا العديد من الرهبان والقساوسة وفتحوا المدارس لتعليم الأطفال تعاليم المسيحية، ولغة الأمم الأوربية ونشطت حركة الاستشراق في كتاباتها، وكل ذلك كان مدفوعا من ايطاليا، وفي محاولة غزوها الثقافي الممهد للاحتلال العسكري، قامت كذلك بفتح العديد من المدارس العلمانية زرعتها في مختلف المناطق والتي تشهد أكثر كثافة سكانية زودت هذه المدارس بكافة الامكانيات التربوية المتوفرة في تلك الفترة، كما تنوعت كتابات المستشرقين في مختلف المجالات وكانت تتجه الى خلق الانفصام بين المواطن وثقافته العربية الاسلامية، أو الى ايجاد الحزازات العنصرية والقبلية والاصطراع بين أبناء الأمة الواحدة بهدف اضعاف جميع اطرافها المتنازعة وبالتالي الى ضعف البلاد ككل وتمهيد وقوعها فريسة سهلة للغزو والاستعمار.

# المبحث الأول :

## المدارس الايطالية :

قبل الغزو العسكري لليبيا أنشأت الحكومة الايطالية عددا وفيرا من المدارس التي اتجهت الى تنشئة المواطنين على الثقافة الايطالية وسلخهم عن ثقافتهم الوطنية، وفي الوقت نفسه ربط الجالية الايطالية المهاجرة الى ليبيا بثقافة الوطن الأم، الى جانب الدور الرئيسي والبارز المتمثل في غرس الثقافة الايطالية لدى السكان الوطنيين وتعميق الدور الحضاري القديم لروما التي تعتبر ليبيا الامتداد الطبيعي لها.

وكانت هذه المدارس تسعى الى تشويه الخصائص القومية وطمس المعالم الحضارية الاسلامية، اعتقادا بأنه من الممكن تكوين نشء يشب على التعلق بحب ايطاليا وبثقافتها عن طريق السيطرة على عقول الأطفال وتهيئة المحيطين بهم لقبول الوجود الاستعماري كضرورة حضارية، كما كانت الحكومات الايطالية المتتابعة تتطلع الى امكانية استخدام خريجي المدارس للعمل ككتبة في الوظائف البسيطة الدنيا لتسهيل عمل الغزاة في الادارة الايطالية في البلاد.

وتولت ايطاليا اعداد مناهج خاصة عنيت فقط بنشر نوع خاص من الثقافة يتلاءم وأهدافها، فكانت تزرع من الأفكار والمبادىء في نفوس الأطفال والشبان ما يقربهم من

ايطاليا ويهون عليهم الانتقال فيما بعد من السلطة العثمانية الى السلطة الايطالية ويرغبهم فيها[5].

وكانت هذه المدارس تسير في تقدم ملحوظ لما توفر لها من امكانيات مادية وعلمية ربما فاقت الامكانيات المتوفرة حتى في المدارس الايطالية داخل ايطاليا نفسها، وكانت الحكومة تحرم بعض المدارس في ايطاليا من المساعدات المادية لتقديم المساعدة لمدارسها في ليبيا، ليس تعاطفا مع أطفال ليبيا ولكن تحقيقا لمخططاتها الشريرة الى جانب اعداد العناصر المؤهلة تأهيلا عاليا للتدريس في هذه المدارس، ولدى المدرسة الصناعية وحدها سبعة مدرسين بدرجة دكتوراه الى جانب 41 مدرسا، وبلغ ما تصرفه الحكومة الايطالية على هذه المعاهد سنويا 46 ألف ليرة ايطالية يذهب منها 17 ألف ليرة الى المدرسة الصناعية وحدها[6].

وحاولت السلطات العثمانية وساسة استانبول الحد من نشاط هذه المدارس بفتح العديد من المدارس التركية العربية في الولاية، ولكن قلة الامكانيات والاهمال جعل الكفة ترجح لصالح ايطاليا التي تتمتع مدارسها في ليبيا بامكانيات ضخمة.

ويكفي أن نقرأ هذا التعليق الذي كتبه الطاهر الزاوي لندرك اتساع الهوة بين منهجي الدولة العثمانية والدولة الايطالية في تربية العقول وتوجيه الناشئة فهو يقول:

«وأنشأت الحكومة الايطالية مدارس في طرابلس فكانت تقبل التلاميذ بالمجان وكانت المدارس التركية تطرد بعض التلاميذ اما لقلة الأمكنة أو لعجزهم عن دفع المصاريف، فكانت المدارس الايطالية تتلقاهم بالترحيب»[7].

وقد لمست السلطات المسؤولة مدى تقصيرها الفاجع في سياستها التعليمية وتقدم المدارس الايطالية عليها في هذا المضمار، وقد صرّح نجدي بي بكثير من الأسى وهو ينظر الى الحال التعليمية المتناقضة. فالدولة العثمانية التي تجبى ضرائب البلاد منذ مئات السنين عاجزة عن تمويل المدارس، بينما تسخو السلطات الايطالية الاستعمارية في فتح المدارس ادراكا منها لقيمتها المستقبلية يقول نجدي بي:

«أما الايطاليون فقد أسسوا لأبناء جاليتهم مدارس لتعليمهم وربحوا معهم عشرين ألف يهودي، بينما يعيش مليون ونصف من شعبنا محروما من المعرفة، ولدينا ثلاث مدارس مقفلة بسبب اهمالنا لها ماديا وعدم تزويدها بمدرسين»[8].

ويؤيد هذه الاقوال الرحالة والصحفيون الايطاليون الذين قاموا بعدة زيارات الى ليبيا، وقد تحدث توميائي عن النشاط السياسي لايطاليا في كتابه الذي ألفه حول طرابلس أثناء زيارته لها في عهد الوالي رجب باشا، وتتضمن كلماته كما سنرى رؤية واضحة الى المهمة التي يجب أن تنهض بها المدارس الايطالية التي يبين الكاتب تأثره من أنها قد تكون ذات جدوى بالنسبة للسلطات الاستعمارية فيه لايطاليا بينما يفضل أن تنحصر مهمتها في تقدم النفع للايطاليين دون سواهم... فهو يقول:

«ان النشاط السياسي الايطالي قد تركز في المدارس وفي المستوصف الجراحي، وهي أعمال جيدة ولكنها تترك السبيل لاطماع الدول الأخرى التي تهتم بالأشياء الجوهرية في الوقت الذي يقوم فيه الايطاليون بتعليم اللغة الايطالية لأبناء الجالية

اليهودية، وتمرينهم على نفقة ايطاليا على الأعمال التجارية التي سيقومون بها لصالح لندن وباريس. إن فرنسا لا تضيع وقتها في مثل هذه المشاغل ولكنها تزحف كل عام على الحدود، وتحتل بعض الكيلومترات من الحدود الغربية تحت سمع وبصر الاتراك الذين لا يحركون ساكنا»[9].

ويقدم جوستنانيو روسي الذي قام بزيارة لطرابلس 1901–1902 احصائية طريفة تستوقف القارىء بالارقام الكبيرة نسبيا لاعداد المدرسين والتلاميذ في تلك الفترة المبكرة من تاريخنا الثقافي فيقول:

«تأتي ايطاليا في المرتبة الأولى من حيث عدد المدارس التي تديرها وتمولها، وهي مدرسة فنية تجارية عالية ومدرستان ابتدائيتان واحدة للبنين وأخرى للبنات، وروضة أطفال، ويبلغ عدد المدرسين والمدرسات بهذه المعاهد والمدارس حوالي 30 مدرسا ومدرسة، وبها ما يقرب من خمسمائة تلميذ من مختلف الجنسيات وأغلبهم من الايطاليين والمالطيين واليهود، وبعض المسلمين، بالنظر للمعارضة في الانتماء الى هذه المدارس».

ويشير أيضا في كتابه الى المزاحمة الفرنسية في هذا المجال رغم عدم وجود جالية لها، وقيامها بانشاء مدرستين ابتدائيتين واحدة للبنات وأخرى للبنين وللجالية اليهودية أيضا مدارسها[10] (*).

والملاحظ أن النشاط التعليمي في ايطاليا لم يقترن ببداية طموحها الاستعماري في الفترة التي وضعت فيه برنامجا للتغلغل السلمي ولكن بداية اهتمام ايطاليا في نشر ثقافتها في البلاد العربية وليبيا بصفة خاصة يتوغل الى بداية القرن التاسع عشر، ويؤرخ لهذا النشاط، (اندريا فيستا Andria FESTA) في كتابه (المدارس الايطالية المشروع الاخلاقي لليبيا) بقوله:

«لا توجد أخبار دقيقة تحدد مولد حياة المدرسة الايطالية في طرابلس الغرب ولعلّ المعلومات الوحيدة التي تشير الى الأنشطة التربوية الأولى في المستعمرة الافريقية، قد استخرجت من محفوظات الارسالية الفرنسسكانية في ليبيا التي يعود اليها الفضل لاعتنائها منذ عام 1800 بتعليم الأطفال المسيحيين وبعض الوطنيين (أبناء البلد).

أن أول مدرسة علمانية خاصة انشئت بطرابلس في عام 1876م عندما شعر بعض أرباب العائلات اليهودية والايطالية وأجانب آخرون، بالحاجة الى تأمين التعليم لأطفالهم وعلى الأقل المبادىء الأولية وبالفعل اهتم بهذا الموضوع مواطنون ايطاليون من مدينة ليفورنو فأوفدوا مدرسا الى طرابلس لتأسيس مدرسة، وفي عام 1876 حل بطرابلس (جيانيتو باجي Gianetto PAGGI) الذي يعتبر أول مدرس ايطالي يصل طرابلس ويتمكن من فتح مدرسة للبنين في وسط حي قديم

---

(*) يلاحظ أن المدارس الفرنسية واليهودية، تدرس اللغة الايطالية كمادة اساسية ضمن مناهجها ــ انظر المدرسة الاسرائيلية ــ الباب الأول. فصل التعليم. ص 35.

بالمدينة تسكنه على الأرجح الجالية اليهودية والمالطية، وازداد الشعور بضرورة انشاء مدرسة للبنات وأسندت مهمة تنفيذ ذلك الى (الاخوات ماروللي Sorelle MARULLI) في العام 1878».

والظاهر ان ماكانت الجاليات تقوم به من نشاط كان يرتبط أو ينتهي الى الارتباط الوثيق مع وزارة الخارجية (التي لعبت فيما بعد دورا هاما في السياسة الاستعمارية الايطالية) وهذا ما يشير اليه مصير المدارس «الاهلية» الايطالية. يقول المؤلف»:

«وبمرور خمس سنوات انتقلت تبعية المدرستين الى وزارة الشؤون الخارجية، وفي عهد احتلالنا الى وزارة المستعمرات وأقيمت أول دورة لاعداد مدرسي المستعمرات في العام 1920م».

وفي عام 1887 وتحت الحاح السكان تم افتتاح المدرسة الفنية التجارية وفي بداية السنة الدراسية 1888–1889 أنشئت أول روضة أطفال هي (روضة الأميرة يولندا Principessa IOLANDA)[11].

وهكذا وباشراف وزارة الخارجية الايطالية تكون المدارس المذكورة قد ارتبطت بالنشاط التخطيطي للاستعمار، والثابت أن القنصلية الايطالية بدأت تبذل مساعيها بعد ذلك لزيادة النشاط التنظيمي في طرابلس وافتتاح المزيد من المدارس. فبعد انشاء المدرسة التجارية وروضة الأطفال، حاول القنصل الايطالي انشاء مدرسة أخرى تشير اليها احدى وثائق ارشيف المحفوظات التاريخية بطرابلس، والتي تتضمن رد الوالي على استفسار الديوان الملكي حول المدرسة التي يزمع القنصل الايطالي تأسيسها في مدينة طرابلس جاء فيها:

«الى وزارة الداخلية،

جاء في الامر المكتوب بالرسالة الجليلة لمقام خدويتكم الأفخم المزينة للرؤوس بالتعظيم المؤرخة في 25 يناير سنة 1884 مفاده بأن المذكرة المعطاة من الديوان الملكي المرسلة تكرما في طيه والحاوية لبعض الاستفسارات بشأن المدرسة التي ترغب دولة ايطاليا انشاءها في نفس طرابلس لتدريس اللغة الايطالية، ولدى الاطلاع على الرسالة المذكورة وجدت أن مآلها عبارة عن التحري على مشترى منزل واستئجاره هنا، واتخاذه مدرسة، اذا كانت المدرسة ستنشأ من جديد على أرض أميرية أو على عرصة مملوكة، وهل ستبني من حجارة أو من خشب، وكم ذراع يبلغ طولها وعرضها، وهل تم أي محذور حالا أو مستقبلا وموقعا من انشاء المدرسة، وهل توجد في عرصتها علاقة أو مدخل مشترك للأمم الأخرى.

يطلب تحقيق هذه الأمور بالتفصيل والافادة بمضبطة وخطاب وأيضا تنظيم تصميمها الموقعي وارساله.

إن المدرسة المذكورة لا يرد انشاؤها مجددا، ولكن قنصل ايطاليا استأجر بمائة وخمسين ليرة فرنسية سنويا بيت اليهودي باباني مشاني الايطالي التابعة أيضا لاتخاذه مدرسة، وان القسم الأعظم أجرة المدرسة ورواتب المدرسين وغيرها من

النفقات ترتب وتكلف بأدائها رعايا ايطاليا الموجودين هنا والباقي تدفعهم دولتهم.
ان غاية القنصل المذكور من هذه المدرسة هي منافسة مدرسة البعثات التي فتحها الفرنسيون هنا وحسب تفكيره تقديم خدمة معروفا للاهالي.
ولكن بما أنه في ظل حليف التوفيق الحضرة السلطانية سوف لا يكون لذلك مثقال ذرة من الاثر السيء فقد حرر الخطاب والاذن في ذلك لحضرة من له الأمر.
13 ربيع الاغر 1301، 11 فبراير 1884»[12].

ومع اطلالة القرن العشرين تشهد المدارس الايطالية تقدما ملحوظا اذ تتنوع هذه المدارس وتتعدد حتى ان بعض مناهج هذه المدارس تقدم بشكل موسع للتلاميذ يفوق ما يقدم في ايطاليا نفسها.

ويبدو أن المشاريع الاستعمارية في نشر التعليم الايطالي في البلاد أخذت أبعادا واسعة جدا تجاوزت بكثير الحجج التي كان يتذرع بها الايطاليون والمتعلقة بضرورة فتح المدارس من أجل جالياتهم في البلاد أو من أجل منافسة المدارس الفرنسية أو الادعاء بتقديم المعروف للأهالي حسبما أشارت الوثيقة السابقة (رقم 2227)... ان الهدف كان يتجه الى انشاء المدرسة في كل مكان يتميّز بالكثافة السكانية أو بوجود مدرسة وطنية وذلك من أجل مزاحمتها وتعطيل مهمتها التربوية وزرع المبادىء التربوية الايطالية في كل مكان، ولا شك أن تقصير المسؤولين في انشاء المدارس الوطنية أو في تدعيم هذه المدارس ومساعدتها على آداء مهماتها كان السبب الأول والاساسي انجاح التوسع الايطالي في حقل التعليم.

يحدثنا (فرانشيسكو كورو) عن هذا الاتساع في حقل التعليم فيقول:

«كان لايطاليا خمس مدارس حكومية، وهي تتكون من رياض الأطفال بثلاثة اقسام وفقا لمنهج فروبيل التربوي، ومدرسة ابتدائية للذكور مدتها خمس سنوات، وأخرى للإناث ومدرسة فنية تجارية مدتها أربع سنوات وتهتم بالتعليم التجاري على نحو أوسع مما يقدم في مثل هذه المدارس الفنية في ايطاليا وهناك أيضا مدرسة مسائية للكبار، وكان العنصر اليهودي بالمدينة من أكثر العناصر ترددا على هذه المدارس والاستفادة منها، وقد برز في ادارتها في الأعوام الأخيرة البروفسور (باجي PAGGI).
وثمة مدرسة ايطالية خاصة تديرها المدرسة الفرنسسكانية وقد أنشئت سنة 1902 تحت رعاية القنصلية الايطالية وضمن اختصاصها، وكانت توجد بالخمس مدرسة ايطالية ابتدائية أسست سنة 1902 وتقدم دورات أولية، كما كانت بالخمس أيضا مدرسة ابتدائية للبنات تديرها الراهبات الفرنسيسكانيات قد أسست هي أيضا في سنة 1902 وكانت في بنغازي ودرنة مدرستان ابتدائيتان أنشئتا في سنة 1902 وتديرهما الراهبات الفرنسيسكانيات.
أما فرنسا فقد كانت لها مدرسة بطرابلس مدتها ثلاث سنوات للابتدائي ودورة عالية مدتها

سنتان وكان يديرها (Freres Congrazione dei Manramist)(*).

كما كانت توجد ببنغازي مدرستان تحت رعاية فرنسا واحدة للذكور وأخرى للإناث وتدير مدرسة الذكور الارسالية الكاثوليكية، وتدير مدرسة البنات راهبات القديس يوسف، وتعلم في المدرستين اللغة الفرنسية واللغة الايطالية[13].

أما عدد الطلاب في المدارس الايطالية بين عامي 1900–1903 فكان على النحو التالي:

| مكاتب مختلفة | العام الدراسي | | |
|---|---|---|---|
| | 1901–1900 | 1902–1901 | 1903–1902 |
| ملجأ الصبيان | 178 | 264 | 258 |
| مكتب الاثاث | 322 | 302 | 310 |
| مكتب الذكور | 160 | 188 | 231 |
| مكتب كيجة | 139 | 166 | 175 |
| مكتب التجارة | 141 | 43 | 46 |
| المجموع | 940 | 963 | 1020 |

(*) ان من يدرس تاريخ التمهيد الثقافي للغزو لاستعماري الاوربي لبلادنا لابد وأن يتوقف أمام بعض الحقائق التي تؤكد على أن فرنسا كانت تبيت نوايا ربما كانت اكثر عدوانية من النوايا الايطالية نحو ليبيا، ويظهر ذلك خاصة في النشاط التبشيري التعليمي الذي قامت به فوق أرضنا تمهيدا لسياسة ليس من الصعب التكهن بنوعيتها.
فالوثيقة رقم 1114 (ملف التعليم) في ارشيف المحفوظات التاريخية تبين ان فرنسا أبدت اهتماما جادا بهذه الخطوة التمهيدية للاستعمار وهي نشر اللغة والتعليم الفرنسيين، وأول ما يستوقف النظر في هذه الوثيقة هو كثرة عدد المدارس وبالتالي عدد التلاميذ الدارسين فيها ثم تلك الصلاحيات التي كانت الجالية تتمتع بها ومنها بخاصة الاعفاء من الجمارك بالاضافة الى هيمنة رجال التبشير على المناهج التعليمية فيها وهذا ما يضفي على هذه المدارس مهمة مزدوجة وهي التربية وفق النهج الفرنسي، وادخال التلاميذ في الدين المسيحي ـ فاذا لم يكن ذلك فالدعاية له على الأقل، تقول الوثيقة:
«ترجمة رسالة استعجال بعثها قنصل فرنسا في طرابلس للوالي» «أخبرني السفير الفرنسي الذي بدار السعادة، أنه بناء على اتفاقية الصداقة المعقودة بين دولة الجمهورية وبين الدولة العثمانية، فقد صودق مجددا على الوجود القانوني لمدارسنا الكائنة حاليا في طرابلس وأنها بموجب العهود المرعية الاجراء لا يزال اعفاؤها من الجمرك باقيا كما تمدد الاعتراف بالمباني الدينية ودور الضيافة وأن هذه المؤسسات يستمر اعفاؤها سواء من الضريبة وسواء من الجمرك والرسوم القانونية ونذكر فيما يلي الانشاءات والتوسيعات والترميمات المصرح بها:
ـ سكن وكنيسة الرهبان الفرنسيسكان بطرابلس.
ـ سكن وكنيسة الرهبان الفرنسيسكان بالخمس.
ـ سكن وكنيسة الرهبان الفرنسيسكان بدرنة.
ـ مدرسة راهبات سان جوزيف بطرابلس.
ـ مدرسة اخوان الماريانيست بطرابلس.
وعليه فاننا نفخر بأن نرجوكم اصدار الامر القطعي من طرف دولتكم الى متصرفية الخمس بأن لا تمانع في انشاء مسكن للقساوسة والكنيسة التي تفكر البعثة التي تحت حماية فرنسا في بنائها بالخمس وأرجو أن تفيدنا في الخطاب الذي تبعثوه باستلام هذه الرسالة من طرف دولتكم، عما اذا كنتم اعطيتم للمتصرفية المذكورة الأمر الذي عرفتكم أعلاه، واذا كان مقام دولتكم لم تتلقوا بعد تعليمات من الباب العالي في هذا الصدد، ارجوا أن تبلغوا الباب العالي مذكرتي الرسمية هذه لأن هذه المسألة بقيت منذ خمسة أعوام معلقة، واكرر فاعرض بأن من الالزم تسوية هذه المسألة بالسرعة الممكنة وبالصورة التي بينتها أعلاه مع التأكيد لاحتراماتي الفائقة
28 نوفمبر 1901 ـ قنصل عام فرنسا، لاكو».

ويلاحظ من الاحصائية ارتفاع عدد الطالبات لأن الموظفين الاتراك وكبار الموظفين العرب حرصوا على تلقين بناتهم ثقافة أجنبية[14].

وفي العام الدراسي 1910 ارتفع عدد الطلبة الذين يدرسون في المدارس الايطالية الى 1770 طالبا وطالبة، واصبح عدد المدارس عشرا كما جاء في بيان وزير الخارجية الايطالية دي سان جوليانو الذي القاه في البرلمان عن نشاط ايطاليا الثقافي الذي قال فيه:

«ان لايطاليا هناك عشر مدارس يدرس فيها 1770 طالبا»[15].

وقبل الغزو بقليل تضاعف هذا العدد في الوقت الذي تضاءل فيه عدد التلاميذ في المدارس العثمانية، فقد كان العدد الاجمالي في سنة 1911 للتلاميذ الذين يترددون على المدارس الايطالية في طرابلس والخمس وبنغازي ودرنة بلغ ثلاثة الاف تلميذ، في الوقت الذي بلغ فيه العدد الاجمالي لتلاميذ المدارس في هذه المدن اربعة الاف[16] (*).

وورد في نشرة الجمعية الأفريقية الفرنسية احصائية بعدد المدارس وعدد التلاميذ الملتحقين بها وجاء في الاحصائية:

ان عدد المدارس في طرابلس ثمان، وثلاث في الخمس، وخمس في بنغازي، واثنتان في درنة، وهي موزعة على النحو التالي:

| | اسم المدرسة | عدد التلاميذ |
|---|---|---|
| | (1) طرابلس: | |
| 1 ـ | المدرسة الفنية التجارية مع متحف تجاري ومرصد جوي | 70 |
| 2 ـ | مدرسة ابتدائية للبنين | 353 |
| 3 ـ | مدرسة ابتدائية للبنات مع دورة مهنية | 348 |
| 4 ـ | روضة أطفال | 251 |
| 5 ـ | مدرسة مسائية للبالغين | 246 |
| 6 ـ | مدرسة اليتامى (الجمعية الوطنية الايطالية | 22 |
| 7 ـ | مدرسة ابتدائية للبنين للارسالية الكاثوليكية الفرنسيسكان | 166 |
| 8 ـ | مدرسة ابتدائية تابعة لأخوات القديس يوسف | 353 |
| | المجموع | 1809 |

(*) ويعزز هذا القول ـ جون رايت فيقول: «وفي سنة 1911 أصبح هناك حوالي 3 آلاف تلميذ ليبي وايطالي في المدارس الايطالية بطرابلس والخمس ودرنة وبنغازي، أما في الارياف فلم يوجد الا القليل النادر من التلاميذ الذين يتلقون التعليم النظامي.

| عدد التلاميذ | اسم المدرسة |
|---|---|
| | (2) بنغازي: |
| 140 | 1 ـ مدرسة ابتدائية للبنين |
| 99 | 2 ـ مدرسة ابتدائية للبنات |
| 140 | 3 ـ مدرسة الارسالية الكاثوليكية الفرنسيسكان |
| 76 | 4 ـ مدرسة مسائية |
| 131 | 5 ـ مدرسة القديس يوسف |
| 586 | المجموع |
| | (3) الخمس: |
| 100 | 1 ـ مدرسة ابتدائية للبنين مع متحف تجاري |
| 88 | 2 ـ مدرسة مسائية |
| 75 | 3 ـ مدرسة للبنات (الجمعية الوطنية الايطالية) |
| 283 | المجموع |
| | (4) درنة: |
| 65 | 1 ـ مدرسة الفرنسيسكانيين للأولاد |
| 200 | 2 ـ مدرسة الفرنسيسكانيات للبنات |
| 265 | المجموع |
| 2943[17] تلميذا وتلميذة(*) | المجموع الاجمالي |

(*) بلغ مجموع التلاميذ باستثناء رياض الاطفال باعتبارها لكلا الجنسين والمدارس المسائية للبالغين 1034 تلميذا، وفي الحين بلغ عدد التلميذات 1206 تلميذات، وهذا يدل على مدى اهتمام الاستعمار الايطالي بالتركيز في خطته المستقبلية على استقطاب الإناث أكثر من الذكور نظرا للدور الذي تلعبه المرأة في تغيير عقلية المجتمع، وهذا الاسلوب اعتمده رجال التبشير في محاولتهم لتغيير المرأة ـ كما سنعرف بعد قليل.

ويمكن أن نستقرىء من الاحصائية أن مجموع التلاميذ والتلميذات البالغ عددهم 2943 تلميذا ستكون نسبة التلاميذ الايطاليين ضئيلة اذا عرفنا أن تعداد الايطاليين في العام 1911 في كامل ليبيا لم يتجاوز 818 كما تشير احصائية فرانشيسكوكورو، ويتجاوز الرقم في بعض الاحصائيات 1100، واذا اعتبرنا أن نسبة الأطفال في هذا المجموع 50٪ حسب مستوى عدد أفراد الأسرة الأوربية فان عدد التلاميذ الايطاليين سيكون 414 تلميذا وتلميذة من المجموع العام للتلاميذ.

وبالمقارنة أيضا مع عدد التلاميذ في المدارس الوطنية سنة 1911 اذ تشير الاحصائيات الى أن عدد التلاميذ الذين يترددون على المدارس الوطنية في طرابلس 950 تلميذا فقط في الوقت الذي كان يتردد فيه على المدارس الايطالية 1809 تلاميذ، وهذا يؤكد مدى انحسار المدارس الوطنية امام زحف المدارس الايطالية الذي عبرت عنه الصحف الوطنية في ذلك الوقت (راجع الباب الاول ـ الفصل الاول) وأن النهضة التعليمية التي كانت تدعيها حكومة الولاية لم تكن سوى خطة مرسومة على الورق ولم تنفذ على أرض الواقع.

هذه المدارس العلمانية التي تدعمها الحكومة الايطالية كان يتردد عليها الاطفال الليبيون بما فيهم اليهود والعرب، وكذلك الايطاليون والمالطيون والاتراك و إلى جانب هذه المدرسة وضعت مكتبة ايطالية تحت تصرف الجمهور تسمح بالاعارة الخارجية، وتشرف على هذه المكتبة «الجمعية الكبرى للدعاية الايطالية «Acette societe de Propaganda culturale Dante Alighiri. التي كانت تقدم إلى بعض التلاميذ المحتاجين الذي يترددون على المدارس الايطالية الرعاية المدرسية تحت اشراف (الرعاية المدرسية للأميرة مايفلدا سافوي Patronat scolatica principessa Mafalda DI SAVOIA.[18]

من هذا كله يتبين أن ملامح الخطة التعليمية التي نهجتها ايطاليا في بلادنا في الفترة السابقة للغزو، تمثلت في اعداد غير قليلة من المدارس انتشرت في شرق البلاد وغربها، ولم تقتصر على منطقة دون غيرها، وقد تنوعت هذه المدارس فكان منها: «الرياض» والمدارس الابتدائية والمتخصصة ببعض الحرف (كالمدرسة الفنية التجارية)، وتدل كثرة عدد المدارس على أن اعداد المتعلمين فيها كانت كبيرة وقد ساعد على انتشارها ذلك الحماس الكبير الذي كانت تبديه الأوساط الاستعمارية نحوها والذي دفعها إلى السخاء في تمويل هذه المدارس في وقت كانت المدارس الايطالية في ايطاليا تفتقر إلى المساعدة، يضاف إلى هذا أن السلطات العثمانية المسؤولة في بلادنا كانت مقصرة تقصيرا واضحا في انشاء المدارس الوطنية وتمويلها. ومما يشار اليه ايضا أن المتعلمين في هذه المدارس كانوا بالاضافة إلى التلاميذ العرب يمثلون أبناء الايطاليين والمالطيين واليهود الذين كانوا يعيشون في بلادنا آنذاك، كما أن مما يشار اليه كثرة اعداد المبشرين ورجال الدين المسيحيين بين المدرسين وهو ما يسمح بالقول بأن هؤلاء المدرسين كانوا يقومون بمهمة مزدوجة هي التنظيم الموجّه للاشادة بامجاد الحضارة الاوربية وتهيئة العقول والأذهان من أجل قبولها ثم التبشير بالدين المسيحي أو الدعاية له، كما أن الباحث لا يستطيع - في دراسته للغزو الثقافي عن طريق التعليم - أن يهمل دور المؤسسات الاستعمارية - التبشيرية أيضا في نشر التعليم الفرنسي الموجه في بلادنا وهو ما يظهر النوايا الاستعمارية للاوساط الفرنسية نحو بلادنا في تلك الفترة.

**هوامش**

1 - جيمس ويللارد، الصحراء الكبرى، مرجع سابق ص 404.

2 - أنور الجندي، الموسوعة الاسلامية العربية (4) الاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي، دار الكتاب اللبناني، - دار الكتاب المصري، ط 1 1979 ص 415-416.

3 - د. مصطفى خالد، د. عمر فروخ - مرجع سابق ص 78-79 عن:

Christian Workers, pp. 22, 23, 58.

Re - Thinking Missions p. 274.

Addirson p. 123.

4 - انور الجندي، مرجع سابق، ص 334.

5 - مفتاح السيد الشريف، (الاستعمار الايطالي لليبيا) دار النشر الليبية، طرابلس، 1974، ص 36.

6 - منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق، ص 43.

7 ـ الطاهر الزاوي، جهاد الابطال، مرجع سابق ص 38.

8 ـ منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق ص 42.

9 ـ D. TUMIATI op. cit.

انظر كذلك، خليفة التليسي، حكاية مدينة، مرجع سابق ص 220.

10 ـ انظر كذلك: المرجع السابق، ص 200 وكذلك G. ROSSI op. cit.

11 ـ Andria FESTA (La scuola Italiana) l'Opera di conquista morale della Libia - Editore MAGGI, Tripoli e Edizione - pp. 5-6.

12 ـ أرشيف المخطوطات التاريخية، وثيقة رقم 2227 (ملف التعليم) تر. عبد السلام ادهم. نشرت أيضا في كتاب أحمد صدقي الدجاني، عبد السلام أدهم «وثائق تاريخ ليبيا الحديث».

13 ـ فرانشيسكو كورو، مرجع سابق، ص 121.

14 ـ أحمد صدقي الدجاني، مرجع سابق، ص 274.

15 ـ المرجع السابق، ص 272.

16 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 512.

17 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 512. - p. 366. In bulletin du Comité de «l'Africain Francais in 1911.

18 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit p. 512.

# المبحث الثاني:

## الارساليات التبشيرية

**التبشير.**

كانت الارساليات التبشيرية هي مقدمات الاستعمار وطلائعه الممهدة له، فحيث مد النفوذ الاجنبي نفوذه في العالم الاسلامي كانت هذه البعثات هي القوى والطلائع المتقدمة، فمنذ أوائل القرن التاسع تقريبا بدأت عملية الغزو التبشيري في بطء وأناة مترابطة بخطوط أخرى كأجهزة عاملة لتحقيق السيطرة الاستعمارية.

لقد زحف التبشير إلى افريقيا والوطن العربي والعالم الاسلامي لرسم المناهج التعليمية والثقافية والصحفية لاعداد السكان الوطنيين على نحو يزرع في أعماقهم روح الطاعة والاستسلام والمذلة، وتربية روح الخضوع مع الاعجاب والعرفان والتقدير للرجل الأبيض صاحب الفضل في «تمدين» البلاد، والمنقذ الذي ادخره القدر، وقدكان نظام الارساليات من العوامل الفعالة في تنفيذ هذا المخطط، ويبلغ عدد الارساليات الأوربية والامريكية في افريقيا وحدها رقما يزيد على العشر آلاف ارسالية[1].

بينما قامت هذه الارساليات بفتح مئات المدارس والمستشفيات، فالبعثات البروتستانية وحدها فتحت 527 مدرسة في الولايات العثمانية في الوطن العربي وسجلت في احدى السنوات 32 الف شاب[2].

أما بالنسبة لافريقيا فقد تدفق هذا الزحف بشكل مكثف. واتخذ سنة 1867 صورة مكثفة جدا على يدي المبشر المهووس لافيجري[*] الذي انطلق من صحراء الجزائر ليتوغل في الصحراء[3]. وقبل هذا العام شهدت بيروت تأسيس أول مدرسة تبشيرية في العام 1830م[4].

أما طرابلس الغرب فقد شهدت ميلاد أول مدرسة مسيحية وان كانت لم تصل في مظهرها أو منهجها إلى الحدود التي اتخذتها المدارس التبشيرية كما كانت الحال في المشرق مثلا وفي مدارس بيروت بشكل خاص. ومهما يكن فان ذلك النشاط منذ بدأ في ليبيا قبل نشاطات لافيجري في الصحراء بأكثر من نصف قرن. اذ يعود إلى الجهود التي بذلتها الارسالية الفرنسيسكانية منذ سنة 1800م. ونستدل على ذلك بما جاء في تقرير النائب الرسولي

---

(*) يورد جيمس ويللارد، مقتطفات عن حياة هذا المبشر تثير القارىء بغرابتها وتطرفها وتضعه في جملة المهووسين حتى ليصعب القول أكان نشاطه حماسا دينيا أم ضربا من الجنون، ومهما يكن فان البعثات التبشيرية تضع هذا القديس في صورة المثل الاعلى الذي لايزال يحتذى. (انظر ص 17، اسلوب لافيجري في التبشير).

لطرابلس الغرب (ب. كوستانزو برغنا P. Costanza BERGNA) الذي يؤرخ فيه لبدء التبشير المسيحي في طرابلس اذ يقول:

«عند نهاية القرن الثامن عشر هزت الاحداث السياسية الامم المسيحية في اوربا بعمق، وأيقظتها من الاسترخاء والكسل الطويل الذي سمح لنظام الوصايات(*) الاجنبية الهمجية بالتحكم في البحر المتوسط لالحاق الضرر بالكثير من الانفس التعيسة، والعار لحضارتنا... تضاءلت القرصنة (**) عندما رفضت الدول الاوربية الصغيرة التي تساندها الأمم القوية الخضوع للضرائب والأتاوات التي كانت تفرضها الدولة البربرية (الهمجية) المتحكمة في حوض البحر المتوسط بأساطيلها التي مكنتها من فرض هيبتها في المتوسط من أجل التجارة.

وفي عام 1816 وجهت انجلترا ضربة قاصمة لدول الشمال الافريقي عندما منعت تجارة الرقيق، وبعدها بثلاث سنوات القت السفن الانجليزية والفرنسية بمراسيها في مياه طرابلس وأصرتا على وجوب مراعاة ما تم اقراره في مجمع القوى الاوربية في (اكس لاشابيل Aix LACHAPIELLE) وفي العام 1830 لم تعد هناك قرصنة في مياه المتوسط».

ويؤكد هنا أن الدافع لتواجد السفن الانجليزية والفرنسية على شاطيء طرابلس كان لاسباب سياسية ولمحق العار الذي لحق بالحضارة الاوربية فأحداث القرصنة وفرض الضرائب أيقظت الامم الاوربية من غفوتها، ويحاول فيما بعد أن يثبت أن الدافع للوجود المسيحي في الشمال الافريقي كان لاسباب انسانية أوجبت على الكنيسة أن تتواجد في طرابلس، من ذلك تجارة الرقيق وكذلك النتائج التي ترتبت عن القرصنة البحرية والتي تركت الكثير من الاسرى المسيحيين في شمال افريقيا، الذين استقروا بعائلاتهم الامر الذي يستدعي تعليم وتربية أطفالهم، فيقول:

«ان الغاء الرقيق(***) يهم انسانيا وبصفة خاصة العنصر المسيحي الاوربي، بينما يدمر اقتصاديا الدول الافريقية، وفي الوقت نفسه ينقذ الكثير من البؤساء الذين

(*) يقصد بنظام الوصايا، الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به ليبيا وتونس والجزائر عند انفصالها عن جسم الدولة العثمانية.

(**) يقصد بالقرصنة: الحروب البحرية التي اتصلت فترة طويلة بين الشمال الافريقي ودول اوربا (البحرية منها بوجه خاص) والتي كان يتعرض الطرفان فيها للنصر والهزيمة ويطبق كل منهما نفس القوانين على الاسرى.. الا أن الكثير من الادبيات الاوربية يلصق اسم «القرصنة» بطرف واحد من طرفي هذه الحرب. وهذا ما يردده الكثير من الادبيات العربية حتى الآن.

(***) لم يعرف التاريخ الانساني بطوله تجارة بالرقيق كالتي عرفها خلال قرون عديدة منذ الزحف الاستعماري الاوربي وكشوفات العالم الجديد، وقد ظل «اصطياد» الافارقة واستعبادهم والاتجار بهم وشحنهم إلى مختلف المناطق المستعمرة التي أبيد معظم سكانها ـ ناشطا لفترة طويلة من الزمن كانت الطاقة العضلية الانسانية أهم طاقة معروفة. حتى اذا اكتشف البخار وبدأت تباشير الانقلاب الصناعي، واستيقظ الاستعمار على هذه الظاهرة اللاإنسانية وألصقها بالأمم الأخرى، بل وصار «يناضل» من اجل الغائه.

والشيء الذي لابد من الاشارة اليه هو الموافقة التامة التي كان الاستعمار يلقاها من الكنيسة خلال عمليات الاسترقاق الطويلة للانسان.

يدخلون الحياة المتحضرة بفتح عدة منافذ على الشواطىء الافريقية عن طريق التجارة، وتعمير تلك الدول التي تقع على الشواطىء الافريقية الشمالية بعنصر قادم من شواطئنا بايطاليا.
وفي تلك الاونة كان بطرابلس مجموعة (نواة) صغيرة من المسيحيين انصرفوا للصيد البحري والتنقل بين افريقيا وشواطئنا، وأخذت هذه الحركة تشتد في الفترة الاولى لعام 1800م. ووطد هؤلاء تحت حماية علمهم الوطني اقامتهم وسكناهم في الدولة الافريقية الشمالية مع عائلاتهم، وهذا الاستقرار أضاف إلى الحركة الارسالية غاية أخرى وهي تعليم وتربية الجيل الجديد.
واذا كان عهد القرصنة والرق قد خلّف أسرى ايطاليين من صقلية وكلابريا بالاضافة إلى نسبة مئوية من المالطيين الذين يتحدثون لغتنا بالاضافة إلى الجزء الاكبر من المسيحيين الذين كان يأتون في بداية القرن الماضي من جزر شواطىء ايطاليا الأكثر قربا من طرابلس الغرب، فقد أوجب افتتاح أول مدرسة ببرنامج مقلص إلى حد بعيد، ولكنه كان كافيا لتغذية الثقافة المطلوبة، وتم ذلك بالفعل في عام 1810 في مقر الارسالية القديمة وهذه المدرسة تضم القليل من الاطفال يقوم بتعليمهم أحد أفراد الارسالية وكانت مادة التعليم الرئيسية هي اللغة الايطالية بالاضافة إلى المبادىء الاولية للحساب أما بقية البرنامج فيقتصر على التعليم الديني»[5].

وما أن توطدت أقدام الارساليات الايطالية في ليبيا وانطلقت من المدرسة الصغيرة التي أسستها لتعليم أبناء الجاليات المسيحية شيئا من الثقافة حتى بدأت تنظر جديا إلى كيفية تنفيذ رسالتها الاساسية التي تتمثل في استقطاب أكبر عدد ممكن من الاطفال لتنشئتهم على حب ايطاليا وتعليمهم اللغة الايطالية وتنفيرهم من الثقافة القومية وقطعهم عنها.

اعتمدت هذه الارساليات عن الاسلوب الذي يؤثر المبشرون تطبيقه في كل مكان، وهو التغلغل بين الاوساط الاجتماعية عن طريق المدارس فكان لابد من ايجاد المدارس حتى يستطيع المبشر أن يتصل بالناس ويدعوهم إلى مذهبه الديني. وقد أصاب اليسوعيون في قولهم (ان المبشر الاول هو المدرسة)[6].

لذلك عملت الارساليات التبشيرية على انشاء العديد من المدارس التبشيرية ويقول النائب الرسولي لطرابلس الغرب (ب. كوستانزو برغنا P. Costanza BER) في تقريره:
«في اكتوبر عام 1846 تم استدعاء (راهبات الراعي الصالح Soure Buon. PASTORE) إلى طرابلس، وتم انشاء مدرسة صغيرة قوامها 60 تلميذة، ويتم تدريسهن باللغة الايطالية الأكثر شيوعا واستعمالا في طرابلس من قبل الاكثرية، ويضاف اليها مدرسة للتدبير المنزلي وكانت مدعمة من الارسالية الفرنسيسكانية، وبعد عشر سنوات تم بروز العمل المدرسي واستمراريته من قبل (اخوات القديس يوسف Suore di S. GIUSEPPE)[7].

وفي عام 1884 عندما بدأت ايطاليا تتجه بأنظارها فعليا لاحتلال ليبيا، وطرحت مشروعها الثقافي للتغلغل سلميا، كثفت (الجمعية الوطنية للمبشرين الايطاليين في الخارج) من اهتمامها بليبيا في مجال التعليم التبشيري، وقد ذكر ذلك النائب الرسولي في تقريره قائلا:

«وبينما الجمعية الوطنية للمبشرين في الخارج تهتم منذ عام 1848 بأكبر قدر ممكن من التوسع لارساليتنا فانها تمهد الارض أيضا من أجل نشاط أوسع في مجال التعليم والتربية لصالح الابناء الايطاليين المقيمين في طرابلس وفي الاقليم»[8].

## التوجّه التبشيري في «التربية»:

نهج المبشرون منهج التظاهر بالاحسان وأعمال البر وصارت الارساليات التبشيرية تبدي اهتماما بالغا بالتعليم المجاني، فأقامت المدارس المجانية الصغيرة: متظاهرة بالاهتمام بتعليم الفقراء في الوقت الذي كان اهتمامها منصبا على تسريب الدعاوى التبشيرية عن هذا الطريق.

وقد حاولت الارساليات التبشيرية التركيز على فئات معينة من المجتمع فبدأت بالاطفال الاكثر تأثرا وتقبلا للعملية التربوية، وفضلت من الاطفال الاناث فكان الاهتمام ينصب على المرأة باعتبارها أساس الحياة الاجتماعية والوصول بالتبشير اليها الوصول إلى الاسرة كلها، ومن اجل ذلك عملت راهبات (الراعي الصالح Sou Buon. PASTORE) في التفرغ لافتداء البنات الفزانيات اللائي وقعن في الرق، وقد تمكّن من تعليم حوالي 60 تلميذة منهن ــ كما جاء في تقرير (ب. كوستانزو برغنا P. Costanza BERGNA).

لقد اقتنع المبشرون بالاثر الذي تحدثه الام في اطفالها حتى السنة العاشرة من العمر البالغ الاهمية، وبما أن النساء يمثلن العنصر المحافظ في الدفاع عن العقيدة، فلقد اعتمد التبشير هذا البرنامج الطويل المدى الذي يبدأ أولا بالبنات، فوضع لهن البرامج المفصلة، وأكثر من ارسال المبشرات لهذه الغاية ويبدو موضوع المرأة التبشيري مهما للغاية حتى أن المؤتمر الذي عقد في القاهرة عام 1906 قد تمخض في مجموع ما تمخض عنه، عن هذا النداء الذي وضعته الأعضاء المبشرات في ذلك المؤتمر. «لا سبيل الا بجلب النساء المسلمات إلى المسيح ان عدد النساء المسلمات عظيم جدا لا يقل عن مائة مليون فكل نشاط مجد للوصول يجب أن يكون أوسع مما بذل إلى الآن نحن لا نقترح ايجاد منظمات جديدة، ولكن نطالب من كل هيئة تبشيرية أن يحمل فرعها النسائي على العمل واضعة نصب عينيها هدفا جديدا هو الوصول إلى نساء العالم المسلمات كلهن في هذا الجيل»[9]، وقد قدم من مصر بعد هذا المؤتمر بعض الراهبات الفرانسيسكيات لتسيير وافتتاح بعض المرافق الاجتماعية كما سنعرف بعد قليل.

واشتد التركيز أيضا على أبناء الأعيان لمحاولة استمالة الشخصيات ذات الوجاهة الاجتماعية عن طريق الاتصال بها بحجة الاهتمام بأطفال تلك الفئة حتى تضمن الارساليات بعد ذلك وجودها وتحقيق مصالحها، وقد ذكر (بيرغنا) بشيء من الابتهاج أن السجلات المدرسية تؤكد على ارتياد أبناء الأعيان لمراكز التبشير فقال:

«وتشير السجلات المدرسية القديمة إلى حضور وارتياد أبناء الأعيان العرب

والضباط الاتراك والعائلات اليهودية والمالطية، وأكثر التلاميذ يحملون الجنسية الايطالية»[10].

و إلى جانب الفئات الاكثر اهمية اراد التبشير أن يتغلغل إلى مختلف الفئات الاخرى، ولم ينس المبشرون اللعب على العواطف باظهار انسانيتهم العميقة فأعلنوا عن افتتاح معهد لتعليم الصم والبكم، وبطريقة ذكية أعلنوا أن اللغة في هذا المعهد هي الايطالية فقط لصعوبة اللغة العربية التي لا تصلح لتدريس هؤلاء نظرا لعدم مقدرتهم على التقاط أصواتها، وأن اللغة التي يمكن أن يتعلمها المعاق بيسر وسهولة هي اللغة الايطالية، وقد أعلن روسيتي، رئيس الرهبان، عن افتتاح ذلك المعهد وقامت صحيفة (الترقي) بنشره وقد جاء فيه:

«يعلن الاستاذ الآتي اسمه للعموم انه افتتح قسم خصوصي في مكتب الآباء الفرنسيسكان، وهو بمكتب الفرانسيز لاجل تعليم الصم والبكم وقد شرع في تدوين أسماء الطلاب، أما المعلم فهو الاستاذ (الفريد ومارتلكي) الحائز للشهادة من مكتب ميلانو الرسمي المخصوص لتمرين الاساتذة، وهذا الاستاذ كان عد اهلا لان يقلد بوقته رياسة هيئة مخصوصة من طرف نظارة المعارف، وهو يتعقب في نهجه التعليمي آخر خطوة خطاها التقدم في هذا الخصوص في مكاتب روما وميلانو الرسمية.

والغاية من هذا التعليم تمكين الصبيان الذين أمسوا خرسا اما لاهمال أو لفقدهم حاسة السمع من التكلم والكتابة اما التدريس فله دوران، دور يختص بتعليم الصبيان تلقّط الاصوات المتداولة في الدروس المستعملة في هذه البقاع، ودور يختص بتعليم اللغة الوطنية أو اللغة التي يقتدر أن يقتبسها الصبي بأكثر سهولة (وهي على الاغلب اللغة الايطالية) وتعليم احدى الصنائع مع الرسم أيضا، وهذا ما عدا الصم البكم فان القسم المذكور يقبل فيه أيضا سائر الصبيان الذين تصعب عليهم الاستفادة في مكاتب اخرى، وذلك اما لقلة سمعهم وإمّا لشائبة في لسانهم ومن رغب زيادة التوضيح فعليه بمراجعة رياسة الاباء الفرنسيسكانيين 21 ايلول سنة 1910 رئيس الرهبان روستي»[11].

ولكي يكون التبشير كاملا يرى المبشرون أن يتولوا هم التعليم في جميع أنواعه ودرجاته[12]. واجتهدت الارساليات أن يتولى التدريس في مدراسها مبشرون اعدوا خصيصا لهذا المجال، وحتى يؤدون عملهم بكفاءة عالية فرغوا للتدريس فقط وأعفوا من مزاولة الاعمال الدينية الاخرى التي يقوم بها عادة الرهبان والمبشرون، وقد طبق هذا الاسلوب في ليبيا المدير الرسولي (ب. انجلو لوسانتا آغاتا P. Angelo S. AGATA) جاء في تقرير (ب. كوستانزو برغنا):

«ان النمو التدريجي للجالية المسيحية الزم المدير المسؤول في ذلك العهد (ب. انجيلو سانت اغاتا) باعفاء بعض الرهبان المبشرين من الاعمال الدينية لكي يتفرغوا خصيصا للمدرسة التى اخذت تنمو نموا ملحوظا، ورفع وقت الدراسة

إلى ست ساعات في اليوم، وأضيفت إلى المواد التي تدرس باللغة الايطالية اللغة الفرنسية والعربية.

ولكن النقص في عدد الرهبان المدرسين اضطر المدير الرسولي للبحث في ايطاليا عن المدرسين في بعض المعاهد الدينية التي من مهامها وبصفة خاصة التعليم بالمدارس الاولية، وكذلك اتجه مرتين إلى مدارس الاخوة المسيحية»[13](*).

وحتى ينتشر التبشير على مساحة اوسع بدلا من بقائه محصورا بين جدران الفصول الدراسية يلقن النصائح للاطفال. اراد المبشرون أن يدخلوا إلى كل البيوت وأن يستقطبوا جميع الناس، ولا يتأتى ذلك الا عن طريق الطبيب الذي يستطيع أن يصل إلى جميع الطبقات حتى الذين لا يخالطون غيرهم وخاصة في المجتمعات المحافظة التي تمنع النساء من الاختلاط بواسطة المرضى الذين يعالجهم. والمبشرون يصرحون بذلك فقد كتب (س. أ. موريسون S.A. MORISON) في مجلة العالم الاسلامي التبشيرية يقول:

«نحن متفقون بلا ريب على أن الغاية الاساسية من اعمال التنصير بين المرضى الخارجيين في المستشفيات أن نأتي بهم إلى المعرفة المنقذة، معرفة ربنا يسوع المسيح، وأن ندخلهم أعضاء عاملين في الكنيسة المسيحية الحية»[14].

وقد اعتمدت البعثات التبشيرية هذا النهج، فأسست المستشفيات والملاجىء، وكذلك جمعيات البر والمساعدة، لتحقق بذلك هدفين أولهما الظهور بمظهر الرحمة والانسانية لمساعدة المرضى والمحتاجين، وثانيهما الوصول إلى المرضى من النساء والشيوخ والرجال.

ولتنفيذ ذلك قامت مؤسسة حماية الارساليات، ومقرها بفلورنسا بتأسيس مأوى للأيتام في سنة 1902 بادارة الراهبات الفرانسيسكانيات وكان تحت حماية القنصل الايطالي، وضمن اختصاصاته، ويضم المأوى عند تأسيسه عشر يتيمات يأويهن مجانا، أما الاخريات فيدفعن اشتراكا شهريا قدره 15 ليرة ايطالية ويستقبل المأوى أطفالا من كل الجنسيات[15].

وتحتفظ الراهبات الفرانسيسكانيات كذلك بادارة مستوصف في طرابلس ومستوصفات وغرف اسعاف(**) في الخمس وبنغازي ودرنة، كما كانت تدعم مؤسسة حماية الارساليات مستشفى ومستوصف الارسالية الفرنسيسكانية[16].

وكانت هذه الجمعية ترعى مصالح المبشرين والراهبات في ليبيا منذ عام 1884، وذكر بيرغنا في تقريره ما يلي:

«تهتم الجمعية في ليبيا منذ عام 1884 بأكبر قدر ممكن من التوسع لارساليتنا، فانها تمهد الارض من أجل نشاط اوسع في مجال التعليم التربوي لصالح الابناء الايطاليين المقيمين في طرابلس وفي الاقليم عامة، وفي عام 1903 افتتحت

---

(*) تشير الوثيقة رقم 1772 بتاريخ 1284 بأن احدى الراهبات تطوعت للتدريس في المدرسة الاعدادية للذكور والاناث الوطنية، وهذا يدل على مدى رغبة المبشرين من الانتشار حتى في المدارس الوطنية.

(**) غرف الاسعاف أقل من المستوصفات وهو نظام طبق في ليبيا وعمم على القرى يقدم خدمات تطبيقية سريعة، ويقوم الطبيب المبشر بزيارات اسبوعية إلى القرى ويلتقي بالمرضى في هذه الغرف.

الجمعية في طرابلس مأوى للأيتام مع مستوصف ومدارس وعهدت بكل ذلك إلى الاخوات الفرانسيسكانيات في مصر، وفي الوقت نفسه افتتحت للاخوات المذكورات ملجأ في الخمس ودرنة.
واليوم ـ فترة الاحتلال ـ نفس الطائفة الدينية لها في طرابلس أيضا معهد البنات المزدهر (ارنستو كياباريللي .Arnesto S) الذي مع تشابهه بمعهد (اومبرتو سافويا Umberto DI SAVOIA) يلبي متطلبات أهالي المستعمرة في المجال التعليمي والتربوي ولنفس الغرض افتتحت الراهبات الفرانسيسكانيات مدارس للبنات بزوارة والخمس ودرنة»[17].

وبالاضافة إلى كل ذلك كانت تنشط الجمعيات الخيرية وكان من اهمها (الجمعية الخيرية الايطالية) ومقرها في القنصلية العامة الايطالية بطرابلس، ومهمتها تقديم المساعدة للمعوزين من الايطاليين والالتزام بمصاريف اعادة ترجيعهم إلى الوطن عند الحاجة، و إلى جانب ذلك كانت تقدم العلاج بالمنازل أو بالمستشفيات... وكانت هذه الجمعية تتلقى دعما من وزارة الخارجية الايطالية[18].

ثم ايضا تحت اشراف القنصلية الايطالية بطرابلس انشاء صيدلية صغيرة توزع العلاج مجانا للفقراء في طرابلس وكذلك صيدلية في الخمس وأخرى في المنشية ويدير الصيدليتين الرهبان الذين تفاقم عددهم في نسة 1911م.

أما الكشف الذي قدمته القنصلية إلى الولاية بناء على طلب من الحكومة العثمانية في طرالبس فيدل على استشراء النشاط التبشيري في البلاد وهيمنته على مختلف المجالات ذات العلاقة المباشرة بحياة الناس وتربيتهم العقلية والروحية، وهو ما كان بالطبع ليتحقق لولا التقصير الصارخ ـ وربما التواطؤ ـ من جانب السلطات العثمانية المحلية مضافا إلى المخططات الاستعمارية التي كان التبشير أول مظاهرها: ورد في الكشف:

«1 ـ كنيسة مؤسسة بأمر سلطاني متصل بها دير صغير مخصص لاقامة عشرة رهبان.
2 ـ توجد مدرسة خارجية (نهارية) تدرس مجانا للذكور بالقرب من الكنيسة موجودها مائتا تلميذ.
3 ـ يوجد في زقاق الحمام دير مخصص لاقامة ست عشرة راهبة يدرن المؤسسات الآتي ذكرها:
أ ـ مدرسة خارجية للبنات مجانية موجودها ثلاثمائة.
ب ـ مستشفى.
جـ ـ صيدلية صغيرة توزع العلاج مجانا للفقراء.
في المنشية:
1 ـ كنيسة مقامة بارادة سنية (أي أمر سلطاني) متصل بها دير لاقامة راهبين.

2 ـ مدرسة خارجية ومجانية مع المقيم الذي يقيم فيه خمسة من الرهبان الذين يديرون صيدلية الفقراء (قبل ظهور الكوليرا) كان موجود المدرسة المذكورة ستين طفلا والآن مغلقة.

في الخمس:

1 ـ كنيسة بموجب أمر ملكي ودير لاقامة راهبين.

2 ـ كنيسة مخصص لاقامة خمس راهبات.

3 ـ مدرسة خارجية للبنات موجودها مائة وأربعين.

4 ـ صيدلية لتوزيع الدواء مجانا على الفقراء.

المؤسسات الاخرى الدينية الخاصة بالكاثوليك هي في بنغازي.

طرابلس الغرب 14 فبراير 1911

مصادق بمطابقته للدفتر الرسولي من قنصلية ايطاليا العامة.

5 نيسان، ادارة ترجمة ولاية طرابلس الغرب.

الصورة المترجمة للدفتر المرسل من القنصلية الانكليزية:

1 ـ الصيدلية المخصصة للفقراء التي تحت ادارة جماعة المبشرين نورد افريقيا.

2 ـ مستشفى ذو ثلاثة اسرة تابع لدير راهبات سان جوزيف الواقع تحت الحماية الفرنسية، ومدرسة مجانية للأولاد والبنات. وقد داوم على المدرسة المذكورة الاعداد التالية من الطلاب:

| السنة | العدد | |
|---|---|---|
| 1907 | 332 | تلميذاً وتلميذة |
| 1908 | 428 | تلميذاً وتلميذة |
| 1909 | 411 | تلميذاً وتلميذة |
| 1910 | 359 | تلميذاً وتلميذة |

اليوم تصرف المدرسة طعام الغذاء لثلاثين طفلا وأربع يتيمات يجري تموينهن من قبل الدير، ويربى في الدير المذكور بين الثلاثين والاربعين يتيما.

ان جماعة افريقيا الشمالية البروتستانية مؤلفة من المستر ايدر، مستر بولتون والمستر هارولد والدن[19].

ويوضح هذا أن جميع الارساليات التبشيرية كانت تحت الحماية المباشرة للقنصلية الايطالية، وكان قنصل ايطاليا الموجه الدائم لسياستها، وتخضع بعض الارساليات لاشراف وحماية وزارة الشؤون الخارجية الايطالية، ولا شك أن هذا يخلق لدى المواطن ولو بطريق غير مباشر بأن وجود البعثات التي تشرف عليها ايطاليا انما لقصد من الحكومة الايطالية النهوض

بمستوى البلاد ثقافيا وحضاريا وخاصة اذا نظر إلى المشاريع الثقافية والتعليمية الهائلة و إلى المشاريع الاجتماعية والصحية التي كانت تفتقر اليها البلاد.

وتهدف الحكومة الايطالية من وراء ذلك أيضا إلى وضع الدولة الايطالية في كفة موازنة مع الدولة العثمانية من حيث الاهتمام بالولاية والذي سيرجح بلا شك لصالحها، وهو ما من شأنه أن ينمي الشعور بامكانية التعايش سلميا مع الحكومة الايطالية مستقبلا. هذا إلى جانب الهدف البعيد وهو استلاب المواطنين ثقافيا وقتل ثقافتهم الوطنية حتى تقطع عنهم أي اتصال بمقوماتهم وخصائصهم القومية التي تميزهم عن الايطاليين.

ولكن كيف كان موقف الدولة العثمانية من هذا الاجتياح الثقافي الذي كاد يسيطر سيطرة كاملة على الولاية؟ لا شك انه كانت هناك محاولات لمنع هذا الاجتياح، ومن خلال استعراضنا لبعض الوثائق يتبين ذلك، ولكنها كانت محاولات رجل مريض يلفظ أنفاسه، ولذلك اقتصرت الاجراءات على مجموعة القرارات التي لا تعدو أن تكون في مقاييسنا الحالية قرارات «تسجيل موقف» لا أكثر إذ كان تنفيذها شيئا مستحيلا. ونذكر منها على سبيل المثال:

أصدرت الحكومة قرارا بحظر توزيع الكتب المسيحية (بتاريخ 25 ربيع الاول 1373 مالية)[20]، كما وردت برقية من وزارة الداخلية الى الولاية بعدم السماح بفتح مدارس خاصة للاجانب والعثمانيين وذلك (بتاريخ اغسطس 1904)[21].

كما اصدرت الحكومة قرارا يمنع المبشرين الانجليز من توزيع الكتب الدينية بتاريخ 8 مارس 1899[22].

وبتاريخ 22 تشرين الثاني 1304 مالية اصدرت الحكومة قرارا آخر يمنع تشييد الكنائس والمدارس الاجنبية قبل الحصول على ترخيص[23].

ونستعرض بعض الوثائق لنرى مدى مواجهة الغزو الثقافي الايطالي من قبل الحكومة العثمانية، ومدى قدرتها على تنفيذ قراراتها.

بعد صدور القرار بمنع تشييد الكنائس والمدارس الاجنبية المذكورة اعلاه بخمس سنوات وجهت الولاية رسالة الى متصرفية الخمس بتاريخ 6 فبراير 1894 هذا نصها:

«الى متصرفية الخمس،

علم من مفاد رسالتكم البهية المؤرخة في 29 يناير سنة 1894 رقم 227 بأن النصارى الذين في الخمس استأجروا منزل الايطالي المدعو (بترو) للعبادة، كما انهم استأجروا القسم التحتاني من منزل لاحد اليهود واتخذوه مدرسة.

ان المنع في هذا الصدد يشمل الكنائس تؤسس وتفتح مجددا وبدون ترخيص، كما أن المعاملة التي ستتخذ بشأن هذه المدارس الخاصة مدروجة بصراحة في المادة (129) من قانون المعارف العمومية، يجب ابلاغ ذلك لمعلم المدرسة المذكورة واتخاذ اللازم في صدده، واذا كانت بيد المعلم شهادة يجب ارسالها للمصادقة

عليها وارسال جدول الدروس التي ستدرس، وقد كتبت رسالة مخلصكم لاشعارنا وافادتنا بالحالة سيدي...

29 رجب 1911، 6 فبراير 1894»[24].

ما هي الوسائل التي طبقتها حكومة الولاية لمنع تشييد الكنائس والمدارس؟ انها، حسبما توضح الوثيقة... ارسال شهادة المعلم للمصادقة عليها وارسال جدول الدروس، والمصادقة عليه أيضا حتى تتخذ المدرسة الصبغة الرسمية.

ونجد في وثيقة أخرى شكلا آخر من اشكال «المواجهة» عبرت عنه الرسالة الموجهة من الولاية الى الديوان الملكي ردا على برقية واردة من استانبول جاء فيها:

«الى رئاسة كتابة الديوان الملكي الجليلة.

لما جرى التبليغ ببرقيتكم السامية بالشفرة المؤرخة في 10 اكتوبر 1898 بأن منطوق الامر السامي لحضرة الخليفة المعظم تفيد أنه لما بلغ المقام السامي بأن هيئة مؤلفة من الانكليز والايطاليين جاءوا لطرابلس وفتحوا مدرسة وسجلوا فيها ثلاثة أشخاص أو أربعة وأن يشوقون غيرهم من الناس للالتحاق بها، كما أسسوا صيدلية تعطى الادوية مجانا، ويظهر أنهم يقصدون من ذلك فتح السبيل لجلب القلوب والسعي لبلوغ مآربهم الخبيثة، وأفاد الامر السامي بأن لا تبذل الحكومة المحلية بأي وجه من الوجوه أي تسامح تجاه هذا وأن تكون دائما متيقظة ومتنبهة، واستكمال الاسباب لاحباط هذه الجهود الضارة، وعرض المعلومات على العتبة العليا، لقد عرضت باختصار برقية العاجز الجوابية المؤرخة 25 اكتوبر منه بأن الولاية تبذل اعتناء ودقة بالغين لاحباط نوايا الاجانب الضارة بكل الصور، ولما كان من مقتضى أوامر وارادات الحضرة الملكية الانتباه خصوصا من تصرفات الايطاليين والانجليز المعروفة آمالهم تجاه الولاية فاننا نبذل اقصى الاهتمام لمنع اثمار أي من مجهوداتهم، وانه لم يحدث في زمن العاجز قدوم أية جماعة من هؤلاء ولم يفتحوا من جديد أي مدرسة ولم يسجلوا البعض أو يحرضوا البعض الاخر أبدا، الا انها توجد مدرسة فتحت من قبل معلمي المدارس الفرنسية ممن يدعون بالاخوان المريمين الذين جاءوا هنا قبل اثني عشرة سنة، كما توجد مدرسة للاطفال من أعمار الاربع والخمس سنوات، واثنتان تدرسان الذكور الفنون المنوعة والتجارة ومدرسة أخرى خاصة بالبعثات الاكبر قليلاً، فتحت هذه المدارس قبل اثني عشر سنة من قبل الايطاليين، والراهبات الباقيات هنا منذ زمن يوسف باشا واللائي اتخذن من المنزل الذي أعطاهن (كذا) اياه عثمان باشا قبل اربعين سنة خلال ولايته من الاملاك الاميرية ويداوون بدون مقابل اتخذوه مستشفى يداوون فيه المراجعين من ذوي اليسار لقاء أجر يومي ويعطون الادوية لمرضى الفقراء مجانا ويسجلون اسماءهم كما أن المبشرين البروتستانت الموجودون هنا منذ ثمانية او عشرة اعوام يعطون الادوية مجانا للمراجعين ويقرأون عليهم

بعض المواعظ من الانجيل سعيا في نشر البروتستانتية والراهبات من هؤلاء يطرحن (كذا) البيوت قياما بمثل هذه المحاولات الا أنه من المآثر الجليلة للحضرة السلطانية عدا مستشفى الغرباء الكبير الذي تم بناؤه في نفس طرابلس كما أنشئت من طرف البلدية صيدلية جيدة زودت بكل انواع الادوية وبطريقة مداوات (كذا) مرضى الفقراء تحت الرقابة المستمرة للجنة الصحية التي جرى تشكيلها مؤلفة من الاطباء المهرة للحجر الصحي والبلدية والجيش الذي خلصهم تماما من الحاجة الى الاجانب، كما أن مرضى الزهري الفظيع استكملت أسباب منع سريانه وانتشاره، لذا فانه في ظل السلطان أصبحت جهود ودسائس المبشرين والراهبات لاجدوى لها كليا.

26 جمادي الاخر 1316 16 اكتوبر 1898»[25].

هذا نموذج آخر من نماذج مقاومة التسلل الثقافي وضحته هذه الوثيقة، وهي تبين أن المسؤولين كانوا يفطنون جيدا الى «المآرب الخبيثة» و«النوايا الضارة» للاجانب ويعرضون «اماهم» تجاه الولاية، كما تبين انه لم يحدث افتتاح اية مدرسة في زمن العاجز وهو نامق باشا، الذي شهدت البلاد في عهده ازدهارا ثقافيا ملموسا تمثل في انشاء عدد من المدارس والصحف والمجلات والمنشآت الاخرى نذكر منها مدرسة الفنون والصنائع ومجلة الفنون وواضح انه لا يتحمل تبعية المدارس الاجنبية والمؤسسات الثقافية والاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك والتي تعتبر تركة الولاة الذين سبقوه أو تعود الى عهود سبقت ذلك العهد، وتيقن هذا الوالي أن السبيل الوحيد لمقاومة هذا النشاط انشاء مؤسسات ثقافية بديلة تخدم المواطن حتى لا يكون ضحية المؤسسات التبشيرية، وكما وضح في رسالته أن المبشرين يعطون الادوية مجانا ويقرأون على المراجعين بعض المواعظ وهكذا فالمواطن لا يدفع الثمن من جيبه ولكن من عقله وروحه.

وبعد عزل السلطات العثمانية لذلك الوالي الغيور على مصالح الامة والذي لم يستقر في حكمه الا سنتين، ومع بداية العام الاول عادت حركة التبشير الى النشاط من جديد، واكتفت الدولة العثمانية وحكومة الولاية بمراقبة هذا النشاط من بعيد وارسال البرقيات في بعض الاحيان الى حكومة الولاية للتنبيه الى مخاطر المبشرين أو الاستفسار عن مدى تأثير هذه الحركة في الاهالي ففي شهر يوليو من عام 1900 وردت الى ولاية طرابلس برقية بالشيفرة من رئاسة كتاب الديوان هذا نصها:

«هل يوجد داخل ولايتكم الجليلة من ارتد من الاهالي المسلمين بنتيجة التلقينات الواقعة من المبشرين، وكم يوجد من الاطفال المسلمين في المدارس المؤسسة من قبل المبشرين نفيدكم بمنطوق واردة سلطانية لحضرة الخليفة المعظم أن تحققوا هذه الامور بصورة سريعة وصحيحة، واشعارها في الحال والامر في ذلك 1 يوليو 1900م»[26].

وفي الحال قامت الولاية بالرد، وكان الرد بالنفي قطعا جاء فيه:

«الى رئاسة كتاب الديوان الملكي الجليلة.
ج / يوليو 1900، يوجد في مركز الولاية ثلاثة مبشرين بروتستانت الا انهم ليست لهم الا أربعة أو خمسة اطفال مسلمين ملتحقون بالمدرسة الابتدائية للاخوان المريميين الفرنسيين، ولكن نفرض انه بسبب الصلابة الدينية للاهالي لم يحصل من تلقينات المبشرين أي تأثير على العقيدة والديانة واننا لم نقصر في مراقبة احوالهم»[27].

ويبدو أن ما كان «مطمئنا» لا يثير القلق بالنسبة للمسؤولين الرسميين في الولاية كان هو الذي اثار قلق جريدة المرصاد الوطنية، فبينما يتعامى المسؤولون عن وجود المرض واستفحاله في البلاد ويقللون من شأن المبشرين وخطرهم تقرع المرصاد ناقوس الخطر وتنبه الى أن مصيبة التبشير قد عمت البلاد وأن بعض الاهالي وخاصة المسؤولين منهم يرسلون اولادهم لمدارسهم، وتطلب من الحكومة أن تتدارك الموقف، فتبادر الى اغلاق المكاتب والجمعيات التبشيرية قبل أن يستفحل الداء وعندها يصعب العلاج، فكتبت مقالا عنوانه (المبشرون أعداء الانسانية) جاء فيه:

«مصيبة عامة في الشرقيين فانهم يرسلون اولادهم للمدارس الدينية التي أنشئت لهذه الغاية قبل أن يتمكنوا من دينهم وترسخ عقيدته في يقينهم، وهذا هو السبب في كثرة الفسّاق المستهزئين بأوامر الدين خصوصا من بعض الافندية الذين قرأوا في المكاتب المذكورة، وكان معلموهم ممن قرأوا فيها (...) وقد عم البلاد مما ذكر فلينتبه له الشرقيون وخصوصا اخواننا المسلمون، وياليت حكومتنا الدستورية تتدارك هذا الامر الفظيع وتتلافاه قبل استفحاله، ولا تترك ميدانا لمثل هذه المكاتب الدينية التي تفشت في بلادنا وفتكت بأبنائنا فتكا ذريعا، فهي داء سار يجب تلافيه قبل أن يصبح ابناؤنا طبيعيون لا دين لهم (...) وأي بقاء للدولة والامة بدون دين فهو سبب كل نجاح وتقدم وفلاح ولا تقوم مكانه أي رابطة قط فهو الآمر لكل فضيلة، والناهي عن كل رذيلة»[28].

وصدقت نبوءة المرصاد، فقبل الاحتلال بأشهر قليلة انفلت زمام الامور من يد السلطات العثمانية، وبدأ المبشرون يمرحون في طول البلاد وعرضها متخذين كافة الوسائل متنقلين بين المدن والقرى في كافة أرجاء ليبيا، ولم تجد الدولة العثمانية سبيلا لمقاومتهم الا طلبها من الولاية تنبيه الموظفين المسؤولين في الدواخل بعدم افساح المجال لمزاولة اعمالهم التبشيرية وجاء في برقية من الباب العالي الى الولاية بالشيفرة ما يلي:

«حيث انه بلغنا أن بعض الرهبان جاءوا من مصر في زي المشائخ وانهم تغلغلوا بين الاهالي والعربان يبثون الدعايات الضارة يطلب منكم امر تبليغ الموظفين

المسؤولين في المركز والدواخل بأن لا يتركوا مجالا لمثل هذه الاعمال المستغنى عن بيان محاذيرها 4 مارس 1911»[29] (*).

ومما تقدم يتضح أن الدولة العثمانية كانت عاجزة عن مواجهة هذا الزحف وخاصة في الفترة التي بدأت تعاني فيها سكرات الموت، لقد كانت الطعنات موجهة أيضا وبنفس القوة والشراسة الى قلب الدولة نفسه، فتمكن المبشرون من الوصول الى استانبول، وهناك لم يكتفوا بانشاء روضة أو مدرسة، لقد كانت لهم غاية أخرى، وهي التأثير في قادة الرأي في البلاد ذلك التأثير الذي لا يمكن أن يتحقق اذا لم يكن ثمة تعليم عال فكان من رأي المبشرين ان تؤسس الكليات في المراكز الاسلامية وأرادوا أن تكون هناك كلية في بيروت وأخرى في القاهرة الى جانب الجامع الازهر، وكذلك في استانبول حتى تسقط الدولة الاسلامية كلها، فقد أنشأوا (كلية روبرت) في استانبول وهي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها.

«ان كلية بيروت وكلية استانبول ليستا أختين فقط بل توأمان ان هذه الكلية قد أنشأها مبشر ولا تزال الى اليوم لا يتولى رئاستها الا مبشر»[30].

لقد رأى المبشرون أن التبشير يجب الا يقف عند انتهاء مرحلة التعليم الابتدائي أو الثانوي، بل يجب أن يستمر الى مرحلة التعليم العالي لأنه هو الذي يهيء قادة الشعوب، فاذا استمال المبشرون اذن بعض هؤلاء الذين ينتظر أن يكونوا قادة بلادهم فقد كفلوا التأثير على الشعب ومن أجل ذلك تبلورت سياسة الارساليات الامريكية حول اقامة كليات مجهزة تجهيزا جيدا في استانبول وبيروت وازمير والقاهرة وغيرها من المراكز الاسلامية[31].

وهكذا كان التبشير واحدا من الاسباب الرئيسة في تداعي الدولة العثمانية وانهيارها السريع، وسقوطها في حضن الفكر الغربي وتنكرها لثقافتها الشرقية فاستبدلت الحرف العربي بالحرف اللاتيني، وأصدرت قوانين صارمة تحتم تغيير الزي الشرقي ففرضت العقوبات الصارمة على من يرتدي الطربوش واستبدلته بالقبعة الاوربية.

ومن هنا فان الدولة العثمانية هزمت في العمق فصعبت عليها المواجهة في الولايات البعيدة، ولا نستغرب بعد ذلك أن تقتصر مقاومتها على البرقيات المشفرة الى الولاية.

---

(*) أول من استخدم هذا الاسلوب الكاردينال لافيجرى حيث اقترح انشاء مراكز للتبشير تشبه في مظهرها مظاهر الحياة الاسلامية تسمى (الزوايا المسيحية) «بيت الله» على غرار الزوايا الاسلامية، واقترح أن يكون لباس رواد الصحراء المسيحيين مشابها للباس المسلمين ماعدا لباس الرأس، انظر التبشير والاستعمار، د. فروخ ويحدثنا جيمس ويللارد عن تأثير الملابس العربية في التبشير فيقول: كان الكاردينال (لا فيجري) مصمما على أن يتوغل الى أبعد من الجزائر وفي عام 1872 بعث أول ارسالية الى الصحراء الكبرى، وذلك في شخص (الاب شارمتان) الذي توجه الى «لاذوت» وهي ابعد نقطة الى الجنوب وصل اليها الحكم الفرنسي حتى ذلك الحين، وربما فوجيء الاب الأبيض حين راى شيوخ المنطقة المسلمين لا يرحبون به فحسب، بل يغمرونه عمليا باللطف، فها هو الشيخ «سي لالا» يهتف به «الا ايها الولي الزاهد، ان خيمتي هي خيمتك، وجمالي هي جمالك، فاذهب حيث تشاء فلن يمسك احد بسوء»، وواقع الامر أن الشيخ المسن ظن الراهب الكاثوليكي على ما يبدو قد اعتنق الاسلام لما هو ظاهر في ردائه العربي وطربوشه. وأخذ الغموض يسوء الامور بعض الشيء، فلم يكن أحدٌ من الرجلين يفهم ما يتحدث به الاخر من شؤون الارض أو من شؤون السماء»، جيمس ويللارد، ص 411.

وبالنسبة لليبيا فقد قوبلت هذه الارساليات في بادىء الامر بالاعراض التام ولكن امام عجز التعليم الوطني عن افساح المجال للراغبين في التعليم، وكان الذين اقبلوا على هذه المعاهد أبناء الطبقة الحاكمة ذات الثراء التي رفضت تسجيل أبنائها في المدارس العامة، وحاولت أن ترضي غرورها النفسي بالالتحاق بالمدارس الاجنبية وكان النفوذ الايطالي حريصا على اغرائها بدخول مدارسه ولعل من حسن الحظ أن غالبية الشعب تعاني من الفقر المدقع، ولم تكن من ذوي الثراء او الحكم اللهم الا القلة التي كانت بالفعل عونا للاستعمار الايطالي.

★ ★ ★

ومن خلال عرضنا للتعليم والتبشير تبين أن الهدف الاول للحكومة الايطالية الذي سعت اليه من خلال التعليم هو نشر لغتها والقضاء على اللغة القومية في ليبيا، وحتى ينتشر التعليم على قاعدة أوسع جعلته مجاناً حتى تتمكن من استقطاب اكبر عدد ممكن من الاطفال وخاصة الذين لا يقدرون على مواجهة مصروفات التعليم، والى جانب ذلك كانت تقدم لهم بعض المساعدات الاجتماعية، وتقدم للبعض حتى الوجبات الغذائية.

كما وجه التعليم عنايته بالبنات، ففتح لهن المدارس الخاصة في كل مكان مزودة بكافة الامكانيات فتوافدت على هذه المدارس اعداد هائلة.

وفي محاولة ايطاليا التغلب على العادات الاجتماعية التي تحد من تحرك المبشرين ولا تمكنهم من الوصول الى أي مكان فقد ارسلوا عددا وفيرا من الراهبات للوصول الى النساء عن طريق تقديم العلاج المجاني الهين.

**هوامش**

1 ـ أنور الجندي، مرجع سابق، ص 354.
2 ـ منصور عمر الشتيوي، مرجع سابق، ص 145.
3 ـ انظر، جيمس ويللارد، مرجع سابق، ص 405.
4 ـ انظر، عمر فروخ، د. خالدي، مرجع سابق، ص 76.
5 ـ التقرير منشور في كتاب: Andrea FESTA op. cit. pp. 6-8
6 ـ د. خالدي، د. فروخ، مرجع سابق ص 71.
7 ـ Andrea FESTA op. cit. p. 87
8 ـ Ibid op. cit. p. 10
9 ـ د. خالدي، د. فروخ، مرجع سابق، ص 204.
10 ـ Andrea FESTA op. cit. p. 9
11 ـ (الترقي) عدد (157) 21 رمضان 1328 هـ ـ 11 ايلول 1326 مالية.
12 ـ د. خالدي، د. فروخ، مرجع سابق، ص 78.
13 ـ Andrea FESTA op. cit. p. 10
14 ـ د. خالدي، د. فروخ، مرجع سابق، ص 59–60.
15 ـ فرانشيسكو كورو، مرجع سابق، ص 22.

16 ـ Mahmuod LARFAOUI op. cit. p. 512

17 ـ Andrea FESTA op. cit. p. 10

18 ـ Mahmoud LARFAOUI op. cit. p. 512

19 ـ أحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث، مرجع سابق، ص 279، 280.

20 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 219 بتاريخ 25 ربيع الاول 1323 مالية.

21 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 174 بتاريخ أغسطس 1904م.

22 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 2575 بتاريخ 8 مارس 1899م.

23 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 1629 بتاريخ 2 تشرين الثاني 1304 مالية.

24 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، ملف (المبشرون والرحالة) وثيقة رقم 2288 بتاريخ 6 فبراير 1894م. نشرت الوثيقة أيضا في كتاب (وثائق تاريخ ليبيا الحديث) احمد صدقي الدجاني، مرجع سابق.

25 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، ملف (المبشرون والرحالة) وثيقة رقم 1052 بتاريخ 1898/10/16، منشورة ايضا في كتاب وثائق تاريخ ليبيا الحديث لاحمد صدقي الدجاني، مرجع سابق.

26 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، (ملف «المبشرون والرحالة») وثيقة رقم 2233 بتاريخ 1 يوليو 1900، منشورة أيضا في كتاب احمد صدقي الدجاني (وثائق تاريخ ليبيا الحديث) مرجع سابق.

27 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، ملف (المبشرون والرحالة) بدون رقم 2 يوليو 1900، أحمد صدقي الدجاني (وثائق تاريخ ليبيا الحديث) مرجع سابق.

28 ـ المرصاد، السنة الاولى، العدد 14، طرابلس 13 محرم 1329، 30 كانون أول سنة 1326.

29 ـ أحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث، مرجع سابق.

30 ـ د. خالدي، د. فروخ، مرجع سابق ص 95.

31 ـ المرجع السابق، ص 94.

# المبحث الثالث:

## الاستشراق:

قامت ايطاليا مع بداية القرن العشرين، بدراسة الواقع الليبي من الناحية التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية وأوكلت هذه المهمة الى مؤسسة الاستشراق التي غذتها بمعاهد جديدة، وطورت القديم منها فأنشأت المعاهد والمجلات التالية:

* معهد الدراسات الشرقية في روما والملحق بكلية آداب جامعة روما 1905، وفيه قسم لفقه اللغات السامية والآثار المصرية، واللغة والآداب العربية والعلوم الاسلامية وفصول لتعليم اللغات العربية والفارسية والتركية.
* مدرسة متخصصة.
* (مجلة للدراسات الشرقة Rivista degli studi Orientali) تصدر كل فصل، وتمتاز بدقة مباحثها والتعريف بأعمال مستشرقيها وتراجمهم، وترتيب فهارسها المتعلقة بالعالم الاسلامي.
* مركز للدراسات السامية، وله نشرات ومحاضرات.
* المعهد الايطالي لافريقيا تم انشاؤه في العام 1906، وهو خاص بحفظ الوثائق، ونشر النشاط الايطالي الافريقي، وله مكاتب ومتاحف ومجلة (صوت افريقيا La voce dell'Africa) وهي نصف شهرية (وافريقيا Africa) كل شهرين وثمة مجلة (طرابلس Rivista della Tripolitania): وكانت تصدرها وزارة المستعمرات.
* المعهد البابوي المقدس (1909) فيه كليتان: الكتاب المقدس، والدراسات الشرقية.

وعهدت ايطاليا في هذه الفترة الى اعلام المستشرقين من أمثال امارى. وسكياباريللي، وبوناتزيا واغناطيوس جويدي والاسقف بوغارديني، وتللينو، بدراسة اللغات الشرقية وخاصة العربية.

انكب المستشرقون على اعداد المؤلفات الموجهة الى فصل ليبيا اقليميا عن الوطن العربي والاسلامي من جهة ومن جهة ثانية الى تفتيت ليبيا نفسها الى مجموعة من الكيانات المتفرقة

المستقلة تهيئة لاحتلالها واحدا تلو الاخر بناء على قاعدة «فرق تسد». وعلى هذا الاساس أخذوا يدرسون ليبيا على انها عالم مستقل كامل متكامل بذاته مثلما ظهرت الدراسات المبنية على اساس تقسيم البلاد الى مجموعة من القبائل والاقاليم واختلقت من أجل ذلك خصومات وفروقا «تاريخية»، ولما كان ذلك امرا مستحيلا وان مظاهر الوحدة داخل وطننا تعادل أضعاف ما هي عليه داخل ايطاليا فقد اتجهت انظار المستشرقين الى تعميق مظاهر اللهجات المحلية واختلاق «شخصية» مميزة لكل منها بل إن من المستشرقين من انفق الوقت والجهد من أجل وضع قواعد نحويه الى اللهجات فنجد من بين ذلك:

- ★ «قواعد العربية المكتوبة والمتكلمة في طرابلس» للمستشرق فكاري جوزيبي (Vacari GIUSEPPE).
- ★ كما ظهر كتاب:
- ★ «التحفة اللوبية العربية في اللغة العامية الطرابلسية» للمستشرق أوجينيو جريفيني (Eugenio GRIFFINI)(*) وهي معجم ايطالي طرابلسي – كما يسميه المؤلف – ضمنه عشرة الاف كلمة، وصدره بنبذة في قواعد اللهجة الليبية العربية في طرابلس.

وفي المقابل ظهر كتاب آخر للمستشرق (بانيتا PANETTA) عنوانه

- ★ «العربية المتكلمة في بنغازي» كما ظهر كتاب آخر بعنوان.
- ★ «العربية المتكلمة في برقة».

وبعد هذه الدراسات التي تسعى الى خلق فواصل جغرافية بين المناطق الرئيسية، ظهرت كتابات اخرى تهدف الى تقسيم المنطقة الضيقة ولنأخذ طرابلس كمثال:

قام الباحث المستشرق «بيجونيوت فرانشيسكو Biguinot FRANCISCO» باعداد العديد من البحوث منها:

- ★ شعب طرابلس.
- ★ سكان جبل نفوسة.
- ★ نماذج من علم النفس عند العرب والبربر.
- ★ قواعد لغة نفوسة،

وغيرها كثير، وقام بنشر هذه البحوث في المجلات التالية:

- ★ مجلة افريقيا
- ★ حوليات المعهد الشرقي
- ★ مجلة طرابلس
- ★ مجلة الدراسات الشرقية
- ★ دائرة المعارف الايطالية
- ★ مجلة الشرق[1].

---

(*) مما يسجل لهذا المستشرق – انقاذه للوثائق التي كانت محفوظة في السراي الحمراء والتي ألقت بها ايطاليا في البحر عند احتلالها للقلعة، وقد انقذ منها النزر اليسير الذي لا يزال محفوظا الان.

وكان المستشرقون الايطاليون يهدفون من هذه الدراسات الى تجميد اللغة العربية الام وتجميد ثقافتها وفصلها عن الشعب الليبي، مع محاولة احياء اللهجات المحلية وتغليب اللغة الايطالية فيما بعد حتى تكون لغة التخاطب في ليبيا، وهو ما يهدف ـ كما هو واضح ـ الى تمزيق الوحدة الوطنية الى مجموعات هزيلة حتى يسهل على ايطاليا السيطرة على المجتمع الليبي سياسيا واجتماعيا واقتصاديا.

**هوامش**

1 ـ انظر «نجيب العقيقي»، المستشرقون، ج1 مرجع سابق، ص 405 وما بعدها.

# المبحث الرابع :

## الصحافة والنشاط البريدي :

كانت الصحافة واحدة من اهم الادوات الثقافية التي سخرتها ايطاليا للسيطرة الاستعمارية في ليبيا، فأنشأت عددا من الصحف المتخصصة في المجالات المختلفة للدفاع عن وجودها في طرابلس، وعن مصالحها الاقتصادية والثقافية ولتساهم أيضا في تطبيع التقارب بين المواطن وايطاليا، وخاصة بعد أن نجحت في نشر اللغة الايطالية فوق مساحات كثيرة من البلاد واتجهت الى توفير المادة الاعلامية التي تقرأ بهذه اللغة، ولتقوم هذه الصحف في الوقت نفسه بربط المواطن الايطالي المهاجر وتزويده بثقافته الام وحتى لا يفقد انتماءه لايطاليا بفعل الهجرة، ومن هذه الصحف التي انشأتها :

※ **جريدة طرابلس** (Giornale di Tripoli)

وهي تحرر باللغة الايطالية وتدار من قبل البرفيسور (ل. زاناسي L. ZANASSI). ، وتصدر مرتين في الأسبوع كل يوم اربعاء وسبت وتقع في اربع صفحات من الحجم الكبير، وصدر العدد الاول منها في 8 يناير 1911 ، ويقول : ماريو سكابارو:

«وقد تأسست الصحيفة من أجل الدفاع عن النفوذ والمصادر المادية والمعنوية لايطاليا، ووعدت من جديد بادراك الهدف والعمل على التعريف بالاشياء في شكلها الحقيقي والصحيح، وتدمير الخرافات والتحاملات التي كثيرا ما ضايقت وتدخلت في العمل أو التصرف الايطالي في شمال افريقيا، ودون فصل مصالح الدولة التركية في نظامها الجديد الحر في طرابلس الغرب عن مصالح ايطاليا التي تهدف لها اغراض مماثلة»[1].

وتطبع هذه الصحيفة في مطبعة (اربيب) في شارع جامع محمود ومكاتبها بشارع الحرارة.

※ **صدى طرابلس** (L' Eco di Tripoli)

طبع العدد الاول منها في 24 ديسمبر 1909 والمالك والناشر كان (غوستاف اربيب) والمدير المسؤول (فيتوريو عقيب) تصدر كل اربعاء وسبت، كانت تطبع في المطبعة الدولية لغوستاف اربيب الكائنة في شارع جامع محمود، حيث مقر التحرير والادارة للصحيفة،

والصحيفة تحرر بالايطالية ايضا وتوقفت عن الصدور عدة مرات آخرها عام 1912 وهي سياسية اخبارية تدافع عن المصالح الايطالية[2](*).

وعلى الرغم من اهمية دور هذه الصحيفة فاننا لم نتمكن من العثور على شيء من اعدادها باستثناء عدد واحد لم تكشف مادته عن الوضع السياسي أو الاجتماعي بقدر ما هي وثيقة عن «التغلغل الاقتصادي» في البلاد ولذلك ادرجناها في الفصل التالي من هذا الباب ولكنها تعرفنا على اتجاه هذه الصحيفة ونشاطها من خلال بعض الصحف التي ترجمتها الصحف العربية في طرابلس والتي سبقت الاشارة اليها في حينها.

* **الاقتصادي** (L'Economista)

نشرة اخبارية أسبوعية يديرها (ج. فابري G. FABRI) تأسست عام 1910 وتوقفت عن الصدور في عهد الاحتلال الايطالي. وآخر عدد صدر يحمل تاريخ 26 سبتمبر 1911، وكانت الصحيفة تطبع لدى «مطبعة الفنون الخطية» وتعد في اربع صفحات على خمسة اعمدة[3].

* **نجمة الشرق** (La Stella d'Oriente)

اسبوعية، ادبية، هزلية، تاريخية صناعية لطرابلس الغرب وبرقة تأسست عام 1910م وتوقفت عن الصدور عام 1911 قبل الاحتلال الايطالي بقليل يديرها (فالنتيني VALENTINI) وتطبع لدى «مطبعة الفنون الخطية» تعد في اربع صفحات على خمسة أعمدة[4].

* **التقدم** (Progresso)

اسبوعية، سياسية، ناطقة بالايطالية، ومناوئة للاكليروس تدار من (ج. غوسمان G. GUSMAN) تأسست سنة 1910، صدر منها ثلاثة عشر عددا فقط ثم توقفت عن الصدور بسبب طرد غوسمان من قبل السلطات العثمانية من طرابلس الغرب، تهتم بصفة رئيسية بالمسائل التي تهتم بالعنصر اليوناني الملتحق بصيد الاسفنج، تطبع لدى مطبعة «اربيب»، تطبع في اربع صفحات على اربعة اعمدة[5].

وهذه الصحيفة لا تعتبر ايطالية الا من ناحية اللغة، وهذا ايضا دليل على مدى نجاح ايطاليا في نشر لغتها، وأصبحت اللغة المعبرة عن قضايا الجاليات الاخرى في طرابلس.

ومع المدارس والبعثات التبشيرية والصحف قامت ايطاليا بانشاء مسرح صغير يحمل اسم الكاتب المسرحي الايطالي الشهير (غولدوي) تعرض فيه الفرق الايطالية المسرحية ثقافتها، وتغني فيه بعض اليهوديات اللواتي يرقصن رقصة البطن على مشهد من النظارة العرب[6].

---

(*) وكتبت عن هذه الجريدة المرصاد «كتبنا مقالا في عدد 26 في ماهية هذه الجريدة وقلنا أنها لسان حال المستعمرين، وما أنشئت الا لخدمتهم والحط من قدر الدولة العلية ورجالها، ولا هم لها الا التفرقة وخلق المشاكل بنشر الاخبار المكذوبة وطلبنا من العموم أن لا يثقوا بأخبارها، المرصاد العدد 28، 30 ربيع الثاني 1329–14 نيسان 1326.

وقبل أن نطوي هذه الصفحة نود الاشارة الى نقطة اخرى ربما يصعب ادراجها تحت باب معين من ابواب «التغلغل الثقافي» في بلادنا وهي قضية «التغلغل البريدي» اذا صح التعبير. ولعل من اكبر الدلائل على «تسيّب» ادارة من الادارات أن يكون الاشراف على البريد فيها الى أيد أجنبية عنها لكن ما يستوقف النظر لهذه المناسبة هو تعدد الدوائر البريدية في البلاد فقد كان في طرابلس، بريد عثماني وآخر ايطالي وثالث فرنسي، ولعله صورة من صور تعدد السلطات في بلاد صار من الواضح أنها قد هيئت تهيأة تامة للغزو العسكري. واذا كان البريد الايطالي قد حقق في ذلك الحين ـ وابان الحكم العثماني وتحت سمعه وبصره ـ شهرة وسمعة حسنة جعلته موضع الثقة، فليس ذلك الا بسبب الاستهتار العثماني بأمور الشعب، وتصميم الايطاليين على كسب معركة «الافضلية» في كل ميدان ليظهروا للناس أنهم الأحسن، واذا كانوا قد نجحوا في تنظيم البريد بهذه الصورة فهذا دليل على انهم الاجدر في الامساك ببقية مقادير البلاد، وهذا ما كانت تتجه انظارهم الى اقناع الشعب به سواء عن طريق المدارس أو المبشرين أو الصحافة... أو الوسائل الاخرى.

ويعلق الاستاذ خليفة التليسي على هذا الوضع الشاذ بقوله:

«واستقلال كل قنصلية ببريدها في هذه الفترة الحرجة من تاريخ البلاد مظهر من مظاهر التفريط في السيادة، واهمال من الحكومة التركية التي تركت بهذه القنصليات سبيل الاستهتار بمصالح البلاد ومستقبلها»[7].

وللتدليل على تخلف الادارة البريدية العثمانية، التي يفترض أن تكون اكثر الادارات دقة وفعالية في البلاد نورد هذا المقتطف الذي جاء في حديث «كوبر» اذ يقول:

«ان مدير البريد وجد يوما أن الطوابع الموجودة لديه لا تزيد على خمسة عشر طابعا، فحاول أن يجد بعض الطوابع في الاسواق لانه طلب الطوابع من القسطنطينية ولكن طلبه كان يهمل دائما. وفي مرة اخرى كنت في ميناء الخمس، وقد وصل ساعي البريد الاسبوعي الا أن البريد لم يوزع فأرسلنا من يسأل عن السبب، وعرفنا أنه حين جرى فتح رزمة البريد وجدت خالية لان مدير بريد طرابلس نسي أن يضع فيها الرسائل»[8].

ويتحدث عن وجود دائرة بريد اخرى الى جانب العثمانية ولعل ذلك كان امرا مشروعا في نظم تلك الايام، فقد كانت هناك شركة البرق «التلغراف» الشرقية وكانت تقوم بعمليات الاتصال البرقي، وكان مديرها سنة 1900 انجليزيا.. أما بالنسبة للبريد الفرنسي فيشير «فرانشيسكو كورو» اليه بقوله:

«وكان بطرابلس أيضا مكتب بريد فرنسي يطبق بالنسبة للمراسلات الخارجية والداخلية التسعيرة المعمول بها في فرنسا. أما ارسال الطرود البريدية فقد كان يتم لحساب الحكومة الفرنسية عن طريق شركة الملاحة.

ولم يكن ببنغازي مكتب بريد فرنسي»[9].

أما البريد الايطالي فيبدو أنه كان يلعب دورا كبيرا جدا في الحياة العامة في تلك الفترة. ومما لا شك فيه أن السلطات الاستعمارية كانت تعرف قيمة ذلك المرفق الحيوي الكبير، وتدرك اهميته بالنسبة للتمهيد للغزو الاستعماري حتى انها لجأت الى القوة من أجل انشاء مكتب بريدي لها في بنغازي يقول د. جلال يحيى:

«وفي سنة 1901 قام الايطاليون بانشاء مكتب للبريد في بنغازي وكانوا يلحون على الحكومة العثمانية حتى تعطيهم حق انشاء هذا المكتب ولما تعبوا قاموا بانزال الوكلاء وصناديق الخطابات وأسسوا المكتب بالقوة تحت حماية مدرعتين وطرادة وقفت على تمام الاستعداد»[10].

ولا شك أن ذلك المكتب كان الأوفر نشاطا وفعالية من سواه فقد وصف «كوبر» دائرة البريد الايطالية بـ «أنها اهم بكثير» من سواها. أما فرانشيسكو كورو فقدم وصفا وافيا لانتشار هذه الدائرة ونشاطها فوق الساحة الليبية بقوله:

«كان مكتب البريد الايطالي موجودا بطرابلس عند وقوع الاحتلال الايطالي وكان قد مضى على عمله بها حينذاك ما يقرب من خمسين سنة، أما في بنغازي فلم يؤسس هذا المكتب الا في سنة 1905(*) وكان المكتبان بطرابلس وبنغازي يقعان في النقاط الرئيسية من المدينتين وكانت الخدمة التي يوفرها المكتبان تلقى اعجابا واقبالا من الاهالي بالنظر لما تميزت به من دقة في المواعيد وكان يطبقان بالنسبة لليبيا التسعيرة المعمول بها في ايطاليا. أما في المراسلات الدولية فكانت تطبق التعريفة المعمول بها دوليا في ذلك الوقت، وكان البريدان يقومان بجميع الاعمال البريدية عدا ما كان منها متصلا بالصناديق البريدية للتوفير.

وقد كانت هناك كثير من المؤسسات التجارية التي تتعامل مع هذين المكتبين في ارسال بضائعها. وقد اخذ الاهالي انفسهم الذين لم يكونوا يولون هذا المرفق اهمية خاصة، قرب نهاية العهد العثماني يدركون فوائده العظيمة ويستفيدون منه في ارسال الطرود البريدية»[11](* *).

وليس في ايدينا من المعطيات ما يدحض هذه الحقائق حول نشاط البريد الايطالي خاصة اذا اخذنا بعين الاعتبار الاهمال المزمن للادارة العثمانية واستهتارها الذي جعل الساحة الليبية مرتعا خصبا لنشاط الاوربيين من مختلف الاجناس.

ومن خلال استعراضنا للوسائل الثقافية الايطالية، تبين أن ليبيا تعرضت لهجوم ثقافي عنيف على مدى سنوات عديدة، مكن الثقافة الايطالية من تحقيق حضور واسع في الارض الليبية واستقرار كان اقوى عمليا من الثقافة العربية التي كادت ان تطمس خلال القرون

---

(*) يختلف هذا المرجع عن السابق في تحديد تاريخ تأسيس المكتب البريدي الايطالي في بنغازي.

(* *) انظر، وصف جوستينانو روسي، للبريد الايطالي في رحلته لطرابلس. الفصل الاول من هذا الباب ص 267.

الطويلة من التبعية للسلطة العثمانية، وتمكنت الثقافة الايطالية من استغلال الفراغ الثقافي الناتج عن التبعية اللامسؤولة، فتنوعت وتعددت حتى شملت كل الجوانب الثقافية. المدارس، الارساليات التبشيرية، معاهد الاستشراق، الصحافة، المسرح، ووسائل الاتصال البريدية وغير ذلك.

هوامش

1 ـ Mario SCAPARRO, op, cit, p 18.
2 ـ Mario SCAPARRO, op, cit, p 18.
3 ـ Ibid P. 19.
4 ـ Ibid P. 20.
5 ـ Ibd P. 20.
6 ـ خليفة التليسي، «حكاية مدينة» مرجع سابق، ص 198.
7 ـ خليفة التليسي، «حكاية مدينة» مرجع سابق، ص 197.
8 ـ احمد صدقي الدجاني، مرجع سابق، ص 103.
9 ـ احمد صدقي الدجاني، مرجع سابق، ص 104.
10 ـ د. جلال يحيى، مرجع سابق، ص 715.
11 ـ فرانشيسكو كورو، مرجع سابق ص 60–61.



# الفصل الثالث

## وسائل اخرى للتمهيد للغزو



حسن يوسف المصري



# المبحث الاول:

## محاولة استمالة العناصر الوطنية:

على الرغم من أن التمهيد الثقافي الايطالي في ليبيا استمر لسنوات عديدة ومكن ايطاليا من نشر لغتها حتى أصبحت اللغة الثانية في البلاد(*)، واستوعبت مدارسها العشرات من الاطفال، الا أن الحوادث التي رافقت ذلك النشاط والتي استجدت على الشمال الافريقي ووقوع تونس تحت الاحتلال الفرنسي ومصر تحت الاحتلال البريطاني، والنهضة الصحفية التي شهدتها البلاد في العقد الاول من القرن العشرين، وكذلك الحملات الفرنسية على الحدود الليبية التونسية، والتبجح الايطالي في حملته الدعائية لتحريض الرأي العام الايطالي المكشوف لاحتلال ليبيا، كل ذلك خلق صحوة لدى المواطنين ونبههم الى مطامع ايطاليا في الغزو والاحتلال، وكوّن لديهم استياء عام واقتناع بأن ايطاليا ليست أفضل بأي حال من الاحوال من تركيا، وأن الانتقال من استعمار الى آخر لا يعطي للمواطن حريته، ولا يحقق تقدم الوطن، بقدر ما يعمق التخلف، ويزيد من القهر والاضطهاد، وتكوّن تيار شعبي عارم مناهض لسياسة التخاذل والخنوع التي تقوم بها الحكومة العثمانية تجاه التوسع الايطالي في ليبيا، نظم حملات دعائية مكثفة لمقاطعة البضائع الايطالية، ووزعت المناشير والصقت على الجدران تنبه الجماهير الى نوايا ايطاليا ورغبتها في احتلال ليبيا وتدعو الى اليقظة والمقاومة وتضامن هذا الاتجاه الشعبي مع اتجاه الصحافة الوطنية في مقاومة التمهيد الايطالي للغزو. وقامت حكومة الولاية بدورها بانتزاع هذه المناشير بقوة البوليس، وارسال تقارير الى استانبول كما تشير بعض التقارير، والتي منها التقرير المرسل بالشيفرة الى وزارة الداخلية بتاريخ 26 تشرين الاول 1324، 29 اكتوبر 1908 والذي جاء فيه:

«الى وزارة الداخلية.

راجت شائعات اليوم بين الاهالي بأن مظاهرات نظمت في ايطاليا من طرف

---

(*) كانت الفرنسية اولى اللغات الاجنبية التي تنافس الايطالية في بلادنا في ذلك الوقت، وهذا دليل على النوايا الفرنسية وهو ما اظهره أيضا نشاط الفرنسيين في افتتاح المدارس (وقد اشرنا الى ذلك فيما سبق) ويذكر الحشائشي ان الفرنسية كانت منتشرة حتى في اقاصي الجنوب، فبعد حديثه مع احد المواطنين في مرزق والذي ساعده في الحصول على الدواء يقول:

– «ثم سألته لم كتبت الى التوصيل المذكور باللغة الافرنسية والحال انك تحسن العربية والتركية وأنا عربي؟ فقال لي إن جميع ما يتعلق بدواء العساكر العثمانية في جميع مملكتها يكون حسابه باللغة الافرنسية وعندنا اشياء كثيرة نستعملها باللغة الافرنسية لا بلغتنا التركية».

رحلة الحشائشي الى ليبيا، مرجع سابق، ص 71–72.

الشعب الحرّ فيها الجمهور على حكومتهم باحتلال طرابلس وأنه في يوم السبت القابل ستقدم الى ميناء طرابلس 12 سفينة حربية ايطالية.
كما علقت بالامس مناشير في عدة أمكنة من المدينة مآلها أم آمال ايطاليا وأطماعها في احتلال طرابلس لا زالت قائمة ويجب علينا الوقوف ضد نواياها الاستعمارية التوسعية، وتهيب بالسكان أن يمتنعوا عن شراء بضائعها، ومقاطعة تجارتها هنا... الخ. وقد صدرت تعليمات للبوليس بنزع هذه المناشير وجمعها وقد عملنا على تهدئة الحالة وتصحيح افكار السكان بكل الوسائل، وغالب الظن أن مروجي هذه الاشاعات هم بعض الايطاليين المقيمن هنا أو غيرهم ممن لا يرضيهم الاتفاق والتفاهم الذي حصل بيننا وبين ايطاليا.
باشرنا في التحقيقات اللازمة في هذا الخصوص وسنعرض عليكم النتائج.
محمود ناجي الكاتب العام (المكتوبجي فؤاد)[1].

وفي الوقت نفسه عممت برقية الى كافة ملحقات الولاية باتخاذ الاجراء اللازم لمنع تكرار هذه الاعمال ومنع المقاومة بأي شكل من الاشكال من المحاولة على تغيير هذا الاتجاه أو تصحيح الافكار كما جاء في هذه البرقية، وهذا نصها:
«الى ملحقات الولاية شيفرة،
الصقت مناشير في عدة امكنة من المدينة مآلها أن ايطاليا لا زالت تطمع في احتلال طرابلس ولم تتغير نواياها في هذا الخصوص وباقية على تحقيق آملها كما كانت في العهد السابق (أي قبل الانقلاب العثماني) كما اشيع خبر من بعضهم بأنه ستقدم الى ميناء طرابلس يوم السبت القادم سفن حربية ايطالية، وعليه يجب مقاطعة البضائع الايطالية اسوة بمقاطعة البضائع النمساوية في العاصمة وجميع الولايات العثمانية(*)، ولكن حكومتنا بعدما تخلصت من عهد الاستبداد ودخلت تحت الادارة المشروعة وعهد التحرر ازداد اعتبارها وعلت مكانتها السياسية لدى الاوربيين ولم يبق مكان للتدخل لاية دولة في أية جهة من الممالك العثمانية وعليه يجب أن يعلم الجميع أن هذه الشائعات لا تتفق والموقف الموصوف بالحكمة والتعقل الذي اتخذته ايطاليا منذ اليوم السعيد (**) نحونا وحتى أنها احتجت كسائر الدول على تحركات البلغار والنمسا وأظهرت بذلك صداقتها للدولة السنية.
يوصى ويفاد بصورة سرية أنه اذا شاعت بطرفكم هذه الأراجيف، أن تعتنوا بتصحيحها بما يناسب.
محمد ناجي المكتوبجي فؤاد»[2].

---

(*) مقاطعة البضائع النمساوية، كان احتجاجا على احتلال البوسنة والهرسك.
(**) اليوم السعيد، يوم الانقلاب العثماني وخلع السلطان عبد الحميد وتولي جمعية الاتحاد والترقي الحكم، ونصب السلطان محمد رشاد حاكما.

واذا كانت الجماهير الشعبية العريضة قد تنبهت الى الخطر الايطالي وصارت تتهيأ للوقوف ضده فان كثيرا من ممثلي الفئات العليا، التي دأبت على استغلال الشعب بمختلف الوسائل وعلى الترفع والتعالي عليه قد سلكت ازاء الغزو الايطالي مسلكا آخر مما جعل السلطات الايطالية تمد ايديها نحو هذه الفئات وتكسب ودها وتستميلها الى جانبها قبل أن تشرع في الغزو. وهذه الحقيقة التاريخية المحزنة ليست جديدة، فالعناصر الطفيلية التي عاشت أجيالا على جهد الشعب وعرقه والتي اغتنت واكتنزت من خلال امتصاصها لثمرات جهد العناصر الشعبية البسيطة سرعان ما تنصرف عنه وتترامى في احضان المستعمر الاجنبي شريطة أن يضمن لها شيئا من المكاسب سواء كان ذلك في ليبيا أو في تونس أو في مصر وغيرها من أقطارنا العربية، ولذلك فقد عمدت ايطاليا الى شراء بعض ذوي النفوس الضعيفة وتأمين ولائهم عن طريق الهدايا والاموال وهو ما تحقق لها في شخص بعض السنوسيين في الشرق الليبي وبعض بقايا الاسرة القره مانلية في طرابلس...

بدأت السلطات الاستعمارية الايطالية نشاطاتها في برقة لاستقطاب زعماء الطريقة السنوسية نظرا لما كان يتمتع به هؤلاء الزعماء من سلطة دينية واسعة على كامل المنطقة، فحاولت ايطاليا أن تستميل اقطاب الدعوة لجر اتباعها الى صفها، فعمدت الى زرع بعض العملاء العرب والايطاليين الذين نجحوا في تكوين علاقات صداقة مع هؤلاء الزعماء عن طريق شرائهم بالهدايا والاموال

وقد كلفت ايطاليا الدكتور (انريكو انساباتو) وهو طبيب ايطالي عاش في مصر وأنشأ علاقات جيدة مع بعض الشخصيات المصرية، وأيضا (محمد علوي بك) وهو مصري يعمل مترجما في السفارة الايطالية في مصر، ويبدو أن الاثنين قاما بمجهودات طيبة كانت محط ثناء (كارلو غوتي بورشيناري) في كتابه «العلاقات العربية الايطالية» حيث قال عن انساباتو «أنه أهم عنصر استشراقي في نشاط انساباتو وهو مركب العلاقات المتجددة التي اوثق نسجها مع افراد العائلة السنوسية في برقة منذ سنة 1903 الى نهاية حياته وخاصة خلال الحرب الليبية،

وكان (سلفاجو راجي SALVAGO RAGGI) ممثل ايطاليا في القاهرة يجري الاتصال بالسنوسية بواسطة كل من علوي وأنساباتو تنفيذا لتعليمات واهتمامات حكومته، واعدادا لقيام الوجود الايطالي القريب في هذه البلاد مدركا أهمية ونفوذ الطريقة بالاراضي البرقاوية والصحراوية مما جعله يخطب ودها ويستميلها اليه[3]

وكان جوليتي ـ رئيس الحكومة الايطالية في ذلك الوقت ـ هو صاحب برنامج استمالة الوطنين والمشرف الشخصي على تقدمه، وقد كتب في مذكراته مبينا كيف حرك عملاؤه في طرابلس وبرقة وخاصة منهم محمد علوي فقال:

«وأثناء حكومتي السابقة(*) شغلت مباشرة بتوقيع قرب قيام ايطاليا بحملة على ليبيا، وانطلاقا من فكرة الاعداد المحلي والاستفادة من الصراعات

---

(*) حكومته الثانية (من نوفمبر 1903 حتى مارس 1905).

والانشقاقات، وتذمر الزعماء المحليين من السلطة التركية، حركت في طرابلس وبرقة بعض عملائي اذكر منهم محمد علي علوي بك وهو مصري سبق له أن قدم خدمات أخرى لايطاليا، وقد أقام علاقات بشيخ السنوسية، وشخصيات أخرى لا يحسن ذكر اسمائها الآن، لوجودها على قيد الحياة، واحتمال تعرضها للانتقام، وقد كانت هي أيضا من العناصر المنضوية الى السنوسية بالجامعة الازهرية بالقاهرة»[4].

وقد نجح عملاء جوليتي في استمالة بعض السنوسيين، كما يظهر من رسائلهم المنشورة في كتاب العلاقات العربية الايطالية، فقد كتب أحمد الشريف بتاريخ 16 اكتوبر 1909م:

«ان الاصدقاء (يعني الايطاليين) يريدون طرابلس وبنغازي وهاتان الجهتان خاضعتان للسلطان، واذا ما دخلوها، وسلمها لهم السلطان فلا يمكن أن نكون معارضين للاتفاق الذي عقده. إن جميع المسلمين من اكبرهم الى اصغرهم يحافظون على الولاء اليه، أما نحن فلا نحارب الا في الجغبوب حيث لا توجد سلطة للخليفة، وأننا جميعا نعمل تحت رايته، ورفض الاتفاقات التي يعقدها عمل مشين شرعا، وخلافا للفرنسيين فاننا نعتقد أن هؤلاء الطليان هم أصدقاء للمسلمين، ولن يقع منهم أي اعتداء على زوايانا لانهم مسيحيون»[5].

وكان هدف (انريكو انساباتو) يتركز على تضخيم احجام العطايا والهدايا للسنوسيين وكسبهم كأصدقاء أو حلفاء، وكان واسطته في تحقيق هذا الهدف (محمد علوي بك) فكتب انساباتو بتاريخ 16 مارس 1910 يعلم رئيس مجلس الوزراء الايطالي بأن محمد علوي يعد الهدايا التي سترسل الى السنوسي الكبير(*) ويطلب الامر بترجيع المصاريف إليه، ومع هذه الرسالة وجدت مذكرة مؤرخة في 21 مارس يلح فيها للحصول على رد من وزارة الخارجية الايطالية فيما يتعلق بالعطايا والتعليمات الخاصة بالعمل المستمر والملزم مع السنوسيين الذين كان لهم في القاهرة ممثلان هما فرج خليفة وعلي العابدي.

ويقول انساباتو في هذه المذكرة:

«إن كل العلاقات مع السنوسيين ترتبط باقرار هذا الموقف، إمّا استمالتهم اصداقاء اقوياء وإمّا فك الارتباط بهم بما يتبع ذلك من نتائج سلبية»[6].

ويلاحظ في مذكرة أخرى بعثها بتاريخ 14 يوليو 1910 أن مساعيه السابقة مع السنوسيين كللت بالنجاح وحققت بعض النتائج الايجابية، وتمكن من الحصول على استعدادهم للتعاون مع ايطاليا وتفضيل تجارتها حتى في جنوب الصحراء وتقديم كافة امكانياتهم تحت تصرف ايطاليا وجاء في هذه المذكرة:

«ان السنوسيين اعربوا عن استعدادهم لان يضعوا تحت تصرفنا نفوذهم الادبي والديني في الصومال أو بين مسلمي الحبشة أو في غيرهما من بلدان العالم

---

(*) نشرت في كتاب «العلاقات العربية الايطالية» رسالة بعث بها محمد ادريس السنوسي وأخوه رضا الى علوي بك يشكرانه على الهدايا التي بعث بها ويعربان عن اسفهما لعدم تسلمها رسالة مع الهدايا تاريخ الرسالة 1910/7/26.

الاسلامي، ويؤكدون اخيرا استعدادهم لتفضيل التجارة الايطالية في جنوب الصحراء»[7].

ويعزز هذه المعلومات التي جاءت في مذكرات انساباتو تقرير مركز شرطة الوسعاية بتاريخ 26 تموز 1327 الموافق 16 اغسطس 1911، رقم 149 الذي أشار اليه مدير الشرطة في رسالته رقم 49 نفس التاريخ الى والي الولاية وهذا نصها:

«الى حضور مقام معالي حامي الولاية،

حضرة صاحب الدولة افندم،

بتاريخ 25 تموز 1327 (7 اغوسطو 1911) قدم من الاسكندرية المدعو محمد بن علي بك في باخرة البريد الايطالية (روما) يقال أنه رئيس الترجمة بالقنصلية الايطالية بمصر، وبما أنه سنوسي الطريقة فقد اتصل هنا بالمنسوبين الى الطريقة السنوسية لالقاء بذور الفتنة والفساد، كما وصل في نفس الباخرة الدكتور كارديني انجلو الذي حاول مزاولة مهنته بلا رخصة كما وصل برفقته ايطالي وهو «آن سباتو دونا» وهناك اتصال مريب بين محمد بن علي بك المصري وبين الايطاليين وذلك بناء عل تقرير رئاسة مركز شرطة الوسعاية (*) المؤرخ في 29 تموز 1327 (اغوسطو 1911) رقم 149 وقد صدرت تعليمات رئيس المركز بمراقبة المذكور يعرض على سيادتكم ما تقدم للمعلومية.

29 تموز 1327 (11 اغوسطو 1911) مدير الشرطة عاصم»[8].

أما في طرابلس التي لم تكن الدعوة السنوسية تمتلك صفات القوة ولم يكن لشيوخ القبائل ذلك النفوذ المتميز في برقة فإن ايطاليا القت على قناصلها مهمة استمالة بعض العناصر المحلية، والتي كانت على علاقة مع بعض الشخصيات، وفي الوقت نفسه اطمأنت الى تقارير القناصل التي كانت تشير الى الغليان الشعبي ضد الحكم التركي والتي زعمت بأن الشعب سيستقبل التدخل الايطالي بالورود والهتاف، الى جانب وجودها الثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي حقق لها تعاطف بعض الشخصيات، ومن هنا فإن محاولتها في استمالة العناصر المحلية لم يكن بالشكل الذي كان في برقة. وخاصة أن بعض هذه العناصر كانت على علاقة مع بعض القناصل الايطاليين، فكان تركيز القنصلية الايطالية على اصحاب المناصب الكبيرة، ويحدثنا الطاهر الزاوي عن هذه العلاقة فيقول:

«لكن الاهمال غلب على جميع اعمالها ـ يقصد الحكومة العثمانية ـ وقد عرف الموظفون منها ذلك فتجرأوا عليها ووجدوا في حماية النفوذ الايطالي في طرابلس ما شجعهم على التمرد والخروج على الطاعة.. وقد بلغ من جرأة هؤلاء الخارجين على الوطن أن جعل أحدهم من بيته استراحة لقنصل ايطاليا في غدواته وروحاته، كما جعل بيته ناديا يجتمع فيه مروجو السياسة الايطالية للتشاور فيما يصدر اليهم من

---

(*) مركز شرطة الوسعاية، كان موقعه في ميدان الوسعاية قرب مدرسة عثمان باشا.

التعليمات من بنك دي روما والقنصلية الايطالية، وأصبح الموظف في حكومة طرابلس الذي لا رادع له من وجدانه واخلاقه يفعل ما يشاء من غير أن يخشى لوما، اتكالا على حماية القنصلية الايطاليه له»[9].

وأكد على هذه العلاقة جوليتي في مذكراته اذ يقول:

«وكان الوضع في طرابلس أكثر تعقيدا، فتقارير قناصلنا قد نبهت الى حقيقة أن الحكم التركي ليس حكما شعبيا، ولا يظفر بتجاوب بين صفوف العرب الذين كانوا قد تعرضوا على الدوام الى الاضطهاد... ولم يكن الامر ليخلو من وجود شخصيات ذات نفوذ، ممن لم يكن يبدو عليها الرفض للتفاهم معنا مثل عميد بلدية طرابلس، (حسونة باشا) سليل الاسرة القره مانلية التي كانت تحكم طرابلس»[10].

وقال ايضا:

«ومع ذلك فان قناصلنا لم يخدعوا أنفسهم في الخصوص، بل افترضوا وقدروا أنه في حالة انفجار الحرب فان الدعوة الى التعصب الاسلامي والايمان الوطني لن تكون عبثا أو تذهب ادراج الرياح، وفعلا فقد بدأت اللجان المحلية للاتحاد والترقي، منذ مدة في شن حملة وطنية متعصبة، ودعت الشيوخ والاهالي العرب للاجتماع بالمساجد للتعبير عن الاحتجاج ضد ايطاليا، وقد كانت الاستجابة في البداية محدودة، عادية ولكنها أخذت تتصاعد وتزداد تدريجيا»[11].

ومما لا شك فيه أن ايطاليا نجحت في استمالة بعض الزعماء السنوسيين في برقة وبعض الشخصيات في طرابلس، ويكفي أن نذكر أن محمد ادريس السنوسي كان على وفاق واتفاق مع الحكومة الايطالية حتى في الفترة التي اشتدت فيها المقاومة في الجبل الاخضر، أما في طرابلس فقد اقام حسونة باشا القره مانلي ـ الذي كان يمني نفسه بحكم ذاتي على غرار الحكم في تونس ـ حفلا تشريفيا في السراي الحمراء على شرف الاميرال بورباريتشي قدم فيه حوالي مائة من بعض الشيوخ والرؤساء الذين اقسموا على الولاء للحكومة الايطالية، ووقفت فرقة موسيقى الاسطول الايطالي تعزف امام السراي.

**هوامش**

1 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 1568 بتاريخ 29 اكتوبر 1908.

2 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثائق غير مصنفة بدون رقم بتاريخ 20 تشرين الاول 1324، 2 نوفمبر 1908.

3 ـ كارلو قوني بورسيناري ـ العلاقات العربية الايطالية، مركز دراسات جهاد الليبيين ـ سلسلة الدراسات المترجمة (3). 1980 ص 120.

4 ـ خليفة التليسي، مذكرات جوليتي، مرجع سابق، ص 47.

5 ـ كارلو قوني بورشيناري ـ مرجع سابق ص 130.

6 ـ العلاقات العربية الايطالية، مرجع سابق، ص 138.

7 ـ كارلو قوتي بورشيناري، مرجع سابق، ص 138.

8 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 1567 بتاريخ 11 اغسطس 1911م.

9 ـ الطاهر الزاوي، جهاد الابطال، مرجع سابق ص 38.

10 ـ خليفة التليسي، مذكرات جوليتي، مرجع سابق، ص 58.

11 ـ يحيى جلال، المغرب الكبير، مرجع سابق، ص 745.
انظر كذلك:

Mc CLURE. WK Italy in north Africa LONDON 1913 p. 50.

## المبحث الثاني :

### التمهيد الثقافي الايطالي داخل البلاد العربية :

حاولت ايطاليا أن تمهد لاحتلالها لليبيا بتمهيد ثقافي في بعض الاقطار العربية والمراكز الاسلامية، بغية ضمان سكوت هذه الاقطار والمراكز الاسلامية التي يمكن أن يشكل تعاطفها وتأيدها لليبيين في مقاومتهم للاحتلال احباطا لخططها العسكرية. فأنشأت العديد من المدارس والنوادي والمطبوعات الصحفية وغيرها من الوسائل الثقافية.

ونظرا لاتساع هذا الموضوع وتشعب جوانبه فاننا سنكتفي بدراسة النشاط الثقافي الايطالي في مصر نظرا لما تمثله من أهمية خاصة بالنسبة للعالم العربي والاسلامي ونظرا لانها، ومنذ قرون عديدة تحتضن الجامع الازهر الذي كان مركز اشعاع هام بالنسبة للعالم الاسلامي كله ولكونها ـ لهذه الاسباب ـ محط أنظار طلاب العلم من مختلف أرجاء المعمورة ولعل ذلك كله هو الذي جعل الانظار الاستعمارية الايطالية تتجه الى هذا القطر العربي في محاولة خلق القاعدة الثقافية التي تدعمها وتساندها أثناء غزوها لليبيا، وساعد ايطاليا في نشاطها الثقافي في مصر وجود جالية ايطالية كثيرة العدد، ومزاحمة اللغة الايطالية اللغات الاوربية الحديثة في الانتشار(*).

وتمكنت ايطاليا من تأسيس مطبوعة صحفية تصدر باللغتين العربية والايطالية توزع في كافة انحاء العالم الاسلامي والعربي، سست في سنة 1904 تحت الرعاية الابوية لعدد من علماء المسلمين من بينهم الشيخ «محمد عبده» ووضع التعاون الايطالي العربي الاسلامي، منهجا لاعمالها ودأبت هذه المجلة على وضع مسألة التعاون بين ايطاليا والعالم الاسلامي العربي في صيغته الروحية والثقافية على وجه الخصوص.

وعرفت هذه المطبوعة باسم (النادي Il Convito) وصدرت في القاهرة بين سنة 1904، 1913 في صورة جريدة اسبوعية في البداية، ثم تطورت لتصبح مجلة شهرية، وقد احتجبت عن الظهور في بعض الاحيان خلال هذه الفترة، أما دوافع هذا العمل فتوضحه هذه الرسالة الصريحة التي بعث بها انساباتو الى رئيس مجلس الوزراء والتي لا نعرف تاريخ كتابتها بالضبط

---

(*) ويذكر (جونستون Johnaston) أنه حين زار مصر لاول مرة في سنة (1884) وجد أن معظم صناديق الخطابات في مكاتب البريد كان مكتوبا عليها (Buca per le lettere) مما يدل على أن اللغة الايطالية كانت متداولة ومفهومة في المدن المصرية أكثر من اللغة الفرنسية بينما لم تكن اللغة الانجليزية مستعملة بتاتا في ذلك الوقت ـ ويقول «إنه لو ان جلادسو Gladston) قد دعا ايطاليا سنة (1882) الى أن تحل محل فرنسا في عمل مشترك مع انجلترا في مصر ـ فان مثل هذا التصرف ما كان يبدو غريبا في ذلك الوقت، كما يبدو الان).

د. شوقي الجمل، مرجع سابق ص 343

Johnaston. H.H. (Ahistory of the colonization of Africa by Alien RACES) CAMBRIDGE 1913 p. 393.

وان كان ذلك التاريخ يعود الى فترة سابقة للحرب الليبية دون شك يقول كاتب الرسالة:

«منذ سنة 1901 تشرفت بتقديم مشروع اقامتي في مصر الى جوليتي وقد كان رئيسا لمجلس الوزراء والشروع في اصدار جريدة مطبوعة على أن نعمل حتى تكون ادارة الجريدة مركزا لتجميع المعلومات السياسية، مع القيام بتلك المهات التي لا يمكن أن تقوم بها المفوضية المملكية بالقاهرة كما هو معلوم ولقد وقع اختياري على القاهرة باعتبارها مركزا حيويا، وأقول الدماغ المفكر للعالم الاسلامي»[1].

وبعد سنوات قليلة استطاعت هذه المجلة أن تغزو أكبر مساحة يمكن أن تحققها مطبوعة في تلك الفترة فكانت توزع في طرابلس والسودان ووادي والجزيرة العربية واليمن والهند وآسيا الصغرى، واستطاعت أن تنال رضى بعض الزعامات الاسلامية وحتى منها ما كان يرفض أي تعاون اسلامي أوربي وكتبت الموسوعة الحديثة المصورة Encyclopedie Sennteporaine Ellusite) في صفحاتها الاولى عن هذه المجلة ونشرت معها صورة انساباتو ومقالا طويلا بتوقيع (تي. ماري T. MARY) في 25 سبتمبر 1908 جاء فيه:

«ان الشاب الحكيم الايطالي الذي ننشر اسمه وصورته في أعلى هذا المقال هو بالتحديد من الشخصيات اللاتينية الذين ساهموا أكبر مساهمة بما له من تأثير معنوي في تفضيل نفوذ الشعوب اللاتينية في الشرق».

ويتحدث (تي. ماري) بعد ذلك عن المجلة مشيرا الى الاتصالات بالعالم الاسلامي فيقول:

«ان هذه الاداة التي نالت انتشارا سريعا جدا في العالم الاسلامي تصل الى أيدي القراء حتى في طرابلس والجزيرة العربية والسودان وأصبح مديرها يتبادل رسائل المجاملة مع الشخصيات الاسلامية الكبيرة الذين كانوا لا يخفون رفضهم لكل علاقة مع العناصر الاوربية.

إن امام اليمن والكثير من مشائخ الحجاز والسنوسيين بطرابلس وكذلك سلطان واداي، هؤلاء جميعا عرفوا «مجلة النادي» وخرجوا عن صمتهم ليقدموا التهاني الى الدكتور (انساباتو) تقديرا لعمله، وقد انضم بعض مسلمي الهند الى اخوتهم في افريقيا وآسيا الصغرى ليؤكدوا الى مؤسس المجلة الجديدة اهتمامهم بأعماله.

وقد كان هذا العمل مثمرا وظهرت نتائجه في وقت قصير، فلقد استطاع الدكتور انساباتو أن يدخل اللغة الايطالية مادة تدرس في منهج أكبر مدرسة عربية في القاهرة ـ المدرسة التحضيرية ـ وبالاضافة الى ذلك وبفضل وساطته، فتح رواق الازهر الشريف لاستضافة ابناء المسلمين القادمين للدراسة من المستعمرات الايطالية»[2].

ويبدو أن ذلك النجاح في انتشار ونشر مجلة النادي كان ملهما لذلك الـ«انساباتو» فوسع اعماله «الثقافية لتشتمل مجالات أخرى فجعل اللغة الايطالية مادة دراسية في اكبر مدارس

القاهرة وفتح رواق في الازهر للمستعمرات الايطالية ويبدو أنه استطاع أن يستميل الشيخ عليش، مفتي الازهر حتى أن هذا الاخير اقام مسجدا من ماله الخاص بالقرب من الجامع الازهر اطلق عليه اسم امبرتو تيمنا وبركة بأعماله الصالحة الجليلة وعطفه على الاسلام ـ حسبما كانت تروج مجلة انساباتو، في مقال نشر في هذه المجلة في العددين الثالث والرابع سنة 1907 وبتوقيع عبد الهادي العجيلي وضح فيه علاقة الشيخ عليش بايطاليا حامية الاسلام والمسلمين جاء فيه:

«لقد بنى الشيخ عليش على حسابه الخاص، وعلى قطعة ارض مجاورة للبيت الذي يسكنه وللأزهر نفسه مسجدا أهداه الى ايطاليا وسماه باسم المرحوم الملك (امبرتو UMBERTO) والشيخ عليش هو من أشهر رجال الاسلام وهو ابن مجدد المذهب المالكي، وهو نفسه متضلع محترم من الجميع ومن عامة الناس الى الامراء والسلاطين، ويترأس كذلك كثيرا من الطوائف الدينية الموزعة في كافة اطراف العالم الاسلامي، وهو كذلك حجة في المعقول والمنقول وفي الفقه والسياسة».

ويحاول الكاتب أن يضع جوابا لتساؤلنا لماذا بنى الشيخ عليش هذا المسجد فيسعفنا بالرأي ويقول:

«وبمعرفته لاسطورة روما، وبما له من عطف على العقلية المسيحية، رغم أنه لا يقبل لبعض ما فيها من ميتافيزيقية، وباطلاعه في النهاية على ايطاليا المتجددة، وانها تستطيع أن تكون مثالا يحتذى به وهادية للشرق في مسيرته، إن ايطاليا تفضل أية دولة اوربية أخرى وهي ستكون حليفة طبيعية للمسلمين في الوقت الذي يشدون العزم القاطع على الانبعاث».

ويسارع المؤلف الى التصريح علانية وبكل وضوح بالاهداف الاستعمارية المرجوة من مثل هذه الاعمال المنطلقة من «العطف على العقلية المسيحية» والتي يمكن أن تثبت اقدام ايطاليا الغازية في الشرق دون منازع وأن تحقق لها من المكاسب ما لم يتحقق لغيرها عن طريق العنف فيقول:

«ان مسجد امبرتو وحده يكفي أن يسبغ على ايطاليا صفة الدولة التي تعطف على الاسلام، وسيكون لها وحدها النفوذ في الشرق الاسلامي، واذا ما عرفت ايطاليا السبيل الى اغتنام الوقت والوضع فانها ستجد نفسها دون منافس في أسواق الشرق بعد عشرين سنة وهو ما سيحقق الخط الوطني وستكسب ايطاليا اكثر من طريق الخير ما لم تكسبه الدول الاخرى بالعنف والكذب»[3].

ويبدو أن المندوب العثماني استاء كثيرا لهذه العلاقة التي استطاعت أن تحققها مجلة النادي مع كبار الشخصيات في مصر والتي لها تأثير ونفوذ واسع على الوطن العربي والعالم الاسلامي، وأبدى تخوفه من نجاح المجلة في تحقيق اهداف ايطاليا في الاستيلاء على ليبيا، فبعث بعدة رسائل الى حكومته منها هذه الرسالة المؤرخة في 26 تشرين الثاني 1320، 25 نوفمبر 1904 والتي جاء فيها:

«إن بعض اشخاص من هيئة تحرير جريدة النادي التي تصدر منذ مدة باللغتين العربية والايطالية، والتي تحاول في ما تنشره استمالة اهالي ولاية طرابلس الغرب لايطاليا والركون اليها، وقد عقدوا العزم للسفر الى ليبيا وبصحبتهم علي علوي بك مترجم القنصلية الايطالية هنا، يرجى الحيلولة دون تمكينهم من الدخول هناك»[4].

لكن هذا التخوف الذي انعكس في رسالة المندوب العثماني لا يستغرق المخاطر والنتائج التي انبثقت عن ذلك النشاط الايطالي الثقافي في مصر بل يمتد الى المواقف الفعالة التي وقفها عدد من المثقفين المصريين، النافذي الكلمة، من الغزو الايطالي لليبيا فيما بعد، لقد وقف الشعب العربي في مصر يؤيد النضال الليبي ضد المستعمر الغازي وامتدت أياديه بالتبرعات الى اشقائه المجاهدين بينما وقف بعض المثقفين المتأوربين المتأثرين بالدعاية الاستعمارية في وجه ذلك المدّ القومي الانساني النبيل. ونكتفي بهذه المناسبة بايراد مقتطفات قصيرة من كتاب الدكتور عبد المجيد المحتسب حول طه حسين فقد ورد فيه:

وحينما هاجمت ايطاليا طرابلس الغرب يهتز جاويش للموقف في صيحة مدوية يومية تحمل جريدة «العلم» لواءها كل يوم مطالبة العالم الاسلامي كله بالتقدم للتطوع والتبرع بالمال. وقد حمل حملة عنيفة على أحمد لطفي السيد رئيس تحرير الجريدة عندما عارض في معاونة طرابلس داعيا المصريين الى التوقف عن تقديم المساعدات»[5].

ومن المعروف أن لطفي السيد هو من أكبر أصدقاء محمد عبده.

ثم يقول عنه في مكان آخر:

«وقد دعا المصريين الى التزام الحياد المطلق في هذه الحرب الاستعمارية الايطالية والى الضن بأموالهم أن تبعثر في سبيل قل ما تفيد بلادهم منه ويذكرهم بأن من الخير أن يبذلوا هذه الاموال لخير مصر»[6].

ويعود المؤلف اكثر من مرة الى موقف لطفي السيد من هذه الحرب ولا شك أن الدعايات الايطالية (والغربية عامة) والتي استمرت طويلا فوق ارض مصر قد تركت اثرها الواضح في بعض النفوس.

**هوامش**

1 ـ كارلو قوتي بورشيناري، مرجع سابق، ص 35.
2 ـ المرجع السابق، ص 16–17.
3 ـ المرجع السابق، ص 43–44.
4 ـ وثيقة رقم (2)، مركز دراسات جهاد الليبيين، (ملف التمهيد للغزو) من ارشيف رئاسة الوزراء في استانبول، من الرسائل التي بعث بها احمد مختار باشا الى رئاسة الوزراء.
5 ـ د. عبد المجيد عبد السلام المحتسب، طه حسين مفكرا، دار احياء التراث العربي 1971، ص 32.
6 ـ المرجع السابق، ص 46.

# المبحث الثالث:

## أ ـ التوسع الاقتصادي الايطالي في ليبيا:

اذا كان التوغل الاقتصادي كتمهيد للغزو من الامور التي تعد «حديثة» بالنسبة لتاريخ الاستعمار ـ اذ هي تحسب في العادة من ملامح الاستعمار الجديد ـ فانها كانت من الوسائل الاساسية التي التفتت اليها السلطات الاستعمارية الايطالية منذ بداية القرن الحالي، عندما اخذ النشاط الاقتصادي يتزايد ليصبح واحدا من اهم ملامح السياسة الخارجية الايطالية في ليبيا ومن أهم العوامل التي ساعدت على التسريع بعملية الغزو. وكان بنك روما المنفذ الاساسي لهذه السياسة. والذي ساعد على تكوين هذا الاتجاه الثروة الاقتصادية والمالية العظيمة لشمال ايطاليا منذ سنة 1900 على جعل جزء كبير من الامة يتلهف لجعل الحكومة تؤكد ذاتيتها وبذلك يمكن القول إن ايطاليا كانت متهيئة للقيام بمغامرة ما، وكان يبدو أن الظروف مثالية في طرابلس لمغامرة ليست شديدة الخطورة وناجحة، وفي نفس الوقت وفي طرابلس أيضا وجدت مؤسسة مالية تحت تصرف الحكومة الايطالية تشبه المصرف الروسي الصيني في منشوريا ومصرف باريس في مراكش، وفي طرابلس كما في غيرها تعتبر المصالح المالية منها مفتاح الموقف[1].

وقد اختير عام 1905 ليقوم بنك روما بهذه المهمة، تلك المؤسسة المالية التي ترتبط ارتباطا قويا بالاوساط الكاثوليكية، وقد تأسس هذا البنك في مارس 1880 بمبادرة من بعض الاغنياء البارزين في روما ومن الكاثوليك[2].

وكان هذا البنك في بدايته مؤسسة مالية، يمارس نشاطه الاقتصادي محليا وسرعان ما بدأ في النمو والاتساع، وفي العشرين سنة الاولى من حياته وجه اهتمامه بتمويل قطاع الخدمات العامة في روما، كالمياه والغاز وشركة المطاحن وشركات النقل مثل القطار الكهربائي والحافلات في المدن، وكانت هذه الخدمات في نهاية القرن التاسع عشر تعتبر من الخدمات ذات مردود اقتصادي جيد، وسرعان ما بدأ هذا البنك في منافسة البنوك الاخرى والقضاء عليها، وتمكن في سنة 1900 في شهر مارس من التهام البنك الروماني الكاثوليكي الفني العمالي وقام بتوسيع نشاطه بشكل ملموس في ايطاليا أولا ثم خارجها في عهد رئيسه (ارنستوباتشيللي) الذي يعتبر من أغنياء روما الكاثوليك عندما كان يتولى وزارة الخارجية (توماس تيتوني Tomas TITTONI) الذي تمكن من كسر حظر الكنيسة على الكاثوليكيين من ممارسة الحياة السياسية

للدولة، ونتج عن ذلك اشتراك العديد من الكاثوليكيين في حياة البلاد السياسية بعد عشرات السنين من الصراع ضد المؤسسات الليبرالية[3].

وقد تحدث (تيتوني Tittoni) وزير الخارجية، في مجلس الشيوخ في 10 مايو 1905 فذكر أنه كلف السفير الايطالي بأن يشرح للسلطان أن أغراض السياسة الايطالية سلمية، تقوم على اساس المحافظة على الوضع القائم، وتقصد الى زيادة توثيق علاقات ايطاليا الودية مع تركيا، ولكن نظرا لان ايطاليا ترغب في المحافظة على هذه العلاقات الودية فانها تلفت نظر السلطان بشكل خاص الى النتائج الخطيرة التي تنتج بالنسبة لتركيا من منحها موافقات أو امتيازات في طرابلس وبرقة قد تتعارض مع المصالح الايطالية، وان مثل هذا التصرف قد يجبر الحكومة على أن تتخذ خطوات ايجابية[4].

وكانت خطبة تيتوني في مجلس الشيوخ الايطالي في غاية الاهمية اذ انه قد اشار فيها الى الموقف في البحر المتوسط والى حماية المصالح الايطالية وذكر أنه اذا كان التحفظ يمنعه من التحدث عن الاعمال الفردية التي بنى عليها اعتراف جميع الدول التي يخصها الامر بأولوية الحقوق الايطالية على طرابلس قبل حقوق اية دولة أخرى فإن شيئا لا يمنعه من القول بأن هذه الحقوق قد تأكدت بأوضح وأوثق طريقة وذكر انه كان يتساءل عن الطريق الذي تستطيع به الحكومة الايطالية أن تحصل على هذه الحقوق: «هل هي تستعد لاحتلال طرابلس؟ على هذا السؤال اجيب بالتأكيد. لا. «وذكر أنه يعتقد أن على ايطاليا الا تقوم باحتلال طرابلس الا في حالة ما اذا اجبرتها الظروف على ذلك وان ايطاليا لتجد في طرابلس العامل الذي يقرر توازن النفوذ في البحر المتوسط ولا تستطيع أن تسمح باختلال هذا التوازن، وان الايطاليين يتبعون سياسة سلمية، وهي ما تطالب به البلاد، ولكنهم في نفس الوقت يستعدون لحماية مصالحهم الحيوية في البحر الذي يحيط بهم، ومن الواجب أن تكون لديهم الوسائل التي تمكنهم من حمايتها... ثم تحدث عن سياسة تقوية الاسطول وقال: إنه حينما يتم ذلك فان الحكومة لن تفكر كذلك في احتلال طرابلس في ذلك الوقت خاصة وانها على علاقة صداقة مع تركيا، وان احتلال اراض تابعة للامبراطورية العثمانية يعمل على تشجيع أولئك الذين يرغبون في تقريب نهاية تلك الامبراطورية.

وأشار وزير الخارجية الى أن ايطاليا اذا كانت لا ترغب في احتلال طرابلس في ذلك الوقت فان ذلك لا يعني انها لن تقوم هناك بأي شيء، بل ان الحقوق التي لايطاليا على طرابلس في المستقبل ستعطيها في الوقت الحاضر الافضلية في الميدان الاقتصادي، وفي ادارة رؤوس اموالها في تلك المنطقة، وفي زيادة المعاملات التجارية والمشروعات الزراعية والصناعية وذكر أن ايطاليا تعتمد في ذلك على موافقة الباب العالي الذي يجب عليه اظهار رغبته في تسهيل اعمال ايطاليا السلمية والعمرانية، واذا كان السلطان عبر دائما عن صداقته لايطاليا فمن الضروري أن يشارك الموظفون العثمانيون في طرابلس في مثل هذا الشعور[5].

ويعود اختيار (تيتوني TITTONI) لبنك روما للقيام بهذه المهمة في طرابلس الى شقيقه .رومولو تيتوني R. TITTONI) الذي ترأس هذا البنك في وقت من الاوقات، وأيضا لصلة

هذا البنك برجال الكنيسة وشخصيات الحكم والتي تبرز في رأس ماله ومسيريه، ويكفي أن نشير الى أن مديره أيضا في وقت من الاوقات التي كانت تشتد فيها الحملة المسعورة كان (ارنستوبا تشيللي) وهو عم الكاردينال باتشيللي الذي صار فيما بعد البابا بيوس الثاني عشر[6].

يضاف الى هذا أن اختيار هذا المصرف للقيام بأعماله الاقتصادية كان مدفوعا أيضا من (دي سان جوليانو Di San GIULIANO) اذ لاحظ في برقية بعث بها في اول ابريل 1911 الى (ماريو دي بلانش Mario PLANCHES) سفير ايطاليا اذ ذاك في استانبول اذ قال:

«ان نشاطنا في طرابلس وبرقة يجب أن يتركز في بنك روما حيث اننا لم نجد من أية جهة أخرى (لا مؤسسات ولا أفراد) على ادنى موافقة»[7].

وقد استطاع هذا البنك أن يخلق قواعد اقتصادية لايطاليا في ليبيا، ويخلق لها المبررات لحماية مصالحه والدخول مع السلطات التركية في سلسلة من الصراعات المنفصلة والاحتجاجات الباطلة باتهاجه للخط السياسي الموجه من الحكومة الايطالية التي حصلت منه قيادة استعمارية لانجاح الاحتلال وتحقيق الغزو عن طريق التغلغل السلمي. أو كما وصفه بعض السياسيين بأنه بمثابة طروادة لايطاليا.

وقد أكد المحامي (فيليبو بيديكوني Filippo BEDICONI) دور الحكومة الايطالية في الدفع ببنك روما للقيام بعدة مشاريع اقتصادية تكون قاعدة التوغل السلمي وذلك في الدعوى التي قدمها الى محكمة روما لمقاضاة وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ووزارة الخزانة بدفع تعويض عن الاضرار التي لحقت بالبنك خلال الحرب في ليبيا جاء فيها:

«إن حكومة ايطاليا منذ عام 1905 كانت تصرح رسميا ـ وكما تؤكد الوثيقة ـ(*) برغبة ايطاليا في الاستحواذ اقتصاديا على ليبيا في الوقت الذي لا ترغب في الاستيلاء عليها عسكريا في هذا الوقت، وكان من الضروري القيام بسياسة التغلغل بوسائل اقتصادية وبمبادرات قوية».

وقد استجاب بنك روما لالحاح الحكومة وحقق جميع نشاطاته في ليبيا «بتفاهم متواصل مع الوزراء المختصين» وقام أيضا بانشاء سلسلة من الفروع في بعض المراكز العربية والاسلامية المهمة، فأنشأ فروعا في استانبول[8] وكذلك في الاسكندرية[9].

وتهدف الحكومة الايطالية من انشاء وكالة مصرفية باستانبول في محاولة لخلق كيان اقتصادي ايطالي بسوق تركيا الغني، وقد طلب من بنك ايطاليا أن يقوم بهذه المهمة الا أنه لم يوافق، وقد كان ينظر الى تنفيذ هذه المهمة باهتمام خاص، وقد لاحظ جواكينو فولبي في كتابه «عملية طرابلس»:

«أن هذه المهمة تضع المسألة الطرابلسية في مجال شامل يجعل ايطاليا تتغلغل في كامل الامبراطورية التركية وفي الشرق عامة التي كانت تتنافس عليها الدول في تلك السنوات، وخاصة أننا كنا لا ننظر الى طرابلس بل الى الشرق وآسيا

---

(*) الوثيقة موجودة في (A.MAI. pos. 178 - 1F. 7) ورفعت الدعوة في 1910/3/31.
الوثيقة تحمل عنوان «بنك روما المطالبة القضائية والمصالحة مع الحكومة.

الصغرى نظرا لفقرها، ولكن ننظر اليها كنقطة اندفاع الى الامام».

وقد قبلت الجمعية العامة للمساهمين في بنك روما موضوع التوسع المصرفي بحماس شديد، وكذلك فكرة افتتاح فرع للبنك في تركيا.

## ب ـ بنك روما والامتيازات الاقتصادية:

حصلت ايطاليا على امتياز لتأسيس فرع لبنك روما عام 1905 في كل من طرابلس وبرقة، وشرع في نشاطه الفعلي في ليبيا بتاريخ 15 ابريل 1907[10] وفي العام الذي بلغت فيه أزمة فائض الانتاج درجة التأثير في الوضع الاقتصادي الايطالي وخاصة في قطاع المعادن والقطن، وقام أيضا بتأسيس وكالات تجارية في كل من بنغازي وزوارة والخمس وسرت ومصراته وزليطن ودرنة وطبرق والسلوم وبعض المدن الداخلية[11].

وقد حاول هذا البنك الهيمنة اقتصاديا على ليبيا اذ سيطر سيطرة تامة ومباشرة على كامل الاقتصاد، واتسعت دائرة نشاطه فشملت الصناعة والتجارة والزراعة والنقل وكذلك التنقيب واستغلال الموارد المعدنية في البلاد، وخاصة الفوسفات والكبريت.

ومن النشاطات الاقتصادية لهذا البنك انشاؤه في شهر ديسمبر من عام 1907 مؤسسة الزيوت الايطالية بطرابلس، وقد اقام لها منشآت في كل من الخمس وزليطن ومصراته، كما افتتح في شهر مارس 1910 بطرابلس مصنعا كبيرا لعصر الزيوت بواسطة سلفور الكربون وفي 16 اغسطس 1910 دشن بطرابلس مطحنا كبيرا كان يعمل على تجهيز جيش الاحتلال الايطالي بالدقيق[12] (*).

وأنشأ في بنغازي منشأة زراعية تتضمن الاف الهكتارات وخمسة عشر ألف رأس من المواشي. وكان يطبق نظام المحاصصة مع بعض القبائل في برقة، وتمكن البنك من انشاء مصنع للثلج وتصنيع الاسفنج وريش النعام كما تمكن أيضا من انشاء مطبعة[13].

والى جانب هذه الانشطة كان المصرف يقوم بتقديم قروض مقابل الرهن بطرابلس، وبشراء الاراضي بعد الحصول على تسهيلات من الدولة العثمانية عن طريق سفيرها في روما (حقي بك) والذي كتب الى حكومته يقول:

---

(*) اذا كان مصرف روما قد استأثر بالاعمال الاساسية ذات الاهمية الكبرى في اقتصاد البلاد فان هناك نشاطات اقتصادية أخرى كانت تمارس خارج اطار ذلك الهدف، وقد نشرت ايكودي تريبولي في العدد الوحيد الذي تمكنا من العثور عليه خبرا طريفا يدلل على وجود امثال هذه النشاطات فهو يتحدث عن انشاء مدبغة كبيرة في طرابلس ولا شك أن ذلك لم يكن بالنشاط الوحيد، جاء في الصحيفة.

«مدبغة جلود ايطالية في طرابلس Una Conceria di pelli italiana a Tripoli ايكودوي تريبولي، السنة الثالثة، العدد 37، 10 مايو 1911 الى مواطننا السيد (دييغو. ن. سفالي Diego di SAVALI) منذ شهور قليلة فكرنا في انشاء مدبغة في طرابلس وفق الأساليب المتطورة والطرق الحديثة، دون النظر الى اعتبارات الجهد الضروري الذي يحتاجه هذا المشروع حتى يخرج الى حيز التنفيذ وقد تم بالفعل استدعاء شيخ تونسي مسن الى طرابلس وهو يتصف بالذكاء ويحترف الدباغة وعلى صلة بالسيد (كامبو CAMPO) ويزاول هذه المهنة بنجاح دائم منذ عام 1876م. وبمشورة وادارة هذا النشط ـ كامبو ـ والدباغ الكفوء تم اخيرا تشييد هذه المنشأة في الساحة الكبرى بالشارع

«إن ايطاليا تبذل جهدا كبيرا لمساعدة الحكومة العثمانية خصوصا بعد الدستور، ومن الواجب على الباب العالي أن يتسامح مع بنك دي روما تثبيتا لاواصر المودة بين الدولتين، واحكاما لمبادىء الحب والصداقة».

وبناء على هذه التوصيات من سفير الدولة أوعز الباب العالي الى الحكومة المحلية بطرابلس أن تقبل بيع الاراضي البور باسم المدير العام لبنك دي روما ولكن الوالي رجب باشا عارض هذه السياسة أشد المعارضة وصار يمانع في بيع الاراضي لبنك دي روما[14]. وقام في بعض الاحيان بمعاقبة الاهالي الذين يقومون بتقديم مساعدات الى هذا البنك أو لرهن أو بيع أراضيهم، حتى انه اضطر مرة الى حبس ثلاثة ليبيين لقيامهم ببيع أراضيهم لايطالي[15].

وحاول رجب باشا أن ينبه الباب العالي الى مخاطر السماح لهذا البنك بمزاولة نشاطاته والذي يسعى في تنفيذ أغراضه غير المشروعة بكل قوة، فبعث بتقرير الى رئاسة الوزراء هذا نصه:

«الى حضور مقام الصدارة (رئاسة الوزراء)
20 كانون الثاني 1327 ـ 6 فبراير 1908
توضع على الظرف (سري)
رقم 25

ان بنك روما الذي احيط معالي فخامتكم علما بكيفية فتحه من المخابرات الجارية، بدأ في تنفيذ اغراضه بكل قوة وهي وضع أسس التدخل واحداث المشاكل واستملاك الاراضي لتوطين المهاجرين الايطاليين وتزييد نفوسهم في هذه الولاية وفي متصرفية بنغازي والحقيقة أحيل هنا دون شراء البنك لاملاك الاهالي السذج رغما على دفعه اثمانا تزيد على قيمتها ببضع مرات وذلك بتقديم القروض الكافية من طرف البنك الزراعي الذي زود اخيرا بمبلغ اثنين وعشرين ألف جنيه، وفرع البنك العثماني لذوي الحاجة من الاهالي ولكن حسب الاخبار

---

الغربي. لقد انتقلنا الى الموقع حيث تم استقبالنا بكل حفاوة ومودة من قبل السيد (سفالي SAVALLI) و(كامبو CAMPO) ووضحا لنا كيفية العمل في المذبغة في كامل مراحلها. وقدّما لنا الشروح اللازمة لطريقة العمل المتبعة، وأكدا لنا بأن انتاجها سينافس بشكل واسع أحسن الجلود الروسية المفضلة لدينا نحن الاوربيين وخاصة النساء. وفي الوقت نفسه تمكنا من معاينة الجلود الرائعة المدبوغة باللون الاصفر التي تستعمل على نطاق واسع من قبل سكان البلد لصنع الاحذية (البلاغي). ان المتاجر الرئيسية لتوريد الاحذية بالجملة استأثرت بكامل الانتاج تقريبا وسحبوا حوالي 3000 قطعة جلد من مختلف الانواع. وقد شرع السيد (سفالي) في تصنيع الجلد، وحالما يتمكن من ترتيب وتنظيم محل عمله يتزود بالآلات اللازمة لهذا الانتاج الهام الذي اتخذت الاستعدادات اللازمة له، ويسعى (سفالي) الان في شراء كمية غير قليلة من جلود البقر وفي اقرب وقت ستنتج مذبغة سفالي جلود عجول جيدة جدا من النوع الصقيل نحن متأكدون من أن صديقنا الطيب (ديغو سفالي) ومساعدة السيد (كامبو) سيعرفان الطريق الى اكتساب الشرف والاحترام ونحن نتمنى لهما حظا طيبا.

ها هي صناعة ايطالية جديدة تشرق لاول مرة في طرابلس الغرب والتي ستكون أيضا لفائدة ومصلحة البلد الذي يستضيفها».

L'Eco di Tripoli, anno III N. 37, 10-5-1911 غوستاف اربيب.

والتحقيقات الموثوقة أن المعاملات في البيع والاستملاك في بنغازي تسير الى الامام.
وحيث إنّ الاجانب هنا قاموا ببيع عقاراتهم التي تملكوها منذ وقت مضى فقد اتخذت بعض التدابير اللازمة والممكنة في هذا الشأن من المعلوم أن بروتوكول الاملاك والاستملاك يسمح للاجانب بشراء اراض واملاك وتملكها تملكا شخصيا منفردا لسكناهم غير أن تملك الاراضي والعقارات من طرف مؤسسة مالية كبيرة كبنك روما الذي فتح سياسيا لهذا الغرض والذي انهمك في شراء الاملاك والاراضي من كل نوع بأثمان مغرية منافسا بذلك الراغبين في شرائها من الوطنيين يخالف احكام بروتوكول الاملاك والاستملاك ولا يقبله العقل. وعليه فإن الولاية تستفسر هل يجب عليها مساندة بنك روما في اعماله ونواياه العلنية.
الكاتب العام / الوالي ـ رجب باشا»[16].

ويبدو أن الدولة العثمانية تلكأت في الرد ولم يتلق الوالي جوابا على استفساره والذي نعرفه انه قام بعد ثلاثة ايام من تاريخ رسالته الانفة الذكر بتعميم برقية الى كافة الملحقات ينبهها بنوايا البنك، وأن المهندس بالداري أحد شركاء بنك روما ذهب الى الخمس لشراء بعض الاراضي وقد جاء في البرقية:

«في الواقع بينما يسمح للاجانب في البروتوكولات استملاك العقارات لسكناهم الشخصي فقط الا أن التراضي والمساعدة لمثل هذه المؤسسات المالية الكبيرة في استملاك الاراضي والاملاك من الامور الباعثة للمسؤولية فاذا ما حاولوا هناك القيام بأية صفقة يجب اتخاذ التدابير المانعة لها وفي حالة حدوث أية مشكلة نوصيكم بوجوب الاسراع في الابراق الينا بالشيفرة»[17].

ويبدو من هذه الوثائق أن حكومة الولاية لم تكن تملك النصوص القانونية التي تعتمد عليها في عرقلة نشاط البنك ولا الصلاحيات التي تمكنها من ذلك، وخاصة أن البنك أيضا لم يتأسس بمرسوم من الدولة العثمانية، فتركت الامور تجري لاجتهادات وافتراضات بعض الولاة، وحاول البنك بدوره استغلال هذا الإرباك الاداري والقانوني فقام بعدة انشطة «بطرق ملتوية» وازاء ذلك عمد (انريكو بريشاني Enrico BRESCIANI) الذي تولى ادارة البنك في ليبيا الى انشاء مؤسسة ايطالية فرنسية مصرية انضمت اليها شركة طرابلسية كان يرأس هذه الشركة (مصطفى بن زكري) في محاولة التستر على الوجود الايطالي، وبعد هذه المؤسسة أنشئت مؤسسة أخرى رباعية في يونيو 1910 بقصد التنقيب عن المعادن في طرابلس وبصورة خاصة عن معدن الفوسفات وكذلك انشاء السكك الحديدية والقيام ببناء الموانىء اللازمة لهذا النشاط[18].

وبالاضافة الى الاستحواذ على النشاط الزراعي والاقتصادي حاول البنك الهيمنة على قطاع المواصلات والنقل والتجارة حيث قام بتسيير خطوط ملاحية تغطي كافة السواحل الليبية في الوقت الذي تصل فيه بعض الخطوط الى الاسكندرية، وتقوم الحكومة الايطالية بدعم

هذه الخطوط بما قيمته 200 الف ليرة في العام، وقد قامت الحكومة بالفعل بمساندة بنك روما والشركة الوطنية للخدمات البحرية الى انشاء خطين بحريين يمران بطرابلس وبرقة وربطها بايطاليا ومالطا واستانبول، وهما خط ـ جنوا، سيراكوزا، مالطا، طرابلس، كاليري، جنوا وخط باليرمو، طرابلس، بنغازي، خانية، استانبول[19].

وفي 16 ابريل 1908 قام البنك بتسيير خط ملاحي تجاري بين طرابلس الخمس، مصراته، زليطن، لنقل البضائع التجارية من طرابلس الى هذه المناطق وقام رجب باشا(*) بمنع التجار الاهالي من استخدام هذا الخط، وشعر مدير البنك بأن مصالح البنك الاقتصادية مهددة فكتب تقريرا الى القنصلية الايطالية يشكو فيها من الاضرار المادية والمعنوية العظيمة من جراء هذه المقاطعة، وهذا نص التقرير:

«17 ابريل 1908

تقرير بنك روما الى قنصل ايطاليا العام

في 16 ابريل قررنا تشغيل خط بحري للسفر بين مصراته وطرابلس وأرسلنا اعلاناتنا للتجار المصدرين بطرابلس كما اعلمناهم بواسطة المنادي في الاسواق والشوارع، وعلى اثر ذلك اتصلت بمكتب وكالتنا للبواخر جماعات كثيرة جلهم من العرب والترك، واستفسروا عن تعريفة السفر والشحن فوجدوها ملائمة ولكن بعد أن دارت شائعات بأن الحكومة المحلية سوف لن تسمح لرعاياها بالركوب فر المراجعون.

وهؤلاء الاشخاص الذين أخذوا تذاكر لاجل السياحة:

| | | |
|---|---|---|
| درجة اولى | الى الخمس | كاواليير دانتي بالداري |
| درجة اولى | الى الخمس | كارميلو زميت |

---

(*) قبيل انطلاق هذا الخط قام رجب باشا بارسال برقية الى الخمس مطالبا فيها بمنع التجار من استخدام هذا الخط، هذا نصها:

«علم أن باخرة تابعة لبنك روما قد خصصت للسفر بين طرابلس ومصراته ستقلع غدا قاصدة سواحل متصرفيتكم، لم تصلنا اية اوامر من مركز السلطنة السنية (العاصمة استانبول) الى الان في الترخيص لها. ان تخصيص هذه الباخرة للسفر في سواحلنا خاصة امر مرتاب فيه وعليه عليكم تبليغ بمنع تجارنا ورعايا الدولة بمقاطعتها بصورة سرية، وتجنب تحميلها للبضائع وركوب المسافرين كما انه يقتضي اشعار مصراته وزليطن بالموضوع سرا في الحال ولا يجب اعلان ذلك بل يجب الاهتمام باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ التعليمات بصورة سرية يستثنى من هذا التحذير الاجانب وعدم التدخل في شؤونهم. الوالي رجب، 15 أبريل 1908 وثيقة رقم 1564.

وقراءة هذه البرقية يمكن ان تصل بنا الى عدة استنتاجات هامة أولها أن القنصل الايطالي كان يملك سلطة أقوى من سلطة الوالي على ما يبدو فقد أنشأ ذلك الخط الملاحي دون استشارة الوالي أو الحصول على تصريح بذلك من السلطات العثمانية وثانيا أن الوالي لا يملك الجرأة على اعلان رأيه بصراحة ولا يستطيع أن يتخذ قرار مقاطعة الخط بالعلنية المطلوبة (وربما كان للنفوذ الكبير للقنصل الايطالي في استنبول اثر في ذلك)، وثالثها ان الوالي أيضا لا يملك أي سلطة على الاجانب الذين يرتعون ويمرحون فوق الاراضي التي يتولى شؤونها وتقع تحت حكمه.

| | | |
|---|---|---|
| درجة اولى | مصراته | ماركو ماروللي |
| درجة اولى | مصراته | م ارميللي |
| درجة ثالثة | الى الخمس | بتراني سالفاتوري |
| درجة ثالثة | الى الخمس | ناتالينو بوزانغا |
| درجة ثالثة | الى الخمس | الاسطى محمد |
| درجة ثالثة | الى الخمس | عبد القادر |
| درجة ثالثة | زليطن | الحاج مختار |
| درجة ثانية | الى زليطن | مصطفى |

البضائع :
الى زليطن 1855 كيلوغرام من الحاج خليفة الجعفري سكر وبن.
الى زليطن 260 كيلوغرام دائرة الاحتكار تبغ وسجاير.
الى الخمس 195 كيلوغرام دائرة الاحتكار تبغ وسجاير.
الى مصراته 590 كيلوغرام محمد المبروك أقمشة.
وقبل سفر الباخرة ببضع ساعات جاء كل العرب الذين اخذوا تذاكر السفر لمكتب الوكالة وطلبوا ارجاع نقودهم لإن الحكومة لم تسمح لهم بالسفر وكذلك التجار الذين جاءوا ببضائعهم الى الجمارك لشحنها في الباخرة «ماركو اوريليو» عدلوا عن تحميلها ورغما على هذه العراقيل سافرت الباخرة «ماركو أوريليو» في الساعة الخامسة مبتدئة رحلاتها اعتبارا من الامس، ومع هذا فاننا نفيد معاليكم بأن بنك روما أصيب بأضرار مادية ومعنوية عظيمة من جراء هذه المقاطعة التي أجرتها الحكومة المحلية وبهذه الوسيلة نقدم احتراماتنا الفائقة.

عن بنك روما بالديجي»[20].

ولم يكن تحقيق الربح بالشيء الاساسي الذي يهم بنك روما الذي كان مدعما من الحكومة والفاتيكان، ولكن الأهمية تكمن في ضمان الوجود الايطالي في كل مكان من ليبيا ولكي يتحقق وجود وانفراد العلم الايطالي على الشواطىء الليبية خلال فترة طويلة، وقد كتب «جوزيبي بيازا» مقالا حول ذلك الموضوع ارسله الى صحيفة لا تريبونا من السلوم بتاريخ 13 يونيو 1911 ويستوقف القارىء بعبارة وردت فيه تكاد تلخص كل اهداف السياسة الايطالية من انفاقاتها الكبيرة على ذلك الخط فقال :

«منذ بضع سنين كان العلم الايطالي هو الوحيد الذي يظهر بانتظام على شواطىء البطنان، على حدود برقة الى السلوم توفيرا للتجارة رغم قلة حجمها. وتسير ايطاليا خطين بحريين ترسو بواخرها بالتبادل في طبرق وفي السلوم، وعلى الباخرة القادمة من درنة الى السلوم تحويل خط سيرها واطالته في الخليج مسافة تسعين ميلا، لقد حدثني قائد الباخرة انه في احدى المرات قطعت سفينته التسعين ميلا

لا لشيء الا فقط لتسليم بطاقة بريدية مصورة الى جندي بالفيلق التركي، وبالطبع فان كل شيء يهون في سبيل مجد العلم، العلم الوحيد الذي يصل الى هذه الموانىء المهجورة»[21].

وقد واجه البنك انتقادات من بعض الاقتصاديين الذين درسوا مشاريعه من الناحية الاقتصادية الصرفة دون النظر الى الاعتبارات الاخرى التي كان ينظر اليها غلاة الدعوة الاستعمارية فقد كتب (لويجي ايناودي) الاقتصادي الايطالي المعروف، ومحافظ بنك ايطاليا في وقت من الاوقات ورئيس جمهوريتها خلال 1948–1955 يقول في اكتوبر 1911 منتقدا وضع البنك ونشاطه:

«ليسمح لي بابداء وجهة نظري بكل حرية، وهي أنه ربما كان للبنك مبرره للقيام بهذا النشاط المتعدد الوجوه في بلد يكاد يكون مواتا كله، يجب أن يبعث فيه كل شيء من جديد. وربما كانت الخطوط البحرية والمطاحن وشراء الاراضي وسائل جيدة مثيرة للاغراء والانفاق المثمر للتسيير. إن النتائج المالية للعمل المصرفي الصرف سوف تثبت خلال أعوام ما اذا كانت الأموال قد انفقت في وجوهها الصحيحة، ولكن يبدو من المنطقي، وقد اجتاز البنك المرحلة الأولية أن يتخلص من كل هذه الوكالات الخارجية بطبيعتها عن اختصاص الوكالة المصرفية، إنه من اللازم أن يعرف المصرفي معرفة كافية جيدة التجهيزات التقنية وبصفة خاصة سير المؤسسات الصناعية والزراعية والتجارية التي يقوم باقراضها وأن يحسن ايضا تقدير نوعية الاشخاص الذين يديرونها، ولكن من اللازم أيضا الا يقوم المصرف نفسه بأعمال الرجل الصناعي والتجاري والزراعي فمثل هذا الاعتبار لا يمكن ان يخلو من الانحراف عن الهدف وتكبد الخسائر»[22].

وهناك دراسة ربما كانت اكثر واقعية حول نشاط البنك قدمها (انريكو انساباتو) الذي كان موضع تقدير وثقة جوليتي الذي كلفه باعداد تقرير شامل عن الوضع العام في ليبيا وقام بزيارتها في صيف 1911، وقد ذكر في تقريره أن البنك كوّن شعورا لدى العرب والاتراك بأنه انشىء بتمويل من الحكومة الايطالية من اجل النفوذ الايطالي والاعداد لاحتلال طرابلس، لا من أجل العمليات المصرفية حتى ان هذا الشعور أصبح ثابتا لدى الجميع[23].

أما وزير الخارجية دي سان جوليانو فكان يرى رأيا آخر، فقد حدد عمل البنك بأنه يفيد البلاد، وهو عامل اقتصادي يحقق التقدم والتمدن واتهم السلطات التركية في البلاد بأنها العقبة الكأداء أمام هذا التقدم وهي لا تتوانى عن اثارة الحرب ضد المصالح الاقتصادية والتجارية الايطالية حتى تمنع وبكافة الطرق توسع ايطاليا الاقتصادي وفي الوقت نفسه تحاول أن تخلق حواجز بين المواطنين وبنك روما حتى لا تحقق العلاقات بينهما وتتهم كل مواطن يحاول أن يكسر هذا الحاجز بجرائم خيالية، كما منعت البنك من الحصول على السند القانوني أمام المحاكم المحلية[24] وقال ايضا:

«وقد رفضت جميع طلبات الامتياز لانشاء بعض المشاريع التي قدمها

الايطاليون[25] مثل شبكات المياه والمنشآت البرقية واللاسلكية وأعمال تمهيد الطرق، وخرق الاتفاقيات المعمول بها فمنعت الرعايا الايطاليين من شراء الاراضي وتسجيلها بأسمائهم في دوائر التسجيل العقاري[26] في بنغازي ودرنة والخمس كما تعرض الاهالي الذين يرغبون في بيع اراضيهم للايطاليين للعقوبة.

وختم كلامه بقوله:

«ان الصبر الذي تحلت به ايطاليا لن يتكرر مثله في تاريخ الشعوب رغبة منها في الابتعاد عن المشاكل التي قد تجرح الامبراطورية العثمانية وأوربا، الا أن الصعوبات قد تفاقمت الى الحد الذي جعل ايطاليا تفقد ثقتها في حل هذه المشاكل بصورة مرضية مع تركيا...

ان الوعود الخالية من الصدق، والكلمات التافهة التي وعدت بها ايطاليا في السنوات الاخيرة جعلت ايطاليا تفقد صبرها وقررت أن تخرج من حالة التسامح هذه التي تجعل مركزها أدنى من غيرها، وتنعتها بأوصاف الضعف والاضمحلال، أما الان وقد عيل صبرها فقد قررت أن تحقق احترام مصالحها بكل قوة، وفي هذه الحالة فان اللوم يقع بالدرجة الاولى على أولئك الذين يضعون العراقيل أمامنا، ويخلقون جوا من الاستفزاز منذ ثلاث سنوات ويوميا، ويحاولون اختلاق حوادث تافهة بقدر العداء في كل الولايات العثمانية، وخاصة ولاية طرابلس التي تتعرض سلامة الايطاليين فيها للخطر»[27].

ويبدو من خطاب دي سان جوليانو أن ايطاليا وقد فشلت في تغلغلها السلمي داخل ليبيا فقد بدأت تبحث عن مبررات وحجج لتكون ذريعة لتدخلها العسكري تقدمها للرأي العام العالمي، فوجدت في تشدد بعض المواطنين خير مبرر تقدمه في انذارها للامبراطورية العثمانية المتداعية والذي ادعت فيه ايطاليا أن حالة الفوضى والخطورة التي يتعرض لها الايطاليون من قبل الضباط وأجهزة السلطة، وهذه الاخطار لا تقع على الايطاليين فحسب بل على الاجانب من جميع الجنسيات[28]، وهنا تطرح ايطاليا نفسها وكيلة على اجناس العالم التي تعيش في ليبيا لحمايتهم، فجاء في الانذار:

«ان الحكومة الايطالية ترى نفسها والحالة هذه مجبرة على التفكير في حماية كرامتها ومصالحها ولذا قررت القيام باحتلال طرابلس وبرقة عسكريا»[29].

ويطرح سؤال هنا، لماذا اخفقت ايطاليا في مشروعها السلمي لاحتلال ليبيا؟

لا شك أن ايطاليا ارتكبت أخطاء جسيمة في تغلغلها السلمي، فغرورها الاستعماري وتعجلها في بلوغ ذروة القوة والعظمة، والوصول الى قامة الدول الاستعمارية في الارتفاع، كل ذلك لم يمكنها من احاطة مطامحها بصورة سرية وحتى مشاريع بنك روما كانت تفصح عنها الصحافة الايطالية بأنها شبه رسمية، ومدعمة من الدولة الايطالية التي يهمها حضورها في ليبيا بأي شكل كان، ثم إن هذا التغلغل الاقتصادي كان دائما يستنير بتلك التعليمات الحكومية التي لم تكن مسايرة للوسط الذي تطبق عليه.

وعلى أية حال فان الاخفاق في تحقيق التغلغل السلمي والعداء التركي بصورة خاصة جعل ايطاليا تستعجل في ايجاد المبرر الذي بحثت عنه طويلا في ارسال حملة عسكرية تضرب ليبيا في العمق أو على حد قول «دي مارتينو» :

«أن تضع وثيقة الاتهام العظيمة التي تضمنها بانذارها الى تركيا»[30].

وقد أكد جوليتي في مذكراته على أن الاهمية الحاسمة للعامل التجاري في تحديد قيمة المصالح السياسية رغم طابعها التقليدي، تمثل احدى ملامح الاستعمار الحديث، فرغم أن الحكومة العثمانية بسياستها الموجهة الى عرقلة ترسيخ، وتأكيد التفوق الاقتصادي الايطالي في ليبيا والتآمر عليه بامتيازات ممنوحة أو بوعود مبذولة لمواطنين من دول اخرى، وبازاحتها لاحد الاختيارين أي الاختيار الخاص بالتغلغل السلمي، لم تجعل الاحتلال العسكري حتميا فقط بل ساعدت على التعجيل به، موفرة له أحسن الاسباب والمبررات[31].

وعلى هذا يكون جوليتي قد بين أهمية السبب الاقتصادي في الغزو وأكد من جديد أن كل الاسباب الاخرى لم تكن الا تمهيدا للشيء الاساسي ـ الغزو العسكري ـ فالاقتصادي والذي كان الهدف الرئيسي لكل الحروب العدوانية الاستعمارية في التاريخ...

**هوامش**

1 ـ فرانسيسكو ماكولا، مرجع سابق ص 77.

2 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 16.

3 ـ Ibid p. 16.

4 ـ د. يحيى جلال، المغرب الكبير حـ3 مرجع سابق ص 717 عن:
Tommaso TITTONI (Italy's forign and colonial policy) LONDON 1914 pp. 21-22.

5 ـ د. جلال يحيى، مرجع سابق ص 719.

6 ـ Francesco MALGERI, op. cit. p. 18.

7 ـ Ibid p. 18.

8 ـ Francesco MALGERI op. cit. p. 22.

9 ـ كارلو قوتي بورشيناري، العلاقات العربية الايطالية، مرجع سابق ص 135.

10 ـ Francesco MALGERI. op. cit. p. 19.

11 ـ Ibid. p. 19.

12 ـ Ibid. p. 19.

13 ـ Francesco MALGERI, op. cit. p. 19.

14 ـ الطاهر الزاوي، جهاد الابطال، مرجع سابق، ص 32.

15 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 1125 بدون تاريخ.

16 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، ملف بنك روما وثيقة رقم 593، 82د، 2 فبراير 1908.

17 ـ ارشيف المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم 1091 بتاريخ 23 كانون الثاني 1323.
مع العلم بأننا نجد وثيقة أخرى تناقض هذا الموقف، في 25 فبراير 1908 أي بعد اسبوعين من تاريخ هذه الوثيقة يبعث قنصل ايطاليا باستالوجي برسالة الى الوالي يشكره فيها على صدور امر الى مدير التسجيل العقاري على الموافقة برهن عقار بتروزوللي الايطالي لدى بنك روما ويشكو فيها من مدير التسجيل العقاري لأنه تفوه بقوله (أنا لا اعترف

ببنك روما) مخاطبا الكواليير برنابالي الموفد من القنصلية ــ وثيقة رقم 1111 بتاريخ 1908/2/25 ارشيف المحفوظات التاريخية.

18 ــ Francesco MALGERI op. cit. p. 19 Renato MORI (La penetrazione pacifica italiana in Libia dal 1907 al 1911 e il BANCO DI ROMA, In «Rivista di studi politica internazionali» 2-3-1907 p. 122.

19 ــ Giuseppe BEVIONI. op. cit. pp. 29-124.

20 ــ قسم الوثائق (مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزاة الطليان) ملف التمهيد للغزو، وثيقة رقم (2).

21 ــ كارلو قوتي بوشيناري، العلاقات العربية الايطالية، مرجع سابق.

22 ــ خليفة التليسي، مذكرات جوليتي، مرجع سابق، ص 13 وكذلك:

Francesco MALGERI op. cit. pp. 28-29.

23 ــ Francesco MALGERI op. cit. pp. 29-30.

24 ــ Ibid p. 26.

25 ــ Ibid p. 26.

26 ــ انظر وثيقة رقم 111 في هذا المبحث هامش (12).

27 ــ Francesco MALGERI op. cit. p. 26 - in A.S.M.A.I. sig. Gen. No 42 pos. 17.F. 641.

28 ــ عددت ايطاليا الاخطار التي واجهت الرعايا الايطاليين في:

1 ــ اهانات واعتداءات على موظفي القنصليات الايطالية.

2 ــ مقتل اسقف ايطالي في درنة.

3 ــ فتاة ايطالية عمرها 16 سنة تزوجت مسلم ودخلت الاسلام ادعت ايطاليا انه تم ذلك قسرا.

29 ــ الانذار الايطالي الى تركيا المسلم الى السفارة الايطالية في استانبول والسفارة التركية في روما، بتاريخ 27 سبتمبر 1911.

30 ــ Francesco MALGERI, op. cit. p. 36.

31 ــ مذكرات جوليتي، مرجع سابق ص 55.



# الخاتمة



## الخاتمة :

يختلف الاستعمار الحديث عن القديم بأنه الاستعمار «المبرمج» القائم على الخطط والأساليب المدروسة التي كان من بينها الغزو الثقافي الممهد وقد بدأ هذا الضرب من الغزو الثقافي الاستعماري يزحف على البلاد العربية في العصر الحديث منذ أن بدأ الاستعمار يفكر باقتسام تركة الدولة العثمانية وقد كان من اهم الأسباب التي دفعته الى ذلك الاختلاف بين الدول الاستعمارية على اقتسام التركة ومحاولة كل دولة ايجاد «الذريعة» للاستئثار بهذه القطعة أو تلك من البلاد الخاضعة للحكم العثماني ونمو الوعي القومي والحضاري لدى الشعوب، فالشعوب التي كانت تشكو من التخلف التقني والصناعي هي ـ من الناحية الاخرى ـ شعوب عريقة في الحضارة لابد وأن تهب للدفاع عن نفسها وحريتها فكان لابد من التظاهر بالرسالة التحضيرية الانسانية نحو هذه الشعوب ثم تهيئة الشعوب المستعمرة نفسها للحرب من أجل اعدادها للمذبحة الاستعمارية القديمة. أما الاساليب المستخدمة لذلك فكانت التبشير والكنيسة والاستشراق بالاضافة الى المدارس ونشاطات الرحالة الجغرافيين كما كان من بينها ايجاد بعض الصناعات والحصول على الامتيازات الاقتصادية.

## الباب الأول :

وقد بينا في الباب الاول من هذه الدراسة أنه على الرغم من الوضع الثقافي المتخلف فقد عرفت بلادنا حركة صحفية ناشطة تناولت عددا من القضايا الهامة فحثت على تشجيع التعليم والاكثار من فتح المدارس وبينت قيمة هذا المرفق الهام وحثت على التمسك باللغة العربية في وقت كانت تتعرض فيه لأشد صنوف الاضطهاد ودفعت الصحف ضد «التغلغل السلمي» لايطاليا في بلادنا وبرهنت عن رؤية واعية للامور وخاصة في حديثها المستفيض عن أهداف سياسة مصرف روما ومساهمات الفاتيكان في نشاطه وتصدت للغزو الاقتصادي والثقافي الذي رأت فيه مقدمة الغزو العسكري كما تصدت لحملات التحريض الايطالية، وعمدت احيانا الى ترجمة المقالات الايطالية الى العربية وفندت مزاعم الحقوق الايطالية في أراضينا وناقشت المستقبل المتوقع وما ستعانيه البلاد من معارك حربية عنيفة في المستقبل وهو ما أدى في النهاية الى محاكمات قضائية تعرضت لها هذه الصحف.

لقد تعددت المنابر الصحفية التي أخذت على عاتقها مهمة التصدي للغزو الثقافي وتعددت الموضوعات والابواب الصحفية التي كانت تصور آنذاك ولم تتجه الصحافة الى تسلية القارىء أو شغله عن قضاياه الاساسية بل كانت «ملتزمة» بالمفهوم الحديث وكان الشعور بالخطر القادم من الشمال يمثل الاحساس الطاغي لدى عامة الناس وخاصة بعد التجربة الفاجعة في الجزائر وتونس.

وهكذا انشغلت الصحافة بالتنبيه الى الاخطار الاجنبية وانصرفت عن التنبيه الى مثالب الحكم العثماني والولاة الذين لم يكونوا بعيدين عن الشبهات ولذلك قلت الصحافة من التشهير بالسلطان العثماني (وهو أمر كان شائعا في المشرق).

كما لاحظت الصحافة النشاط الثقافي للايطاليين ولهيئاتهم التبشيرية ونشاط جماعة الفاتيكان ومصرف روما فاتجهت الى توعية المواطنين ونبهتهم الى الاخطار القادمة وحضت المسؤولين على الارتفاع بمستوى الشعب من كل الجوانب وعلى الاخذ بأسباب العمل والانتهال من ينابيع المعرفة كما حضت على الوحدة الوطنية وعلى التكاتف والتضامن وأخذت ترد على الصحف الايطالية وتقارعها الحجة بالحجة، ونلاحظ في الوقت نفسه نغمة الاسى في تلك الصحافة ولعل سبب ذلك يأس الصحفيين من امكانية التأثير في السياسة الدولية التي تتجه بمجموعها الى السكوت عن مظالم القوي نحو الضعيف الا أن ما يشد الانتباه هو ذلك التحليل الطريف والسديد لطبيعة الاستعمار وقد بينت الاحداث صواب ذلك.

أما الادب في تلك الفترة فكان يمثل استمرارا لحركة الادب العربي الخارج من عصور الانحطاط وظهر ذلك في الاسلوب وفي الاغراض الشعرية وهو ما تتسم به الجوانب البنيوية واللغوية وقد عبّرت المؤلفات الشعرية عن دعم للمسؤولين العثمانيين في تصديهم لاعداء الامة الاسلامية مثلما عبرت عن طموحات الامة الى الافضل.

وتناولت قضايا ثقافية حيوية، كافتتاح المطابع أو الدعوة الى التدريب على السلاح وبكلمة واحدة كان في الشعر تعبير عما يعده الاعداء لغزو البلاد وعن ضرورات الاستعداد للتصدي.

أما التعليم فوجدنا انه عريق الجذور من الناحية التاريخية وقد اتخذ اتجاهات مختلفة فكان منه اتجاه التعليم العصري الذي يأخذ بالاساليب الحديثة والمناهج التعليمية العصرية ولولا اهمال المسؤولين آنذاك لحقق خطوات كبيرة، وقد أسهم المواطنون انفسهم في تمويل ذلك النوع من التعليم وشجعوا الحكومة على التوسع في التعليم المهني. ومع توسع المدارس الاجنبية التي كانت تستقطب بعض أبناء البلاد ونسبة كبيرة من ابناء الاجانب توسع التعليم الديني في بلادنا وكان يقوم في المدارس والزوايا ويعتمد على مبادرات الاهلين ونشاطهم. أما الطرق الدينية التي كانت واسعة الانتشار فلم تساهم في التعليم الديني المساهمة التي تتفق وحجم هذه الطرق، وبالاضافة الى ذلك لعبت البعثات التعليمية دورها في تعزيز الحركة التعليمية وكانت هذه البعثات توجه الى الاستانة كما كان قسم كبير من الطلاب يتجه الى الازهر وكان خريجوه يحظون باحترام كبير لدى الشعب وينالون حظوة واضحة.

وبالاضافة الى ذلك كانت البلاد تضم عددا من المكتبات التي كانت ملحقة بالمدارس وقد لعبت دورها في تدعيم الحركة التعليمية، الا أن هذه المكتبات كانت محدودة العدد والامكانيات، أما حركة النشر فكانت ضعيفة جدا ولم تعرف كتبا طبعت في ليبيا في ذلك العهد.

وبصورة عامة لم تكن حركة التعليم ناجحة بالصورة المطلوبة وذلك لاسباب كثيرة منها استهتار الحكام بهذا الجانب ونقص المدرسين والتسيب في صرف الميزانية الخاصة بالتعليم واقتصار البعثات على أبناء رجال الحكم او الميسورين من الناس وقلة عدد من يقبل في المدارس من بين التلاميذ. وقد نشرت «الترقي» صورة مفصلة لتردي الوضع التعليمي جاء على

لسان ممثلين في مجلس المبعوثان وهو يبين خطورة الوضع الذي تردت اليه الامور.

### الباب الثاني :

وفي الباب الثاني : بينت الحالة العامة التي كانت تعيشها ايطاليا وأنها كانت تمثل مجموعة من الامم المتفككة المتأخرة التي لم تحقق وحدتها الا بعد مرحلة طويلة من الكفاح المستمر والتضحيات وقد لعب الادب دوره في هذه الوحدة وبدأت المسألة الليبية تطرح على بساط البحث حتى وقبل الوحدة الايطالية.

أما المسألة الليبية فبدأت تطرح على بساط البحث في الادبيات الاستعمارية الايطالية حتى قبل الوحدة، ولعبت السياسة الدولية دورها في ذلك فقد حاول «بسمارك» أن يوجه أنظار ايطاليا نحو الجنوب (بغية تأجيج الصدام مع فرنسا) ثم بدأت تتردد الاحاديث عما يسمى بـ«عظمة الدولة» و«المصالح الوطنية» في الشمال الافريقي، وبدأ ذلك يتعزز بأساطير استمدوها من العوالم القديمة الغابرة وشرع الحكام بتطبيق ما يسمى بـ«سياسة التغلغل السلمي» وفي تلك الفترة بدأ اعداد الرأي العام الايطالي للحملة على ليبيا، وأخذت تظهر الاكاديميات والنوادي والجمعيات المتخصصة في الاعداد للغزو كما بدأت أول الاعمال الادبية الموجهة نحو هذه الغاية.

وفي هذه الفترة أخذت الصحافة تلعب دورها التربوي على صعيد الدول المتقدمة صناعيا والتي لم تكن قد نالت «نصيبها» من المستعمرات واخترعت دعاوى «رسالة الجيش الابيض» و«نشر التمدن» و«قيادة العالم» وقد ساهمت الصحف الايطالية بعناية شديدة في هذا المضمار واتضح التوجه نحو طرابلس عبر تلميحات مختلفة في الصحافة الى أن أصبح يطرح بصورة مباشرة في الصحافة، فأخذت تبرز العناوين القصيرة الجذابة مثل «طرابلس الجميلة» و«أرضنا الموعودة» مثلما تظهر الاشارات الى الثراء الخرافي للبلاد وغناها بالموارد الزراعية كما صارت تتردد بصورة أكثر ذكريات قدماء الرومان والحروب الصليبية وقد اتخذت الصحف الايطالية في ذلك كله «مناح» مختلفة تنطلق من الاتجاهات السياسية للمنابر التي تتحدث باسمها، وكان الاتجاه القومي من أشد الاتجاهات تطرفا وكان من منابره «جورنالي دي ايطاليا»، «لافوتشي آل رينيو»، لاريفيستا دي روما، ال كاروتشينو، لابريا رزيوني، ماري نوستروم، لايطاليا الليسترا، الـترى كولوري وايديا ناسيونالي. وهي من الصحف المقربة من الاوساط الدينية المتزمتة أيضا.

وقد اتجهت هذه الصحف الى الدعوة المباشرة للاحتلال وكان من دعاتها المتعصبين (انريكو كوراديني) وقد نادى صراحة، بحق الاقوى في احتلال اراضي الضعفاء، بل اعتبر ذلك واجبا تمليه اعتبارات انسانية وحضارية.

ولفتت ايديا ناسيونالي الانظار الى دور ما أسمته بالمصالح الايطالية «المهددة» في طرابلس الغرب، وكانت تنادي بالاسراع بالاحتلال مهما كلف ذلك، وكانت دعايتها تنطلق في اتجاهين، التأثير على الرأي العام والتأثير على الحكومة لحثها على العمل الفعال باتجاه الغزو... ــ أما صحافة الليبراليين ــ ومن صحفها «التريبونا، لاستامبا، كوريري ديللاسيرا» فانها اذا

اختلفت عن صحافة القوميين من حيث المنطلق السياسي، فقد التقت معها في ضرورة السيطرة بسرعة على طرابلس، بل ووصل بها الامر الى درجة التساؤل عن جدوى تجييش الجيوش وحشد الاساطيل اذا كانت لن تسخر للغزو والاحتلال، وبالغت هذه الصحف في تصوير الموارد الاقتصادية الليبية التي يمكن = برأيها = أن تحل مشاكل الازمة الاقتصادية داخل ايطاليا، وأعادت ما سمي بـ«حق الاقوى في نشر المدينة» ولم تتأخر الصحافة الكاثوليكية عن الانضمام الى جوقة دعاة الغزو المباشر وكان من صحفها كوريري ديطاليا، لايطاليا، لافنيري ديطاليا، الماسا جيرو توسكانو، الـمومينتو، كوريري دي سيشيليا»، بل إن هذه الصحف تجاوزت سواها في الحماسة والاندفاع نحو الغزو فرددت دعاوى الصحف السابقة وأضافت اليها دعاوى الاضطهاد التركي للايطاليين وثراء ليبيا وضرورة وجود السياسة الايطالية الاكثر فعالية فضلا عن جملة من الاعتبارات المسيحية التي كانت من العوامل المحركة للحروب الصليبية، وزادت صحافة الجنوب الايطالي من خلال صحفها ـ روما، الماتينو، كوريري دي كاتانيا من صب الزيت على النار آملة بأن تكون الحرب مفتاحا للتغلب على مصاعب البلاد الاقتصادية، وكان اهتمامها المشدد على هذه النقطة محكوما بأملها في أن يعود الجنوب الايطالي ليصبح مركز الاحداث من جديد.

ولم تعدم هذه الاتجاهات الصحفية المسعورة من التصدي لها بالنقاش والحجة وخاصة لدى الاشتراكيين الايطاليين الذين كان من صحفهم ـ ريفورما سوسيالي، جورنالي ديل ايكونومست، أونيتا ـ وقد تصدى بعضهم لمزاعم دعاة الغزو فبين أن الخيرات الاقتصادية لن تكون مبذولة بهذه السهولة وأن تكاليف الحرب ستكون باهظة جدا، بل إنها لن تقوم الا من أجل أن تدور عجلة الصناعة في الشمال في حين يدفع البسطاء من الناس تكاليفها المالية والبشرية. وقال بعضهم بأن الغزو يقف ضد الاعتبارات الاخلاقية والانسانية وأنه سيسبب في الكثير من المآسي، وقد قام بعض الاشتراكيين بخطوات عملية لوقف الغزو وعرقلة تحرك القوات نحو ليبيا.

وهكذا سارت الصحافة في اتجاه تهيئة الرأي العام الايطالي، بقبول الغزو من خلال استغلال المشاكل الاقتصادية في ايطاليا، وايهام ابناء الجنوب بأنهم سيلاقون بعد هذه الحرب، العمل والارض والزعم بأن هذه الحرب سترفع الاضطهاد والحيف عن الطليان المقيمين في ليبيا، بالاضافة الى دعاوى القيام بالمهام التحضيرية مضافة الى تصوير الصراع على انه معركة تكسب فيها المسيحية جولة صليبية ضد الاسلام، أما من الناحية العملية فاتخذت الصحافة أسلوب الضغط على الحكومة من أجل اتخاذ قرار الغزو، أما الصحف المعارضة فانها لم تتخذ موقفا موحدا ضد الغزو، كما اتسمت مواقفها بالتبدل السريع وعدم الثبات على مبدأ واحد، يضاف الى ذلك أن هذه الصحافة كانت لا تعبر في الغالب الا عن مطامح فردية لا تمتلك الطاقة المطلوبة لتحويل الرأي العام الذي جرفته أحلام الغزو والسيطرة وتحقيق الانتصارات العسكرية والمطامع الاقتصادية.

ولم تقتصر حملة التهييج على الصحافة لوحدها فقد لعب الادب دوره الكبير في ذلك

وخاصة بانبعاث التيار الكلاسيكي ثم الرومانسي في اوربا كلها (وفي ايطاليا) والذي اتجه ـ كتيار ـ الى احياء القديم واحاطته بالهالات الشاعرية (الكاذبة في غالب الاحيان) وعلى هذا الاساس ظهرت روايتا كوراديني «الوطن البعيد» و«الحرب البعيدة» اللتان تتضمنان دعوة صريحة الى الحرب في سبيل الامة المشتتة، وتنشدان الافكار القومية المتطرفة وتدعوان الى احتلال الاراضي الجديدة التي كانت طرابلس اهمها، وذلك ما ظهر في مقالات كوراديني فيما بعد اذ أكد فيها أن قضية الاحتلال لا تهمه من الناحية الاقتصادية بقدر ما يهمه وضع الدولة على الصعيد الخارجي وظهرت الحماسة المرضية لهذا الاديب المهووس الى الحرب والغزو في خطابه الذي القاه بفلورنسا تحت عنوان «اخلاقيات الحرب» وذلك بعد اشتعال الحرب وتصدي القوى الليبية للغزاة. وقد ازداد هذا الاتجاه اضطراما، بازدياد حدة المعارك الحربية وساهم رجال الكنيسة في تأجيجه فكانوا يغرقون الجنود بسيول من خطبهم الرنانة وتحثهم على الحرب المعلنة ضد الهلال، وقد ظهرت بطاقات تصور العلم الايطالي، وقد غرس فوق مئذنة اسلامية، وأقام رجال الدين قداسات يدعون لاشعال الحرب، كما دعمت هذا الاتجاه خطب بعض رجال البرلمان الذين دعوا الى الحاق ليبيا بالسيادة الايطالية، وصور ذلك كله على أنه استمرار لحركة الرومان المظفرة في التاريخ، وتحولت آلام البشر وجراح الحرب وجثث القتلى في خطب الأدباء والقساوسة ورجال البرلمان الى، ازهار وعبير وبسمات يبتسمها الخليج الذي غطى بالدماء، ووصل الغرور ببعض المجلات الايطالية أن اخذت تطلب آراء كتاب عالميين في هذه الحرب فكان بييرلوتي واحدا ممن اجابوا وجاء في رده: «ان المجد دائما هو الحق الذي أراه الى جانب الذين يناضلون من أجل اراضيهم، وليس الى جانب الغزاة».

كان لهذه التصورات و«الانتصارات» أثرها في ولادة الحركة المستقبلية في ايطاليا، تلك الحركة التي كان من مظاهرها فكرة الاخذ بالتقدم العلمي وبالجديد وكان من أهم دعواتها ـ تمجيد الحروب ـ وقد أثار بيان مارينتي الذي نشر في لوفيغارو سنة 1909 دويا كبيرا لما تضمنه من دعوة ساخرة الى الحرب والتدمير والعودة بالانسان الى شريعة الغاب. وعلى هذا المنوال نظم «باولوبوتزي» و«مارينيتي» عددا من القصائد التي تتغنى بالحروب والدماء، ونلتقي لأول مرة في الادب العالمي بالغزل بالرصاص يمزق الاجسام والمدافع تحيل المدافعين عن اراضيهم الى كتل من اللحم، ونجد من يشيد بالدمار والآلام وحساسية الضمير... وينتقل الامر الى عالم الاطفال فيصور فيه العرب والايطاليين من منطلق عرقي، وتصنع الدمى الخاصة الموجهة الى تمجيد الجندي الايطالي وتحقير العربي، وهكذا، وبهذه الطرق ضاعت حقائق الامور وشوهت صور المجاهدين العرب والليبيين المدافعين عن وجودهم، ونالت الخيالة حقها من هذا التزوير المتعمد للحقائق فصورت احداثها على أنها نزهة يقوم بها الجندي الايطالي، وأنها معززة بالانتصارات وبغنائم الاعداء، وهو ما أكد التاريخ زيفه لا واقعيته.

ويبدو أن الحرب الليبية لعبت دورها الهام في توحيد الحركتين المستقبلية والقومية فاجتمع على صعيد واحد عدد غفير من كبار الادباء والفنانين الايطاليين وبدأت تصاغ القصائد المختلفة لتمجيد الحرب التي تديرها آلية الاستعمار التي تتجه الى انتاج الاسلحة والعتاد الحربي مثلما تتجه

الى تدبيج قصائد المديح للحرب ومجازرها. ويحتل «دانونزيو» مكانة خاصة بين شعراء هذا الاتجاه وقد كان ابرز شاعر أفاض في الاشادة بهذه الحرب الاجرامية ضد الشعب الليبي فكتب عددا من الاثار الشعرية في هذا الموضوع بدا فيها حبه لوطنه مفرطا وشاذا في الوقت نفسه لانه صرف صاحبه الى التغني بالظلم. ولما كان الحاضر الايطالي لا يسعف الشاعر بالكثير فانه اسرف في العودة الى التغني بالماضي واتجه الى التاريخ الاسطوري يستمد منه اوهاما وانتصارات وشخصيات تبرز من بينها شخصيات الحكايات الخرافية الرومانية الوثنية، وبعد أن «يحلق» بعيدا في هذه الاجواء السحرية التي تظهر فيها الحرب نزهة ساحرة خلابة يثأر فيها لهزائم ايطاليا المتكررة امام غيرها من الدول، وتنسج الربات منها اطواقا من الزهور للابطال، بعد هذه التهويمات كلها تظهر في شعره الاهداف الاقتصادية الحقيقية للحرب وهي امتلاك الارض واستنزاف خيراتها ولم يتأخر «جيوفاني باسكولي» عن نظيره «دانونزيو» في ذلك المضمار الشوفيني الضيق، وترك الشاعر تأثيرا كبيرا على الشبيبة الايطالية وحقق الشاعران شهرتهما في حينها بفضل تلك العاصفة الشوفينية التي اكتسحت كل شيء في حينها وسخر لها السلاح وبعثت من اجلها خرافات الماضي، وتبين في نهاية المطاف أن ذلك كله أدب فظ كاذب فالادب الحقيقي يتسامى دوما بالانسان الى الذرى الرفيعة، ويرتفع به نحو آفاق الخير والانسانية، والادب الاصيل لا يحض على الغزو والقهر وابادة الشعوب الآمنة، وقد يقترن بعض النجاح والمجد للكتاب العنصريين خلال فترات الهياج الاستعماري. الا أن ذلك لا يلبث أن يزول، وهو ما حدث لذلك الادب الذي انتشر وشاع في فترات الهياج ثم تلاشي.

## الباب الثالث:

«أما بالنسبة للتمهيد داخل الاراضي الليبية فإن ايطاليا استفادت من التجارب الاستعمارية في هذا المضمار بداية من 1882 حتى 1911 فاتخذت للتمهيد الثقافي طرقا مختلفة كان من أولها الرحلات الاستكشافية التي اعتمدت عليها الدول الاستعمارية الاخرى، ولما كانت طرابلس تتميز بموقعها الجغرافي فانها كانت منطلقا اساسيا للنفاذ نحو القارة الافريقية، وقد خرجت الرحلات الايطالية بأنها كانت «فردية» الى حد كبير ولم تكن كالبعثات الانجليزية والفرنسية والالمانية مبرمجة بدقة أو منطلقة على أساس التنظيم الذي قامت به الجمعيات. وقام بأول هذه الرحلات «شرفيللي» ثم «باولود يلاشيلا» وكانا طبيبين ثم توجه الارشيدوق «دي توسكانا» برحلة بحرية على الشاطىء الليبي وقدم حولها تقريرا ضافيا معززا بالرسوم، ولفت الانظار الى الثروات الكبيرة التي تحتويها البلاد ثم كانت رحلة «رولف» التي تمت برعاية القنصلية الايطالية كما نشطت جمعية ميلانو الجغرافية في تشجيع الرحلات، وقام رئيسها «كاميرو» برحلة الى طرابلس تحدث فيها بشكل خاص عن وضع الطوائف الدينية ثم نظمت الجمعية رحلتين برئاسة هايمان وكاميرو نفسه، وجمعت هذه الرحلات كثيرا من المعلومات العلمية الدقيقة ولم تخل من إثارة للمشاعر التاريخية واحياء اساطير الرومان القديمة واتجه هؤلاء الى اثارة الشعب الايطالي نحو غزو البلاد، وتضخيم الامكانيات الاقتصادية لليبيا كما أوفدت المنظمة الاستيطانية اليهودية

بعثة لدراسة البلاد من خلال تفكير الصهاينة بوطن لليهود في الشرق الليبي ولاشك أن المعلومات التي جمعتها كانت مفيدة للاوساط الاستعمارية فيما بعد، وبعد هذا «التمهيد» العلمي الجغرافي اندفعت اعداد من الصحفيين الذين إهتموا بدراسة الموارد الاقتصادية في البلاد وكان من بينهم «الكالير سان فيليبو».

أما بالنسبة للتعليم الايطالي الاستعماري فقد كان النشاط المحبب الى نفوس المستعمرين خلال فترات طويلة وخاصة في تلك الفترات السابقة للغزو وكان يهدف ـ مثلما هو الان ـ ... الى تهديم المثل الخلقية الوطنية لابن البلاد وتشكيكه بثقافته وتهيئته للتنازل عنها وتدمير اللغة الام أو تكريس الانفصام بينها وبين اللغة الفصحى وقد نشطت الدوائر الاستعمارية الايطالية (والفرنسية أيضا) من أجل نشر برامجها التعليمية وتربية الانسان في بلادنا منذ نعومة اظفاره على معالم الحضارة الغربية، وهكذا أنشئت المدارس ذات المناهج الخاصة بتحبيب ايطاليا الى نفوس التلاميذ وكانت المدارس تتلقى المساعدات في وقت كانت فيه تشكو المدارس في ايطاليا من نقص في هذه المساعدات، وقد استطاعت ايطاليا أن تحقق توسعا في التعليم بسبب تقصير المسؤولين العثمانيين في انشاء المدارس وتمويلها. وهناك احصاءات تدل على أن أعداد هذه المدارس، وبالتالي اعداد المتعلمين فيها كانت كبيرة، وأن تلاميذها بالاضافة الى التلاميذ العرب كانوا من المالطيين واليهود والطليان. وأن ايطاليا كانت تحاول نشرها في كل مكان توجد به كثافة سكانية حتى ولو انعدم وجود الجالية الايطالية فيه. أما المدارس فقد وجدت خاصة في طرابلس وبنغازي والخمس ودرنة، وكانت متعددة المناهج والاتجاهات وتبدأ برياض الاطفال. أما المدرسون فكان قسم كبير منهم من المبشرين ورجال الدين وهو ما يدل على أن مهمتهم كانت مزدوجة فهي في قسم منها تتجه الى التعليم التربوي المبرمج من أجل تقريب الدولة الاستعمارية الى القلوب والاذهان والثانية من أجل نشر الدين المسيحي أو الدعاية له. كما أننا لا يمكن أن نغفل دور الاوساط الاستعمارية الفرنسية في التعليم ونشاطها في نشر المدارس وهو ما يدل على نواياها السابقة نحو بلادنا.

أما التبشير فكان دوما ـ كما هو معروف ـ طليعة الاستعمار ورفيقه السائر في ركابه، يرتدي رجاله ملابس الدعوة «البريئة» الى المسيحية ويتظاهرون بأعمال الخير، وقد نشط هؤلاء في بلادنا وتظاهروا في البداية بأنهم جاؤوا ضمن الحملة «الانسانية» لإلغاء الرقيق ونشر التعليم ولهذا امتدت ايديهم بصفة خاصة نحو المدارس واهتموا بنشر التعليم المجاني (خاصة وأن تمويلهم كان يتم من خزانة وزارة الشؤون الخارجية الايطالية) وكان أولاد الاعيان والجاليات المالطية واليهودية من أهم رواد مدارسهم ولتحقيق أكبر حظ من الدعاية اتجهت انظارهم نحو الصم والبكم لتعليمهم، وكان رجال الدين يمثلون العمود الفقري لجهاز التعليم وذلك لضمان انتماء الاطفال ـ العلمي والرجعي ـ وقطعهم عن جذورهم كما اتجه هؤلاء المبشرون الى المرضى من أجل علاجهم والدخول عن طريقه الى كل منزل فأنشئت بعض المستوصفات بالاضافة الى ملاجىء محدودة الامكانية للايتام كما اتجهت الانظار بشكل خاص الى العناصر النسائية لاستقطابها الى المناهج التعليمية الغربية من أجل التأثير على الناشئة من خلال الامهات، وتبين

الوثائق العائدة الى ذلك العهد، اعداد الصيدليات والمدارس التي اهتمت بهذا الاتجاه، أما التصدي لهذه الاجراءات فكان ضعيفا جدا لا يتجاوز اصدار بعض القرارات الشبيهة بقرارات الاحتجاج لا الفعل وكلها تتضمن الاشارة الى أن الولاية غير غافلة عن أعمال هؤلاء المبشرين وأنها تراقب أعمالهم... بل إن كبار المسؤولين كانوا من أوائل المستفيدين من هذه المؤسسات التبشيرية. كما أن المسؤولين كانوا عاجزين عن مقاومة التبشير في قلب العاصمة استانبول، فكيف بمقاومته في احدى الولايات القاصية.

ولم يتخلف الاستشراق عن الادلاء بدلوه في مهمة التمهيد الثقافي، فقد توجه هؤلاء بشكل خاص الى دراسة الواقع الاجتماعي، ودراسة اللغة العربية في بلادنا، فعكفوا على دراسة ليبيا على أنها عالم مستقل بذاته مقطوع الصلة بالوطن العربي والاسلامي كما أخذوا يدرسون البلاد من خلال كونها مجموعة من القبائل والاقاليم وأحدثوا مجموعات من الفروق التاريخية فيما بينها كما اتجهوا الى تعميق اللهجات واختلاق شخصية متميزة لكل منها ولذلك صدرت في ذلك العهد كتب كاملة عن لهجات الشرق والغرب الليبي وقواعد كل منها، ولم يكن ذلك بهدف علمي بل بهدف تمزيق وحدة البلاد الروحية واللغوية تمهيدا لتمزيقها سياسيا.

وكانت الصحافة واحدة من أهم وسائل التغلغل الثقافي، وكان هناك عدد من الصحف التي انتشرت في البلاد، واذا كان اعداد هذه الصحف في الغالب قد فقدت فاننا نبين نشاطها من خلال بعض المقالات التي كانت قد ترجمت الى اللغة العربية، ومن الصحف التي انتشرت آنذاك والناطقة بالايطالية «صحيفة طرابلس» و«صدى طرابلس» و«الاقتصادي» و«نجمة الشرق» و«التقدم».

كما أن النشاط البريدي الايطالي كان واسع الانتشار في بلادنا وساعد عليه بشكل خاص اهمال الادارة العثمانية واستهتارها الذي جعلها في غير موضع الثقة وعلى الرغم من وجود بريد فرنسي واستقلال القنصليات ببريدها (وهو دليل الاهمال والتفريط بالسيادة من جانب الادارات العثمانية) فان الايطاليين ألحوا الحاحا شديدا على بريدهم حتى أنهم اسسوا مكتبهم في بنغازي بقوة السلاح ونظموه تنظيما كبيرا جعل الانظار تتجه اليه خاصة في اجواء الفراغ الكبير الذي أوجده العثمانيون.

هذا وفي مضمار التمهيد للغزو أيضا اتجهت انظار المستعمرين الى استمالة بعض العناصر من الفئات الاجتماعية العليا عاشت طويلا واكتنزت على حساب الشعب والتي اتجهت لحظة المحنة الى الاستعمار في الوقت الذي أحست الجماهير الاجتماعية العريضة بالخطر القادم وحاولت أن تستعد لمواجهته اتجهت العناصر مع العدو الاجنبي الذي وجد فيها ضالته وهكذا استطاعت ايطاليا أن تستميل بعض الشخصيات في الشرق وبعض بقايا الاسرة القره مانلية في طرابلس، وقد عبرت مذكرات «جوليتي» ـ رئيس الحكومة الايطالية ـ آنذاك عن ذلك كله، أما الوسائل الى كل ذلك فكانت بدس العملاء الذين يتصلون مباشرة بهذه الشخصيات أو عن طريق القناصل الايطاليين في مختلف المدن.

بالاضافة الى ذلك امتد النشاط الايطالي ليشمل بعض أرجاء العالم العربي والاسلامي،

وخاصة القاهرة نظرا لاهميتها كمركز اسلامي. وقد تمكنت السلطات الاستعمارية الايطالية من انشاء مجلة لقيت كثيرا من النجاح والانتشار هي مجلة النادي (وكانت صحيفة قبل ذلك) واستطاعت أن تضعها تحت رعاية بعض العلماء ومنهم محمد عبده، كما أن ايطاليا جعلت لغتها اساسية في أكبر مدارس القاهرة، ونفذت الى الازهر حتى جعلت مفتيه يقيم مسجدا باسم ملك ايطاليا وهو ما جعل أحد الايطاليين يصرح بأن الاهداف الايطالية في تثبيت اقدامها صارت مضمونة في الشرق الاوسط، وقد لحظنا بعض نتائج هذا التمهيد الثقافي في موقف لطفي السيد من الحرب الايطالية الليبية، فبينما هب الشعب المصري لعون الاشقاء المجاهدين في ليبيا، وامتدت الايدي بالمعونات والتبرعات حاول لطفي السيد هذا التصدي لحملة التبرعات الموجهة لنصرة المجاهدين ضد الطليان.

وبالاضافة الى المظاهر المختلفة للتمهيد الثقافي الذي اشرنا اليه فان أبرز أشكال التمهيد للغزو وأظهرها وأكثرها فعالية، كان التغلغل الاقتصادي السلمي الذي نهض بأعبائه مصرف روما الذي حاول أن يبسط هيمنته على كل ميادين الاقتصاد في ليبيا وأن يضع لايطاليا المبرر المباشر للغزو.

وقد شكل هذا المصرف من قبل الاوساط الثرية البارزة في روما، ومن رجال الكاثوليك، ولم يلبث أن أنشأ له فروعا عديدة في بلادنا وراح يقوم بشراء الاراضي وتقديم السلف للفلاحين من أجل السيطرة الاقتصادية على البلاد كتمهيد لغزوها العسكري، وهكذا اتسعت نشاطات المصرف فشملت ميادين الصناعة والتجارة أيضا، وانشاء مؤسسة الزيوت ومصنع عصر الزيتون ومطحنة كبرى للدقيق ومزرعة ضخمة للحيوانات، وراح ينشر أعماله في طول البلاد وعرضها، رغم بعض معارضات الحكم، ووصل الامر الى أن افتتح خطا للملاحة يربط بين مختلف مناطق الشاطىء الليبي، بل إنه قام بذلك دون اذن من الوالي، أو تصريح من الهيئات المسؤولة، وعلى الرغم من أن ذلك الخط كان يحقق خسارة كبيرة فإن ايطاليا كانت مصممة على تسييره لضمان وجود علمها فوق الشاطىء طيلة الوقت.

وهكذا فان هذا التغلغل الاقتصادي «السلمي» الذي زعمت ايطاليا على لسان مسؤوليها أنها مهتمة به لم يلبث أن أصبح الحجة الاساسية اذ تذرعت ايطاليا بأن السلطات العثمانية تعرقل ذلك النشاط «المسالم» وسرعان ما اتخذ ذلك حجة لاعلان الحرب على بلادنا.

* * *

ان اعلان الحرب من أجل غزو بلادنا قد تم بعد غزو ثقافي طويل وضعت له الخطط والبرامج وكرست من أجله الاموال والجهود البشرية وامتد عبر مرحلة طويلة من الزمن ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذه الدراسة الى اظهار أشكال هذا الغزو ومظاهره، أما بالنسبة للنشاط الثقافي الذي جرى مواكبا للغزو الاستعماري فنأمل أن يكون موضوع دراسات تالية.

# قائمــة بالمراجــع



أولاً: الكتب العربية:


1 ـ **أبوديب، الصيد أحمد**

(أحمد قنابة، دراسة وديوان) بيروت 1968.

2 ـ **أبولقمة، الهادي**

(دراسات ليبية) مكتبة الفكر، الطبعة الثانية ـ طرابلس 1970.

3 ـ **أبولقمة، الهادي**

(أخبار الحملة العسكرية من طرابلس إلى برقة عام 1917) مكتبة الفكر، الطبعة الاولى طرابلس 1968.

4 ـ **أنيس، محمد**

(الدولة العثمانية والمشرق العربي 1501، 1914) مكتبة الانجلو المصرية ـ بدون تاريخ.

5 ـ **بازامة، محمد**

(بداية المأساة، أو التمهيد السياسي لاحتلال ليبيا) المطبعة الاهلية ـ بنغازي 1961.

6 ـ **بعلبكي منير**

(موسوعة المورد، الجزء الثالث) دار العلم للملايين، الطبعة الاولى، بيروت1980.

7 ـ **التليسي، خليفة محمد**

(رحلة عبر الكلمات) الادارة العامة للثقافة، طرابلس، كتاب الشهر، عدد 13 لسنة1973.

8 ـ **التليسي، خليفة محمد**

(رفيق شاعر الوطن) الطبعة الثانية 1976.

9 ـ **التليسي خليفة محمد**

(معجم معارك الجهاد في ليبيا 1911–1931) الدار العربية للكتاب 1980.

10 ـ **التليسي، خليفة محمد**

(معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الحربية الايطالية) المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان الطبعة الثانية 1982.

11 ـ **التليسي، خليفة محمد**

(حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والاجانب) الدار العربية للكتاب ـ الطبعة الاولى ـ بدون تاريخ.

12 ـ **التميمي، عبد الله**

(بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816–1871) الدار التونسية للنشر.

13 ـ **التهامي، مختار**

(الصحافة والسلام العالمي) المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم، نشر الرسائل الجامعية ـ القاهرة 1971.

14 ـ **الجمل، شوقي**

(تاريخ كشف افريقيا) مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1971.

15 ـ **الجندي، أنور**

(الموسوعة الاسلامية 4) (الاستعمار السياسي والثقافي والاجتماعي) دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري الطبعة الاولى1979.

16 ـ **حاتم، عماد**

(مدخل إلى الآداب الاوربية) الدار العربية للكتاب 1979.

17 ـ **حاطوم، نور الدين**
(تاريخ الحركات القومية، الجزء الثالث) دار الفكر 1979.
18 ـ **الحشائشي، محمد عثمان ـ تح. علي مصطفى المصراتي**
(رحلة الحشائشي إلى ليبيا، أو جلاء الكرب عن طرابلس الغرب).
دار لبنان للطباعة، الطبعة الأولى، بيروت 1960.
19 ـ **حمدان، جمال**
(استراتيجية الاستعمار والتحرير) كتاب الهلال، العدد (205) القاهرة 1968.
20 ـ **خالدي، مصطفى ـ فروخ، عمر**
(الاستعمار والتبشير في البلاد العربية) المكتبة العصرية، الطبعة الخامسة، بيروت 1973.
21 ـ **الدجاني، أحمد صدقي**
(ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي، و ليبيا في العهد العثماني الثاني) الطبعة الاولى 1972.
22 ـ **الدجاني، أحمد صدقي ـ أدهم، عبد السلام**
(وثائق تاريخ ليبيا الحديث ـ الوثائق العثمانية 1881، 1911) جامعة بنغازي ـ 1974.
23 ـ **دروزة، محمد عمر**
(نشأة الحركة العربية الحديثة) بيروت 1971.
24 ـ **دي طرازي، فيليب**
(تاريخ الصحافة العربية، أربعة أجزاء) المطبعة الادبية، بيروت 1913.
25 ـ **الرصافي، معروف**
(ديوان جزءان) دار العودة، بيروت، 1972.
26 ـ **الزائدي، محمد رجب**
(الغزو الايطالي لليبيا) سلسلة الكتاب الليبي، وزارة الانباء والارشاد، الطبعة الاولى 1964.
27 ـ **الزاوي، الطاهر أحمد**
(جهاد الابطال في طرابلس الغرب) دار الفتح للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، 1970.
28 ـ **الزاوي، الطاهر أحمد**
(أعلام ليبيا) مكتبة الفرجاني، الطبعة الثاني، 1971.
29 ـ **الزهاوي، جميل صدقي**
(ديوان) دار العودة، بيروت، 1972.
30 ـ **سليمان، حسن محمود**
(ليبيا بين الماضي والحاضر) مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1966.
31 ـ **الاشهب، الطيب**
(برقة العربية بين الامس واليوم) القاهرة، 1947.
32 ـ **الشتيوي، منصور عمر**
(الغزو الايطالي لليبيا) مكتبة الفرجاني، الطبعة الاولى، طرابلس 1970.
33 ـ **شرابي، هشام**
(المثقفون العرب والغرب) دار النهار للنشر، بيروت، 1972.
34 ـ **الشريف، مفتاح السيد**
(الاستعمار الايطالي لليبيا) دار النشر الليبية، طرابلس، 1974.
35 ـ **شوقي، أحمد** (ديوان) دار العودة، بيروت، 1972.

36 ـ **الشيخ، رأفت غنيمي**
(تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة) دار التنمية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى، 1972.
37 ـ **صبحي، محيي الدين**
(ملامح الشخصية العربية) الدار العربية للكتاب، الطبعة الاولى، 1971.
38 ـ **عطية، أحمد محمد**
(الالتزام والثورة في الأدب العربي) دار العودة، بيروت، دار الكتاب العربي، طرابلس الطبعة الاولى، 1974.
39 ـ **العظم، صادق جلال**
(الاستشراق والاستشراق معكوسا) دار الحداثة، بيروت، 1980.
40 ـ **العقيقي، نجيب**
(المستشرقون ثلاثة أجزاء) دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة، 1981.
41 ـ **عفيفي، محمد الصادق**
(الشعر والشعراء في ليبيا) مكتبة الانجلو المصرية، 1957.
42 ـ **عمارة، محمد**
(التراث في ضوء العقل) دار الوحدة، بيروت، 1980.
43 ـ **فهمي، محمود**
(الفن والصحافة في العالم) دار المعارف بمصر، 1964.
44 ـ **القاضي، وداد**
(مختارات من النثر العربي) المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.
45 ـ **القماطي، أحمد**
(تطور الادارة التعليمية في الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية من 1951 إلى 1975) الدار العربية للكتاب، الطبعة الاولى، 1978.
46 ـ **لجنة من المؤلفين**
(بلدية طرابلس في مائة عام) طرابلس، 1970.
47 ـ **المحتسب، عبد الجليل عبد السلام**
(طه حسين مفكرا) دار احياء التراث العربي، بيروت، 1971.
48 ـ **مرزوق، حلمي علي**
(شوقي وقضايا العصر والحضارة) دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
49 ـ **المصراتي، علي مصطفى**
(لمحات أدبية عن ليبيا) المطبعة الحكومية، طرابلس، 1956.
50 ـ **المصراتي، علي مصطفى**
(صحافة ليبيا في نصف قرن) دار الكشاف، بيروت، 1960.
51 ـ **المصراتي، علي مصطفى**
(كفاح صحفي) مطبعة الغندور، الطبعة الاولى، بيروت، 1961.
52 ـ **المصراتي، علي مصطفى**
(ديوان مصطفى بن زكري ـ تحقيق وتقديم) مكتبة الفكر، طرابلس 1973.

عيسى يوسف اللموشي

53 ـ **مقلد، اسماعيل صبري**
(العلاقات السياسية الدولية) جامعة الكويت، الطبعة الاولى، 1971.
54 ـ **المنتصر، خليفة**
(ليبيا قبل المحنة وبعدها) مسلسلة الكتاب الليبي، وزارة الانباء والارشاد 1963.
55 ـ **النائب، أحمد ـ تح. الطاهر الزاوي. (الجزء الثاني)**
(المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) مكتبة الفرجاني، الطبعة الثانية.
56 ـ **نعيمة، ميخائيل**
(الغربال الجديد) مؤسسة نوفل، بيروت، 1973.
57 ـ **وهب الحق، عبد الوهاب**
(الاستيطان اليهودي في الادب، الصهيوني) دار الكلمة للنشر، بيروت، 1982.
58 ـ **يحي، جلال**
(المغرب الكبير، الجزء الثالث) الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966.

**ثانياً: الكتب الاجنبية المترجمة إلى العربية:**
59 ـ **البيرس، ر.م ـ تر. جورج طرابيشي**
(الاتجاهات الادبية الحديثة) منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية، 1980.
60 ـ **انطونيوس، جورج ـ تر. ناصر الدين الاسد، احسان عباس**
(يقظة العرب) دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، 1974.
61 ـ **أوغسطينيو، هنريكو، تر. خليفة التليسي**
(سكان ليبيا) دار الثقافة، بيروت، 1975.
62 ـ **أوليري، دي لاسي، تر. اسماعيل البيطار**
(الفكر العربي ومركزه في التاريخ) دار الكتاب اللبناني، الطبعة الاولى، بيروت 1972.
63 ـ **بورشيناري، كارلوقوتي. تر. عمر الباروني**
(العلاقات العربية الايطالية) مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزاة الطليان. سلسلة الدراسات المترجمة، 1982.
64 ـ **تشايجي، عبد الرحمن ـ تر. علي اعزازي، مر. محمد الاسطى**
(الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى) مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزاة الطليان سلسلة الدراسات المترجمة، 1982.
65 ـ **جرانت، أ. ج ـ تر. بهاء فهمي، أحمد عزت عبد الكريم**
(أوربا في القرن التاسع عشر والعشرين) مؤسسة سجل العرب، الطبعة السادسة 1976.
66 ـ **جوليتي، جيوفاني، تر. وتقديم خليفة التليسي**
(مذكرات جوليتي، الاسرار العسكرية والسياسية لحرب ليبيا 1911–1912) الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، طرابلس بدون تاريخ.
67 ـ **رايت، جون، تر. عبد الحفيظ الميار، أحمد اليازوردي**
(ليبيا منذ أقدم العصور) مكتبة الفرجاني، الطبعة الاولى، 1972.
68 ـ **روسي، ايتوري، تر. خليفة محمد التليسي**
(ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911) دار الثقافة، الطبعة الاولى، بيروت 1974.

69 ـ **سامح، عزيز ـ تر. عبد السلام أدهم**
(الاتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية) دار لبنان للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، بيروت 1969.
70 ـ **سكاريبب، روبرت ـ تر. آمال انطوان عرموني**
(سوسيولوجيا الأدب) منشورات عويدات، بيروت، باريس الطبعة الاولى 1978.
71 ـ **فشر، هـ. أ ـ تر. أحمد نجيب هاشم، وديع الضبع**
(تاريخ أوربا في العصر الحديث 1789–1950) دار المعارف بمصر الطبعة الخامسة.
72 ـ **فيرو، شارك ـ تر، تح، عبد الكريم الوافي**
(الحوليات الليبية الجزء الثالث) مكتبة الفرجاني بدون تاريخ.
73 ـ **كانيا، انتوني، ج**
(ليبيا خلال الاحتلال العثماني 1835–1911) دار الفرجاني، طرابلس، 1975.
74 ـ **كورو، فرنشيسكو ـ تر. خليفة محمد التليسي**
(ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني) مكتبة الفكر، طرابلس، الطبعة الاولى.
75 ـ **كينج، بولتن ـ تر. طه باشا الهاشمي**
(الوحدة الايطالة) مكتبة النهضة المصرة، 1952.
76 ـ **لوتسكي، ف. ب**
(تاريخ الاقطار العربية الحديث) دار الفارابي، الطبعة السابعة، بيروت 1980.
77 ـ **ماكولا، فرنسيس ـ تر. عبد الحميد شقلوف**
(الغزاة) الشركة العامة للنشر والتوزيع والاعلان، الطبعة الاولى، طرابلس، 1979.
78 ـ **موري، اتيليو ـ تر. خليفة التليسي**
(الرحالة والكشف الجغرافي لليبيا) الطبعة الاولى 1971.
79 ـ **ميمي، البير ـ تر. جيروم شاهين**
(صورة المستعمَر والمستعمِر) دار الحقيقة، بيروت، 1980.
80 ـ **نهرو، جواهر لال ـ تر. لجنة من الاساتذة**
(لمحات من تاريخ العالم) دار الآفاق، بيروت 1979.
81 ـ **هورنمان، فردريك ـ لينج جوردان**
(رحلتان، عبر ليبيا) مكتبة الفرجاني، الطبعة الاولى، طرابلس 1974.
82 ـ **ويللارد، جيمس**
(الصحراء الكبرى) مكتبة الفرجاني، الطبعة الاولى، طرابلس 1976.

**ثالثاً: البحوث والدراسات:**

**أ ـ * مؤتمر مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني للأمة العربية، تونس 29 مارس إلى 3 أبريل 1982.**

83 ـ **السائح، عبد الحميد**
(الاستشراق).

**ب ـ * مؤتمر تصفيات الترسبات الاستعمارية في العلاقات العربية التركية / طرابلس، ديسمبر 1982.**

84 ـ **ابراهيم، عبد الله علي**
(أثر النظم السياسية والادارية في العلاقات الليبية العثمانية في القرن التاسع عشر).

85 ـ **التونجي، محمد**
(فكرة الوطنية والقومية عند العرب والمسيحيين).

86 ـ **السوري، صلاح حسن**
(تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس 1835–1911).

87 ـ **الطوير، محمد أحمد**
(الحركات الاستقلالية في الوطن العربي ضد الحكم العثماني وأسبابها).

**جـ ـ * دراســات:**

88 ـ **ادارة التخطيط والمتابعة، وزارة التعليم**
(تطور التعليم في ليبيا) طرابلس 1974.

**رابعاً: دوريات عربية:**

**أ ـ الترقي**

89 ـ **(التهنئات الطرابلسية على المظاهرات السنية)**
العدد (2) السنة الاولى 3 يونيو 1897.

90 ـ **(امتحان المكتب الرشدي)**
العدد (3) السنة الاولى يوليو 1897.

91 ـ **(مجلس المعارف العمومي)**
العدد (4) السنة الاولى 17 يوليو 1897.

92 ـ **(امتحان خصوصي في المكتب الرشدي)**
العدد (4).

93 ـ **(مصطفى بن زكري يهنىء الترقي بالصدور)**
العدد (4).

94 ـ **(تهنئة الوالي نامق باشا بالوزارة)**
العدد (7) السنة الاولى 9 ربيع الاول 1315 7 أغشت 1897.

95 ـ **(ابراهيم باكير يدعو بني وطنه للتدريب)**
العدد (7).

96 ـ **(الشيخ محمد السنوسي يصف التدريب)**
العدد (9) السنة الاولى، 23 ربيع الاول 1315، 9 اغستوس 1313.

97 ـ **محمد أفندي المسعودي يهنىء بصدور الترقي)**
العدد (13) 21 ربيع الاخر 1315، 9 ايلول 1313.

98 ـ **(تهنئة الوالي بالوزارة)**
العدد (14) 28 ربيع الاخر 1315، 13 ايلول 1313.

99 ـ **(عبد الله الباروني يمدح انتصار عبد الحميد)**
العدد (15) 6 جمادى الاولى 1315هـ، 20 ايلول 1313.

100 ـ **(ع. ن يمدح انتصار عبد الحميد)**
العدد (17) جمادى الاولى 1315هـ، 4 تشرين 1313.
101 ـ **(مدرسة العشائر)**
العدد (22) 25 جمادى الآخرة 1315هـ، تشرين الثاني 1313.
102 ـ **(غاية المنافع في مكتب الصنائع)**
العدد (1746) 8 المحرم 1316هـ، 7 حزران 1314.
103 ـ **(المكتبة العمومة)**
العدد (64) السنة الثانية 12 رجب 1316.
104 ـ **(مذكرة مبعوثي طرابلس)**
العدد (85) 4 ذي القعدة 1326، 15 تشرين الثاني 1324.
105 ـ **(تعليق على تصريح حقي بك)**
العدد (94) 15 المحرم 1337، 24 كانون الثاني 1324.
106 ـ **(سعادتنا بالعلم)**
العدد (97) 7 صفر 1329، 14 شباط 1326.
107 ـ **(أحمد الشارف يهنىء بالدستور)**
العدد (97).
108 ـ **(اعلان عن افتتاح دار المعلمين)**
العدد (113) 12 شوال 1327، 14 تشرين اول 1325.
109 ـ **(مخصصات مدرسة الفنون والصنائع)**
العدد (117) 12 محرم 1329، 3 كانون أول 1325.
110 ـ **(اوربا والاسلام من هو المتعصب)**
العدد (139) 5 جمادى الاولى 1328، 1 مايس 1326.
111 ـ **(فاقد اللغة، فاقد الحياة)**
العدد (139).
112 ـ **(المكتب الاعدادي الليبي)**
العدد (150) غرة شعبان 1328.
113 ـ **(مباحث أدبية)**
العدد (153) 22 شعبان 1328، 14 اغستوس 1326.
114 ـ **(أبو القاسم المنتصر يحتفل بالدستور)**
العدد (153).
115 ـ **(اعلان بعثة الفرنسيسكان عن افتتاح مكتب الصم والبكم)**
العدد (157) 21 رمضان 1328، 11 ايلول 1326.
116 ـ **(خبر عن العدد الذي التحق بالمكتب الاعدادي الليلي)**
العدد (164) 27 من ذي القعدة 1328، 16 تشرين ثاني 1326.
117 ـ **( العرب علة لا ملة)**
العدد (171) 12 محرم 1329، 30 كانون اول 1326.
118 ـ **(اعلان عن افتتاح المكتب الاداري)**
العدد (173) 26 محرم 1329، 13 كانون اول 1326.

119 ـ (ترجمة الخطابين الذي نطق بهما صادق بك وناجي بك)
العدد (174) 3 صفر 1329 ، 20 كانون ثاني 1324.
120 ـ (جرائد أوربا، ومقالات الطعن والاحتقار)
العدد (135) 10 صفر 1329 ، 27 كانون ثاني 1326.
121 ـ (خطاب مفتوح إلى مدير المعارف بالولاية)
العدد (175).
122 ـ (معدن الكبريت وجرائد الطليان)
العدد (177) 24 صفر 1329 ، 10 شباط 1326.
123 ـ (أضرار بدون سبب في طرابلس الغرب)
العدد (178) 1 ربيع الاول 1329 ، 17 شباط 1326.
124 ـ (بنك روما في طرابلس الغرب)
العدد (178).
125 ـ (نحن وجرائد الطليان)
العدد (188) 19 جمادى الاولى 1329 ، 5 مايس 1327.
126 ـ (بنك روما)
العدد (191) 11 جمادى الاخرة 1329 ، 26 مايو 1326.
127 ـ (طرابلس وايطاليا)
العدد (192) 19 جمادي الاخرة 1329 ، 2 حزيران 1327.
128 ـ (خطر الاستيلاء الاقتصادي)
العدد (196) 17 رجب 1329 ، 30 يونيو 1327.
129 ـ (أسباب الخذلان)
العدد (197) 24 رجب 1329 ، 7 تموز 1327
130 ـ (لغة البلاد، وحقوق العباد)
العدد (198) 1 شعبان 1329 ، 14 تموز 1327.
131 ـ (ايطاليا في طرابلس الغرب)
العدد (203) 7 رمضان 1329 ، 18 اغسطس 1327.
132 ـ (مهمة الصحافة)
العدد (204) 14 رمضان 1329 ، 25 اغستوس 1327.

ب ـ * مجلة الفنون:
133 ـ (الافتتاحية)
**العدد الاول، يناير 1899.**

جـ ـ * الكشاف:
134 ـ (اجتماع المجلس العمومي)
العدد ؟، 2 ربيع الاول 1327 ، 11 مارث 1325.

حسن يوسف الكويتي

د ـ * العصر الجديد:

135 ـ **(نصيبنا من التعليم)**

العدد (5) 20 ربيع الاول 1327، 29 مارث 1325.

هـ ـ * أبو قشة:

136 ـ **(ما الخبر؟)**

العدد ؟، 11 شعبان 1328، اغسطس 1910.

137 ـ **(مدرسة الفنون والصنائع)**

العدد (9) السنة الثالثة، بدون تاريخ.

138 ـ **(مذاكرة بين وطني وصاحب وجدان)**

العدد (52) 24 محرم 1329.

139 ـ **(بنك روما)**

العدد (59) السنة الثالثة بدون تاريخ.

140 ـ **(منجم الفسطاط)**

العدد (59) السنة الثالثة بدون تاريخ.

و ـ * المرصاد

141 ـ **(المبشرون أعداء الانسانية)**

العدد (14) 13 محرم 1329 30 كانون 1326.

142 ـ **(النصيحة قبل الفضيحة)**

العدد (14).

143 ـ **(شكر وثناء)**

العدد (16) 26 محرم 1329 10 كانون الثاني 1324.

144 ـ **(حديث معاد)**

العدد (28) 30 ربيع الثاني 1329 14 نيسان 1327.

145 ـ **(جريدة ايكودي تريبولي، أو ايكو ديطاليا المأجورة)**

العدد (28).

146 ـ **(الاتجار وسيلة الاستعمار)**

العدد (30) 12 جمادى الاولى 1329 27 نيسان 1327.

147 ـ **(خلط الجرائد الايطالية في السياسة وتهجمها على طرابلس فمتى تفيق يا ترى؟)**

العدد (31) 19 جمادى الاول 1329 4 مايس 1327.

148 ـ **(ضباط ايطاليا)**

العدد (34) 11 جمادى الثانية 1329 25 مايس 1327.

149 ـ **(حزب الاستعمار الطلياني والمرصاد والترقي)**

العدد (42) 15 شعبان 1329 28 تموز 1327.

150 ـ **(جرائد الطليان والامة الطرابلسية)**

العدد (42).

**ز ـ * دار الخلافـة**

151 ـ **(منشور الصدر الأعظم)**

العدد؟ بدون تاريخ.

**ح ـ * الفـردوس**

152 ـ **(ماذا تريد ايطاليا من أعمالها بطرابلس؟)**

العدد (10) 2 ربيع الاول 1328 26 شوال 1326.

153 ـ **(الدولة وايطاليا)**

العدد (10).

**ط ـ * القلـم**

154 ـ **(الدراسات الاسلامية في ليبيا)**

عدد يوليو 1953 طرابلس

**ي ـ * الفكـر العربي**

155 ـ **(المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر)**

العدد (21) السنة الثالثة طرابلس.

**ك ـ * البحـوث التـاريـخيـة**

156 ـ **(الرحالة الالماني رولفي الى ليبيا)**

العدد (1) السنة الاولى 1979 طرابلس.

**ل ـ * آفاق عربيـة**

157 ـ **(الاستشراق ورومانسية الشرق)**

العدد (1) السنة الخامسة سبتمبر 1979 بغداد.

**م ـ * المستقبل العربي**

158 ـ **(افصاح الاستشراق)**

العدد (22) 1981 بيروت.

**خامسا: الوثائق:**

**أ ـ * أرشيف المحفوظات التاريخية ـ طرابلس**

159 ـ **(مدرسة العشيرة)**

وثيقة رقم (59 د) بدون تاريخ.

160 ـ **(رسالة مدير ناحية تاجوراء الى الوالي)**

وثيقة رقم (110) بتاريخ 11 شوال 1317 11 كانون الثاني 1315.

161 ـ **(برقية بعدم السماح بفتح المدارس الخاصة للاجانب والعثمانيين)**

وثيقة رقم (174) بتاريخ اغسطس 1904.

162 ـ **(رسالة من مدير سبها بتعهد الاهالي بانشاء مدرسة)**
وثيقة رقم (207) بتاريخ 25 ربيع الاول 1323.
163 ـ **(قرار يحظر توزيع الكتب المسيحية).**
وثيقة رقم (219) بتاريخ 25 ربيع الاول 1323.
164 ـ **(برقية بخصوص ايفاد ثلاثة طلاب الى تونس)**
وثيقة رقم (223) بتاريخ 25 تموز 1327.
165 ـ **(خمسة من خريجي الفنون والصنائع يوفدون الى استانبول للدراسة)**
وثيقة رقم (224) بتاريخ 10 مارس 1325.
166 ـ **(انشاء أول مدرسة ابتدائية في مركز الشاطىء)**
وثيقة رقم (235) بتاريخ 1898.
167 ـ **(مدارس اليهود)**
وثيقة رقم (393) بتاريخ 1898.
168 ـ **(تقرير من الوالي الى رئاسة الوزراء حول مصرف روما)**
وثيقة رقم (593)، (82 د) بتاريخ 2 فبراير 1908، 20 كانون الثاني 1327.
169 ـ **(انشاء مدرسة رشدية في فزان)**
وثيقة رقم (715) بتاريخ 8 محرم 1313.
170 ـ **(رسالة من أهالي غدامس يطلبون فيها مدرستين بعد أن شيدوا مدرسة)**
وثيقة رقم (875) بتاريخ 28 جمادى الاولى 1309–28 كانون أول 1307.
171 ـ **(ايفاد خمسة طلاب من المدرسة الرشدية الى استانبول للدراسة)**.
وثيقة رقم (893) بتاريخ 1868.
172 ـ **(تعليمات في شأن من يختارون للدراسة في مكتب العشيرة)**
وثيقة رقم (1021) بتاريخ 28 حزيران 1309.
173 ـ **(رسالة من الوالي الى القنصلية الايطالية بخصوص الرحالة رولف)**
وثيقة رقم (1028) بتاريخ 21 ذي الحجة 1295–2 كانون الاول 1294 15 ديسمبر 1878.
174 ـ **(رد الوالي على برقية واردة من استانبول بخصوص المدارس التي فتحها الايطاليون والانجليز)**
وثيقة رقم (1052) بتاريخ 16 اكتوبر 1898 16 جمادى الاخرة 1326.
175 ـ **(تقرير عن أحد شركاء روما ذهب الى الخمس لشراء بعض الاراضي)**
وثيقة رقم (1091) بتاريخ 27 كانون الثاني 1323.
176 ـ **(أمر بابعاد صحفي اجنبي)**
وثيقة رقم (1107) بتاريخ سبتمبر 1910.
177 ـ **(قنصل ايطاليا يشكر الوالي على صدور أمر الى التسجيل العقاري على الموافقة على رهن عقار)**
وثيقة رقم (1111) بتاريخ 25 فبراير 1908.
178 ـ **(رسالة استعجال بعثها قنصل فرنسا في طرابلس للوالي بخصوص المدارس الفرنسية)**
وثيقة رقم (1114) بتاريخ 28 نوفمبر 1901.
179 ـ **(طلاب العلم يطلبون الصدقات لاجل العودة الى استانبول)**
وثيقة رقم (1197) بتاريخ 30 كانون أول 1312.
180 ـ **(الشروع في افتتاح مدرسة الزراعة)**
وثيقة رقم (1326) بتاريخ 1910.

181 ـ (برقية الى الخمس بمنع التجار من استخدام الباخرة التابعة لبنك روما)
وثيقة رقم (1564) بتاريخ 15 ابريل 1908.
182 ـ (تقرير عن قدوم محمد علوي بك على الباخرة روما)
وثيقة رقم (1567) بتاريخ 11 اغسطس 1911 26 تموز 1327.
183 ـ (تقرير الى وزارة الداخلية في استانبول حول المناشير التي وزعها المواطنون ضد ايطاليا)
وثيقة رقم (1568) بتاريخ 29 اكتوبر 1908.
184 ـ (انشاء مدرسة ابتدائية في ورفلة)
وثيقة رقم (1604) بتاريخ 1326.
185 ـ (قرار بمنع تشييد الكنائس والمدارس الاجنبية قبل الحصول على ترخيص)
وثيقة رقم (1629) بتاريخ 2 تشرين الثاني 1304.
186 ـ (تطوع احدى الراهبات للتدريس في مدرسة الاعدادية للذكور والاناث)
وثيقة (1772) بتاريخ 1284 هـ.
187 ـ (المشروع في افتتاح مدرسة المحاسبين)
وثيقة رقم (2124) بتاريخ 1909.
188 ـ (محاولة تأسيس وطن قومي لليهود في الجبل الاخضر)
وثيقة رقم (2193) بدون تاريخ.
189 ـ (رد الوالي على استفسار الديوان الملكي حول المدرسة التي يزمع القنصل الايطالي تأسيسها في طرابلس)
وثيقة رقم (2227) 13 ربيع الاخر 1301.
190 ـ (رسالة من رئاسة الديوان في استانبول الى الولاية للاستفسار اذا كان هناك من ارتد من الاهالي)
وثيقة رقم (2233) بتاريخ 1 يوليو 1900.
191 ـ (رسالة من الوالي الى متصرفية الخمس للاستفسار عن المدرسة التي فتحها الايطاليون)
وثيقة رقم (2288) بتاريخ 6 فبراير 1834.
192 ـ (تأسيس مدرسة رشدية للبنات)
وثيقة رقم (2422) بتاريخ 7 يونيو 1897.
193 ـ (قرار بمنع المبشرين الانجليز من توزيع الكتب الدينية)
وثيقة رقم (2575) بتاريخ 8 مارس 1899.
194 ـ (رد الوالي على رسالة الديوان الملكي)
وثيقة رقم (2233) بتاريخ 1 يوليو 1900.
195 ـ (ايفاد خمسة وأربعين تلميذا الى استانبول للدراسة)
وثيقة بدون رقم بتاريخ 1304 هـ 1302.
196 ـ (انشاء أول مدرسة ابتدائية في سرت)
وثيقة بدون رقم بتاريخ 1325 مالية.
197 ـ (فهرست لمكتبة الاوقاف)
وثيقة بدون رقم بدون تاريخ.
198 ـ (تعميم الى ملحقات الولاية في شأن القضاء على اشاعات الاهالي حول مطامع ايطاليا في ليبيا)
وثيقة بدون رقم بتاريخ 20 تشرين الاول 1324 2 نوفمبر 1908.

199 ـ (انشاء مدرسة بتبرعات الاهالي في سرت)
وثيقة بدون رقم بتاريخ 1910.

200 ـ (قائمة بعدد الصحف الصادرة في طرابلس ونسب توزيعها)
وثيقة بدون رقم بتاريخ 15 ابريل 1910.

* مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزاة الطليان (ملف التمهيد للغزو)

201 ـ (تقرير عن جريدة النادي التي كانت تصدر في القاهرة)
وثيقة رقم (2) بتاريخ 26 تشرين الثاني 1320 25 نوفمبر 1904.

202 ـ (تشغيل خط بحري ايطالي بين طرابلس ومصراته)
وثيقة رقم (2) بتاريخ 17 ابريل 1908.

203 ـ (منح وسام ايطالي لمواطن ليبي)
وثيقة رقم (4) بتاريخ 13 كانون الاول 1299 ديسمبر 1883.

**سادساً: الكتب الاجنبية:**

(204) ALBERTINI, Luigi
(Vent'Anni di vita politica - parte 1, Vol.11/1909 - 1911) BOLOGNA - 1951.
(205) ALFIO, Luigi
(La Sicilia Orientale dell'Unita Impresa Libica) CATANIA - 1968.
(206) ANGELO, Piccioli
(Tripolitania scuola d'energia) ROMA - 1932.
(207) BEVIONE, Giuseppe
(Come siamo andati a Tripoli) TORINO 1912.
(208) VARACCIOLO, Alberto
(L'ingresso della massa sulla scena europea) ROMA 1914.
(209) CASTELLANI, Gualtiero
(Tunisia - Tripoli) TORINO - 1911.
(210) CORRADINI, Enrico
(La Patria Lontana) MILANO - 1910.
(211) CORRADINI, Enrico
(La guerra lontana) MILANO - 1911.
(212) CORRADINI, Enrico
(L'ora di Tripoli) MILANO - 1911.
(213) D'ANNUNZIO Gabriele
(Ludi del cielo del mare della terra e degli eroi libro IV Marpo la canzone della gesta, d'oltre mare - 1911-1912) MILANO - 1929.
(214) DE MARTINO, Gioacchino
(Tripoli-Cirena-Cartagine) BOLOGNA - 1912.
(215) ENAUDI, Luigi
(Riforme Sociali, Vol.12).
(216) (FISTA, Andrea
(La scuola Italiana, l'Opera conquista morali della Libica) TRIPOLI - 1931.
(217) GRAIN, Igino
(Cronache della filosofia Italiana 1900-1912, Vol.11) BARI - 1966.
(218) GRIFFINI, D.E.
(L'Arabo parlato della Libia) MILANO - 1913.
(219) LARFAOUI, Mahmoud
(L'Occupation Italienne de la Tripolitaine et de la Cyrenayque, 1882 - 1912) "Le Doctorat d'Etat" Univ. Paris 2. PARIS - 1978.
(220) MALGERI, Francesco
(La guerra Libica 1911-1912) ROMA - 1976.
(221) MALTESE, Paolo
(La terra promessa) ROMA - 1976.
(222) MARINETTI, F. Tumaso
(La battaglia di Tripoli) MILANO - 1912.
(223) MARINETTI, F. Tumasso
(Guerra sola igiene mondo) MILANO - 1915.

(224) MARTINO, Giacomo
(Cyrene e Cartagine note ed impressioni della carovana de Martino BALDARI) BOLOGNA - 1907.
(225) MICHELS, Roberto
(L'Imperialismo Italiano) MILANO - 1914
(226) NEGRI, Aldo
(La madre MILANO - 1948
(227) OCCHINI, P.L.
(Corradini) FIRENZE - 1933.
(228) PANDIANA, Francesco
(La canzone di guerra) MILANO - 1912.
(229) PASSERIN, Ettore
(D'annunzionismo e fascismo) in AA.VV. TORINO - 1967.
(230) PIAZZA Giuseppe
(La nostra terra promessa) ROMA - 1911.
(231) DRITCHARD, Evans
(The Sanusi of Cyrenaica) OXFORD - 1973.
(232) ROSSI, Giustiniano
(La Tunisia la Tripolitania dell'oggi impressioni di viaggio 1901-1902) TRAPANI - 1902
(233) SALENARI, Carlo
(Mitte cesienzo del decadentismo Italiano) MILANO - 1962.
(234) SALVADORI, Massimo
(Il movimento cattolico) TORINO - 1911.
(235) SALVEMINI - AGRICOLA - AZMONTI - BENNI AA.VV.
(Come siamo andati in Libia) FIRENZE - 1914
(236) SCAPARRO, Mario
(La Stampa di Tripoli Turca 1835 - 1911)
(237) SCAPARRO Mario
(Biblioteca della Tripolitania)
(238) TITTONI, Tomasso
(Italys Foreignn colonial policy) LONDON - 1914
(239) TUMIATI, Domenico
(Nell'Africa Romana Tripolitania) MILANO - 1905.
(240) TUMIATI, Domenico
(La Tripolitania) MILANO - 1911.
(241) VOLPE Giacomo
(L'impresa di Tripoli) ROMA - 1946.
(242) GRAMSCI, Antonio
(Risorgimento) TORINO - 1905.
(243) NAZARIY
(Tripolitania impressione di viaggio) ROMA - 1911.

## سابعاً: الدوريات الاجنبية:

(244) BOLL. SOCI. AFRICA D'ITALIA
(Appunti Tripoli) Anno XXXIII
(245) BOLL. SOCI. GEOGR. ITAL.
(Tripoli e i suoi Dintorni) Anno XXIV
(246) (La Cyrenaica) Vol. VII - Anno 1882
(247) (CORRIERE DELLA SERA)
(Nei paesi della superstizione feroce) 2/9/1911
(248) (Tripoli e la coscienza del paese) 18/9/1911
(249) (Il nostro diritto) 4/10/1911
(250) CORRIERE DEI PICCOLI
(Gian Saetta) 20/9/1912
(251) GIORNALE D'ITALIA
(El Italia) 5/7/1911
(252) (Tripoli e Tunisia) 14/9/1902
(253) IDEA NAZIONALE
(Che cosa si vuole per la Tripolitania) 1/3/1911
(254) (Gli interessi Italiani in Tripolitania) 5/4/1911
(255) (La Nazione torna CRISPI) 14/9/1911
(256) IL MOMENTO
(Tripoli l'onorevole GIOLITTI al bivio) 12/9/1911.
(257) L'AVVENIRE D'ITALIA
(Un'altra offesa Turca) 5/7/1911.

(258) L'ECO DI TRIPOLI
(Una conceria Italiana a Tripoli) 10/5/1911.
(259) L'ESPLORATORE
(Spedizione in Cyrenaica) Anno V - 1880.
(260) (La Cyrenaica) Anno 1881.
(261) L'ITALIA ALL'ESTERO
(Della Tripolitania) Anno III - 1909
(262) L'ITALIA COLONIALE
(La Cyrenaica) Anno III - 1902
(263) LA STAMPA
(Politica di vita) 14/6/1911
(264) (Lettera all'onorevole GIOLITTI) 30/7/1911.
(265) LA VOCE
(La cultura Italiana a Tripoli) 28/9/1911.
(266) TRIBUNA
(Tripoli e Cyrenaica) 5/2/1902
(267) REVUE DU MONDE MUSULMAN
V.6 - 1908 - 190 V.III 1909
(268) 1909 vol.4
(269) 1909 vol.8

حسني يوسف الموسى

## «المحتوى»

صفحة رقم

## الفصل الثالث : التعليم



## الفصل الرابع : الادب



## الباب الثاني
## التمهيد الثقافي داخل البلاد الايطالية

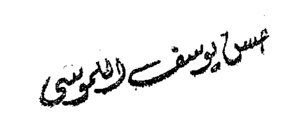


## الفصل الاول : دور الصحافة الايطالية في التمهيد للاحتلال



## الفصل الثاني : الادب الايطالي في خدمة الغزو





## الباب الثالث
## التمهيد الثقافي الايطالي داخل البلاد الليبية



### الفصل الاول : الرحلات الجغرافية



### الفصل الثاني المؤسسات الثقافية



### الفصل الثالث : وسائل اخرى للتمهيد للغزو

الجمع التصويري وفصل الألوان والاخراج الفني والطباعة
شركة انترجراف ـ إحدى مؤسسات الشركة العربية الليبية للاستثمارات الخارجية
INTERGRAF S.p.A. - ROMA - Tel. 91.06 010

سعر النسخة 35 درهماً مغربياً أو ما يعادلها